رحلتي من جبال كوردستان

إلى سجون العراق وإيران

الكتاب : رحلتي من جبال كوردستان إلى سجون العراق وإيران

المؤلف : هشام النورسي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع : ٢٧٨٥٥ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-240-3

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة . الهضبة الوسطى . المقطم . القاهرة

ت فاكس : ٢٧٢٢٨٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



رحلتي من جبال كوردستان
إلى سجون العراق وإيران

مذكرات پيشمرگة سابق بالقوات الكوردية

يرويها:

هشام النورسي

رواية واقعية لأحداث حقيقية

حدثت فصولها في كل من: بغداد، مناطق كوردستان العراق،

وأقفاص الأسرى العراقيين في طهران، ومدن إيرانية أخرى

بعامي ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م

يرويها هشام النورسي

الذي عاش وعايش تلك المرحلة،

قصة مواطن عراقي كوردي امتلك الشجاعة

لينطق بالحق، حتى ولو على نفسه،

لتكون شهادة على صدر الزمن بلا تصنع

كي لا تضيع الحقيقة،

ولكي لا تُمحى ذاكرة أجيالنا،

ولكي يحفظ التاريخ للرجال استحقاقاتهم

إنه الصدق بزمن الخيانة،

والوفاء بزمن الردة...

إهـداء

أهدي كتابي هذا إلى الروح الطاهرة لولدي البكر (نوروز)، الذي رحل عنا بعام (٢٠٠٠) وهو لم يكمل الثالثة عشر ربيعًا من عمره الفتي، ليلتحق بقافلة الأكثر من مليون طفل وفتى وشيخ من الشهداء الأبرار، الذين قُتلوا بمقصلة الحصار الجائر، الذي منع عنهم الغذاء والدواء، بإرادة أمريكية شريرة، تحت غطاء دولي مزعوم، على مرأى ومسمع من الضمير العالمي المُغيَّب إلى هذا اليوم وحتى إشعار آخر...

والإهداء موصول إلى كل عراقي شريف سقط شهيدًا من أجل الوطن، أو في سبيله؛ سواء كان كورديًا أو عربيًا أو تركمانيًا أو أشوريًا أو من باقي الإثنيات القومية العراقية المحترمة.

تحية معطرة إلى كل الشهداء الأبرار أينما كانوا، بعد أن غادروا الحياة الدنيا من على مذبح الحرية في كل بقاع الأرض؛ عندما اغتالتهم مقاصل الجلادين وهم ينشدون الحرية والأمن والأمان والعيش بعزة وكرامة لمستقبل أفضل، لشعوبهم ولأوطانهم.

هشام النورسي



المقدمة

في رحلتي هذه التي بدأتها بنية البحث عن الذات والهوية القومية التي اعتقدتها مفقودة، تعرضت على مداها لمصاعب جمة، إذا ما جمعت كل آلامها فإنها لن تساوي ما شعرت به عند نهاية رحلتي هذه من مرارة وخيبة أمل، بمن اعتبرتهم حينها أنهم يعملون على صنع مستقبل زاهر لكوردستان.. وفي حكايتي هذه سأروي كل تفاصيل تلك الرحلة باعتباري كنت أحد أشخاصها، وكشاهد عيان لأحداث حدثت لآخرين من حولي، وكمراقب كنت أشاهد وأحلل بحسب فهمي المتواضع لوقائع أحداث تلك الفترة من تاريخ كوردستان كوطن قومي، وللعراق كوطن جامع لكل القوميات.. واليوم وبعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على تلك الأحداث أجد نفسي ملزمًا بتوثيقها ونشرها، من أجل أن تكون رسالة مفتوحة لمن يرغب بالاطلاع والاستفادة من تلك التجربة بعد أن أصبح كل الرموز الذين قامروا بمصيرنا بتلك الفترة، هم اليوم ساسة العراق الجدد وعبيد القرارات التي تصاغ في كل من واشنطن وطهران، منوهًا إلى أن حكايتي هذه قد تنفع لتكون ذكرى لمن سيأتي بعدنا من أولادنا بعد أن نكون قد استوفينا وقتنا في عالمنا هذا، ورحلنا عنه بضمير مرتاح، وتاريخ مشرف وأيادٍ بيضاء.

رحلتي مع العذاب رواية قد تبدو غير مقنعة بأسباب قيامها لكنها انتهت حتمًا بمعانٍ ودروس بليغة، مع الإشارة إلى أنني سأكون حريصًا وأمينًا بنقل مجرياتها كما حدثت بالفعل، مع التنبيه إلى أن ما دونته من أفكار ومشاعر وحتى القرارات التي تخصني؛ كانت لشاب عديم الخبرة بما كان يدور حوله من

سياسات هي وليدة عصرها آنذاك، وليس عصرنا الحالي، بعد أن أمدَّ الله في عمري وتغيرت من حولي الكثير من المفاهيم والعديد من المسميات، وسقطت جراءها العديد من السياسات على مستوى المبادئ والأفكار.

ومن ناحيتي بقي سلوكٌ لا زلتُ متمسكًا به على مدى عشرات السنين المنصرمة، هو عدم تلوني كما تستدعي المصلحة الشخصية كما أصبح سائدًا الآن، وحرصي على وحدة العراق، وخشيتي على مستقبل كوردستان وأنا أراها اليوم على مفترق الطرق، متمسكًا بولائي للعراق كوطن اشتركنا جميعًا ببناء أسسه حجرًا حجرًا، ويتوعد الأشرار بأيامنا هذه على تقسيمه وتقطيع أوصاله، منوهًا إلى أنني لم أندم على إقدامي على تلك الرحلة بكل أخطارها التي عشتها، لأن الخلل لم يكن بالفكرة التي كنت أنشدها بنيل الحرية والانتصار للمظلومين، إنما بتلك الفصائل الكوردية المسلحة التي التحقتُ بها بغية المساعدة، ومد يد العون على إعلاء كلمة الحق، حتى تبين لي لاحقًا أنها جميعها بكافة مسمياتها كانت تستخدم رفع الشعارات نصرة للمظلومين من شعبنا الكوردي بغية جني المكاسب والمنافع الشخصية والحزبية الضيقة، على حساب أمن وسلامة كوردستان وشعبها.

وهنا لا بد لي من وقفة أكشف فيها أن البعض من إخوتي الكورد كانوا قد وجهوا لي الانتقادات اللاذعة بسبب اعتراضهم على ولائي للعراق، باعتباره أمرًا متناقضًا مع الولاء لكوردستان، ولا يجوز بحسب وجهة نظرهم الجمع ما بين الاثنين، بحجة أن النظام السابق الذي حكم العراق قبل الاحتلال الأمريكي كان قد قمع شعبنا الكوردي، واستخدم القسوة المفرطة ضدهم، وهو أمر قد حصل بالفعل ولا يستطيع أحد أن ينكره، ولكنني لو سلمت جدلاً بهذا القول فذلك يستوجب مني أيضًا أن أتبرأ بدوري من كوردستان وأهلها، وهذا أمر لم ولن

أفعله ما دمت حيًا أُرزق، باعتباري كنت قد تضررت من تلك الممارسات الرخيصة التي حصدتها جراء التحاقي بمن كانوا يسمون أنفسهم بمناضلي كوردستان، وقد تكشفت حقيقتهم لكل منصف بعد أن أصبحوا حكامها الحاليين.

نفس هذا الأمر ينطبق على العراق؛ باعتبار أن حكومته كانت تمارس شتى أنواع الضغوط على كل من يعارض توجهاتها الحزبية، وكنت من الذين قد نالوا نصيبهم جراء معارضتي لهم، ولأنني أعتقد أن السلطتين؛ سواء تلك التي كانت في بغداد أو في كوردستان لم تكن تمثل إلا أحزابها كما هو الحال في أيامنا هذه، ولكن على نمط آخر أكثر إجرامًا..

لذلك بقيت وفيًا ومخلصًا لكوردستان وللعراق من غير أن أسقط تمسكي بالحلم المنشود بأحقية الشعب الكوردي بتقرير مصيره، لإنشاء دولته على كامل تراب كوردستان بكافة أجزائها، وأي أمر آخر يكون بديلاً له هو أمر مرفوض من وجهة نظري، وغير منصف كأقل تقدير، لأنه لا يرتقي لمستوى تحقيق الحلم المنشود بالوحدة القومية للكورد أسوة بإخواننا العرب الذين يحلموا بقيام الأمة العربية الموحدة، وهذا من حقهم، وهي التي تجزأت بنفس القرار الذي تجزأت بموجبه الأمة الكوردية على أثر اتفاقية سايكس بيكو السيئة الصيت، الموقعة بين الانجليز والفرنسيين إبان الحرب العالمية الأولى، مع فارق أن الأمة العربية قد تقسمت لدول ذات سيادة وتقسمنا نحن الكورد لكيانات تمَّ إلحاقها إداريًا بأربعة دول؛ هي تركيا وإيران وسوريا والعراق..

ولهذا فإن انفصال ثلاثة محافظات يسكنها الكورد عن باقي العراق هو لا يمثل الطموح المنشود لشعبنا الكوردي، باعتباره بديلاً لحق الكورد كأمة واحدة لها كافة مقوماتها، وإن كان البعض يروج لمثل هذه المشاريع في أيامنا هذه على أساس أنها خطوة على طريق الوحدة الشاملة، من غير أن يدركوا أن هذا

الكيان سيكون هزيلاً وضعيفًا وبالتالي سيكون مستهدف من قِبل أعدائه المتربصين به من الفرس والأتراك، لكي لا تتكرر نفس هذه الخطوة في بلدانهم التي تضم الأجزاء الكوردية الأخرى التي هي أكبر مساحة وأكثر عددًا بالنفوس من الكورد في العراق...

وعليه فإنني أرى أن الظلم الذي تعرضت له الأمة الكوردية كان من خلال مؤامرة دولية، وتصحيح هذا الحال يجب أن يكون من خلال إرادة دولية، تأتي من خلال ولادة مناخ سياسي عالمي جديد، له بالدرجة الأولى المصلحة بذلك، وقليل من التعاطف مع مظلومية الكورد التاريخية، ومن البديهي أن يبقى كل من الفرس والأتراك بخارج سياق هذه المبادئ والأفكار المنصفة، باعتبارها دولاً قومية توسعية دعمت ركائزها بالاحتلالات المتتالية، على كلٍ من العرب والكورد والأقليات الأخرى في التاريخ القديم والحديث لكافة شعوب المنطقة.

محتوى الكتاب

* الإهداء ٧

* المقدمة ٩

* الجزء الأول:

- الهجرة إلى السليمانية بكوردستان العراق ١٩

- الالتحاق بقوات البيشمرگة للحزب الديمقراطي ٤١

- مشاكل العمل السياسي كبيشمرگة ٦٤

* الجزء الثاني:

- ظروف نقلي إلى المكتب السياسي للحزب الديمقراطي ٨١

- أسباب اعتقالي بقضاء مريوان الحدودي الإيراني ١١٧

- دخولي لسجن دائرة الانضباط العسكري بمريوان ١٢٤

* الجزء الثالث:

- ترحيلي من سجن مريوان إلى سجن الإطلاعات بمحافظة سنندج ١٦٥

- تحويلي إلى قفص الأسرى العراقيين بطهران ١٦٩

- التحقيق النهائي بقفص الأسرى العراقيين ١٩٤

* الجزء الرابع:

- ترحيلي من طهران إلى محافظة أرومية (الرضائية) ٢٢٣
- العودة طليقًا لقضاء مريوان الحدودي ٢٦٦
- الرجوع للعراق وتقديم الاستقالة من الحزب الديمقراطي ٣٠٠

* الجزء الخامس:

- تسليم نفسي طوعيًا إلى استخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية ٣٢١
- دخولي إلى سجن الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية العامة ٣٨٨
- إطلاق سراحي والعودة للخدمة العسكرية ٤١٢
* الخاتمة ٤٤١

الجزء الأول

التاريخ: شهر حزيران من عام ١٩٨٢

المكان: العاصمة العراقية بغــــداد

عندما كانت الحرب العراقية الإيرانية بعامها الثاني (١٩٨٢)؛ وفي العاشر من الشهر السادس لذلك العام كنت قد توجهت من بغداد – مكان إقامتي حينها – قاصدًا محافظة السليمانية بكوردستان العراق، عازمًا على أن لا أرجع منها مهما كان الثمن، وكنت آنذاك في الخدمة العسكرية وبرتبة نائب ضابط، وأعمل في قاعدة الوليد الجوية على الحدود الأردنية العراقية بالقرب من قضاء الرطبة التابع لمحافظة الأنبار.

لقد كان قراري بعدم رجوعي لبيتي أو لعملي بوحدتي العسكرية قد تبلور، نتيجة جملة من الأفكار المصحوبة ببعض المشاعر التي لم تكن تخلوا من الهواجس التي اختلطت ببعضها، الأمر الذي جعلني غير قادر على الرؤية إلا من زاوية واحدة، اعتقدت أنها هي التي ستكون الخلاص والطريق إلى الحرية التي أنشدها، وخلاصة ما كنت أشعر به هو أنني لم أعد منتميًا للمجتمع الذي ولدت ونشأت وترعرعت به، بسبب الصدمة التي تلقيتها نتيجة الضغوط الشديدة التي مورست ضدي من قبل البعض من أعضاء حزب البعث، بكل الوحدات العسكرية التي عملت بها على مدى الثلاثة عشر عامًا من خدمتي العسكرية بتلك الفترة، بسبب رفضي القبول بالانتماء لحزبهم، وإصراري على أن أبقى مستقلاً، حتى وصل بهم الأمر بتلك السنة، وكنا في العام الثاني لقيام الحرب العراقية الإيرانية، أن ينكروا عليَّ وطنيتي كعراقي، وأخبروني بكل صراحة وقحة أنني إن لم أنتمِي لحزبهم؛ فذلك يعني لديهم أنني ضدهم، وهذا يعني أنهم وضعوني بخانة الخونة لأنهم كانوا دائمي الترديد أن أعدائهم الأكثر إيذاءً للعراق هم الخونة من العراقيين.

وبذلك وجدت نفسي قد تمَّ تصنيفي من الخونة لأنني كوردي أولاً، وغير بعثي ثانيًا، من غير أن تشفع لي عندهم تلك السنوات الطويلة من خدمتي الملتزمة

بصفوف القوة الجوية، فغضبت غضبًا شديدًا وقلت لنفسي حسنًا مادام رفاق البعث قد صنفوني بذلك التصنيف البائس، فقط لأني لم أكن على شاكلتهم، وبذلك فقد كان تصرفهم إياه هو من دفع بي لأكون كورديًا بحق وحقيقة وليس بالاسم فقط، وعليه فأهلي الكورد كانوا أولى بخدماتي كعسكري، لأني كنت على اطلاع تام بالممارسات الشنيعة التي تُمارس ضدهم، من تلك المشاهد التي كنت أراها خلال زياراتي المتكررة لأبناء عمومتي في محافظة السليمانية، الأمر الذي جعلني أشعر أن الواجب أصبح يحتم علي ألا أقف مكتوف الأيدي متفرجًا على ما كان يحدث من ظلم واستبداد، لأنني كنت مقيدًا بحياة لم يتسنَ لي أن أختارها.

بذلك فإن هذين السببين قد فتحا عيني وبصيرتي لأستعرض أمورًا أخرى كانت تدور في بالي بين الحين والآخر، منها محاولاتي الكثيرة من أجل استرجاع هويتي القومية المفقودة، بغاية الرجوع لجذوري الكوردية، بعد أن جعلني والدي عن غير قصد أحد الروافد الضائعة لذلك الأصل المشرف لشجرة العائلة، ولكن وللأسف فشلت كل محاولاتي المتعددة، وكان أولها وأهمها هو السعي لتعلم اللغة الكوردية التي لم يعلمني إياها والدي بصغري، باعتبارها من أهم مقومات القومية، والسبب بذلك يرجع لأني عشت حياتي منذ ولادتي بعالم آخر لم أختره بمحض إرادتي.

ولدى دراستي لأصل كل تلك الأسباب التي قادتني لهذه المتاهة؛ وجدت أن تاريخ العائلة العريق كان يمشي منتظمًا منذ أن جاء جدي الثالث محمد أغا بن علي أغا، وكان ضابطًا برتبة رفيعة في الجيش العثماني، وترجع أصوله لقبيلة هكاري بكوردستان تركيا، لينزل بحكم وظيفته بمدينة كركوك ثم يستقر بمدينة السليمانية التي أيامها كانت قد تأسست حديثًا ببدايات القرن الثامن عشر،

والمدينتان كانتا تابعتين لولاية الموصل، وحتى زواج والدي المولود في السليمانية من والدتي التي هي من مجتمع بغداد، وفكرت حينها بأنني إذا ما عملت عكس ما عمل والدي فإن الرافد الضائع سيرجع لأهله وأصوله إلى كوردستان، وعندها ستستقيم الأمور لمن سيأتي بعدي من بنين وبنات.

ولكن الفشل كان يلاحقني دائمًا، عندما أغلقت كافة الأبواب بوجهي لمشروعي بالهجرة المعاكسة على الرغم من أنني لم أطلب المستحيل، حتى وجدت نفسي كنبتة زُرعت في أرض غير أرضها ومرَّ عليها زمن، أصبحت جذورها ممتدة إلى العمق الذي لم يعد بالإمكان اقتلاعها وزرعها من جديد في أرض الآباء والأجداد.

وعليه واستنادًا لكل ما تقدم من أمور؛ هي من وجهة نظري ليست لها أية قيمة لو كنا نعيش بمجتمع المواطنة، بظل دولة ترعى مواطنيها من غير تمايز بقومياتهم أو أديانهم، بدلاً من أن نعيش بمجتمع عشائري ثقافته أقرب ما تكون للبداوة من المدنية، ولذلك وجدت بابًا واحدًا كان مفتوحًا أمامي من خلال تحطيم جميع قيودي، وذلك بقلع كل الجذور العميقة مرة واحدة، لإيماني بأن السعادة تكمن بالنضال، والخنوع ما يأتي بالتعاسة، علمًا أن ذلك الأمر لم يكن بالصعب أو العسير لو أنني لم أكن مرتبطًا بعمل مع الدولة، كعملي العسكري الذي كان الدخول به طوعي والخروج منه يعتبر جناية لا تُغتفر بعد أن جعلوه أبدي كالعبودية.

وعلى أساس ذلك الحال كان قراري أنني لن أرجع مهما كلفني الأمر، حتى لو أدَّى بي أن أخسر حياتي دونه، وبما أن البقاء للعيش بداخل مدينة السليمانية كان أمرًا مستحيلاً لأنني حينها سأكون مطاردًا من قِبل السلطة، نتيجة تخلفي عن وظيفتي العسكرية؛ لذلك كان علي أن أتدبر حالي لأعيش بالقرى الكائنة بمحيط مدينة السليمانية، تلك التي لا تتواجد بها سلطة للدولة.

أخذت أتفكر بالأمر، وكنت حتى تلك اللحظة من التفكر لازلت في الحافلة المتجهة لمدينة السليمانية، وعليه فإنني قررت أنه إذا لم يأخذ أحدًا من أقاربي بيدي لتصحيح ما أفسده الدهر؛ فإن جبال وسهول ووديان كوردستان سوف لن تبخل علي بإيوائي واحتضاني كابن ضال عاد ليرتمي بأحضان أمه الحنون، حيث أجواء الحرية التي ستُسقط كل الحواجز التي كانت تحول بيني وبين الآخرين من أبناء جلدتي، من أجل مد يد العون لهم ورسم الابتسامة على شفاه المضطهدين من أبناء ذلك الشعب الذي ظلمته الأقدار.

هكذا كانت الفكرة ولكن كيف السبيل إلى طريق الحرية من أجل تنفيذها؟ هذا هو السؤال الذي توسمت أن أجد الإجابة الشافية له عند وصولي إلى مدينة السليمانية، من خلال مفاتحة جميع أقاربي طلبًا للعون بمسعاي هذا، مع إصراري بعدم العودة إلى ما كنت عليه، حتى لو انتهى هذا الأمر بكارثة أنهي بها تلك الحياة الشقية، من خلال التوجه صوب الجبال وحدي من غير أية تدابير تتخذ بمثل حالتي التي كنت عليها.

ومن أجل أن أعرف بمن سأبدأ من الأقارب الذين قد تكون لديهم القدرة والإمكانية على مساعدتي بهذا الموضوع؛ أخذت أستعرض أوضاع كل واحد منهم، فوجدت أن أبناء عمتي الأربعة هم مسالمون بطبعهم، ومن المثقفين العاملين بسلك التعليم، ولم يسبق لأحدهم أو أيًا كان من معارفهم أن سلك هذا الدرب الشائك بمقارعة الدولة، من خلال الانتماء لحزب سياسي كوردي معارض، أو الانضمام لقوات الأحزاب الكوردية كپيشمرگة[1].

(١) الپيشمرگة: تطلق على كل مقاتل كوردي فهي تعني الفدائي أو الشخص الذي يتسابق مع الموت أو الذي يحمل روحه على أكفه؛ بالترجمة الحرفية للغة العربية.

ثم تنبهت أن أحد أولاد عم والدي كان له ابن قد فرَّ من الخدمة العسكرية الإلزامية، وأمن له السكن بإحدى القرى القريبة التي كانت بقبضة الأحزاب الكوردية المسلحة، وعلى هذا الأساس طرقت باب ابن عم والدي أول وصولي لمدينة السليمانية، وهو رجل ختيار محترم جدًا، ومن الشخصيات المعروفة في السليمانية، إضافة إلى كونه أيضًا صاحب حسٍّ قومي مرهف، ويحمل ضمير حي، وهو من أعز وأقرب الأشخاص لوالدي من أولاد عمه الأربعة، وهم أولاد عارف أفندي الشقيق الأصغر لجدي الحاج علي أفندي، وقد جمعتهما ذكريات حميمة منذ الصغر عندما كانا يعيشان سويًا في بيت جدهما الحاج حسن أفندي، الكائن موقعه الآن بجوار مبنى السراي القديم بمحلة ملكندي في السليمانية، وكانت فترة صباهما مزدحمة بالذكريات التي كانا يستذكرانها كلما التقى الاثنان أثناء زيارة والدي له بين الحين والآخر ببيته بمحلة عقاري في السليمانية، وكانت بداية تلك الذكريات هي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى حينما كانوا صبيان بعمر العشرة سنين.

استنادًا لكل ما تقدم توجهت لبيت ابن عم والدي كاك[١] نجم الدين عارف رحمه الله وأرضاه، وكان رجلاً حسن الملتقى يرحب بضيوفه، وكانت لي عنده معزة خاصة هي من معزته لوالدي رحمه الله، فأخبرته عن عزمي للالتحاق بالثورة الكوردية للأسباب التي ذكرتها سلفًا، وعندها أصيب الرجل بالدهشة وتصور أنها قد تكون كلامًا عابرًا، أو أمنية كالتي يرددها الكثير من الناس في السليمانية كل يوم، عندما يتعرض أحدهم لبعض مصاعب الحياة نتيجة الضغوط النفسية، جراء التصرفات العنجهية للسلطة ضدهم بمناسبة أو بدون مناسبة،

---

(١) كاك أو كاكا : هي تسمية كوردية تُطلق على الرجل الوقور والمحترم والمرادف لهذه التسمية باللغة العربية هي "السيد"، وبالإنكليزية "مستر".

ولكني أكدت له أنني عازم على هذا الموضوع ولا مجال لي بالتراجع عن قراري هذا، وعندما تأكد الرجل من إصراري على ما عقدت العزم عليه، أخذ يحذرني بكل صدق وأخبرني بالصعوبات الكامنة بهذا الطريق، حيث الحياة القاسية التي لا يتحملها إلا من خبر المصاعب وركب المخاطر، حيث قساوة الجو، والطقس البارد شتاءً وقلة الزاد، إضافة للموت الذي يتهدد حياة الجميع بكل لحظة هناك...

وللأمانة فقد صدق عمي كاك نجم الدين رحمه الله بكل ما حذرني منه بخصوص الحياة في البرية ولكنه لم يحذرني من الغدر الموجود بين الثوار، لأنه لم يكن على علم بهذا الموضوع كما علمته وخبرته أنا بوقت لاحق بعد مساعدته الكريمة لي، وبعد استماعي لكل ما قاله لي عمي العزيز أجبته بكل ثقة أنني ذاهب كي لا أرجع، لأن أمنيتي هي أن أروي بدمي أرض كوردستان، وبما يخص المتاعب المترتبة لتلك الحياة القاسية فإنني سأعمل بكل جهدي لإذلالها بالعزيمة وبالإرادة والتصميم، مذكرًا إياه أن السلطة الحاكمة عندما تنوي الاعتداء على أية منطقة من كوردستان فإنها تجند مقاتليها بالإكراه، ونحن ببغداد نعرف أن من يتم إرسالهم للقتال بكوردستان هم من بسطاء الناس الذين ليست لديهم الإمكانية بالتوسط بعدم الذهاب وهم من المغلوبين على أمرهم، وبالرغم من كل هذا فإنهم يتحملون كل الظروف الصعبة التي ذكرها جنابكم الكريم، فما يضيرني أنا إذا ما كنت مدافعًا ولست معتديًا، ولي من الخبرة العسكرية الطويلة التي تؤهلني لهذا العمل.

هنا تبسم عمي العزيز وأخذ يسرد لي كيف أنه شهد نفس موقفي هذا قبل أربعين عامًا، عندما التحق والدي بالثورة الكوردية إبان حركة مايس بعام ١٩٤١، وترك الجيش العراقي الذي كان أحد منتسبيه، وحكى لي رحمه الله

كيف أن إصراري هذا يذكره بعمه الحاج علي الذي هو جدي وهو من أشد المعجبين به باعتباره كان فارسًا مميزًا ومقاتلاً عنيدًا في زمنه.

وهكذا وبعد الإصرار من قبلي، والتعاطف والتفهم الذي لقيته من عمي العزيز رحمه الله وباقي أفراد أسرته الكريمة؛ وافق الرجل أن يسعى من أجل تأمين الوسيلة الأكثر أمانًا لخروجي من مدينة السليمانية، إلى ما كان يسمى بتلك الفترة بالمناطق المحررة من كوردستان، وهي التي تقع خلف الجبال التي تحيط بمدينة السليمانية، حيث توجد العديد من القرى التي لا تخضع لسلطة الدولة، وهي تحت سيطرة الأحزاب الكوردية المسلحة، ومنها قرية تدعى "گورگه يير" (حرف الكاف يلفظ كالجيم المصرية) التي يسكن فيها ولده الذي تخلف عن الخدمة العسكرية، وكان شابًا بنفس عمري وكنت على علاقة طيبة سابقة به عندما كان في السليمانية، على الرغم من تحفظي على سلوكه المتلون في التعامل مع الآخرين، وهو أسلوب تفرد به بعكس كل إخوته وأبناء عمومته، وهو حتمًا لا يُشبه والده بأي صفة من تلك الصفات الطيبة التي كان عليها رحمه الله.

وبعد أن أصبحت رغبتي تأخذ شكلها الجدي بالتنفيذ؛ كانت أولى الخطوات التي اعتمدها عمي العزيز هي مفاتحة أحد معارفهم من الذين لديهم علاقة مصاهرة مع ابنه، وهم من الذين لديهم اطلاع ونفوذ مع الكثير من الكورد الذين كانوا يعملوا بالسياسة والعمل السري، وعندها تمَّ الاتفاق على موعد تمَّ فيه تحضير سيارة لاندروفر أجرة تنقلني ضمن أجواء عائلية، كان فيها الركاب هم خليط من الأقارب وبعض النساء اللواتي كُنَّ بين الحين والآخر يذهبنَّ لزيارة الابن أو الأخ أو الزوج الهارب من سطوة السلطة الحاكمة إلى المناطق المحررة باعتبارها ملاذًا آمنًا لهم، وهو أمر كان قد سبق وأن قاموا به، ولكن هذه المرة

الأمر مختلف لأنهم سيهربونني معهم، فعلى الرغم من أن أوراقي الثبوتية من هوية عسكرية ونموذج إجازة دورية نافذة المفعول كانت سليمة، ولكن إذا ما استوقفتنا بالصدفة أية مفرزة أو سيطرة تفتيش ونحن في طريقنا إلى المناطق المحررة فسيكون موقفي صعب جدًا، لأن الموضوع سيكون واضحًا ولا يحتاج لأي تفسير، وهو نيتي بالهروب من الخدمة العسكرية واللجوء لتلك القرى لسبب أو لآخر.

قبل البدء بتلك الرحلة كنت قد أودعت مبلغ خمسة آلاف دينار عراقي لدى عمتي الحاجة "شفيقة الحاج علي" رحمها الله؛ لاحتمال حاجتي لها في المستقبل الذي كنت أجهل كيف سيكون، وأبقيت على مبلغ أربعمائة دينار عراقي بجيبي، علمًا أن سعر صرف الدينار قياسًا بالدولار بتلك الفترة هي ثلاث دولارات لكل دينار. وبعد مسيرة حوالي الساعة بين الوديان والمنحدرات وبعض القرى التي هي بأطراف مدينة السليمانية؛ مررنا بنقطة عسكرية فيها بعض الجنود البسطاء، ونزل السائق ليعطيهم قالبًا من الثلج، بعدها مضينا بطريقنا على مدار ساعة أخرى، وأخبرني السائق حينها أننا قد أصبحنا بداخل المنطقة المحررة، فتنفست الصعداء واعتبرت تلك اللحظة هي بداية لولادة جديدة لإنسان طالما عشق الحرية وتطلع إليها.

مضت بنا السيارة أكثر لتتوغل داخل تلك المنطقة الجميلة بمناظرها الخلابة، كنت أتطلع لما حولي من مشاهد لتلك القرى التي نمر بها، وكانت تلك المرة هي الأولى لي بكل حياتي السابقة وأنا أشاهد فيها قرى كوردية، حتى وصلنا أخيرًا إلى قرية "گورگه يير"، التي ستكون لاحقًا نقطة انطلاقي إلى عوالم أخرى وأهوال شتى، شاب فيها شعر رأسي على مدى عام واحد، وسآتي على ذكر أحداثها تباعًا وبالتفصيل.

وصلت إلى حيث كنت أصبوا وأحب، إلى أجواء الحرية التي حُرمت منها منذ أن وعيت ما هو الحق وما هو الباطل.. وبذلك انتهى المشوار الذي طالما أرقني بكيفية تنفيذه؛ الوصول إلى ما اعتقدته حينها جنة الله على الأرض، مع العلم أن تلك الطريق كانت سالكة وميسورة لأي فرد من أهالي السليمانية من غير المطاردين أو المطلوبين من قبل السلطة، ولكنها كانت مستحيلة علي لكوني كنت غريبًا عن تلك المنطقة، ولضعف حالي باللغة الكوردية التي لم أكن أفهمها أو أحسن الكلام بها حينها كما أنا الآن.

عند وصولنا إلى قرية "گورگه يير" استقبلنا قريبي بفتور ودهشة، مستفسرًا عن سبب قدومي، فأخبرته بالسبب، وعندها أخذ يصف لي كل من حوله بكلمات نابية لم أعهدها به من قبل، من أجل أن يجعلني أعدل عن المضي بما نويت عليه والرجوع من حيث أتيت، وكلما كان يأتي على ذكر الرجوع أضحك ساخرًا ومعلقًا بأنني لم يعد لي مكان أرجع إليه، لأنني أنتمي لهذه البقعة الطاهرة من الأرض، وأن جُلَّ ما أرتضيه لنفسي هو أن أستطيع خدمة هؤلاء الناس البسطاء من أهلي، فالبارحة كان لي أقارب معدودين أتشرف بهم، واليوم أصبح كل هؤلاء هم أهلي وأقاربي..

وفي مناسبة حديث آخر بنفس الموضوع قلت له جازمًا إنني قد جئت لهدف لم يتحقق حتى الآن، وهو الانخراط بالثورة الكوردية، وهدفي هذا لن أتخلى عنه إلا بقتلي، وعندما سألته عن سبب تثاقله مني أجاب أن الموضوع هو تقاطع مسارات، لأن طريقك ليس نفس طريقي، فأنا مقيم هنا بصورة مؤقتة، وعلاقتي بجميع الأحزاب كل على حدة جيدة، حتى يأتي اليوم الذي ستتغير فيه الأوضاع وأرجع لبيتي من غير أن يغضب عليَّ أحدٌ منهم... لقد كان كلامه بمنتهى الأنانية والانتهازية، لأن ذلك يعني أن انتمائي مستقبلاً لأي حزب سوف يغضب

– باعتقاده الساذج – بقية الأحزاب عليه، وبذلك أدركت أن مشروع التحاقي بالثورة لن يكون ممكنًا إلا إذا عاد قريبي هذا إلى السليمانية أو أفترق عنه، فاقترحت عليه أن أذهب للإقامة بجامع القرية حيث استراحة المقاتلين من كل الأحزاب، وبنفس الوقت هو مأوى لكل من ليس له أحد بتلك المنطقة، فاعترض على ذلك؛ ليس من أجل خشيته على حياتي، وإنما ادعى أن هذا التصرف سيجعل والده – ذلك الرجل الطيب – غاضبًا عليه باعتباره قد تخلى عني...

والحقيقة هي إنه كان يخشى إن فعلت ذلك فإنني بالتأكيد سيتسنى لي الاختلاط بالكثير من الناس، وبالتالي سأخرج عن ما خططه لي، وذلك ما سيظهر بشكل واضح بمرحلة لاحقة، وهكذا وجدت نفسي مكبلاً من جديد بقيود يتوجب علي الالتزام بها ردًا للجميل الذي طوق به عنقي والده، العم كاك نجم الدين رحمه الله، مع يقيني أن تلك القيود سرعان ما ستزول وحدها، لأن هذا القريب لن يصمد بالبقاء حتى قدوم فصل الشتاء، وأن الدولة سرعان ما ستصدر عفوًا عن الهاربين من الخدمة العسكرية عاجلاً أو أجلاً، وهو أمر تكرر خلال تلك الفترة من الحرب مع إيران، وهذا ما يتمناه وينتظره ذلك القريب، وحتى يحين ذلك الوقت فهي فرصة لي ومتسع من الوقت يتوجب علي استثمارها لتعلم اللغة الكوردية، ودراسة الواقع السياسي لتلك الأحزاب المنتشرة حينها على الساحة، لكي أتعرف على من هو الأجدر منهم بالانتساب به والالتحاق بمجاميعه المسلحة، وذلك من خلال متابعة ما يقدمه للناس من طيبة وإحسان، وليس من خلال شعاراته المعلنة التي عادة ما تكون زائفة.

هكذا عشنا وتعايشنا سويًا حتى أجل آخر ليذهب كل منا بطريقه الذي سيختاره بنفسه.. وهنا لابد لي أن أصف قرية "گورگه يير"، تلك القرية الوديعة بأهلها الطيبين، وهي أجمل وأحلى ما وقعت عليه عيناي من القرى بتلك المنطقة،

فهي تقع وسط وادي تحيط به التلال من كل جوانبه، وهذه ميزة لأغلب قرى كوردستان، حيث أن وفرة الماء العذب تكون دائمًا بأسفل التلال، ناهيكم عن أن جدولاً من الماء العذب يخترق وسط القرية ويقسمها لشطرين، سكانها جدًا طيبون، ولا يتعدى عدد العوائل بها ٢٠ عائلة، فيهم من هو ميسور الحال وفيهم من هو فقير يعيش على قوت يومه...

يسكن في القرية أيضًا جموع من الشباب الهاربين من الخدمة العسكرية، الذين التجئوا إليها، ويعيشون ببيوت صيفية مؤقتة تدعى بالكپر (والباء هنا تلفظ كما نلفظ حرف p الإنكليزي)، وهي منتشرة بكافة أنحاء القرية، ومجاورة لبيوت سكانها الذين عادة ما يقدموا الرعاية لهم، وبيوتهم هذه عادة ما تشيد من جذوع الأشجار في هيكلها، ومن الأغصان في محيطها وسقفها، ويتم تمويل وإعانة ساكنيها من قبل أهاليهم، الذين عادة ما يقومون بزيارات دورية أسبوعية لهم، وهناك جامع كبير في أعلى القرية، ومقهى صيفي في أسفلها، أقامه بعض الشباب الفارين من التجنيد لبيع الشاي والكولا والمشويات، وهو مكان لتجمع الشباب من غير أهل القرية، وبنفس الوقت هو استراحة لبعض المقاتلين من پيشمرگة جميع الأحزاب الكوردية.

لقد كانت تلك المقهى الصيفي هي أولى الأماكن التي تسنى لي أن أجري فيها حورًا ومناقشة حول وجهات نظر الشباب، الذين وجدتهم ببداية الأمر يتحدثون عن أماكن سكناهم بداخل مدينة السليمانية عندما يتفاخر أحدهم بأنه من المحلة الفلانية التي يسكنها الأغنياء، معيبًا على الآخرين الذين يسكنوا بالأحياء الفقيرة، ثم يجيبه الآخرون بفخرهم بمحلتهم التي تحمل صفات أخرى ليست موجود بتلك المحلة الغنية وهكذا... وكان من محاسن الصدف أن جميعهم يعرف اللغة العربية، وسألني أحدهم ممازحًا وهو يعرف أنني من سكان

العاصمة بغداد: من أية منطقة أنت في السليمانية؟؟ في إشارة واضحة لكوني غريب عنهم.. فأجبته بفخر بأنني كورديًا منتميًا لأمة أسمها كوردستان التي هي ليست على الخرائط، ولكني على يقين أنها سترسم حتمًا على الخرائط بزمن قادم بسواعد أبنائها.. فلم يعلقوا على قولي الذي لم يكن يعني شيئًا لهم لتفاهتهم، ورجعوا ليكملوا نفس حوارهم الطفولي اليومي المشحون الذي ليس لهم غيره، واعتادوا على ترديده كل يوم، وهو أن يبدأ أحدهم بتأييده لحزب بعينه ثم الآخر يؤيد حزبًا مغايرًا، والآخر، والآخر... وهكذا من المسميات المتداولة للأحزاب آنذاك.

ثم سألوني مرة أخرى إن كنت قد كونت فكرة عن الأحزاب الكوردية وما هي أهداف كل منها وإلى أية جهة أنا منحاز بتأييدي؟ فكان جوابي أنني سأنتمي إلى الجهة التي هي أكثر خدمة وتفانيًا وإخلاصًا للقضية الكوردية، وهذا ما سأتعرف عليه بقادم الأيام، من خلال مشاهداتي لواقع حال كل حزب منهم، فتعجبوا لمقولة أنني سأنتمي؟ لأنها غير موجودة بقاموس مفردات حواراتهم، وكان شغلهم الشاغل هو الثرثرة فقط لا أكثر، وتعجبت أنا أيضًا لِمَا كانوا يقولون، لأنه لو كان كل شباب الكورد على هذا النحو فعلى كوردستان وحقها الضائع السلام، وفي سؤال آخر وُجه لي عن أصولي ومن أية عائلة أنحدر؟ فأجبتهم بما أعرفه عن العائلة التي انحدر والدي منها، وهي من العوائل المعروفة في السليمانية لأصالتها، وأخذت أسرد لهم الأحداث والوقائع التي مرَّت على كوردستان في التاريخ الحديث، والدور المشرف لأجدادي فيها بالاسم والعنوان، لأنني كنت مُلِّمًا بتاريخ العائلة من خلال الروايات الموروثة التي كان والدي قد عاش قسم منها، والقسم الآخر سمعه من جدي الحاج علي، الذي كان من أعيان السليمانية... وعندما شعرت أن كلامي لا يلقى الاستحسان بالإصغاء لذلك التاريخ العريق الذي لا يتناغم وأهواءهم؛ توقفت وانصرفت عنهم، ولم

أعد الكرة بالحوار معهم بأي شأن بمناسبات قادمة، لأنه بالتأكيد سيكون حوارًا عقيمًا وفاشلاً بامتياز عالٍ، وهو أمر لم يضعف من عزيمتي، لعلمي وإدراكي بمسيرة الشعوب التي بين أبنائها من هو المناضل والمتقاعس والانتهازي والخائن والأبطال، وعلى رأسهم الشهداء الذين يضحوا بدمائهم في سبيل كلمة الحق والمبادئ التي يؤمنوا بها، مع يقيني أن كفة من هم سائرون بكل مكان على طريق الحق هي الأرجح بأخر المطاف.

وهنا بودي أن أؤكد نقطة مهمة؛ هي أن ما ورد من وصف وتعبير عن مشاعر لي هي تخص تلك الفترة، وعليه فإن ما سيرد من مشاعر مغايرة لها بفترة قادمة من هذه الرحلة هو أمر اعتيادي ولا يُعتبر متناقض، لأن الإنسان يتعلم من خلال ما يكتشفه ولن يظل على نفس الحال، خصوصًا وأنني كنت بتلك الفترة أكتشف بكل يوم جديد شيئًا لم أكن أعرفه من قبل... وعليه فإن ما سمعته بذلك الحوار السقيم مع تلك الثلة من الشباب الضائع جعلني أقع بين نقيضين، فالذي رأيته ولمسته منهم لا يشبه الوصف الذي سمعته من والدي رحمه الله على مدى العمر كله من سيرة طيبة ووصف رائع للشعب الكوردي، حتى خيل لي أن بسالة أبنائه وبطولاتهم جعلت منهم هامات عالية كادت أن تناطح السحاب بعنفوانها وكبريائها وثبات موقفها في أصعب المواقف..

هذا هو وصف الإنسان الكوردي الذي ترسخ بداخل ضميري، وما رأيته وسمعته من ترهات الكلام جعلني في حيرة من أمري، وقد أصابني الذهول أثناء سماعي لأحدهم وهو يذكر بكل فخر حكاية أخيه الذي هو أحد منتسبي الجيش الشعبي، وهي ميليشيا مسلحة لحزب البعث الحاكم أثناء النهار، وهو أيضًا – أي نفس الشخص – ينتقل أثناء الليل ليكون أحد پيشمرگة الأحزاب الكوردية العاملة بالضد من حزب البعث وأعضائه ومليشياته بالجيش الشعبي!

وأنا الذي كنت أعتقد أن الكوردي لا يعرف مثل تلك الممارسات الانتهازية ليكون متلونًا كالحرباء، فهو بضميري إما أن يكون خائنًا بشكل علني، وهم القلة من سفهاء القوم، أو يكون مناضلاً، وبذلك يكون الابن البار لهذا الشعب الذي لم يمت على الرغم من كل المحاولات المتكررة لإبادته عبر التاريخ، لأنه شعب كان يتجدد بسواعد أبنائه البررة.

من ناحية أخرى كانت مشاهداتي لقوات البيشمرگة من كل الأحزاب محدودة جدًا، عندما كانوا يتوافدون على قريتنا كمجاميع وليس كأفراد، ضمن جولتهم اليومية المعتادة، ولم يكن لي النصيب أن أتعرف عن كثب على أيٍّ منهم، ففي الصباح مثلاً كانت تنزل إلى القرية مجموعة من پيشمرگة الاتحاد الوطني الكوردستاني المسمى بــ"اليكيتي"، وظهرًا پيشمرگة الحزب الديمقراطي الكوردستاني المسمى بــ"البارتي"، ومساءً پيشمرگة الحزب الشيوعي العراقي الذي كان يضم بين صفوفه مقاتلين من القومية العربية، وفي اليوم التالي أو بنفس اليوم كان بالإمكان أن تنزل على قريتنا مجاميع من پيشمرگة الأحزاب الصغيرة الأخرى مثل الحزب الاشتراكي الكوردي المسمى بالحسك، أو الحزب الإسلامي الكوردي، وكانوا جميعهم بعد أن يقضوا وقتًا قصيرًا للراحة في جامع القرية يتوزعون على بيوت القرية بحسب إمكانية استقبال كل بيت لهم، ومن يقرر ذلك هو مختار القرية أو من ينوب عنه أثناء توزيعهم، ومثال ذلك أن هذا البيت لديه الإمكانية على استضافة شخصين من البيشمرگة والآخر ثلاثة وهكذا...

وكان الأهالي يقدمون كل ما تيسر لديهم لكل أفراد پيشمرگة الأحزاب من الزاد على مدى ثلاثة أوقات يوميًا، ثم يزودوا المجموعة الثالثة منهم بعد وجبة العشاء التي عادة ما تكون بوقت الغروب؛ ببعض الأغطية التي يحتاجونها أثناء

النوم في جامع القرية، أو بإحدى المرتفعات المطلة على القرية عندما يكون الوقت صيفًا، ليعيدوها في الصباح لنفس البيت، مباشرة بعد صلاة الفجر، ليجدوا طعام الإفطار بانتظارهم.

لقد كانت معاناة أولئك القرويين المساكين الذين لم يشكوا من كل هذا؛ هي أكبر لدى سكان القرى التي كانت على خط التماس ما بين نفوذ قوات البيشمرگة أثناء الليل، ونفوذ الدولة وقواتها العسكرية المدعومة بقوات كوردية عميلة لها، تدعى بالفرسان، ويسميها الكورد بالجحوش أو الجاش أثناء النهار، وهذا يعني أن أولئك الناس البسطاء المغلوبين على أمرهم سيكونون متهمين من قِبل الدولة بسبب إمداد البيشمرگة أثناء الليل بالمأكل والمشرب، وبذات الوقت هم أيضًا كانوا موضع اتهام ومسائلة من قبل بعض البيشمرگة على أنهم يقدّمون المعلومات للجيش وقوات الجاش العميلة، ولذلك فهم بمعيشتهم كانوا ما بين نارين وهو أمر محير، لا أعلم كيف كان باستطاعة أولئك المساكين تدبر أمور حياتهم المعيشية والاستمرار على البقاء وسط هكذا أجواء ملغومة.

من ناحيتنا أنا وقريبي في بيتنا الخشبي الصيفي، فقد كان قريبي يمارس النفاق بأعلى مستوياته وبأرخص صوره الدنيئة، عندما كان يحرص باستضافة من كان له شأن رفيع بتلك المجاميع المقاتلة ليقدم له المأكل والمشرب والمديح الزائف، باستثناء حالتين فقط، عندما ضيف بعضًا من معارفه الذين وصفهم بأنهم كانوا أقاربَ لنا، وهم في طريقهم بالذهاب لإيران لتقديم اللجوء، ليحاولوا بعدها الانتقال للسويد، وقد دعوني للذهاب معهم وأبيت أن ألبي دعوتهم. ومن تلك الشخصيات المهمة التي استضافهم قريبي الشخصية المعروفة بحزب الاتحاد الوطني واسمه "مصطفى جاو ره ش"، عندما كان يعرب له عن مدى إعجابه وتأييده لحزبه، ناعتًا الأحزاب الأخرى بأشنع الأوصاف القبيحة. ونفس

الكلام وبيوم آخر كان يكرره بحضرة القيادي المعروف "قادر قادر" من الحزب الديمقراطي الكوردستاني، فتراه يمتدحه ويترحم على الملا مصطفى البارزاني الذي شتمه بالأمس بحضرة "مصطفى جاو ره ش" ويشتم كل الذين جاءوا بعده من الأحزاب والقيادات الكوردية.

لقد كان قريبي الانتهازي هذا الذي أعتبره سبة بوجه عائلتنا بكل تفرعاتها، يمارس تلك اللعبة الرخيصة القذرة وهو مطمئن البال، لعلمه أن الرجلين لم ولن يلتقيا ليخبر أحدهما الآخر ما كان من أمر قريبي معهما، بسبب الخلاف الدائم بين حزبيهما، ومن ناحية أخرى كان نفس التوجه بنفس ذلك السلوك الرخيص، يفعله مع كل من كان يستضيفه من قادة بقية الأحزاب، والعجيب بالأمر أنه كان بكل مرة وبعد أن ينصرف ضيوفه يلتفت لي ويسألني بكل وقاحة عن رأيي بأدائه بتلك المسرحيات الرخيصة، التي كان يفتخر أنه قد أدى دوره بها على أتم وجه، والأكثر وقاحة من كل هذا كله، فلقد ذكر لي كيف أنه كان يقوم بنفس ذلك الدور المخادع أثناء علاقته مع بعض من أفراد الاستخبارات العسكرية الذين كانوا يرتادوا دكانه بداخل مدينة السليمانية، وكأنه بذلك أراد أن يقول متباهيًا بتلك التصرفات الدنيئة والرخيصة إنه لم تبقَ لحية إلا وقد ضحك عليها، ولم يترك أي حبل إلا وكان قد لعب عليه!

المصيبة أن كل تلك الأساليب الرخيصة كان بالإمكان أن يفعلها أي شخص عديم التربية من أبناء الشوارع، ولكنه لم يكن كذلك، لأنه ابنًا لرجل قل نظيره بطيبته وصدقه وسماحته، وكان من بين الشخصيات الرفيعة في السليمانية، ولكن هكذا هو القدر، ورُبَّ نارٍ على علم تخلف العار كل العار.. والأدهى من كل هذا لقد طلب مني ذلك القريب الانتهازي أن أتعلم منه النفاق لأقلده وأقتدي به، وأنا الذي على مدى الثلاثة عشر سنة الماضية كنت ممتنعًا وبشدة من الانضمام

لحزب البعث الحاكم، ولم أقبل حتى مجرد إدراج اسمي بقوائم الحزبيين من غير أن أكون ناشطًا لديهم، على الرغم من كل الضغوط التي مورست ضدي، وكان أخرها هو إجباري بالتوقيع على حق إعدامي بحالة الكشف مستقبلاً لو أنني انتميت لأي حزب آخر غير حزب البعث الحاكم، وكان مبدئي الذي جعلني أصمد أمام كل تلك الضغوطات والتهديدات هو المثل الكوردي القائل: إذا لن تستطيع أن تكون وردة فاحرص على أن لا تكون شوكًا.

وأنا في الحقيقة لا أؤيد القول القائل أن التاريخ يعيد نفسه، لأن الزمن يمشي ولن يتوقف أو يرجع للوراء، وهذه حقيقة كنت ولازلت من المصدقين بها، ولكن سلوك قريبي الانتهازي هذا، وسلوكي باعتبارنا أبناء أولاد العم، وأن جدي وجده هم أخوة من نفس الأم والأب، فلقد كان جده عارف أفندي الذي هو الشقيق الأصغر لجدي الحاج علي اللذان كانا على خلاف دائم أدى بالنتيجة لفراقهم، ومثال الشبه أن جده كان حريصًا على معاشرة علية القوم من الذين هم بمستوى عائلتنا العريقة، وكانت له أساليبه الخاصة بالتعامل مع الناس على النمط البرجوازي، وكان يطلب من أخيه الأكبر الذي هو جدي أن يحذو حذوه وينتهي عن معاشرة ومجاملة بسطاء القوم، من الفقراء والعامة، لأن ذلك بحسب اعتقاده يقلل من شأنه وهو أحد أعضاء محكمة السليمانية، المشكلة من أعيان السليمانية وأشرافها في العشرينيات من القرن المنصرم.. وانتهى بهم الخلاف والجدل بالفراق الأبدي، بخروج جدي من السليمانية إلى غير رجعة ليستقر بكركوك، التي أضاع فيها حاله وماله الذي ورثه من أبيه الحاج حسن أفندي المتوفي بعام ١٩٢١م، وانعكس ذلك من بعده سلبًا على كل أولاده وأحفاده الذين لم يصلهم شيءٌ من ذلك الإرث الكبير، وأنا أحدهم.

قد تكون مقولة إن التاريخ يعيد نفسه عندما يكون هناك تشابه بالسلوك بين أفراد من نفس العائلة عبر زمنين هي صحيحة، من غير الضرورة لأن تكون التفاصيل هي نفسها، وهذه حقيقة علمية تحدث نتيجة انتقال الجينات التي تحمل الصفات الوراثية لسلوك شخص ما، لتظهر عبر جيل أو أجيال قادمة بشخص آخر، من نفس تلك العائلة وبنفس الصفات بشكلها العام..

هكذا كان قدري وقدر قريبي الانتهازي في الحياة، وأنا كنت متفهمًا لهذه المواضيع، الأمر الذي دعاني لأن أصبر عليه ولا أخالفه أو أفترق عنه كما فعل جدي وجده، وذلك وفاءًا للجميل الذي شملني من جميع أفراد عائلته من أخوة وأخوات وأبيه، ذلك الرجل الذي هو بقمة الأخلاق والرقي، وأستطيع أن أجزم أن كل من عاشره وتعرف عليه لم ينسَ طيبته وكرم أخلاقه، وهو الذي كنت ولا زلت أضعه بمنزلة والدي رحمه الله، ولولاهم جميعهم لما كنت سأتمكن من أن أعيش تلك الأيام الخالدة وسط الأجواء التي كنت أعتقد بأنها كانت جنة الله على الأرض..

وعلى هذا الأساس جعلت نفسي حارسًا أمينًا له، خشية عليه من المخاطر ونحن نعيش في العراء، وكان هذا هو واجبي تجاهه بأن لا أسمح أن يصيبه أي مكروه وأنا موجود لجانبه كابن عم، حتى أنني دعيت له من كل قلبي عندما كان مبيتي بإحدى الليالي بجامع القرية أثناء زيارة عائلته له لبضعة أيام بأن يرزقه الله بالولد الصالح، لأن باقي ذريته من البنات، وقد استجاب الله لدعوتي الصادقة الخالصة ورُزق بعد عودته للسليمانية بولد أسماه جده بــ: نورس، تيمنًا بقرية ناوره س التي هي منبع أصولنا بكوردستان تركيا، ومنها أكتسبنا لقب النورسي.

ومرت الأيام وكنت في كل يوم جديد أتعلم مزيدًا من مفردات اللغة الكوردية التي استفدت منها بمراحل لاحقة من هذه الرحلة، وقد دام ذلك الحال على مدار ستة أسابيع مرَّت بهدوء، عدا حالة استنفار واحدة مرَّت علينا بتلك القرية وجعلتنا نعيش بأجواء الحرب، عندما أغارت بعض طائرات الهليكوبتر السمتية على أطراف القرية، أثناء جولتها بتلك المنطقة، وقد رصدت هناك بعضًا من قوات البيشمرگة، فوجهت نيرانها باتجاههم، وهم بدورهم وجهوا الضربات لها، وكنت حينها على عتبة باب الكپر أحلق ذقني بوقت العصر، وعلى الرغم من أن القصف كان بعيدًا عنا بعض الشيء، لكن بعض الأهالي في القرية تحسبوا له، وعلى الفور أسرعوا باتخاذ التدابير التي تعودوا عليها أثناء أي مداهمة لقريتهم من قبل أي قوات تابعة للجيش، وذلك بإخفائهم للسلاح إن وجد، أو إخفاء الحلي الذهبية للنساء وذلك بدفنها في الأرض على وجه السرعة...

كانت رباطة الجأش بادية على وجوههم، باستثناء شلة الفارين من شباب مدينة السليمانية، الذين التجئوا تحت أشجار الجوز الكبيرة ليحتموا بظلالها، وهم على درجة عظيمة من الخوف والهلع الذي لم يكن له أي مبرر على الإطلاق؛ لأن الموضوع لم يكن يستحق كل ذلك الهلع الذي رأيته باديًا على وجوههم المرعوبة عندما تجمعوا كلهم تحت أشجار الجوز الكبيرة، وكان قريبي بوسطهم يتلو بهلع مصحوب بالخوف بعض الأدعية الدينية.

بالنسبة لي فقد بقيت جالسًا بمكاني لأني وجدت أن الطائرات قد ارتفعت وابتعدت عنا، نتيجة ضرب البيشمرگة لها بصواريخ مقاومة الدروع أر بي جي التي لم تصل للطائرات وإنما تفجرت بالجو، وهذا وحده كان كافيًا لأن تبتعد الطائرات عن تلك المنطقة، والسبب الآخر الذي جعلني جالسًا بمكاني هو لأني أعلم أن الطائرات ترصد أي هدف متحرك على الأرض، وتعتبره هدف لنيرانها،

وهذا أمر معروف في الحياة العسكرية، وعليه قررت المواصلة بحلق ذقني متعمدًا أن أظهر عدم مبالآتي، بقصد أن يشاهدني بعض الذين اتهموني أني لن أتمكن من مواصلة المعيشة بحياتي الجديدة هذه، وهم على تلك الحالة من الفزع المخزي غير المبرر تحت تلك الشجرة الكبيرة.

ومن الجيران الذين كنا نسكن بجوارهم ولا زلت أتذكرهم بإحسان شخص يدعى نامق محمد الچته، وكان آمر لإحدى المفارز القتالية لحزب الاتحاد الوطني، لقد كان على موعد مع الإعدام أثناء تواجده بأحد المعتقلات بمحافظة كركوك، ونجا في اللحظات الأخيرة إثر نجاح المفاوضات التي حصلت بين حزبه والحكومة العراقية بتبادل المعتقلين من كلا الجانبين الكوردي والحكومي، وفور إطلاق سراحه رجع مباشرة ليلتحق بمجموعته المقاتلة بدون أن يذهب لزيارة عائلته في السليمانية، وعلى أثرها التحقت به عائلته إلى قرية "گورگه يير" حيث يقطن والده محمد الچته، وهو رجل مزارع طاعن في السن من أهل نفس القرية، وقد بنى كاك نامق لهم مسكنًا يقيهم من برد الشتاء وانصرف هو للنضال.

وخلال فترة إقامتي القصيرة بجوار بيته لم أكن أراه يوميًا وهو مسترخيًا تحت الشمس أو نائمًا ببيته، لأنه على الدوام إما أن يكون ذاهبًا مسرعًا ليلتحق بمجموعته، أو عائدًا لبيته ليمكث فيه لفترة قصيرة، وكان باستمرار أثناء ذهابه وإيابه يسألنا إن كنا بحاجة لأي شيء ينقصنا أو يستطيع أن يفعله من أجلنا، حتى أن صاحبي الذي كان مولع بالتقرب من قادة ومسؤولين الأحزاب من أجل أن يتملق لهم لم يجد الفرصة ولو لثواني معدودة لممارسة النفاق مع هذا الرجل الشجاع الشهم، لأن كاك نامق لم يكن لديه متسع من الوقت يهدره بالاستماع لترهات صاحبي، الذي أدرك ذلك ولجم نفسه عن ممارسة هوايته المفضلة بالتملق.

وفي الجهة الأخرى من القرية كان هنالك شخص آخر كنت أتبادل وإياه الاحترام والمحبة المتبادلة، وهو پيشمرگة سياسي مثقف، وكان يتكلم اللغة العربية بإتقان ويسكن مع زوجته وابنه حديث الولادة، ويسميه أهل القرية بمحمد پيشمرگة، وهو من أهالي السليمانية وتربطه علاقة مصاهرة بقريبي الذي أسكن معه، باعتبار أن زوجات الاثنين أخوات، وهو أول من نبهني بالسلوك المخزي لقريبي، وحدثني عن بعض التصرفات المخزية التي سجلها عليه بهذا الجانب.

بنفس الوقت كان قريبي شديد الحرص على إبعادي عن كاك محمد پيشمرگة، وكان يتعمد عدم اصطحابي له عند زيارتهم، وإذا صادف أن وجدني بصحبته فإنه كان يختلق أي عذر من أجل إبعادي عنه، كي لا نتقارب أكثر، وعندما تكرر الموضوع لعدة مرات سألت قريبي عن السبب فلم يجب بإجابة واضحة، علمًا أن الجواب سيأتي لاحقًا بما سيلي من أحداث ستفسِّر سلوك قريبي هذا، ولماذا كان يبعدني عن كل من كان قادرًا من أهل القرية، من الذين بإمكانهم إرشادي للطريق الصحيح باختيار الفصيل الأصلح بالثورة الكوردية.

وهكذا أكون قد استوفيت شرح تفاصيل تلك الفترة التي قضيتها بقرية "گورگه يير" لحوالي ستة أسابيع، وما حصل خلالها، حتى جاءت فترة التحاقي بالثورة الكوردية كما خطط لها قريبي، وقد تزامن ذلك عندما أصدرت الحكومة العراقية عفوًا خاصًا عن الكورد من الذين كانوا هاربين من الخدمة العسكرية وذلك بتسريحهم من الخدمة حال التحاقهم بدوائر تجنيدهم، وهذا ما كان ينتظره قريبي وما انتظرته أنا أيضًا من أجل أن أفترق عنه بإحسان، ليعود هو لأهله في السليمانية وأعود أنا لأهلي بكل ربوع كوردستان، حيث الثورة والنضال، وإن كنت بحقيقة أمري متحيرًا بأي فصيل سألتحق، لأن قريبي كان قد حرمني

من الاطلاع على تفاصيل عمل تلك الفصائل المقاتلة للأحزاب الكوردية، ولكني لم أعر لذلك الموضوع أي اعتبار، لأنني وكلت قريبي بالاختيار بدلاً عني لأحد الفصائل التي له مصلحة معهم، وبالنتيجة سأقدم الخدمة لكوردستان من خلال الالتحاق بهم، وكنت واهمًا جدًا بهذا لأني بعدها دفعت الثمن غاليًا نتيجة ذلك الاختيار الخاطئ.

وفي تاريخ العشرين من تموز ١٩٨٢ المصادف ثالث أيام عيد الفطر؛ أبلغني قريبي عن نيته بالمغادرة في اليوم التالي لكي يعود لأهله في مدينة السليمانية، وسألني للمرة الأخيرة إن كنت قد غيرت رأيي، واستجدت لدي رغبة في الرجوع لما كنت مقدمًا عليه؟ فأخبرته برغبتي بالبقاء وليذهب هو بألف سلامة، وسأرى ما أنا فاعل بقادم الأيام، فاعترض على ذلك بحجة أنه لا يأمن عليَّ بالبقاء وحدي، إلا إذا انضممت لأحد الفصائل المسلحة التي ستحميني بدورها بحسب تعبيره، فأجبته أن هذا ما سأفعله، فأبلغني بأنني يجب أن أفعل ذلك أثناء وجوده من أجل أن يطمئن علي، فسألته كيف يكون ذلك وهو سيرجع لأهله بالغد، وعندها أطلعني على كل الترتيبات والاتفاقات التي تدبرها من خلال الاتفاق مع مجموعة من الحزب الديمقراطي كانت تدعى "ناوچة ماوه ت" [1]، كان يترأسها رجل يدعى "قادر قادر"، وهو نفس الشخص القيادي الذي كان أحد ضيوفنا كما أسلفت بالذكر...

ولأنني لم أمانع فقد اصطحبني على عجل إليهم، وهم على أطراف القرية يهمون بمغادرتها.. والحقيقة أنني لم أكن أبالي حينها بالكيفية التي حصلت بها تلك الخطوة السريعة، التي نتجت عن ترتيبات وتحضيرات مسبقة لقريبي الذي

---

(١) كلمة "ناوچة" تعني مجموعة، وكلمة "ماوه ت" اسم لإحدى القصبات التابعة لمنطقة شهرباژير.

تصورت بكل سذاجة أنه سخَّر قمة حيله من أجل مصلحتي بذلك الشأن، وطبعًا كنت واهمًا لأنه فعل ذلك لمصلحته بالدرجة الأولى، غير مبالٍ بحياتي، وهذا ما سأكشفه بمراحل لاحقة... المهم بذلك الموقف أني شعرت حينها أن همًا سينزاح عن صدري بفراقه على الرغم من ضبابية الظروف القادمة وما كان ينتظرني فيها...

التحقت بمجموعة ناوچة ماوه ت وتبادلت كلمات الترحيب مع رئيسهم قادر قادر، ولأن جميع أفراد الپيشمرگة لهم أسماء وهمية أخرى فقد سألني عن رغبتي باختيار ما يناسبني من أسماء، فكان جوابي سريعًا من غير أن أفكر باسم "سه رچل" وهو اسمي الحقيقي عند الولادة وقد تمَّ تغييره لاحقًا، ولأن قادر قادر كان يعرف أنني كنت في الجيش العراقي برتبة نائب ضابط، فلقد منحني كنية رمزية وهي ملازم ليصبح اسمي ملازم سه رچل.
بذلك الاسم قدمني الرجل لمجموعته وعندها سأل أحدهم بصوت مرتفع: ملازم من أي جيش؟ أجابهم رئيسهم ضاحكًا: من الجيش العراقي طبعًا! ولكني شعرت حينها بانقباض بصدري لأن هذا السؤال لم يكن ساذجًا باحتمال تواجد ضباط من جيوش غريبة أخرى بصفوف تلك المجموعة القتالية.

على أية حال هكذا سارت الأقدار، فعلى الرغم من أن المفاجأة التي أعدها لي قريبي كانت غريبة بدقة توقيتها، وبغض النظر عن ما سبق هذا الحدث من تفاصيل سيئة حصلت معي، وأطلنا الحديث فيها مرغمين أثناء تتبعنا لأحداث بداية رحلتي هذه، فإنني كنت قد وجدت نفسي بتلك اللحظة التاريخية من عمري على درجة عالية من الثقة بالنفس وتغمرني سعادة حقيقية لأنني لم أعد فردًا من رواد تلك المقهى الصيفية جالسًا أتبادل الأحاديث السقيمة مع التافهين من بعض الشباب، بل أصبحت جزءًا من مجموعة قتالية لها دورها وفعلها بأفرادها البالغ عددهم أكثر من أربعين مقاتلاً، وقد اعتبرتهم إخوتي أساندهم ويساندونني

في المصاعب والشدائد، للدفاع عن حقوق شعبنا الكوردي، لقد كانت فعلاً لحظة تحول تاريخية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فأول النهار كنت غريبًا هاربًا أبحث عن هوية بكوخ خشبي متواضع، وأخر النهار تحولت إلى جزء من قوة ضاربة، من غير أن يأتي على بالي ولو لبرهة أن قريبي هذا قد أرسلني للجحيم لأنه كان يعرف أن هذه المجموعة لن تعود بجولاتها لمنطقتنا هذه، وأن مقراتها على الحدود الإيرانية العراقية، وذلك ما فسر عدم سماحه لي أن أبقى بقرية "گورگه يير"، باحتمال أن أنضم لحزب الاتحاد الوطني الذي كان لديه مقر بنفس قريتنا، يديره ذلك الرجل المثقف المحترم كاك محمد پيشمرگة الذي هو عديل لقريبي هذا، وكل أهل تلك القرية كانوا يعرفونه ومطلعين على مكان سكنه في السليمانية، وهم بالتأكيد يعلموا بصلة القرابة التي تجمع بيننا وبالتالي فمصلحته جعلته غير مباليًا بحياتي ومصيري، لأن مصلحته كانت تحتم عليه بأن يرسلني بعيدًا جدًا من أجل ألا يناله ضرر كما صوَّر له عقله المريض إذا ما بقيت في القرية وحدث لي حادث أو تسببت به، فإنهم سيقولون إن هذا الپيشمرگة هو قريب لفلان الذي بيته في المنطقة الفلانية من السليمانية، أما إذا حصل لي أي شيء بمكان بعيد لا يعرفه أحد من الناس هناك فعندها سيكون بمأمن..

وأخيرًا اتخذت موقعي ضمن المجموعة القتالية العائدة للحزب الديمقراطي لكوردستان العراق، بزعامة مسعود البارزاني وكانت تدعى "تاوچة ماوه ت"، وقد تمَّ تزويدي ببندقية كلاشنكوف بالإضافة لمخازن عتاد إضافية عدد أربعة، ناهيكم عن الجعبة العسكرية التي جلبتها معي من القرية وحملتها على ظهري، وكانت تحوي كل الأشياء الضرورية التي قد أحتاجها، كبدلة احتياطية للزي الكوردي، مع أدوات للحلاقة، وطقم من الملابس الداخلية، ومنشفة وبعض الصابون لغسل الوجه والملابس عند اللزوم، وكنت الپيشمرگة الوحيد الذي كان

يحمل معداته الشخصية بجعبة على ظهره بتلك الطريقة العسكرية ضمن مجموعتي أو أية مجموعة أخرى من البيشمرگة بباقي الأحزاب، حتى أن رئيسي قادر أظهر إعجابه بذلك وشبهني بالجندي الأمريكي، وإن كنت لم أستحسن ذلك التشبيه، ولكني أجبته قائلاً: هكذا يجب أن يكون البيشمرگة الفدائي بنظري، نظيفًا وأنيقًا وجاهزًا لأي طارئ من أجل أن يكون قدوة يحتذى به من عامة الناس الذين من حولنا أو مَنْ نمرُّ بهم.

مشيتُ مع رفاقي في السلاح بالرتل المنفرد، وذلك يعني بأن يمشي أحدنا خلف الآخر بمسافة عشرة أمتار على الأقل، وهو نفس النهج الذي كانت عليه جميع مجاميع البيشمرگة من كل الأحزاب من تلك التي كانت تتوافد على قريتنا أثناء دخولها وخروجها منها، عدا بعض المجاميع من قوات حزب الاتحاد الوطني من الذين كانوا يستقلون سيارات البيك أب عندما تكون لديهم أية فعالية قتالية أو ما شابه، وهو أمر كان يختلف عن بقية الأحزاب ومنها الحزب الديمقراطي، لأنهم كانوا يسيرون بكل جولاتهم وحتى أثناء مهامهم القتالية مشيًا على الأقدام، منذ الصباح الباكر وحتى مغيب الشمس، باستثناء وقت الظهيرة عند تناول طعام الغداء وأخذ قسط من الراحة..

مشيت خطواتي الأولى معهم ولم أكن أعرف وجهتي وإلى أين نحن سائرون، لجهلي بمسالك وتضاريس تلك المنطقة، حتى وصلنا إلى إحدى القرى القريبة، وفيها توزعنا من أجل تناول طعام العشاء في بيوتها، وكان نصيبي أن أكون بصحبة اثنين من رفاقي أثناء استضافة إحدى البيوت لنا، وهناك تمَّ الترحيب بنا وجلسنا بانتظار ما سيقدم لنا من طعام بحسب الإمكانية المادية لتلك العائلة، وبعد انتظار جاءنا العشاء وكان عبارة عن بعض الخبز القديم وقدح من الشاي لكل واحد منا، فأكلت القليل من الخبز وشربت الشاي من باب المجاملة لأنني لم

أكن جائعًا بحق، وكذلك بسبب عدم تعودي حتى تلك الفترة على مثل هذه الوجبات الفقيرة من الطعام، فقلد كانت معظم وجباتي الغذائية السابقة معتمدة بالدرجة الأساسية على ما تبيعه مقهى القرية من مشويات، وكانت لي القابلية المادية للشراء التي لم تكن متوفرة لباقي الشباب المقيمين في القرية.

بعد أن غادرنا بيت مضيفنا الذي زودنا ونحن نخرج من بيته ببعض الأغطية التي سنحتاجها أثناء النوم، وحينها اعتقدت أننا سنتوجه للمبيت بجامع تلك القرية، ولكن رفاقي فاجأوني بالقول إنهم لا يبيتوا في جوامع القرى ليلاً كما تفعل المجاميع المسلحة الأخرى لباقي الأحزاب، فهم يقضوا ليلتهم على سفوح أعلى التلال التي تحيط بكل قرية يبيتون بها خشية الغدر، فسألتهم:

- الغدر ممن والقوات الحكومية بضمنها قوات الجاش العميلة بعيدة جدًا؟!

- نحن نخشى الغدر من بقية الأحزاب الكوردية، فدماء رفاقنا الشهداء لم تجف حتى الآن.

- متى وأين كان ذلك؟

- حدث ذلك قبل أربعة أشهر عندما كنا بفصل الربيع وجئنا للانتشار في هذه المنطقة بعد أن تركناها منذ عام ١٩٧٥ إبان النكسة التي يسميها البعض بـــ: "عيش به تال"، على أثر اتفاقية الجزائر التي أبرمتها الحكومة العراقية مع الحكومة الإيرانية التي كانت حليفتنا آنذاك وتخلت عنا على أثرها، وبسببها انهارت الثورة الكردية بزعامة الملا مصطفى التي كان تعداد مقاتليها أكثر من مائة ألف مقاتل، ومنذ ذلك الوقت ونحن لاجئين بإيران حتى رجعنا في الربيع الماضي واستقبلنا حزب الاتحاد الوطني بالقذائف والهاونات، وبجميع الأسلحة الخفيفة من أجل أن يمنعنا من الدخول لهذه المنطقة، الأمر الذي أدى إلى اشتباك مسلح عنيف بين القوتين، لم يفصله سوى قصف الطائرات الحربية للحكومة لكلا الفريقين، وعلى أثرها نجا من نجا ومات من مات سواء بنيران

الطائرات أو بنيران الأخوة، وعلى أثر تلك المجزرة تمَّ التفاهم بين قادة الطرفين الديمقراطي والاتحاد الوطني، على أن لا يتعرض أحدهم للآخر بكامل المنطقة التي هي خارج نفوذ الحكومة حقنًا لدماء الطرفين، ومنذ ذلك الحين ونحن نتوجس الحيطة والحذر بكل تحركاتنا خشية من أن نؤخذ ونحن غافلون بمباغتة من أي طرف مسلح لنا...

لقد كنت أعلم من خلال إقامتي بقرية "گورگه يير" أن الحزبين الرئيسيين هما الديمقراطي الكوردستاني، بزعامة مسعود البارزاني والاتحاد الوطني بزعامة جلال الطالباني، هما أكبر القوات الموجودة على الساحة الكوردية، وهما لم يكونوا على مودة وأخاء، لاعتقادي حينها أن الخلاف الحاصل بينهم هو عقائدي، ولكني لم أكن أعلم بقتالهم هذا، ومن أين لي أن أعلم وقريبي الانتهازي حجم كل خطواتي وكان يعد علي أنفاسي؟؟ لقد كان لوقع هذا الخبر على نفسي بالغ الأسى، فلم أكد أمضي ليلتي الأولى معهم حتى تكدر بالي واهتزت كل أركان الصورة المثالية التي رسمها لي قريبي عن هذه المجموعة، وأولى الأشياء التي قفزت لذهني حينها هو السؤال المحير: ماذا سيكون موقفي إذا ما أُمرت بتوجيه بندقيتي إلى ظهر أي فرد من إخوتي الپيشمرگة من الأحزاب الأخرى؟ سؤال جوابه كان حتمًا عصيان مثل هذا الأمر إذا ما توجه لي، ولكني هونت على نفسي بالتمني أن ذلك الموقف بقتال الأخوة لن يتكرر وما حصل قد حصل وأصبح من الماضي وأن الاثنين أخذا العبرة من تلك الواقعة المخزية بل المخجلة.

لقد كنا نتحادث نحن الثلاثة في هذه المواضيع ونحن نتوجه بالصعود لأعلى قمة في إحدى التلال المحيطة بتلك القرية، وهناك وجدنا باقي أفراد المجموعة من الذين سبقونا وتوزع البعض منهم على جوانب ذلك التل من أجل الحراسة،

وتم تبليغ الباقين بمواعيد نوبات حراستهم الليلية وحتى بزوغ الخيط الأول من الفجر، وكنت ليلتها من المستثنين من نوبات الحراسة لتلك الليلة فقط باعتباري جديد العهد بها، قضينا ليلتنا هناك وسط الظلام الدامس وبالكاد كان أحدنا يرى الآخر، ولم نستطع أن نشعل أي مصباح لنرى طريقنا على الأقل كي لا ننكشف من قبل من نتوجس منهم الخيفة والحذر.

افترشت الأرض من تحتي وجعلت من حذائي وسادة تحت رأسي آملاً أن أغفوا مثل باقي زملائي، ولكني بقيت مستيقظًا حتى الصباح الباكر أضرب الأخماس بالأسداس، آملاً الحصول على جواب لعدة أسئلة، كان أحدها هو: هل أخطأت التقدير عندما سلمت أمري لقريبي؟ أم أن الأمور ستتحسن وسأعتاد قريبًا مع الوقت على تلك الحياة الخشنة، وإذا كان قريبي قد رمى بي بعيدًا عن الناس الذين تعودت عليهم بقريتي "گورگه يير" فهناك الكثير من هم بمثل طيبتهم، ثم راودني هاجس آخر وخز ضميري باحتمال أنني قد وضعت نفسي تحت تصرف أحزاب تتصارع من أجل النفوذ والسيطرة، وما سمعته عن قتال الأخوة خير دليل، وبالتالي لن يكون هناك نضال ولا دفاع عن أية حقوق قومية كوردية، وأنا بطبعي شفاف لا أحب الغدر ولا الخيانة وعلى مدى عمري البائس من التسعة والعشرين عامًا الماضية لم أعاشر الخونة ولا القتلة من الكورد أو غيرهم.. ولكني بأخر المطاف ونتيجة لاستعراضي كل تلك الأمور؛ ارتأيت أن أستمر بما بدأته من أجل أن تتوضح لي صورة ذلك المشهد كاملاً، وبالنسبة لظروف الحياة اليومية القاسية فإني واثق من تذليلها بالصبر والتحمل والتعود عليها والأيام القادمة كفيلة بذلك..

وقبل شروق الشمس أيقظ الحراس الذين كانوا بنوبتهم الأخيرة جميع أفراد المجموعة، من أجل إخلاء المكان والنزول فورًا قبل أن نصبح أهدافًا لنيران طائرات الهليكوبتر الحكومية أثناء دورياتها المعتادة بكل صباح.. استيقظ الجميع

من نومهم باستثنائي لأني كنت مستيقظًا لم يغمض لي جفن طيلة الليل، وحينها وجدت نفسي مستلقيًا وسط مقبرة قديمة تناثرت حجارة قبورها من حولي، وهذا الذي لم أدركه طيلة الليل بظلامه الدامس. نزلنا لجامع القرية ومن ثم لنرجع الأغطية لأصحابها الذين تعشينا عندهم بالأمس، لنجدهم باستقبالنا في الصباح وقد ضيفونا لطعام الإفطار الذي عادة ما يكون القليل من الخبز وبعض اللبن وقدحًا من الشاي.

مضت سبعة أيام على التحاقي بناوچة ماوه ت ونحن نتجول خلالها في القرى، وكنت طيلة تلك الفترة بلياليها ونهارها، وعلى الرغم من الجهد والتعب الذي لم يثنِ عزيمتي كنت كأقل تقدير أمل بأن أهنأ بساعة من النوم، أو على الأقل أستطيع أن أغمض جفوني، فالأمر لم يكن بيدي وهو خارج عن إرادتي لأنني لست متعودًا على النوم فوق التراب مباشرة متوسدًا بحذائي من تحت رأسي، وهو أمر أشبه أن يطلب من أحدنا أن ينام وهو واقفًا، وقد لاحظ رئيسي قادر قادر بعض التغيير على ملامحي وسألني هل أنني لا زلت متمسكًا ومصرًا على الاستمرار معهم أو أنني قد غيرت رأيي وأرغب بالعودة كما فعل قريبي ومن هم على شاكلته؟ فأجبته بإصرار أنني لازلت عازمًا على المضي بطريق النضال، وأنني كنت على دراية أن هذا الطريق لن يكون مفروشًا بالورود، وإنه سيكون حتمًا معبدًا بالشوك، وأنني حتى الآن لم يصادفني أي شيء يجعلني أغير رأيي بما نويت وعزمت عليه... فقال لي الرجل كما تشاء وأنت مرحب بك على الدوام ولا تتردد بأن تسألني عن أي شيء لألبيه لك عن طيب خاطر، فشكرته لكلامه الطيب معي، والشهادة لله فعلاقتي به كانت محترمة جدًا طيلة فترة تواجدي بناوچة ماوه ت وحتى افتراقي عنها.

وكان هناك أمر آخر كنت أعاني منه وتركته للأيام لأنها هي التي ستكون كفيلة أن تجعلني متعودًا عليه، وهو أنني خلال الأيام السبعة الماضية حصل لي إنقاص سريع بوزني وذلك بسبب نوع وجبات الطعام التي كنا نحصل عليها من

الأهالي لأنها كانت بالكاد تسد الرمق، وهي لا تعتبر وجبة غذائية مجزية لما كنا نصرف من طاقة وجهدٍ عالٍ، فتلك الوجبات بأغلبها كانت مكونة إما من الخبز القديم مع الشاي، أو صحن من اللبن الخفيف الذي قد يصلح لأن يشرب بعد تناول وجبة غذائية لا أن يكون هو الوجبة نفسها.. حتى المقاهي التي كانت تبيع المشويات في القرى أغلبها قد اختفى بسبب رجوع الشباب الفارين الذين كانوا يديروها، وإن وجدت إحداها بإحدى القرى الكبيرة فإنه لم يعد بإمكاني أن أنسلخ عن مجموعتي لأكون أحد زبائنها كما كنت في السابق بقريتي "گورگه يير"، بالرغم من وفرة المال بجيبي، لأني كنت أستحي أن أفعل ذلك بسبب مراعاتي لمشاعر رفاقي الذين لم تكن لهم القدرة المالية اللازمة لشراء مثل تلك الوجبات المشوية الدسمة، وعليه ارتضيت أن أقاسمهم بتلك الوجبات البسيطة التي كانت تقدم لنا أثناء توزيعنا على بيوت القرى أثناء جولاتنا المعتادة...

ظللت على ذلك الحال وقد دخلنا بخمسٍ وعشرين قرية صغيرة أثناء تجوالنا اليومي المستمر، وكنت قد سجلت أسماءها بدفتري الصغير وحفظتها عن ظهر قلب، ونسيتها بمراحل لاحقة عندما أضعت دفتر يومياتي، وكانت تلك المنطقة قريبة من جبل كويژه المطل على مدينة السليمانية بسفحه الآخر، وكان أهالي تلك القرى الوديعة عند استضافتهم لي أثناء توزيعنا على بيوتهم يقدِّرون ويثمنون بي روح التضحية والإقدام لما كنت سائرًا عليه، حتى ذهب البعض منهم لأبعد من ذلك عندما قالوا لي بالحرف الواحد: لن تموت أمة الكورد وفيها من هو مثلك، والمقصود بذلك هو إكبارهم لتلك الخطوة التي جعلتني أترك أهلي وعملي وأتوجه إلى قرى كوردستان لأعيش تلك الحياة الصعبة من أجل مد يد العون، وأنا غريب عن المنطقة، ولغتي الكوردية تكاد تكون معدومة باستثناء ما تعلمته خلال الفترة القصيرة الماضية منذ أول مجيئي، حتى أصبحت أتفاهم

مع الآخرين من غير أن أضطر للتكلم باللغة العربية كما كنت أفعل أثناء بداياتي بأيامي الأولى، وكان تقدمي السريع بتعلم اللغة الكوردية نابع من رغبتي الشديدة بالتعلم باعتبار أن من مقومات القومية هي اللغة..

ومرت الأيام ونحن لا زلنا بتجوالنا، وحينها تعودت على النوم في العراء بعد أن تمكن التعب مني، حتى أصبحت بمجرد أن أطوي حذائي لأضعه تحت رأسي أذهب غارقًا بنوم عميق لا أصحى منه إلا على من يوقظني من أجل استلام نوبة حراسة أو حلولاً للصباح، وفي تلك الفترة أيضًا تعودت على تناول ما كان يقدم لي من طعام سواء بالكمية أو النوعية مهما كان نوعه وردائته لأن الجوع هو أمهر الطهاة كما يقال، وبين هذا وذاك فإنني وجدت نفسي سعيدًا بما كنت عليه وهذا هو المهم، فلقد كنت كالفراشة حرًا وطليقًا وإن كنت أخشى بداخل سريرة نفسي بزوال تلك النعمة من خلال عدم استمرار تلك السعادة، بسبب تاريخي المليء بالإخفاقات على مدى العمر كله، من غير أن أحقق أيًا من أمنياتي المتواضعة، عدا أخرها بنيلي لحريتي التي كنت سائرًا بدروبها، فتسألت هل يا ترى سيستكثر القدر علي ذلك؟ سؤال لم يكن لي علم بإجابته حينها والأيام التي تلت تلك الفترة هي التي ستجيب عليه.

بعد جولات عديدة أخرى بأرجاء تلك المنطقة؛ حان الوقت للاتجاه شرقًا حيث منطقة شهرباژير ومقر الناوچة بقرية تدعى بيانة، وهي من كبريات القرى هناك، وفيها أيضًا مقرات الفرع الثالث والرابع (لقي سيه ولقي جوار) للحزب الديمقراطي لكوردستان العراق، بعد أن انتفت الحاجة من التجوال لجميع القرى القريبة من محافظة السليمانية، وهكذا توجهنا شرقًا صوب جبل كاتو گوره الذي كان يشكل ساترًا طبيعيًا، باعتباره كان يفصل المكان الذي نتوجه إليه بمنطقة شهرباژير التي كانت ممتدة حتى الحدود الإيرانية.

وخلال مسيرتنا تجاه جبل كاتو گوره كان لازمًا علينا المرور بقرية "گورگه يير" التي كانت هي نقطة الانطلاق لي كما أسلفنا بالسرد، وهناك رأيت مكان سكناي السابق مهدمًا بعد أن هجرناه أنا وقريبي، وكذلك نفس الشيء قد حصل لبقية البيوت المؤقتة التي عاد أصحابها إلى مدينة السليمانية، وهناك تملكتني رغبة شديدة بلقاء صديقي محمد پيشمرگة الذي كان عضوًا سياسيًا بحزب الاتحاد الوطني ولكني للأسف لم أصادفه بطريقي حينها ولم يتسنَ لي أن أترك مجموعتي للذهاب للسؤال عنه في بيته، لأننا لم نتوقف للاستراحة في القرية، وكنا نمشي بطريقة الرتل المنفرد، وقد تغيرت الكثير من معالم تلك القرية الوديعة التي كانت تعج بساكنيها، وأصبح منظرها مبعثًا للكآبة بعد أن تفرق الناس عنها، وأصبحت تخلو من أي حركة كنت قد تعودت أن أشاهدها أثناء فترة إقامتي بها.

لقد كان مرورنا سريعًا ونحن نحث الخطى للتوجه باتجاه جبل كاتو گوره، وكانت رحلة شاقة مررنا خلالها بطريق وعر كان يشق وسط الجبل، وباجتيازه اتضح المشهد جليًا من أمامنا حيث المنطقة المفتوحة الواسعة الأفق لمنطقة شهرباژير، وأثناء نزولنا إلى منطقة السهول كانت عيوننا نحو السماء تنظر وتتحسب لمرور أي دورية استطلاعية لطائرات الهليكوبتر التي ستمطرنا بوابل نيرانها فور اكتشافها لنا، لأننا كنا مكشوفين من غير أي عائق طبيعي يسترنا وسط ذلك السهل المنبسط، حتى تمكنا بوقت قياسي من الوصول إلى مانع مائي لنهر متكون من الروافد والعيون المنتشرة بكل مكان من تلك المنطقة، فجلسنا هناك لنأخذ قسطًا من الراحة بانتظار مرور إحدى الجرارات الزراعية من التي تسحب في العادة عربة خلفها وكانت منتشرت بتلك المنطقة، وفعلاً مرَّت بنا إحداها وعبرنا بها على مراحل للضفة الأخرى.

وأثناء كل تلك المسيرة لم نشاهد أية قرية على الطريق الذي سلكناه وذلك يعني عدم إمكانية حصولنا على أي طعام أو شراب منذ الصباح الباكر وقد أوشكنا على وقت الغروب، ولكننا بعبورنا لذلك النهر أصبحنا قريبين من قرية تدعى مام خلان وهي قرية كبيرة ومعروفة بموقعها الذي يقع على الطريق المؤدية لقضاء چوارتا، وسرعان ما وصلنا لتلك القرية وتوزعنا في الحال بمساعدة مختار القرية على بيوتها من أجل الحصول على كسرة من الخبز مصحوبًا برشفة من الشاي وهو جُلُّ ما كنا نتمناه بعد قضاء يوم شاق وطويل، منوهًا إلى أن حالة الجوع التي كنت أمر بها لم تكن تعني عندي نوعًا من المعاناة، لأني كنت أعتبرها حالة اعتيادية ملائمة لتلك الظروف التي كنا نعيشها وكنت سعيدًا بتلك المعاناة لأني اخترتها بملئ إرادتي وهو أمر ليس مفروضًا عليَّ بالإكراه وهذا هو المهم، إضافة لبعض الفوائد الصحية التي تتعلق بضرورة التخلص من زيادة الوزن من أجل الحصول على لياقة بدنية تجعلني قادرًا على التنقل أثناء الجولات الراجلة الطويلة أو أثناء أي ظرف طارئ آخر يستوجب منا القتال أو الانتشار.

توالت مسيرتنا عبر منطقة شهرباژير وتجولنا عبر القرى ونحن نتجه إلى مقرنا المؤقت الكائن بقرية بيانة، وقد تعرفت على الكثير من الناس الطيبين، ودعاني الكثير من أهالي تلك القرى لزيارتهم إذا ما تسنى لي العودة لقريتهم، ومن الطرائف التي صادفتني هناك وبقيت عالقة بذهني حتى الآن، هو إنني بإحدى المرات عندما كنت ضيفًا على أحد البيوت سألني رب المنزل عن أصولي فأخبرته أنها من السليمانية ولكني ولدت وتربيت وكبرت في بغداد، ولهذا تجدني لا أجيد التحدث باللغة الكوردية، فتعجب الرجل لذلك وقال:

- كيف نسيت لغتك الكوردية بهذه السهولة؟
- إنني لم أتعلم اللغة الكوردية لكي أنساها بمراحل لاحقة!

- ألم تقل لي إنك من أصل كوردي؟!

- نعم لقد قلت ذلك.

- وكيف يكون المرء كورديًا ولا يعرف لغته؟!

فقلت موضحًا للمرة الثانية:

- إن الناس الذين يعيشون بالمجتمع الذي ولدت وترعرعت به في بغداد لا يتكلمون اللغة الكوردية وهم يتكلمون اللغة العربية التي تعلمتها منهم، وسأضرب لك مثلاً لتوضيح الموضوع أكثر: ابنك هذا الذي يجلس بحجرك حفظه الله وهو بعمر السنتين كما أعتقد إذا ما أرسلته إلى بريطانيا وانقطعت عنه لعدة أعوام فستجده بعدها يتكلم الإنكليزية ولا يعرف أي شيء عن اللغة الكوردية على الإطلاق وسوف تحتاج لمترجم أثناء حديثك وإياه..

فقال معترضًا:

- كيف يكون هذا هو كوردي ابن كوردي؟!

فقلت ضاحكًا:

- هكذا هي لعبة الحياة.

ثم أقفلت الموضوع منتقلاً لغيره لأنه سبب لي صداعًا، لعن الله الجهل والجهلة..

وفي طرفة مريرة من نوع آخر وفي بيت آخر، أخذ مضيفنا يتكلم عن موضوع غلاء الأسعار وما شابه، وورد خلال حديثه عبارة رعب دينار فاستغربت ذلك وسألت أحد رفاقي همسًا عن معنى رعب دينار؟ فقال:

- هو يقصد ربع دينار.

فرجعت لمضيفي وقلت له:

- إنك تقصد ربع دينار أليس كذلك؟

- عبارة ربع هو المعنى باللغة العربية، ورعب هو ما يوازيه بالمعنى بلغتنا الكوردية، وإذا كنت حريصًا على تعلم الكوردية على أصولها فاعلم هذا وقل رعب بدلاً من ربع.
وقبل أن أنبس ببنت شفة نادى على ولده قائلاً:
- يا جعمة احضر لنا الشاي.
فقلت له:
- من هو جعمة؟
- هو ابني الآخر.
وهذه المرة لم تكن لي الرغبة أن أعلمه أن اسم ابنه الصحيح هو "جمعة" وليس "جعمة" لأن لا جدوى من مناقشته مرة أخرى.

لقد كانت تلك المفارقات طريفة بظاهرها ولكنها كانت محزنة بل موجعة بالنسبة لي، لأنها جاءت نتيجة الجهل لطبقة واسعة من هؤلاء الناس الطيبين الذين لم يكن لهم ذنب، لأنهم لم يتسنَ لهم التعلم جراء ظروفهم المعيشية الصعبة التي توارثوها أبًّا عن جد، والجهل لدى تلك الشريحة من الناس كان هو السبب الذي أدَّى بالكثير منهم للانزلاق إلى الهاوية في بعض الظروف، ومنهم تلك القوات المسماة بالجاش أو الجحوش، وهي قوات عسكرية كوردية تقاتل دائمًا إلى صف الحكومات المتعاقبة على حكم العراق بالضد من تطلعات وإرادة الشعب الكوردي وذلك من أجل كسب منافع مالية.

ومن الأمور الأخرى الجديرة بالاهتمام، تلك التي اكتشفتها خلال تلك الفترة القصيرة وأنا ضمن مجموعتي بناوچة ماوت للكثير من الأمور التي لم أكن أعرفها عنهم، ومنها أن المجموعة مكونة من شريحتين من المقاتلين، فالأولى كانت من كبار السن الذين قدموا من إيران وتركوا عوائلهم هناك ليراجعوهم أثناء الإجازات كأي موظف حكومي، والشريحة الثانية هي جيل الشباب الذين

كانوا بنفس عمري آنذاك أو أكبر بقليل، وكلهم جاءوا من مدينة السليمانية أو بما كان يحيط بها من نواحي، وذلك بسبب ملاحقة السلطة لهم جراء ارتكابهم لجناية أو جنحة أو سرقة أو حتى مشكلة عشائرية، كأن يكون أحدهم مطلوب للثأر، والتحاقهم بالحزب الديمقراطي كپيشمرگة من أجل تأمين معيشتهم وأمنهم الشخصي، وكنت الوحيد بينهم الذي لم تكن له أية مشكلة من التي كانوا متورطين فيها قبل التحاقهم بالثورة الكوردية، فأنا تركت بيتي وأهلي نيلاً للحرية الفكرية ومساندة للثورة الكوردية، وقد أصبحت مطلوبًا لسلطات الدولة كنتيجة طبيعية لانخراطي بعمل عسكري بالضد منهم..

ومن المؤسف حقًا أنني من خلال اختلاطي بصغيرهم وكبيرهم وجدت أن القوم لا يفقهون من السياسة ولا حتى الشيء اليسير المبسط من الفهم لما كان يجري في كوردستان على أقل تقدير، ناهيك على أن أغلبهم كان يجهل تاريخ الكورد كأمة وكشعوب كوردية مجزئة، والشيء الوحيد الذي وجدتهم مجمعين عليه هو ولائهم للعائلة البارزانية فقط كما كانوا يصرحون، على الرغم من عدم مصادفتي لأي مقاتل ينتمي لهذه العائلة، بداخل مجموعتنا القتالية أو بباقي المجموعات المقاتلة بناوچة بنچوين أو بناوچة قرداغ [١] أو بكل تشكيل الفرع الثالث والرابع للحزب الديمقراطي الكوردستاني... وأنا شخصيًا أقر بالدور النضالي لتاريخ عشيرة البارزانيين ولكني لم أسمح لنفسي باتباعهم بشكل الطاعة العمياء لأنهم بشر، ومن الممكن أن يقعوا بالأخطاء، ويتوجب علينا أن ننبههم على مكامن الأخطاء لكي تستقيم الأمور، وهذا الرأي ما لم يتقبله رفاقي في الناوچة بتلك الفترة، وأعتقد أن الأمر لازال على هذا المنوال حتى زماننا الحالي.. منوهًا إلى أن اطلاعي على تلك الأمور التي لم ترق لي هي لم تحز

---

(١) قه ر ه دا غ: منطقة ضمن حدود محافظة السليمانية.

في نفسي ولم تقلل من اندفاعي بذلك الطريق الذي اخترته عن قناعة، لإيماني أن النوايا الحقيقة للناس لا يستطيع أحد أن يقيمها من خلال حديث عابر، وهو شأن متروك لضمير كل فرد منهم، بشرط ألا يعمل على خيانة القضية الكوردية أو يتأمر عليها بسبب خلافاته مع الآخرين من أبناء جلدته العاملين بالفصائل المقاتلة الأخرى لبقية الأحزاب على الساحة الكوردية، فهذا هو مجتمعنا الكوردي بكل أشكال طبقاته الثقافية ويجب علي أن أتقبله.

وما تكشف لي واطلعت عليه كان تحصيل لحاصل ما مرَّت به كوردستان من مآسي وويلات لابد أن يكون لها إفرازات سلبية يجب علينا أن نعمل على تجاوزها، وإن كنت أتطلع بداخلي بالتمني لأن نكون بمستوى نضال بقية الشعوب الحية ومنها على سبيل المثال النضال البطولي للشعب الفيتنامي، أو على الأقل لنكون بمستوى الدم الكوردي المهدور على مدى تاريخ الكورد كأمة.

وبين هذا وذاك من تلك الأفكار التي كانت تراودني حينها وجدت نفسي قد أصابها بعض الزهو والفخر كوني كنت الوحيد من بين رفاقي في السلاح ممن التحق طواعيًا من غير السعي لمكاسب ذاتية، وهو أمر لم أغفره لنفسي التي أنبتها كثيرًا معتبرًا أن هذا التفاخر الذي تحدثت به مع ضميري يعني الترفع على إخوتي وباقي رفاقي الذين أحبوني وأحببتهم، وتلك باعتقادي كانت من ترسبات ومخلفات حياتي السابقة التي أصبحت من الماضي، الذي لن أسمح بالرجوع والعيش به مرة أخرى، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يناله، لأني اضطررت بمرحلة لاحقة بالرجوع إليها نادمًا جراء الخيانة من قبل إخوتي ورفاقي.

مرَّت الأيام وأنا بكل يوم جديد أتعلم شيئًا جديدًا سواءً من ناحية تعلم اللغة الكوردية، أو مسايرة العادات المتبعة، أو حتى بتعلم كيفية لبس الزي الكوردي على الوجه الصحيح كما يفعله أهالي تلك المنطقة، ومنها طريقة لف غطاء

الرأس المسمى بالجامانة، أو طريقة لف الحزام على الخصر المسمى بالبشتين على الطريقة السورانية.

وأخيرًا وصلت مجموعتنا المسلحة ناوچة ماوت إلى قرية بيانة بمنطقة شهرباژير حيث مقرات الحزب الديمقراطي، بعد أن أمضيت مع المجموعة فترة تجوال قاربت الثلاثة أشهر، لأننا حينها قد أصبحنا بأواخر الشهر التاسع من عام ٨٢، وقريتنا هذه كانت كبيرة وفيها سوق لبيع الخضار ودكاكين توفر بعض الحاجات المنزلية الضرورية، وأثنائها لم نتوزع على بيوت قرية بيانة كما كنا نفعل عند دخولنا لأية قرية تصادفنا، بسبب أن مكوثنا فيها سيكون طويلاً، ولذلك كان يتوجب علينا الاعتماد على النفس بتوفير ما نحتاجه من منام وطعام، وعندها اتخذنا من سفوح التلال العالية المطلة على القرية معسكر لمجموعتنا، وكانت بالقرب منا مجموعة من الرفاق المقاتلين من ناوچة بنچوين التي يترأسها رجل يدعى شريف كچل كان بمراحل لاحقة أحد أصدقائي المقربين، وعليه فإن قسمًا من أفراد مجموعتنا قد تحملوا مسؤولية إعداد الطعام بتوجيه من رئيسنا قادر قادر.

لقد كانت مقرات كل مجاميع الحزب الديمقراطي بأطراف تلك القرية هي مقرات مؤقتة، ليس فيها أية مباني أو ما شابه، وإنما هي مقرات صيفية للاستراحة، وفيها أيضًا مخازن الذخيرة والعتاد لأسلحتنا وهي مدفونة تحت التراب بشكل عشوائي، وكان المقر الوحيد المسقف والمبني جدرانه باللبن الطيني هو مقر الفرع الثالث والرابع للحزب الذي يرأسه رچل كبير في السن يدعى نادر هورامي، وفي مقرنا الجديد حصل كل فرد منا على كيس للنوم كالذي يحمله الجندي الأمريكي على ظهره، وهو مصنوع من مادة النايلون العازلة للرطوبة، وفيه سحاب يُقفل من الداخل عندما يدخله من يريد النوم، ويحمي نفسه من البرد أو المطر ليلاً، ولدى سؤالي لبعض الرفاق عن منشأ صناعة هذه

الأكياس؟ أخبروني أنها أمريكية الصنع وإيران هي من جهزتنا بها، فتلعثمت قليلاً وأصابتني الغصة لأني أعلم أن إيران لا تعمل شيئًا من غير أن يكون لها مصلحة به، وبالتأكيد المصلحة القومية الكوردية هي من ألد أعداء الفرس والترك، هاتين الدولتين القوميتين اللتين لا تريدان للأمة الكوردية النهضة والاتحاد بكافة أجزائها.

لقد كان باستطاعة أي فرد منا الذهاب إلى سوق قرية بيانة القريبة منا حيث مسجد القرية والمقهى متى ما شاء أثناء النهار، بشرط أن يستأذن من رفاقه أو إخبارهم على الأقل، مع التشديد أن لا يترك سلاحه في المقر، وهذا ما كنت أفعله كل يوم من أجل التبضع من حسابي الخاص لعمل وجبة بسيطة من الطعام تسد الرمق على الأقل، وهي فرصة لقضاء بعض الوقت بمقهى القرية والتعارف على بعض روادها من پيشمرگة الأحزاب الأخرى، كالشيوعي والاشتراكي والاتحاد الوطني، وهو أمر كان يبدو غريبًا لمن يراني وأنا أحادثهم، لأنه على ما كان يبدو أنه تصرف غير مسبوق، وهو أمر لم يرق لمسؤولي قادر قادر الذي وصلته أخباري ونصحني بالكف عن تلك العلاقات خشية من غدرهم لي!... وهي حجة لم تكن مقنعة لي، وإن كنت أعرف السبب الحقيقي وأتجاهله متعمدًا، فهو كان يخشى من أن يكسبني بعض الذين كنت ألتقيهم من پيشمرگة الأحزاب الأخرى لأنتقل وأنضم إلى تشكيلات أحزابهم، وهو مفهوم كانت تمارسه كل الأحزاب على أفرادها بهذا الخصوص، وأعتقد أنهم كانوا يفضلوا الذي يتركهم ويرجع لبيته أو يسلم نفسه للسلطة على أن ينتقل ليكون عنصرًا مقاتلاً بحزب كوردي آخر على افتراض أنه سيكون مضطرًا لقتالهم مستقبلاً إذا ما نشبت أي مشكلة بينهم وبين ذلك الحزب، وعليه فإنني طمأنته قائلاً: إنني في اليوم الذي ستتكون عندي القناعة بترك حزبكم وهذا ما لا أرجوه،

فاعلم يا رفيقي العزيز أنني حينها سأرجع لبيتي لأنه لا جدوى من الانتقال لحزب آخر.

إن موضوع التنقل من حزب لآخر كان موجودًا على أرض الواقع من قبل الكثير من پيشمرگة الأحزاب، وبحسب ما ترتأيه مصالحهم الخاصة طبعًا، وليس من أجل تقاطع بالأهداف السياسية والارتقاء بما يخدم كوردستان وأهلها، باعتباره هو أفضل من ذلك الحزب الذي تركه، ومثال ذلك فلقد ترك مجموعتنا بناوچة ماوت بعض الأفراد والتحقوا بمجاميع من حزب الاتحاد الوطني وهم بكامل سلاحهم وعتادهم، وكذلك التجأت إلينا مجاميع من الحزب الإسلامي لتحتمي بمجموعتنا على أثر الهجوم المباغت من قبل مجاميع الاتحاد الوطني على كل فصائل حزبهم بكافة مناطق كوردستان، لأنه كان حزب موالي لإيران مائة بالمائة..

وحزب الاتحاد الوطني الكوردستاني هذا وبالرغم من علاقتي الوطيدة ببعض أفراده إلا أنني قد تعرضت لبعض المضايقات من قبل قلة من أفراده أثناء تواجدي وحدي بعيد عن مجموعتي، وحدث ذلك عندما نزلت لقرية بيانة بإحدى المرات وكنت بصحبة اثنين من رفاقي وتصادف أن التقينا بالبعض منهم على الطريق وهم سائرون بسياراتهم البيك أب التي دائمًا ما كانوا يستولون عليها أو يسرقونها من مدينة السليمانية، فتوقفوا بجانبنا وسألونا باستهجان وسخرية: هل تبيعون أسلحتكم لنا؟ من أجل ماذا تحملون هذا السلاح؟ وقبل أن نجيبهم بما يستحقونه من كلام هربوا مسرعين بسيارتهم وهم يضحكوا بشكل طفولي عالي، وعندها تيقنت مدى عمق المشكلة التي تعاني منها كوردستان من هؤلاء الجهلة، وخشيت على نفسي من نفسي عندما تجرني تلك التصرفات الصبيانية الطائشة عن الهدف السامي الذي من أجله أنا متواجد بتلك البقعة من كوردستان.

وهذا ما حدث بالفعل عندما كنت أمشي وحدي بإحدى الأيام وتوقفت إحدى سياراتهم، وتبسمت لهم حينها لاعتقادي أنهم قد يكونون أحد أصدقائي ويرغبوا بتوصيلي إلى القرية، ولكني تفاجأت عندما أمطروني ببعض الكلمات النابية ومنها: إنك تبدو كجحش برأس أحمر؟ وهذا معناه أن كل من يلبس غطاء رأس الجامانة حمراء اللون هو من الجحوش الخونة بنظرهم لأن بعض الجحوش هم فعلاً يفضلون اللون الأحمر لغطاء رأسهم، وعندها تملكني الغضب الشديد وتبخرت كل القيم العليا من عقلي، وبسرعة تراجعت بخطوتين عنهم ساحبًا أقسام بندقيتي لأرميهم كلهم بطلقات نيرانها، لكنهم هربوا مسرعين واكتفيت أنا بذلك ولم ألاحقهم بالضرب وهم يهربون، وحمدت الله الذي دفع بالشر عني ولم يحصل ما كنت أبغضه من قتال الأخوة، لقد فعلت ذلك لأني شعرت بأني عاجز عن إجابتهم بما يستحقون من توبيخ لوقع الصدمة على نفسي، فالكلام كان قاسيًا ومشينًا ولا يمكن السكوت عنه مطلقًا أيًا كان قائله، من ناحية أخرى فأنا لم أخبر رئيسي قادر قادر بذلك لكي لا تتسع المشكلة، واكتفيت بما فعلته بنفسي وإن كان تصرف متهور لم أكن أرضاه لنفسي ولكنها لحظة غضب كان الله قد كفاني شرها.

وعلى ذكر تلك الفترة التي كنت فيها إما ذاهبًا للقرية أو راجعًا منها إلى مقرنا صادفني شخص من الحزب الديمقراطي كان يتوسط مجموعة من البيشمرگة الذين لم أكن أعرفهم تمامًا ولكنهم أشاروا لي قائلين لذلك الرجل الذي يتوسطهم: هذا هو ملازم سه رچل الذي حدثناك عنه، فسلم علي الرجل وكلمني باللغة العربية بعبارت ودية للغاية، معرفًا نفسه بأنه يدعى شريف كه چه ل وهو مسؤول ناوچة بنچوين، فبادلته التحية بنفس الود والاحترام ولم أزد عليه بالرغم من أنه كان أبرز قيادي في الحزب الديمقراطي، مع استغرابي من

معرفته المسبقة لي، فقال الرجل: لقد سمعت عنك واشتقت أن ألتقي بك وأتعرف عليك ونكون أصدقاء، فشكرته مبديًا رغبتي بقبول صداقته، وتوالت بعدها اللقاءات بيننا حتى أصبح أحدنا يكلم الآخر بدون تكلفة، وكان الرجل دائم السؤال عن أي شيء لا يعلمه بخصوص مجريات الأحداث السياسية بذلك الوقت إضافة للتاريخ الكوردي بشكله العام الذي أنا على إلمام متواضع بالكثير من مفاصله، وكان يستمع لي بآذان مصغية واهتمام بالغ، وكأن الرجل وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب يسعى لأن يثقف نفسه من خلالي، وقد تبين لي أنه جاهلاً بالسياسة أيضًا على الرغم من كونه قيادي بالحزب الديمقراطي، وكل الذي كان يجيده هو إمكانياته العسكرية بالقتال بشهادة القاصي والداني له بتلك المنطقة..

وعلى ذكر المواقف التي حصلت معي وأنا وحدي بعيدًا عن رفاقي بالمجموعة، فلقد صادف بإحدى المرات وكنا بجولة قريبة من قريتنا بيانة وكنت حينها مريضًا لأصابتي بنزلة برد شديدة، وطلبت حينها الإذن من رئيسي قادر بالرجوع لمقرنا بقرية بيانة، فسمح لي وسألني إن كنت أحتاج لرفقة تدلني على الطريق، فشكرته وقلت له إنني على علم بالطريق، ومضيت وحدي أمشي بطريقي، وتوقفت على قمة إحدى التلال للراحة، وهناك وجدت مقبرة تواجدت فيها بعض النساء العجائز وهن يبكين موتاهن عند أحد القبور، فسلمت عليهن فرددن التحية بأحسن منها، ومدت إحداهن يدها بجيبها وأخرجت منه بعض الجوز لتعطيه لي ظنًا منها أنني قد أكون جائعًا، فأخذته منها وشكرتها، وعندها قالت لي: لا تتركونا هذه المرة كما فعلتم بسابق المرات، ومدت يدها إلى حزامي الكوردي البشتين وهزته بعنف كإشارة لطلب النخوة منا وقالت: إن شرف كوردستان معلق بين أيديكم فلا تفرطوا به ولا تخيبوا أملنا بهذه المرة؟ بإشارة للإخفاقات السابقة للثورة الكوردية...

عندها لم أستطع كبح مشاعري وسقطت دمعة من عيني لذلك الموقف المؤثر، لأني من خلال اطلاعي لمجريات الأمور على الساحة الكوردية قد علمت بيقين أن القوم منشغلين بمعادات بعضهم لبعض ولا أحد منهم يبالي بالشرف الكوردي الذي وصفته تلك المرأة الطيبة أنه معلقًا بين أيدينا كما كانت تعتقد، لقد كان موقفًا مؤثرًا ظل مطبوعًا بالذاكرة حتى يومنا هذا..

وهكذا فإن الإخفاقات بسبب ما كنت أطلع عليه من حقائق مضنية بكل يوم جديد، أخذت تتوالى لتحطم أركان تلك الصورة المثالية، التي رسمتها للثورة الكوردية بعقلي وضميري، بما اعتبرته نضالاً بطوليًا مشروعًا، وأيام خالدة كنت قد حسدت نفسي بمعايشتها، حتى جاءت القشة التي كسرت ظهر الحقيقة، عندما علمت بإحدى الأيام أنه قد تمَّ أسر ثمانية من الجنود العراقيين الذين كانوا قد سلموا أنفسهم طواعيًا على أثر غارة شنتها إحدى مجاميع الفرع الثالث لحزبنا الديمقراطي، ذهبت للقائهم بمكان حجزهم الذي كان قريبًا من مجموعتنا، ووجدتهم تحت الحراسة بسقيفة صيفية مكشوفة، فطلبت من حارسهم أن يأذن لي بمكالمتهم فوافق من فوره، فسألتهم: من أين أنتم؟ فقالوا والانكسار يخنق أنفاسهم: نحن من مدينة الحلة بمحافظة بابل، ونحن خريجي إعدادية الصناعة وتم تجنيدنا بموجب الخدمة العسكرية الإلزامية وإرسالنا إلى هذه المناطق للحراسة بإحدى الربايا العسكرية على الحدود الإيرانية لأننا لم ننتسب لحزب البعث وليس لنا من يتوسط لنا من أجل قضاء خدمتنا العسكرية بمحافظتنا بابل..

لقد كان أولئك الجنود البسطاء صادقين بكل كلمة قالوها، لأني أعلم من غيري بهذه الأمور باعتباري كنت على الدوام أحد ضحايا هذه الممارسات بالإقصاء لأبعد وحدة عسكرية نتيجة رفضي الانتماء لحزب البعث، فسألتهم عن الكيفية

التي تمَّ بها أسرهم؟ فقالوا: لقد سلمنا أنفسنا إلى قوات الپيشمرگة أثناء هجومها على الربية التي كنا فيها، ولم نستعمل أي سلاح من أجل مقاومتهم، وعندها سألت أحدهم عن اعتقاده بما سيكون مصيرهم؟ فقال: لا أحد منا يعلم بمصيره ولم يعدنا أحد من الپيشمرگة بأي وعود كإطلاق سراحنا مثلاً. وعندها ودعتهم وقد تملكني شعورًا عارمًا بالأسى لهؤلاء الشبان الذين صعبوا علي ولم يكن بيدي شيء أفعله من أجلهم لكي يعودوا بسلام إلى أبائهم وأمهاتهم، ناهيك عن شعوري بالعار لأننا هنا من أجل مقارعة الظالمين وليس المظلومين، فهؤلاء المساكين ليسوا الأعداء الحقيقيين لكوردستان، لأنهم كانوا من المغلوبين على أمرهم، وهنا قفز لذهني سؤال مفاده: ماذا سيكون موقفي إذا ما وجه لي الأمر بقتل هؤلاء المساكين؟ هل سيكون نوعًا من النضال مثلاً؟ وجاءني جواب ضميري سريعًا وقاطعًا أنني لن أكون قاتلاً مأجورًا لأني لم أتعلم مثل هذه الأفعال الوضيعة، وهذا لا يسقط حقي بأن أقاتل بكل ضراوة من أجل أن أحمي وأدافع عن أولئك الناس البسطاء من أهالي تلك المنطقة وذلك ما تطوعت من أجله بحقيقة أمري...

ولم يقتصر الأمر على اطلاعي لتلك الوقائع المخزية فقط، وإنما تلتها بعض المشاهدات لما كان يمارسه البعض من رفاقي في المجموعة أثناء تلك الجولات واستضافتنا من قبل أهالي القرى، فتصرفاتهم كانت مشينة ولا تليق بكل من يحمل صفة ثائر، لأنهم كانوا يتغامزون ويسترقون النظر إلى عائلة ذلك الرجل الذي فتح لنا بيته واستضافنا حبًا وكرامة بنا وبكوردستان، وهو أمر لم أتحمل السكوت عنه وأوصلت تفاصيله لمسؤول مجموعتنا قادر قادر من أجل إيقاف أولئك الصبية عند حدهم على الأقل، وقد وعدني الرجل أنه سيجري اللازم بحقهم، ولكني لم ألحظ أي تغيير بسلوكهم يؤشر بأنه قد اتخذ أي إجراء بحقهم بما فيه نصحهم على الأقل، والسبب باعتقادي أنه لم يكن متمكنًا من الضغط

عليهم باحتمال أنهم قد يتركوا مجموعتنا وحزبنا ويذهبوا لينضموا لحزب آخر أكثر رفاهية بنضاله على الأرض، إضافة لأنهم لن يضطروا بالتجوال مشيًا على الأقدام وينامو في العراء بداخل أكياس بلاستيكية، وإنما سيتجولون بالسيارات ويتواجدوا بمقرات ثابتة لها سقف على الأقل يحميهم من البرد والمطر، خصوصًا ونحن كنا مقبلين على فصل الشتاء البارد، ناهيكم على أنني لم أرَ مسؤولنا قادر قادر يعطي فلسًا واحدًا لأي فرد في المجموعة وأنا منهم لكي يشتري لنفسه علبة دخان واحدة على الأقل، وبالتالي فإن أفراد البيشمرگة بمجموعتنا كانوا يقدمون عملاً طوعيًا صعبًا بدون مقابل، وبالتالي لا أحد يستطيع السيطرة على تصرفاتهم.

من خلال كل ما تقدم من وقائع ومشاهدات كانت بالغة الأسى على نفسي وشديدة المرارة على ضميري الذي أصبح معذبًا؛ أصبحت متحيرًا من أمري، فحتى الأمس القريب كنت ممتنعًا على أن لا أكون شوكًا مؤذيًا بيد أحد، واليوم جئت من أجل أن أكون وردًا أفوح بعطري لكل من حولي، ووجدت نفسي قد أصبحت عن غير قصد إطلاقة طائشة من بندقية تمسكها أيادي غير أمينة، بل ومشكوك بإخلاصها وولائها لكوردستان كوطن قومي وللعراق كوطن جامع لكل القوميات بغض النظر عن أداء حكوماته المتعاقبة سلبًا أو إيجابًا..

ولهذا فقد كبرت مداركي وتفتح عقلي ووجداني خلال تلك الفترة القصيرة منذ أن فارقت العيش في قرية "گورگه يير" وحتى عملي الحالي كمقاتل بصفوف الحزب الديمقراطي الكوردستاني، خصوصًا بعد أن أدركت بأنه لا جدوى من تصحيح الحال حتى لو انتقلت للعمل بحزب آخر، ذلك لأن ما كان يدور من سياسات حزبية وحتى التصرفات الشخصية السلبية لكل المقاتلين هو أمر لم أستطع تفهمه أو معايشته ثم القبول به لأفعل مثله، والسبب هو أنني غريب

على تلك الثقافة التي كانت سائدة من خلال المنفعة الشخصية والانتهازية من أجل مكاسب آنية ضيقة، حتى مفهوم التضحية بالنفس كان يقدم قربانًا من أجل الفوز بتلك المكاسب الدنيئة، باستثناء القلة القليلة من المناضلين الحقيقيين الذين نذروا أرواحهم للعقيدة التي أمنوا بها نصرة للحق الكوردي.

من ناحية أخرى أصبح الرجوع إلى ما كنت عليه بحياتي السابقة كمواطن عادي أمرًا مستحيلاً لأني من وجهة نظر الدولة أصبحت خارجًا على القانون ومطلوبًا لعدالتهم المزيفة، وهذه التهمة وحدها كفيلة أن تجعل رقبتي تتدلى على مقاصل إعداماتهم الذائعة الصيت، ومن أجل تفريغ الشحنات العصبية الضاغطة على نفسي أطلقت العنان لقلمي أن يسطر مقالات تتكلم عن الصورة المثالية للنضال من أجل كوردستان، مستشهدًا بذلك بتاريخها العريق في الثورة على كل الطغاة وكيف كان الپيشمرگة قديمًا تضرب به الأمثال بصموده وتضحيته وصبره على الصعاب، وكان عنوان أحد أهم مقالآتي التي كتبتها هو: كوردستان عروس مهرها غالي يدفع بالدم، وكنت أسلم تلك المقالات أول بأول لمسؤولي قادر الذي أظهر تعاطفه وما كتبت وبنفس الوقت شجعني لأن أكتب المزيد من أجل أن يرسلها بدوره لتنشر بجريدة الحزب على حد قوله تحت اسم (سه رچل ناوره سي) سرچل نورسي...

واستمررت بالكتابة على نفس وتيرة مشاعري الصادقة وكان إلهامي مُستمد من طبيعة كوردستان الجميلة، وطيبة أهلها البسطاء من الذين التقيت بهم وشاركتهم بزادهم وملحهم، ولم أكن أعلم إن كانت تلك المقالات ترسل حقًا من أجل نشرها أم أنها تهمل لعدم وجود جريدة لحزبهم بالأصل؟ سؤال لم أعرف له إجابة حتى الآن، ولكني لم أقرأ أو أطلع على أية منشورات كانت توزع علينا كمقاتلين پيشمرگة في الحزب الديمقراطي آنذاك، وفي تلك الأيام التي أصبحت ثقيلة على نفسي جراء ما أسلفت ذكره بشرح وافي من وجودي ضمن صفوف

الحزب الديمقراطي، توقفت المجموعة عن القيام بجولاتها بين قرى تلك المنطقة وتوجهت للمشاركة بالقتال الذي كان دائرًا بين الجيش الإيراني والجيش العراقي الذي كان مرابضًا على الحدود العراقية من أجل توجيه ضربة تطعن به الجيش العراقي من خلف ظهره، وعندها التمست العذر من أجل ألا أشارك بتلك المهمة التي تخلوا من شرف القتال برجولة، وبقيت مع نفر من زملائي بمقرنا الصيفي عند المرتفعات القريبة من قرية بيانة، وعند رجوعهم انتابني حزن شديد لأني علمت أنهم قد أسندوا الجيش الإيراني من خلال ضرب الجيش العراقي بالهاونات وقذائف (الأر بي جي سفن)، لإيماني بأن العدو الحقيقي لا يتواجد هناك وإنما هو موجود بداخل مدينة السليمانية، وهو يدير أجهزته القمعية المسماة بقوات الطوارئ وقوات الأمن الخاص وغيرها من المسميات التي ارتبط اسمها وعنوانها بإبادة وإرهاب الشعب الكوردي، لا أن نسند الجيش الإيراني الذي هو بالتأكيد ليس صديقًا للثورة الكوردية ولا لشعبنا الكوردي سواء بكوردستان إيران أو بالعراق..

وعليه فإن تصرف حزبنا الديمقراطي الكوردستاني حينها على ذلك النحو جعلني أشك بمصداقيته كحزب قومي، لأن الوقائع على الأرض كانت تُشير بكل وضوح لا لبس فيه أننا كنا بحقيقة أمرنا طلائع متقدمة للجيش الإيراني في العراق، وأولئك الجنود البسطاء الذين وقعوا بقبضتنا قبل فترة تمَّ تسليمهم بفترة لاحقة لإيران باعتبارهم أسرى حرب، وتلك علامة أخرى جعلتني أراجع نفسي كثيرًا من غير أن أجد لي مخرجًا من ذلك الفخ الذي أوقعني به قريبي الانتهازي الذي وجد مصلحته الرخيصة مع الحزب الديمقراطي من خلال دفعي بمحرقتهم، وكم تمنيت حينها أن أموت لكي تبقى يداي نظيفة ولا تتلطخ بالعار الذي لحق بي ككوردي كان هدفه مد يد العون لشعبه، وأصبح رغمًا عنه بندقية مأجورة للفرس، ولكني وللأسف وجدت أن الطريق الذي سلكته لم يعد بإمكاني

التراجع أو التخلي عنه وبنفس الوقت هو سلوك يتنافى مع ما تربيت عليه منذ طفولتي، لقيم عليا استمديتها من تاريخ عائلتي، باعتبار أن ذلك الطريق لم يكن مشرفًا لي مهما كانت الدوافع والأعذار..

وأثناء تلك الفترة؛ وحينها كنا مقبلين على نهاية الشهر التاسع من عام ١٩٨٢، وأوشك عيد الأضحى على القدوم، وجاء بعض الأهالي لزيارة أولادهم وذويهم من البيشمرگة، وانتشروا بتلك القرى التي لهم فيها بعض المعارف والأقارب والأصدقاء، وجرائه ذهب الكثير من رفاقي بإجازات لكي يلتقوا بأهلهم، وبقي في المقر من كان على شاكلتي، مقطوعًا من الأهل والأقارب الذين قد يزوره أو يتفقده أحدهم بتلك المناسبة، ولأن البقاء وحيدًا بمقر المجموعة يشعرني بأنني بغربتي عن أهلي، فقد طلبت الإذن لإجازة أذهب بها لقرية "گورگه يير" التي اعتبرتها مسكني ومحل إقامتي السابقة، من أجل الاتصال بأقاربي في السليمانية عن طريق رسالة قد أجد هناك من ينقلها إليهم لاستفسر فيها عن أحوال أهلي ببغداد، وبنفس الوقت أنقل لهم أخباري.

وقد كنت أعلم أن المسيرة لقرية گورگه يير كانت تتطلب مني المشي بشكل متواصل لنهار كامل، يبدأ منذ شروق الشمس وحتى مغيبها، من غير التوقف بأي قرية تصادفني على الطريق الذي كنت أعلمه جيدًا من خلال جولاتنا السابقة بتلك المنطقة، وعليه فلقد غادرت المجموعة بعد حصولي على الإذن بالمغادرة بفجر أول يوم لعيد الأضحى متوجهًا إلى قريتي التي اعتبرتها مكان مولدي السياسي كمقاتل كوردي، وقد نصحني بعض من رفاقي قبيل مغادرتي لهم بأن أغير غطاء الرأس الذي كنت أعتمره، لأنه كان باللون الأحمر الذي يرمز لمن هو من منطقة باهدنان ولعشيرة البارزانيين على وجه التحديد، لأبدله بواحد آخر خشية من تعرض أفراد پيشمرگة الاتحاد الوطني لي أثناء سيري على ذلك الطريق وأنا وحدي.. ولكني امتنعت أن أفعل كما نصحوني

وغادرتهم مرتديًا نفس الزي الذي تعودت عليه منذ انضمامي لهم، على الرغم من امتلاكي لواحد آخر مغاير باللون ومتماشي مع الزي السائد بتلك المنطقة.

وهكذا توكلت على الله ونزلت من مقرنا بقرية بيانة قبل شروق الشمس، ومنها انطلقت بمسيري مع بدايات خيوط الفجر، واضعًا ببالي خطة تقتضي مني أن أتجه شمالاً حتى قرية ماما خلان التي أتوقع أن أصلها عند منتصف الظهيرة، ومنها كان يتوجب علي أن أتجه غربًا تجاه النهر الذي يقع أسفل جبل كاتو گوره، الذي باجتيازه أكون قد أصبحت قريبًا من قريتي بمسافة ثلاث ساعات من المشي المتواصل، وكانت استراجيتي تقتضي مني أن أتحاشى محادثة كل من سيصادفني على الطريق، وذلك تلافيًا لأي جدل لما كان سائدًا بتلك الفترة بين مجموعات الپيشمرگة من كل الأحزاب..

طبقت خطتي بحذافيرها، فتارة كنت أهرول وتارة أخرى كنت أمشي بخطوات سريعة، وعندما يصيبني الإرهاق كنت أستريح من خلال المشي بخطوات اعتيادية، حتى وصلت إلى قرية ماما خلان عند الظهر كما توقعت، ومنها اتجهت غربًا نحو النهر، فوصلته بظرف ساعتين من الزمن، ومن حسن حظي وجدت منسوب مياهه قد انخفض فعبرته من دون أية واسطة للنقل، وبدأت بعدها بصعود جبل "كاتو گوره" الذي كان يفصلني عن قرية "گورگه يير"، وأثنائها بدأت قواي تخور، وكان لابد لي من الوصول قبيل غروب الشمس لعدم وجود أية قرية قد ألجأ إليها بتلك النواحي إذا ما حل الظلام، فاستجمعت قواي من أجل المضي بسيري حتى وصلت قرية "گورگه يير" بوقت غروب الشمس، متناسيًا معاناتي بالجوع والعطش، لأني كنت أتسابق مع الزمن من ناحية، ولأني جعلت توقيت وصولي هو الأفضلية على المأكل والمشرب من ناحية أخرى.

فور وصولي توجهت لبيت صديقي محمد پيشمرگة، وهو كما أسلفت سابقًا كان عنصر سياسي مثقف من حزب الاتحاد الوطني الكوردستاني، فوجدته بجامع القرية، تعانقنا بحرارة وعاتبني بشدة للطريقة التي انفصلت بها عن صهره الذي هو قريبي الانتهازي من أجل الانضمام للحزب الديمقراطي، فأخبرته أن هذا الكلام غير صحيح وأن قريبي قد كذب عليه فأنا لم أخالفه أو أخرج عن رأيه، وهو الذي أخذني بيده إليهم، لأني كنت قد أوكلت أمري له باختيار من هو الأصلح من الأحزاب للانضمام إلى صفوفه، باعتباره ابن عمي وأدرى مني بتلك التفاصيل، ولكني عرفت بعد فوات الأوان أنه لم يكن أهل للثقة وكان انتهازي بشكل مخجل جدًا، ثم ختمت قولي إنني بكل الأحوال كان يتوجب علي الانضمام لأحد الأحزاب وها أنا الآن بأحدها..

تعجب الرجل لأن قريبي على ما كان يبدو قد أخبره بعد رحيلي بقصة ملفقة ومغايرة لما حدث، خشية من عتاب صديقي كاك محمد له بإرسالي إلى جهة مجهولة وبعيدة، عندها أخبرني عن اعتقاده بالسبب الذي دفع بقريبي لأن يختار لي الحزب الديمقراطي دون عن غيره من الأحزاب، وقد أصاب الرجل لأنه قال لي نفس ما كنت أعتقده من أسباب جعلت قريبي هذا يرمي بي بعيدًا، ذلك لأنه كان يعلم بأن مقرات الحزب الديمقراطي هي بعيدة جدًا وفي مناطق لا يعرفه فيها أحد كما هو الحال بقريتنا هذه، باعتبار أن كل ساكنيها يعرفوا بصلة قرابتي وإياه، وهو أمر كان سيشكل مصدر قلق له، الأمر الذي دعاه لأن يحتال علي بذلك الأسلوب الرخيص وهو أمر لم يكن يخطر إلا على بال الشياطين وأعوانهم..

هنا توضحت الصورة أكثر وجاءت الإجابة عن الغاية من تصرفات قريبي المريبة معي، لأنه عمل على مدى فترة إقامتي معه بإبعادي عن لقاء أي

شخص كان بإمكانه تجنيدي بصفوف الثورة، ومنهم صديقي محمد پيشمرگة، وهو تحسب لا يخطر على بال أحد. وعند ذاك فاتحت صديقي "كاك محمد" عن الورطة والمأزق الذي أنا فيه بعد أن اتضح أن الحزب الديمقراطي هو أداة تعمل لصالح إيران، وهو أمر من وجهة نظري لا يخدم القضية الكوردية وكوردستان، فأجابني أن الكل يعلم بهذا فما هو الجديد بالموضوع؟ وختم قوله بتلك العبارة من غير أن يساعدني بالحل كأن مثلاً يعرض علي مغادرتهم والانتقال لحزبهم الاتحاد الوطني للخروج من ذلك المأزق الذي أوقعني به صهره المحترم الذي أتضح أنه كذاب بارع أيضًا...

حينها صعب علي أن أفاتحه بتلك الرغبة، وإن كانت واضحة لا تحتاج مني أن أنطقها، ولو فعلتها لكانت نوع من الاستجداء الذي أرفض أن أطلبه حتى لو كان من أخي ابن أمي وأبي وهو سلوك لم أمارسه طيلة حياتي. وبعد أن جلسنا في بيته للراحة أخبرته عن رغبتي بأن أبعث برسالة إلى أقاربي في السليمانية لأخبرهم بأحوالي ولأستفسر عن أخبار أهلي في بغداد، فأشار علي بأن أذهب إلى بيت جيراننا السابق كاك محمد الچته لأنه ينوي الذهاب لمدينة السليمانية بغرض التسوق، وهي مناسبة لزيارة ابنه كاك نامق الپيشمرگة القيادي بحزب الاتحاد الوطني الذي نحر عجلاً بمناسبة عيد الأضحى، ثم شدد علي الذهاب لهم من فوري ليقينه أنني لم أتناول شيئًا من الطعام منذ الصباح، فقلت له بل منذ البارحة مساءً، فضحكنا وافترقنا على أن نلتقي ليلاً بجامع القرية.

بعدها اتجهت فورًا إلى بيت كاك نامق محمد الجتة، وهو من القادة الميدانيين لحزب الاتحاد الوطني، فسلمت عليهم جميعًا وجلست واضعًا بندقيتي على الأرض من خلفي، وهو تصرف يعني للآخرين أنه شعوري بالأمان والاطمئنان بذلك المكان، وجلس بجانبي جاري القديم كاك نامق وبادلني الأحاديث الودية،

محترمًا انضمامي للحزب الديمقراطي، ثم استأذن منا ليجلب لي الطعام لأنهم كانوا قد تناولوا الطعام بوقت مبكر من ذهابي لهم.. وبعد ذهابه بقليل تكلم معي أحد الجالسين من ضيوفه معرفًا نفسه بتباهي واضح أنه يدعى مام ريشه، فقلت أهلاً وسهلاً ولم يكن اسمه يعني شيئًا مميزًا لدي كما كان هو يعتقد، ثم وبإشارة استهزاء بيديه لصورة الملا مصطفى البارزاني التي كنا نعلقها بالحزب الديمقراطي على صدورنا كتقليد متبع آنذاك قائلاً: من هذا الذي تحمل صورته؟ فقلت ببرود إنك تعرفه فلماذا هذا السؤال؟ فقال: أظنه من ملالي أحد الجوامع، أليس كذلك؟.

هنا دخل علينا مضيفنا كاك نامق يحمل لي الطعام، وقد استمع لكل تلك المحادثة التي بالتأكيد لا أستطيع أن أسميها بالودية، وقال له بحزم لا يخلو من التأنيب: إن هذا الرجل بعيد عن ما نعانيه نحن من أمراض تحزبية، لأنه جاء من بغداد بقصد الالتحاق بالثورة الكوردية، ولم تكن لديه فكرة عن صراع الملايتي والجلالي كما هو متعارف عنه بأوساط السياسة الكوردية؟ فهو پيشمرگة لكوردستان وليس لحزب بعينه، ولو أنه انضم لحزبنا لكان بالتأكيد سيسمع لنفس الانتقادات اللاذعة التي قلتها له قبل قليل من الأحزاب الأخرى.

لقد كان كلام كاك نامق صحيحًا بوصفه لي ويكاد ينطبق علي بالكامل، باستثناء الفقرة الأخيرة من كلامه، لأن التعليقات البذيئة والاستهزاء بالآخر بحسب علمي كانت تصدر حصرًا من قبل پيشمرگة الاتحاد الوطني، الذين يستخفون بكل پيشمرگة لا ينتمي لحزبهم، وهي صفة فيها الكثير من الغرور ولم يكن لي علم بأسبابها.

عندئذ دخل علينا أحد الضيوف وهو من فقراء القرية، فنهض كاك نامق مرحبًا به وغادرنا ليجلب له الطعام، وعندها خاطبني المدعو "مام ريشة" مبديًا أسفه

لعدم علمه أني من بغداد، وأنه كان يتصور أنني أحد أفراد عشيرة البارزانيين، وكان عذرًا أقبح من ذنب لأن البارزاني هو كوردي منا وليس من أعدائنا. وبعد أن انتهيت من تناولي للطعام الذي قدمه لي كاك نامق سألته عن رغبتي بالحديث لوالده، فأخبرني أنه ذهب لجامع القرية من أجل صلاة العشاء، فاستأذنته بالانصراف ومضيت إلى حال سبيلي بعد أن ودعني بحرارة شديدة، وكانت هي المرة الأخيرة التي التقيته بها.

وفي جامع القرية التقيت بوالده كاك محمد الچته وأخبرته عن نيتي بكتابة رسالة إلى أقاربي في السليمانية، وطلبت منه مترجيًا أن يوصلها إليهم ويعود لي بالجواب إن هم رغبوا بالإجابة، فأظهر الرجل مشكورًا استعداده بتوصيلها، واتفقنا على اللقاء في الصباح لتزويده بالرسالة، بعدها التقيت مجددًا بصديقي كاك محمد پيشمرگة وسألته أن يزودني ببعض الأغطية للمبيت في جامع القرية حيث أن الطقس قد تغير وأصبح باردًا أثناء الليل، فأخذني الرجل إلى بيته وأعطاني ما أحتاجه للمبيت بالجامع.

وأمضيت ليلتي بجامع القرية ولم أخلد للنوم إلى أن أكملت كتابة الرسالة على ضوء الفانوس، وقد وجهت خطابي بتلك الرسالة إلى عمي العزيز كاك نجم الدين رحمه الله وقد أخبرته بكل أحوالي، كما طلبت منه تزويدي ببعض أسماء من يعرف من عائلتنا بقرية كاني بردينيا، بغرض التعرف عليهم إذا ما صادف وقمنا بجولة بتلك النواحي التي هي فيها، وقرية كاني بردينيا كانت أراضيها بفترة الملكية وما قبلها بزمن العثمانيين مملوكة لجدي الثاني الحاج حسن أفندي المتوفي بعام ١٩٢١، وبعدها تصرف الورثة من أبنائه وبناته بها وبغيرها من الأملاك بداخل مدينة السليمانية ومنهم جدي الحاج علي الذي ورث

تلك الأملاك ولم يورث قرشًا واحدًا لوالدي الذي عاش ومات عصاميًا، اعتمد على نفسه منذ فترة صباه وحتى وفاته..

وفي الصباح الباكر جاء كاك محمد الچته وهو رجل طيب وكبير في السن للصلاة بجامع القرية، فسلمته الرسالة بسرية تامة، وعندما أردت تزويده بالعنوان اتضح أنه يعرفه، لأن قريبي لطالما كان يتفاخر أن بيته على الشارع العام بحي (٤٥) العقاري، وله دكان هناك يقع على الجانب المقابل للشركة العامة للسجائر، ومجاورًا لفندق السلام السياحي، وسألته همسًا عن موعد عزمه الذهاب لمدينة السليمانية؟ فأخبرني أنه لا يعلم بالضبط، والأمر متروك للصدفة التي ستتوفر فيها إحدى السيارات المتجهة لمدينة السليمانية من تلك التي كانت تنقل الناس بالأجرة..

افترقت عن ذلك الرجل الطيب ووجدت نفسي أتكلم مع روحي لأسألها هل كنت خالص النية بطلبي من أقاربي عن أسماء من يعرف عائلتنا في قرية كاني بردينيا، أم أنني كنت أبغي إجبارهم على كتابة إجابة لرسالتي لهم لكي أعرف مدى اهتمامهم بي ورعايتهم لي، فكان الجواب أن الغاية هي أن تصلني رسالة منهم كتلك التي يستلمها رفاقي في الناوچة من أهلهم وذويهم في السليمانية، لكي أريهم إياها متباهيًا أن هذه الرسالة من أولاد عمومتي في السليمانية، وكأني بذلك كنت أريد التأكيد أن لي أهل مثلكم في السليمانية...

قضيت وقتي بذلك النهار ما بين لقائي لصديقي محمد پيشمرگه ومحادثته بالكثير من الأمور السياسية، وقد سألته عن توقعاته حول ما هو قادم بالنسبة لمصير الحرب العراقية الإيرانية، وانعكاسات تأثيرها على كوردستان، وكانت له نظرة صائبة بتلك المواضيع.. من ناحية أخرى قضيت القسم الآخر من الوقت أتمشى بتلك المنطقة لأستحضر ذكرياتي الجميلة فيها حتى حل المساء، وعندها ذهبت لجامع القرية، وهناك كان صديقي محمد پيشمرگة ينتظرني لأن طعام العشاء

كان قد جُهز في بيته، فشكرته ومضينا سويًا لبيته، وبعد العشاء رجعت لجامع القرية، ووجدت كاك محمد الچته يُصلي فرض العشاء، وتصورته لم يذهب للسليمانية لعدم وجود واسطة نقل تنقله إليها، لكنه فاجأني عندما أخبرني أنه قد ذهب مبكرًا ورجع قبل قليل، وبلهفة سألته:

- هل ذهبت لبيت أقاربي؟ هل وجدت عنوانهم؟

فقال بأسف واضح:

- إن العنوان كان معلومًا ولكن المخزي أن قريبك هذا الذي كان يسكن بجوار بيتنا هنا في القرية، قد بدا لي وكأنه شخص آخر لا أعرفه.

فسألته:

- كيف؟

- ببداية الأمر كلمني بجفاء وبعد أن تأكدت أننا وحدنا قلت له إنني أحمل لكم رسالة من قريبكم الپيشمرگة بالحزب الديمقراطي، وبدل من أن يسألني عن أحوالك قال لي من أعطاك عنواننا؟ فقلت له هل نسيت أنك الذي أعطاني العنوان مع تكرار دعوتك لي ببيتك، وأنا جئت بغاية إنسانية من أجل قريبكم الذي يستحق منا الكثير من الاحترام والتقدير لموقفه البطولي، وليس لكي تضيفني.. فقال لي: كيف عاد من مكانه البعيد على الحدود؟ وعندها أخبرته بما أعرفه، أخذني لباب بيت مجاور لدكانه ودخلنا لبيت أهله، وهناك في الحديقة أجلسني أنتظر هناك من غير أن يضيفني ولا بقدح ماء، وعاد ومعه هذه القصاصة من الورق لأعطيها لك، وقال مشددًا نرجوك ألا تأتي إلينا مرة أخرى، لأن هيئتك واضحة للعيان أنك من أهل القرى، ونحن لا نريد أن تقع علينا الشبهات بسبب هذه الزيارات. وختم ذلك الرجل الطيب قوله إنه يعتقد أن سوء استقبال قريبي له بسبب كونه فقير الحال وهم أغنياء وبالتالي ليس هناك شيء يجمع بينهم..

كان وقع كلام ذلك الرجل الكهل الطيب على نفسي بالغًا في الأسى والحزن الشديد، وذلك خجلاً منه وهو الذي تحمل عناء الرحلة وتكاليفها من أجلي، لأنه أحس بفطرته بما كنت أعاني من ضغوط نفسية، فتطوع مشكورًا على أمل أنه سيزيح عني بعض الغم... ولم أجد وسيلة أشكره بها سوى أن أقبله من جبينه وأمسك بيده الكريمة لأقبلها أيضًا متأسفًا ومعتذرًا لما لحق به من سوء سببه له أقاربي، وهو أمر لم أكن أتصور أو أتوقع حدوثه على ذلك النحو المشين، فقال الرجل: أنا أيضًا لم أكن أتصور أن ذلك الرجل الوديع الودود الذي كان يسكن معنا هنا تصدر منه تصرفات بمثل تلك القسوة والجفاء، فقلت له هؤلاء هم الانتهازيين كالحرباء يتلونون بحسب بمصالحهم، والحمد لله أننا لم ولن نكون مثلهم... بعدها أعطاني الرجل قصاصة الورق التي تزود بها من أقاربي وذهب لحال سبيله، فوجدت فيها أسماء لاثنين من الرجال فقط من غير سلام أو كلام يقولونه لي جوابًا لما كتبت لهم.

في الصباح التقيت بصديقي محمد پيشمرگة وأخبرته بما حصل من عديله أو صهره أو ابن عمي في السليمانية، فقال لقد كنت متوقعًا حدوث ذلك ولكني لم أشأ إخبارك ومنعك من كتابة الرسالة، لاحتمال أني قد أكون مخطئًا بتقديراتي، فالذي نفاك بعيدًا على الحدود عمل ذلك من أجل ألا تتمكن مستقبلاً من الاتصال به، وليس من أجل أن يفرش الأرض بالورود لكل من تبعثه له...

عندئذٍ لم يبقَ لي سبب واحد يبقيني بقرية "گورگه يير" ونحن بذلك الصباح الباكر، وهو الوقت المناسب للبدء برحلة العودة لمقري، بعد أن قضيت ليلتين بعيدًا عن رفاقي في المجموعة، فودعت كاك محمد پيشمرگة على أمل اللقاء به مستقبلاً بظروف أفضل، ثم تعانقنا وودع أحدنا الآخر، مشيت بذلك الطريق الذي سيرجعني لمقر مجموعتي ناوچة ماوت بخطى متثاقلة والحسرة تعتصر قلبي

وأنا مكسور الخاطر، وسؤال سخيف واحد كان يتبادر لذهني باستهجان: ماذا سيكون تعليق زملائي عندما أريهم محتوى قصاصة الرسالة التي بعث بها أقاربي لي؟.

لدى وصولي لمقرنا الصيفي بمساء ذلك اليوم؛ وجدت رفاقي يتهيأون للانتقال إلى إحدى القرى القريبة للمكوث بجامعها، وجعله مقرًا حصريًا لمجموعة ناوچة ماوت، وذلك لحلول فصل الشتاء الذي قدم علينا مبكرًا بتلك السنة من خلال موجات البرد وهطول الأمطار بين الحين والآخر، وكان التاريخ حينها هو الأيام الأولى من الشهر العاشر لعام ١٩٨٢..

استقرينا بمقرنا الجديد وهناك أصبحت وتيرة الحياة اليومية مملة بسبب الركود الذي خيم علينا لانعدام الحركة، فلا ذهاب للتسوق ولا جلوس بمقهى ولا حتى مضايقات من هذا أو ذاك، لأننا كنا نجلس في النهار ونحرس في الليل، وأنا بطبعي لم أكن ميالاً للأحاديث غير الجدية، وكان بودي لو أنني وجدت شخصًا واحدًا من المجموعة مثقفًا ليكلمني عن السياسة أو التاريخ أو حتى الديمقراطية التي هي عنوان لحزبنا، أو لنسأل أنفسنا على أقل تقدير عن السبب الذي كنا متواجدين من أجله هنا بذلك المكان، لكن للأسف لم يكن هناك شخص واحد مثقف بدرجة حتى دون الوسط، لأنهم كانوا من بسطاء الناس، الأمر الذي اضطرني للانعزال والتفرغ للكتابة بمشاعر ومعنويات محبطة.

استمر ذلك الحال فترة حتى فاجأني مسؤولنا قادر قادر بأحد الأيام وقال لي: لقد صدر أمر نقلك إلى المكتب السياسي في القيادة العامة للحزب، فسألته عن مكان تواجد عملي الجديد؟ فقال: في (السركردايتي) وهو المقر الرئيسي لقيادة الحزب، حيث توجد الإذاعة التي تبث باللغة الكوردية والعربية ولغات أخرى، ومكانه يعتبر من أسرار الحزب وستعلمه بحينه، ويجب أن تعلم بأنني من قام

بترشيحك لهذه المهمة باعتبارك مؤهلاً للعمل هناك، وبمكانك الجديد سيكون بإمكانك الدفاع عن القضية الكوردية بقلمك وصوتك، وذلك برأيي أهم من حملك للبندقية وأنت معنا هنا، وأضاف قائلاً:المكان الذي ستذهب إليه لم يتسن للكثير من رفاقك الذين قضوا نصف أعمارهم في الثورة من الذهاب إليه.

بعد تلك المقدمة زودني بكتاب النقل الذي كتبه أمامي ثم أغلقه، وطلب مني تسليم بندقيتي ومخازن عتادها الاحتياطية وقال لي: غدًا ستكون هناك مجموعة من رفاق حزبنا بتجمع عند جامع قرية بيانة، ويجب أن تنضم إليهم لأنهم سيغادرون بتمام الساعة الثانية عشر ظهرًا، وهم من سيوصلوك لإحدى مقرات حزبنا التي ستتدبر ذهابك للمكتب السياسي بالمقر الرئيسي للحزب بعد أن تسلمهم كتابي هذا.

قضيت أخر يوم كنت فيه مع مجموعتي ورفاقي الذين كانت لي بجميعهم علاقة طيبة واحترام عالي على مدى فترة تواجدي معهم، وكنت أتفكر بتلك النقلة السريعة للأحداث، ولم يتملكني أي شعور بالفرحة أو بالبهجة، وإنما أحسست بانقباض بصدري لأني سأذهب للمجهول، والحقيقة أنني أصبحت أخشى ما تحمله لي تلك المفاجآت العجيبة والغريبة، وعلى أية حال فإني قبلت بتلك الانتقالة علها تخرجني من حالة السكون الكئيبة التي كنا فيها، ناهيك عن الجمود الفكري الذي بدا وكأنه نهاية الطريق الذي سلكته باختياري، على أمل أن تكون تلك النقلة مخرجًا لي عندما ألتقي بالقادة السياسيين للحزب، ومن خلالهم سيتسنى لي أن أجد الكثير من الأجوبة لأسئلتي التي لم أجد أجوبة لها عن سبب تلك الفعاليات العسكرية لحزبنا الديمقراطي من تلك المساندة للجيش الإيراني، على أمل أن أجد عندهم التفسير المقنع بأنها حالة مؤقتة على أقل تقدير، كأن تكون تلك الحالة ليست الهدف من حملنا للسلاح، وأننا مناضلون ولسنا بندقية للإيجار كما كان شائعًا عنا..

في عصر ذلك اليوم أتممت جميع استعداداتي من أجل الانطلاق غدًا برحلتي المزعومة التي ستفتح أفاق أخرى أمامي، وقد اضطررت للاستحمام بالهواء الطلق بالرغم من برودة الطقس، لأني لا أعلم متى سيتسنى لي أن أستحم مرة أخرى، وكذلك عملت على غسل جميع ملابسي وتنشيفها بجامع القرية، الأمر الذي أدى لأصابتي بالأنفلونزا...

في الصباح جمعت حاجياتي بجعبتي التي حملتها على ظهري متسلحًا بنسخًا من مقالآتي التي كتبتها خلال الفترة الماضية، وودعت كل رفاقي في المجموعة ومضيت إلى مكان التجمع المحدد الذي سأبدأ رحلتي منه بصحبة بعض الأفراد من البيشمرگة، معتقدًا أنهم سوف يقودوني إلى مقر القيادة الذي أجهل مكانه، وافترضت أنه سيكون بمكان ما بكوردستان، وعند وصولي لجامع قرية بيانة وجدت حشدًا من الرفاق الذين كنت أعرف البعض منهم، فسألتهم عن المجموعة التي ستغادر فأرشدوني إليهم، انضممت لهم وغادرنا بدون مناقشة لأية تفاصيل تتعلق بتلك الرحلة التي قادتني إلى المزيد والمزيد من العذابات، وبنفس الوقت علمتني من الدروس بفترة قصيرة ما لم أتعلمه على مدى عمري الماضي آنذاك.

الجزء الثاني

التاريخ: بداية الشهر العاشر تشرين الأول من عام ١٩٨٢

المكان: منطقة شهرباژير التابعة لمحافظة السليمانية

الموقع: قرية بيانة حيث يتواجد الفرع الثالث والرابع للحزب الديمقراطي



تقدمت بخطواتي الأولى بتلك الرحلة المشؤومة وأنا أشعر بالإعياء الشديد، نتيجة الحُمى التي كانت قد أصابتني بالأمس، ومضيت بصمت مع تلك المجموعة المسلحة من بيشمرگة الحزب الديمقراطي، التي ظننت أنها ستوصلني للمكتب السياسي أو لمن سيرشدني إليهم، متتبعًا لخطواتهم التي كانت تتسارع أو هكذا تصورتها آنذاك نتيجة تباطؤ حركتي في السير بسبب المرض، لقد كانت وجهتنا نحو الجنوب وبخط مستقيم، وكان الوقت حينها ظهرًا حتى ابتعدنا كثيرًا عن قرية بيانة التي كانت مركز انطلاقنا، وعلى طول الطريق كانت تلتحق بنا مجاميع مسلحة من بيشمرگة حزبنا لم أكن قد شاهدتهم أو التقيت بهم من قبل، حتى أخذني الظن أنهم قد يكونوا ذاهبين لخوض إحدى المعارك بسبب تزايد أعدادهم...

ولأن السير كان متواصلاً فلم يكن هناك متسع من الوقت لأي منا أن يحدث الآخر الذي يمشي خلفه أو أمامه، وأستطيع الجزم بأن أي فرد منا إذا ما تأخر بسيره لسبب ما فإن ذلك لن يجلب انتباه أو اهتمام أي فرد آخر، لأنهم ليسوا من نفس التشكيل، ولو كانوا عكس ذلك فأحدهم يعرف الآخر ويمد له المساعدة عندما يحتاجها، أما هؤلاء فكل واحد منهم كان مهتمًا بأمره فقط.. وحينها راودني سؤال: هل كل هؤلاء الذين أصبح عددهم أكثر من خمسين مقاتلاً ذاهبون إلى المقر الرئيسي للحزب الذي يتواجد فيه المكتب السياسي الذي تمَّ نقلي إليه؟؟ سؤال لم أعرف إجابته حينها، وكالمعتاد تعرفت على جوابه بعد فوات الأوان، لأجد نفسي قد سقطت بمستنقع آخر.

على أية حال فإن ذلك الأمر لم يكن يستحوذ على اهتمامي نتيجة الموقف الصعب الذي كنت عليه، فبسبب المرض كانت خطواتي في السير قد أصبحت أقصر منهم، الأمر الذي تسبب أن أكون أخر ذلك الرتل الطويل خلفهم جميعًا، وإذا ما تأخرت أكثر فإني سأتخلف عنهم وأصبح وحدي في طريق لا أعرف

موقعه وإلى أين يؤدي، وبالتالي كان لزامًا عليَّ وأنا بتلك الحالة المرضية أن أهرول بين الحين والآخر، من أجل أن أبقى بوسطهم، أو أحاول أن أكون عند المؤخرة على الأقل، أما بالنسبة لهم فمعاناتهم كانت أهون بسبب تناوبهم على ركوب الدواب، وكلما اجتهدت أكثر كان المرض يتمكن مني أكثر، حتى أصبحت أشك بإمكانية مواصلتي السير معهم حتى النهاية التي لاأعلم أين ومتى ستكون.

استمر الحال على ذلك النحو حتى حان وقت الغروب، وذلك يعني أننا قد مشينا لأكثر من ست ساعات متواصلة باتجاه الجنوب بخط مستقيم، لم نخرج عنه طيلة تلك المسيرة، حتى توقفنا أخيرًا عند إحدى التلال المطلة على سهل طويل مفتوح منبسط، ومن خلفه كانت هناك أضواء إنارة تسطع من مصدرين على شكل مدن مضاءة، وذلك يعني أننا قد أصبحنا على مشارف نهاية ما كان يعرف بالمنطقة المحررة التي كانت مسرح لجولاتنا بالتنقل بأمان، الأمر الذي يعني أننا الآن بالقرب من القوات العسكرية للجيش العراقي وقوات الجاش الكوردية العملية المتجحفلة معه بتلك الفترة، وقد علمت بوقت لاحق أنها كانت مدن أقضية شاندري ونالبارس وسيد صادق.

في أسفل ذلك السهل المنبسط كان هناك شارع عامًا مبلطًا بالإسفلت، علمت فيما بعد أنه الطريق الرئيسي الذي كان يربط محافظة السليمانية بقضاء بنچوين الحدودي، وإلى يسارنا كانت هناك سلسلة من الجبال الشاهقة من خلف ذلك السهل المنبسط، علمت لاحقًا أنها سلسلة جبال سورين الحدودية. لم يكن لدي أدنى فكرة عن سبب توقفنا هذا؟ هل كان للراحة؟ أم هو الاستعداد للهجوم على أهداف معادية قد قطعت الطريق علينا؟ أم أمر طارئ أجهله وتوجب ذلك؟ أم هو الانتظار حتى يحل الليل ويسترنا بظلامه؟... أسئلة كثيرة مقلقة كانت تدور برأسي، وعلى أية حال فإن توقفنا هذا غير المعلوم أسبابه لي بالطبع، كانت فرصة ثمينة للراحة بعد تلك المسيرة الماراثونية، وتطلعت لرفاقي من

حولي فوجدتهم جميعًا يهمون بالجلوس، فانطرحت أرضًا بعد أن أحسست أن أوصالي قد تكسرت بفعل التعب الذي أنهك جسدي العليل، ناهيك عن الجوع والعطش الذي لم أحسب له حساب لكي أجلب معي زمزمية ماء أو كسرة من الخبز.

تمددت أرضًا وعيني على السماء معلقة أسألها: إلى أين المسير يا ترى؟ لقد كنت واثقًا أني إذا ما سألت أي شخص من الذين بجواري فإنه لن يجيبني بالتأكيد، لأنهم جميعًا اعتمدوا السكون وكأننا كنا مختبئين، وبالتالي قد يلاحظ حركتنا من كان ينصب لنا الكمائن بتلك المنطقة التي هي خارج نفوذ كل المقاتلين من كل الأحزاب.. وتمنيت حينها لو أن الزمن يرجع بي للماضي القريب لأكون في بيتي الذي هجرته في بغداد، لأنام بسريري وأتطبب بوجود الوالدين الذين قصرت بحقهما ولم أتحسب ماذا سيكون شعورهما بعد غيابي المفاجئ عنهم..

بعد فترة قصيرة وعندما حلَّ الظلام لم يطلب منا أحدٌ مواصلة السير، بل اندفع الجميع مهرولين باتجاه جبل سورين الذي يفصلنا عنه ذلك السهل الطويل المنبسط، فحاولت النهوض لألحق بهم، فوجدت نفسي عاجزًا حتى لأن أرفع رأسي، ولكني استجمعت قواي بحكم الضرورة وانطلقت لألحق بهم، وبعد عبورنا للشارع المبلط بالإسفلت وسط تلك السهول، وجدت نفسي بحال أفضل وأكملت معهم المسير حتى وصلنا للحافات السفلى لجبل سورين بعد أكثر من ساعة من الهرولة حينًا والسير بخطى مسرعة حينًا آخر، وعندها ابتدأ تسلقنا على الفور لجبل سورين، وكان كل واحد فينا منشغلاً بتدبر أمره فقط، حتى وصلنا إلى قمة الجبل بعد أربع ساعات مضنية من الصعود المتواصل، وقد تمكن مني التعب والعطش لدرجة الإعياء بسبب حرصي الشديد أن أكون

متواجدًا بوسط تلك المجاميع التي كانت بكامل سلاحها، خشية أن أتوه عنهم بذلك المكان الخطر وأقع فريسة بيد من هب ودب من المعادين لنا، كوني كنت غريبًا عن المنطقة وعن نفس تلك المجموعة التي كنت سائرًا بركبها، وأنا أعزلاً من السلاح..

كان وقت وصولنا إلى قمة جبل سورين هو منتصف الليل واعتقدت حينها أن معاناتي من التعب والإرهاق ستنتهي قريبًا، ولكني رأيت على مدى البصر أن خلف تلك السلسلة الجبلية جبلاً آخر هو امتداد له لم يكن يبعد عنا كثيرًا، فنزلت المجموعة التي هي كما ذكرت خليطًا من كافة المجاميع القتالية للحزب الديمقراطي، وكان النزول سهلاً قياسًا لما عانيناه أثناء الصعود وقد تركت العنان لأرجلي بالنزول، وما علي سوى الانتباه إلى الطريق خشية الاصطدام بأي عائق أمامي.

عند وصولنا إلى أسفل الجبل وجدت نفسي في وادي ضيق يفصل ما بين الجبل الذي نزلنا منه والجبل الآخر الذي يجب علينا تسلقه، وشاهدت أمرًا عجيبًا آخر لو حدثني بتفاصيله أي شخص أثق به لما صدقته لغرابة ذلك المشهد، بسبب تواجد جمهرة من المهربين وهم يبيعون ويشترون السلع بعضهم من بعض، والأغرب من ذلك رأيت شخصًا بين ذلك الحشد وقد افترش الأرض بوسطهم من أجل أن يبيع الشاي وبعض الخبز لزبائنه من المهربين أو الآخرين من المارة بذلك المكان، وقد بدا الارتياح والشعور بالأمان على كل أفراد مجموعتنا الكبيرة وكأننا قد تجاوزنا منطقة الخطر الذي كنا نتسابق وإياه، فتوزعنا جميعًا على تلك المساحة من أرض ذلك الوادي الضيق الذي كان بعرض العشرة أمتار تقريبًا، وكانت فرصة ثمينة لشرب قدح من الشاي أو أكل كسرة من الخبز، ناهيك عن التدخين الذي امتنعنا عنه طوال تلك الفترة التي مشيناها أثناء

الظلام، من أجل أن لا نكشف موقعنا للدوريات الحدودية المنتشرة بتلك المنطقة الخطرة جدًا، وكنت حريصًا بهذه المرة من استراحتنا الثانية ألا أستلقي أرضًا خشية عدم تمكني النهوض عند مواصلتنا للسير.

بعد حوالي النصف ساعة من الاستراحة؛ بدأنا مجددًا بالسير صعودًا كما توقعت لتسلق الجبل الآخر الذي يحمل نفس الاسم لأنه من سلسلة جبال سورين، حتى وصلنا لقمته عند الفجر، وانجلى المشهد أمامي لكي أرى نفسي وقد أصبحت بأعلى قمة لكل ما كان يحيط بنا من سهول منبسطة على الجانبين، السهل الأول الذي مشينا خلاله في الليل، والثاني الذي ينتظرنا عندما سننزل إليه، وآنذاك بدأ كل أفراد البيشمرگة بالسير رويدًا دون خشية من أي خطر، وأصبح المجال متاحًا ليكلم بعضهم الآخر...

اغتنمت تلك الفرصة وسألت أحدهم: أين نحن الآن يا أخي؟ فأجابني مطمئنًا: لا عليك يا أخي فلقد أصبحنا بمأمن فلا تخشى من أي شيء.. فقلت له: نعم واضح أننا الآن بمنطقة آمنة ولكن أين نحن بالتحديد؟ فقال: لقد أصبحنا الآن بداخل إيران.. فقلت بدهشة كبيرة: إيران؟ فقال: نعم إيران، ألم تكن تعلم بذلك؟ فقلت: كلا لم يخبرني أحد أننا ماضون لإيران، فقال: لماذا جئت معنا إذًا؟ فعرفته بنفسي وبأمر نقلي إلى المكتب السياسي للحزب، مستطردًا بالقول: وقد أبلغني مسؤولي قادر أن مجموعتكم هي من ستوصلني لمقر عملي الجديد في المكتب السياسي للحزب فقال: عندما نصل لمدينة مريوان سوف تجد من يجيبك على ما تريد أن تعرفه، أو يساعدك بالوصول للمكتب السياسي الذي أنت منقول له، فقلت: وهل تبعد مدينة مريوان كثيرًا عنا الآن؟ فقال: ابقَ معي حتى نصل إليه سويًا... شكرته وحمدت ربي أن ذلك الرجل سيكون حريصًا علي ألا أتوه وحدي ونحن في بلد رفع شعار الحرب على العراق، ومطحنة الحرب

لازالت تدور برحاها تحصد بالأرواح من الطرفين بكل لحظة، ومشيت بخطى متثاقلة شعرت حينها وكأن روحي قد قبضت لأني لم أكن مهيئًا من الناحية النفسية على الأقل لأن أتواجد بإيران، لأنها بداخل ضميري كان تمثل عدوًا للكورد قبل أن تكون عدوة للعراق، ونحن بالعام الثاني للحرب على أثر رفعها لشعار تصدير الثورة الإيرانية للعراق وتحرير كربلاء، وهو أمر أعلنته على الملأ وليس رأيًا مني أسعى به لتزوير التاريخ لا سمح الله..

قبل أن نهم بالنزول تجاه السهل المنبسط في إيران نظرت خلفي فرأيت الشارع المبلط الذي عبرناه ليلاً في العراق، وكذلك الأقضية والقصبات التي كان الضوء ينبعث منها ليلاً وهي قضاء شاندري وقضاء نالبارس وقضاء سيد صادق، وقد بدأت إيران بذلك الصباح بقصفها بمدفعيتها الثقيلة على تلك النواحي، فتنهدت بحسرة ومضيت بذلك الطريق القسري الذي فُرض علي من غير أن أعلم، وأثناء ذلك شاهدت أحد الأفراد من پيشمرگة حزبنا من غير المجموعة التي عبرت بي الحدود لإيران، وهو مرابض على إحدى الصخور المرتفعة بذلك الجبل وبيده منظار مكبر، وبحوزته جهاز لاسلكي من النوع العسكري، وكانت مهمته هي تزويد الجيش الإيراني بإحداثيات مكان وقوع قنابل المدفعية الإيرانية عند انفجارها على القرى والقصبات الكوردية في الجانب العراقي، من أجل أن تصيب هدفها وتقتل أكبر عدد ممكن من الأطفال والنساء والشيوخ من أهلنا هناك.

لقد شاء القدر أن أرى بمشاهدي الأولى بهذا البلد المعادي، ذلك الرفيق الديمقراطي الذي كان يصحح مسار تلك القذائف من أجل أن تسقط على رؤوس أهله الكورد، وهو أمر بمنتهى الخزي والعار، لأنه عمل خونة وليس عمل پيشمرگة فدائي نذر نفسه لخدمة أهله الكورد، وهو خيانة لنضال الشعب

الكوردي لأنه مشروع رخيص لبيع الضمائر بأبخس الأثمان، وأيقنت حينها من أنني قد وقعت بورطة كبيرة بعد أن أخبرني حدسي أن حالي هذا سينتهي معي بكارثة بسبب رفضي القبول بالانغماس بمثل هذه الأعمال الدنيئة، وغيرها من الممارسات المخزية التي ستردكم تفاصيلها لو طلبت مني مستقبلاً، ويعتبرها بعض الناس سابقًا وحاليًا أنها أعمال مبررة بحكم الاضطرار، ويصفها البعض بأنها تاريخ لنضال مجيد. والصحيح ليس ما أقوله أنا بهذه السطور أو من سينتقدها ويستهجنها، الحُكم لمن سيقرأها ويقيمها كحالة كانت قائمة بذلك التاريخ ولا يمكن إنكار وجودها، كحالة رخيصة يختزي منها الضمير الكوردي؟ أم هي حالة نضالية يُفتخر بها كجزء من النضال الكوردي؟.

واصلنا مسيرتنا نزولاً حتى وصلنا إلى أسفل ذلك الجبل، وهناك اعترضتنا دورية من الپاسداران وهم ميليشيا من يسموا بحراس الثورة الإيرانية، لكي تتعرف على تبعيتنا، وبعد أن تأكدوا أننا أفراد من الحزب الديمقراطي انصرفوا عنا باعتبارنا كنا من حلفائهم، وواصلنا السير بذلك السهل المنبسط حتى وصلنا إلى قرية تدعى سياناو وفيها مخفر حدودي، وهناك تأملت المشهد من حولي جيدًا فلم أجده مختلفًا عن مشاهداتي بكوردستان العراق، فهذه البقعة من الأرض هي الجزء الآخر من كوردستان المقسمة لأربعة أجزاء، وبوصولنا إلى ذلك المخفر الحدودي كان الوقت هو منتصف النهار، وذلك يعني أننا قد مشينا برحلتنا هذه على مدار أربعة وعشرين ساعة متواصلة من غير أن نستريح أو نأكل شيئًا من الطعام.

وعندها سلم أفراد المجموعة التي كنت بصحبتهم أسلحتهم الخفيفة لمشجب المخفر الذي كان بإدارة عسكرية إيرانية، عدا شخص واحد كان يرتدي الزي الكوردي باللون الأسود، وتلك إشارة تدل على أنه لم يكن كورديًا، وعند

محادثته لي باللغة العربية تبين لي أنه عراقي عربي منتسب لحزب الدعوة الشيعي العميل لإيران، الذي كان حينها متوزعًا على القطاعات العسكرية للپاسداران، أو من يسمون بحراس الثورة الإيرانية على طول جبهة القتال الممتدة من الشمال بكوردستان إيران وحتى جنوبها بمنطقة عربستان، من أجل المشاركة بالقتال ضد العراق الذي حشد كل قطعاته العسكرية على طول حدوده الشرقية المقابلة لصد العدوان الإيراني بما أسموه الفرس بتصدير ثورتهم للعراق.

هناك تسنى لي لأول مرة أن أرى أعداء العراق وجهًا لوجه، ولا أدري كيف تمكنت حينها من أن أتمالك نفسي لأكظم غيظي وأكتم انفعالي كعراقي، بعدها تمَّ تدوين أسمائنا بغرض تزويدنا بورقة دخول لكي لا تعترض طريقنا نقاط التفتيش العسكرية أثناء توجهنا إلى قضاء مريوان الحدودي، وهنا توضحت لي الصورة أكثر عن المجموعة التي عبرت بي الحدود، فجميعهم كانوا ذاهبين بإجازات لزيارة عوائلهم المقيمة في إيران كلاجئين منذ عام ١٩٧٤، وأنني الوحيد بينهم قد جئت من أجل موضوع آخر، وهذا يفسر حالة الفوضى التي كنا عليها أثناء مسيرتنا وعبورنا لإيران، فلم تكن هناك أية قيادة تتولى توجيه تلك المجموعة المسلحة الكبيرة من المقاتلين لأنهم ليسوا من تنظيم قتالي واحد، الأمر الذي دعى كل فرد منهم أن يسعى لخلاص نفسه فقط، ولو أن أية قوة معادية لنا مهما قل عددها قد اعترضتنا أثناء فترة عبورنا وما قبله لكانت الهزيمة من نصيبنا حتمًا.

استلمنا أوراق عدم التعرض لنا من ذلك العنصر العربي من حزب الدعوة العراقي الشيعي، وتوجهنا إلى كراج السفريات بقرية سياناو، كنا خمسة أفراد لأن أغلب أفراد المجموعة كانوا قد سبقونا وتوجهوا إلى مريوان، مرورًا بنفس

المخفر الحدودي، وبقي القليل منهم خلفنا لأنهم لم يصلوا إلى ما وصلناه نحن، وفور وصولنا إلى كراج السفريات استقلينا سيارة أجرة لاندروفر متجهين لمريوان، وفي الطريق الذي استغرق حدود الساعتين من السير بالسيارة مررنا بحشود كبيرة لقطعات عسكرية إيرانية، فتأملت تلك الدروع والمدافع الثقيلة وراجمات الصورايخ بعناية، لأقارنها بمثيلاتها من القطاعات العسكرية العراقية المنتشرت على طول خط الجبهة القتالية المفتوحة مع إيران من أجل الدفاع عن العراق، فوجدت نفسي كعسكري عراقي سابق منطلقًا إلى عمق أراضي العدو الفارسي من غير أن أكون مهاجمًا ضمن تشكيل قتالي، وحينها أدركت مدى عمق الانزلاق الذي غصت به وصعوبة الخلاص منه، ورجعت إلي روحي العسكرية العراقية بعد أن تخليت عن ثوبي الجديد الذي اعتقدته واهمًا أنه كان عنوانًا من أجل نصرتي لأبناء جلدتي من الكورد، من غير أن أتخلى طبعًا عن أفكاري التي من أجلها انضممت للثورة الكوردية أثناء الانتساب لتنظيمات الحزب الديمقراطي الذي تدل كافة الشواهد أنه قد باع مفهوم الثورة الكوردية لإيران بتلك الفترة، وجعل جهده العسكري منصب لخدمتهم. كما أنني كنت بداخل ضميري لم أكن أشعر بأنني قد انشققت عن الجيش العراقي أثناء التخلي عن موقعي السابق به، بل إنني قد انتقلت من موقع المسؤولية إلى موقع مسؤولية آخر، رمى بي في المستنقع الإيراني الذي بات الخروج منه أمنية صعبة المنال..

وصلنا إلى مشارف مدينة مريوان الإيرانية عصرًا، ولم يسألنا منتسبو السيطرة العسكرية عند مدخلها عن أية أوراق ثبوتية أو ما شابه، ونزلنا بوسط تلك المدينة الصغيرة، وهناك رجوت صاحبي أن يدلني على مقر الحزب الديمقراطي في مريوان، فقال إنه سيأخذني إليهم ولكن بعد أن يراجع مركز توزيع الحصص التموينية المخصصة للاجئين الكورد، ودخل إليهم وتركني أنتظره عند المدخل،

وبعدها بلحظات سألني الحارس المتواجد عند الباب سؤالاً لم أفهم معناه لأني لا أجيد التكلم باللغة الفارسية فأجبته بالكوردية أني لا أفهم ما يقول، الأمر الذي أثار الريبة بنفسه وأخذ بتفتيشي، وعندها خرج صاحبي الذي كنت أجهل اسمه وكلم الحارس بالفارسية من أجل أن يكف عني، فقال له الحارس يجب أن أخذ صاحبك هذا من أجل التحقيق معه، وبعد مداولات تركني الحارس لشأني من أجل خاطر صاحبي الذي كان على ما يبدو على معرفة مسبقة به..

طبعًا ريبة الحارس بي كانت بسبب عدم معرفتي للفارسية من ناحية ولأني كلمته بالكوردية بثقة عالية وعيني بعينه من ناحية أخرى، وذلك أمر غير مستحب أو مقبول به من قبل الفرس، على اعتبار أن المتلقي لكلامهم من الكورد يتوجب عليه أن يطأطئ برأسه لهم أثناء محادثتهم، وهذا أمر لم أفعله مع ذلك الحارس ولا مع أي إيراني آخر طيلة فترة وجودي بكل المراحل اللاحقة بإيران، اعتزازًا بحريتي واحترامًا لصفة الثائر التي أحملها، حتى وإن كان حزبنا الديمقراطي متحالف لهم.

بعدها مضى بي صاحبي إلى مكان سكنه من أجل إيصال المؤن التي حصل عليها، وكنا قد أوشكنا على وقت الغروب ومعدتي كادت تلتصق بظهري تضررًا من الجوع، لأني لم أتناول الطعام منذ صباح الأمس عندما انطلقت بسيري من قرية بيانة بكوردستان العراق، وقد وعدني صاحبي أنه سيدلني بعدها على مقر الحزب بمريوان، وعند وصولنا ألح علي صاحبي بالدخول معه لبيته الذي كان أشبه ببيوت السليمانية القديمة حيث يكون سقف البيت مفتوحًا على منور بوسطه، والذي تحيط به جميع غرف ذلك البيت التي كانت مأهولة بالعديد من العوائل الكوردية اللاجئة بإيران... كان نصيب عائلة صاحبي واحدة من تلك الغرف التي توزع على أبوابها جمهرة من النساء والأطفال، الذين كانت ملامحهم بائسة وملابسهم بالية نتيجة الفقر الشديد، أجلسني صاحبي على

صفيحة مركونة بإحدى الزوايا وكل من كان هناك أصبح ينظر لي باستغراب شديد، عدا زوجته التي انشغلت بتوبيخ صاحبي من غير أن تستقبله على الأقل بأي ترحاب بعد غيابه الطويل عنها، والمشقة التي تكبدها بذلك المشوار المحفوف بالمخاطر، معترضة على ما كان يبدو باستضافة زوجها لي، وهنا كان لابد لي أن أستوقف صاحبي الكريم الذي أينما كان يصحبني تحصل لي المشاكل، وقلت له:

– يا أخي العزيز إنني ممنون لك وشاكر لصنيعك معي، وكان الأجدر بك أن تقدر ظروفي وتدلني على مقر الحزب أول وصولنا للبلدة، كما أنني مقدر لاهتمامك بي، ولكني أرغب بالوصول إلى مبتغاي قبل أن يحل الظلام علينا، وتحصل لنا أمورًا أخرى أجهلها ولا طاقة لي على تحملها.

فرد الرجل بحياء قائلاً:

– إن مقر الحزب قد أقفل الآن وأقترح عليك أن تذهب لبيت صديقك شريف كچل مسؤول ناوچة بنچوين لأنه الآن بإجازة وهو حتمًا متواجد ببيته الآن، وهو من سيتدبر أمرك بحكم علاقاته الواسعة.

هنا تعجبت عندما علمت أن الرجل يعرفني حق المعرفة، وكذلك هو على اطلاع بمدى علاقتي الحميمة والصداقة الأخوية التي تجمعني بصديقي شريف كچل، فقلت له هل تستطيع أن تأخذني إليه؟ فقال نعم.. فانطلقنا سويًا إلى بيته الذي كان بالجهة الأخرى من تلك المدينة الصغيرة حيث يقطن الأغنياء ببيوت فخمة، ولدى وصولنا استقبلني صديقي شريف كچل بحفاوة بالغة مكلمًا إياي باللغة العربية بأعلى صوته: أهلاً بملازم سه رچل، ولدى دخولي إلى صالة الضيوف، الميوان خانه، وجدت مجموعة من ضيوفه الكورد المقيمين بمريوان وبعض من أفراد البيشمرگة من مجموعته المقاتلة بناوچة بنچوين، وأخذ صديقي شريف بتقديمي لهم وكأني أحد قياديي الحزب الديمقراطي، فتوسمت خيرًا من

ذلك اللقاء وجلست مطمئن النفس ولكن غير قرير البال، بسبب أزمة القلق الذي انتابني منذ وصولي إلى ذلك البلد اللعين، وعندها التقطت أنفاسي بعد ذلك الجهد الجبار من المشي على مدى ليلة كاملة ونهارين مصحوبين بالجوع والعطش، ناهيك عن الأعراض المؤلمة للأنفلوانزا.

بعد أن انصرف جميع الضيوف بقي خال شريف كچل وابنه كاوه ابن الثانية عشرة لأنهم من سكان نفس ذلك البيت، وعندها فاتحت صديقي شريف عن أمر نقلي إلى المكتب السياسي بمقر قيادة الحزب، وسألته عن مكانه ومدى بعدي الآن عنه، فلم يعطني جوابًا صريحًا على أسئلتي، لأنه هزليًا بطبعه وأبعد ما يكون عن الواقعية بتصرفاته مع الآخرين، واكتفى فقط بالقول: إن هناك متسع من الوقت لبحث هذا الموضوع، والمهم الآن أن ترتاح وتستحم وتبدل ثيابك ثم تتعشى وتنام بعد مشوارك الطويل من السفر، فشكرته بدعوته إياي للطعام، ولم أستحسن فكرة بقائي للمبيت في بيته لكي لا أثقل عليه، وطلبت مساعدته من أجل تأمين مكان آمن ورخيص لي بإحدى فنادق المدينة، فأبى الرجل بشدة؛ - وكان كريمًا بطبعه - أن أخرج إلى أي مكان آخر، متوعدًا إياي بأنه سيخاصمني إن تكلمت بذلك الموضوع مجددًا، فأذعنت لرغبته مجبرًا.

وبعد فترة قصيرة من المجاملات الودية أبلغني مضيفي شريف بأن الحمام جاهز بانتظاري، وللأمانة شدد الرجل علي ألا أغسل ملابسي القديمة وأتركها لأهل بيته الذين سيغسلوها لي مشكورين، وبذلك ملكني ذلك الرجل بكرمه غير المحدود، فذهبت لأستحم وكانت تلك هي المرة الأولى لي وأنا أستحم بحمام حقيقي وليس من خلال الاستحمام في الهواء الطلق أثناء جولات مجموعتنا بقرى كوردستان، منذ أن تركت بيتي قبل أربعة أشهر، لأنني حينها قد دخلت على الشهر العاشر من تلك السنة.

بعد أن عدت لغرفة الضيوف مرتديًا ملابسي وطقم الزي الكوردي الذي كنت أحتفظ به بجعبتي العسكرية؛ أخبرني مضيفي شريف كچل أن إخوتي زوجاته الأربعة قد أعددنَّ عشاءً خاصًا لي كل على طريقتها، وأخذ ينادي على كل واحدة منهم باسمها فتأتي لتسلم علينا مقدمة طبق الطعام أمامي، وكأننا بزمن ألف ليلة وليلة، فشكرتهن قائلاً لكل واحدة منهن ورأسي إلى الأرض خجلاً: شكرًا لك يا أختاه، أكلت حتى شبعت ودعيت لهم سرًا مع نفسي بأن يديم الله عليهم النعمة ويوفقهم ويجنبهم كل مكروه.

بعدها أحضروا لي أفضل ما عندهم من فراش وأغطية جديدة لأنام ليلتي بصالة الضيوف التي رافقني للمنام فيها خال صديقي شريف، وكان يعرف القليل من العربية التي لم أكن أرغب التحدث بها بتلك الفترة من أجل تقوية لغتي الكوردية التي كنت أجهل الكثير من مفرداتها، على الرغم من أني كنت أتعلم معاني ٥٠ مفردة منها بكل يوم، كما أن هنالك سببًا آخر قد استجد حينها وهو أن الكلام بالعربية كان يثير حفيظة الفرس بما يجعلهم يوجهوا انتباههم لي وهم كثيري الشكوك، حتى مع حلفائهم من الحزب الديمقراطي، لأنهم ليسوا من بني جنسهم، ولأنهم ليسوا على نفس العقيدة الدينية ولكن المصلحة جعلتهم يتحالفوا معهم.. وبالرغم من تعبي الشديد حينها لم يغمض لي جفن، فقد بقيت مستيقظًا أقلب الأمور على كل أوجهها لما حصل من انحراف خطير بوجهتي التي كانت معلومة لي على الأقل حتى الأمس القريب، وما وصلت إليه أحوالي بسبب موضوع النقل المزعوم إلى مقر قيادة الحزب، حتى وصلت لقناعة ثابتة أن هذا الدرب الذي وضعت نفسي به عن غير دراية، هو طريق لا يليق بمن هو مثلي ليتواجد بذلك البلد، الذي هو بالتأكيد ليس صديقًا للكورد ولا لكل العراقيين باستثناء أقزامهم في العراق وهم بغالبيتهم من أصول فارسية.

وإذا كان وجودي له مصلحة للكورد فكوردستان لا يأتي حقها من خلال الخيانة الرخيصة، والوفاء هو هو سمة لشعبه على مرَّ الأجيال، ولم يسبق للكورد على مرَّ التاريخ أن اعتمدوا الغدر كمنهج لنيل حقوقهم، واستنادًا لكل تلك المبادئ والأفكار الوطنية والقومية وجدت نفسي أنني قد خنت أهدافي التي من أجلها تركت بيتي وسكنت في العراء واسترخصت حتى روحي في سبيلها، الأمر الذي جعلني حينها أشعر أن ضميري أخذ يجلدني بقسوة حتى تمنيت ساعتها لو أنني إنسان معدوم الضمير، أو جاهلاً بالحقائق التي تجري من حولي محملاً اللوم بذلك على والدي رحمه الله، الذي رباني على التمسك بقوميتي من جهة وبالتفاني والإخلاص لوطني من جهة أخرى، وهما أمران على ما يبدو من الصعب التوفيق بجمعهما سويًا في بوتقة واحدة بظل ذلك الظرف تحديدًا أثناء وجودي بإيران، أو على الأقل أنها أفكار وقيم تتعارض وسياسة الحزب الديمقراطي المعلنة على وجه التحديد، باعتباري كنت أنتمي لصفوفه بتلك المرحلة..

عندها توصلت لحل وسط أتصالح به مع ضميري لكي أرضيه ويكف عن تعذيبي، فعاهدته بأنني لن أخون أو أتهاون مع حقوق شعبي الكوردي، أو الانضواء اختياريًا أو إجباريًا تحت لواء الفرس للقتال بالضد من بلدي العراق وأهله بكورده وعربه، وعندئذ هدأت نفسي وارتاح بالي بعد أن عرفت هدفي وحددت طريقي الذي كان ضبابيًا ومتناقضًا داخل نفسي، واضعًا خطة بكيفية التعامل مع محيطي الجديد من غير التخلي عن ما أقسمت عليه وأشهدت عليه ربي، وذلك من خلال التصرف بحذر بتعاملي مع الإيرانيين من الفرس حتى تأتي الفرصة المناسبة التي تتيح لي تصحيح مساري من خلال الرجوع لكوردستان العراق، وعندها سأقرر من جديد ما سيكون موقفي من ذلك المسلك الذي كان الحزب الديمقراطي ينتهجه بتلك الفترة، الذي باعتقادي وكما كانت كل الوقائع تشير بأنه قد خرج عن مساره بخدمة كوردستان وحقها المسلوب.

بتلك اللحظة فقط قرت عيني وهنئت بنومي بعد تلك المكاشفة الصريحة مع ضميري وهو الرقيب الذي لا ينام والشاهد على كل التصرفات والنوايا.. وفي صباح اليوم التالي بعث مضيفي شريف كچل ابن خاله كاوه معي من أجل إرشادي إلى مقر الحزب الديمقراطي فرع مريوان، فأخذني إليه وكان على شكل مكتب صغير وسط الدكاكين بسوق البلدة، وهناك التقيت بشخص يدعى حمه سور حسين وكان ممثل الحزب والمسؤول عن توزيع معونات مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة، فأبرزت له كتاب نقلي إلى المكتب السياسي من أجل تسهيل مهمة التحاقي به، ولكنه أخبرني بأنه غير معني بمثل تلك النشاطات الحزبية، باعتبار أن واجبه كان محصورًا بإدارة شؤون اللاجئين فقط، فسألته عن الذي هو مختص بتلك النشاطات؟ فقال إن هناك شخص مختص بالأمور الحزبية اسمه أزاد، وهو يدير عمله من بيته، فسألته أن يدل كاوه على العنوان لكي نصل إليه؟ فأعلم كاوه بمكان بيته ومضينا سويًا إلى بيت أزاد من أجل إتمام الموضوع، ولم نجده ببيته فأقفلنا عائدين إلى بيت مضيفي لإبلاغه بالأمر، لكنه لم يهتم وقلب الموضوع مزاحًا وقال: لماذا تريد أن تغادرنا بهذه السرعة، ابقَ معنا لبعض الوقت إن كان لابد لك من الرحيل عنا، ثم نادى بأعلى صوته كعادته بكل مرة على نسائه الأربعة من أجل إرسال طعام الغذاء لنا وللضيوف الذين كانوا جالسين معه قبل قدومي مع ابن خاله كاوه.

قبل إحضار الطعام زاره شخص من الپاسدار كان يرتدي اللباس العسكري اسمه صادق، وهو شاب يافع بعمر السابعة عشر، وقد علمت بوقت لاحق أنه ابن لأحد الملالي المعممين الذي كان يشغل منصبًا قياديًا بمريوان، وعندها تباحث ذلك الشخص مع مضيفي بأمور تخص التجهيزات العسكرية التي يحتاجها مضيفي لمجموعته المقاتلة بناوچة بنچوين من أجل تأمينها لجموعته.

عند انتهاء محادثتهم العلنية استدار مضيفي نحوي وكلمني بالعربية مناديًا إياي بملازم سه رچل من أجل أن يعرفني على صاحبه الپاسدار الإيراني، الذي بدوره استغرب من ذلك المشهد، خصوصًا بعد أن علم بأنني من بغداد، فسلمت عليه بصفة العمومية مصحوبة بابتسامة مجاملة زائفة، وكنت حريصًا على ألا أظهر اشمئزازي منه، فأخذه الفضول الاستخباراتي ليسألني جملة من الأسئلة عن بغداد؟ فأجبته على مضض من أجل التهرب من أسئلته تلك، وبعد الانتهاء من تناول طعام الغداء، غادرنا ذلك الپاسدار مع بقية الضيوف، وحينها عاتبت صديقي شريف كچل لأنه كلمني بالعربية مدعيًا بأني ملازم على مسمع من ذلك الپاسدار الإيراني، فقال لا عليك فهو مجرد صبي ولا يستطيع أن يمسك بأي أذى وأنت بضيافتي.

في اليوم التالي ذهبت وحدي إلى بيت المدعو أزاد من أجل كتاب النقل، فوجدته هناك ودعاني بالدخول لبيته، وبعد أن اطلع على محتوى الكتاب سلمني مبلغًا من المال بالعملة الإيرانية بما يعادل ٥٠ دولارًا، التي قيمتها بالدينار العراقي حينها سبعة عشر دينارًا، ووقعت على استلامها منه، ثم قال لي: هذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك، أما موضوع نقلك للمكتب السياسي للحزب فهو أمر يتكفله أحد رفاقنا في مريوان، وهو مسؤول التنسيق مع السلطات الإيرانية من أجل إصدار وثيقة سفر، أو ما يسمى دفتر چك لأي رفيق يروم بالسفر إلى بقية المحافظات الإيرانية، فسألته: في أية محافظة يتواجد مقر القيادة ومكتبها السياسي؟ فقال ستعلم بذلك عندما يسلمك الرفيق الذي سيستحصل لك على وثيقة السفر، فسألته عن اسم هذا الرفيق ومكان تواجده؟ فأخبرني باسمه، ومسحه الزمن من ذاكرتي ولم أعد أتذكره الآن، مضيفًا بأن ذلك الشخص لم يكن لديه مقر أو مكتب ولا يعرف عنوانًا لمسكنه، وما دمت ضيفًا على كاك شريف كچل فهو يعرفه وبإمكانه أن يأخذك إليه، فشكرته ورجعت إلى بيت

مضيفي شريف كچل لأخبره بما حصل، فقال: إن هذا الرجل غير موجود الآن بمريوان لأنه ذهب للعاصمة طهران بمهمة خاصة، والمرجح بأنه سيعود بعد أسبوعين، فقلت ما عساي أن أفعل حتى يرجع صاحبنا هذا؟ فقال ممازحًا: تجلس معنا كأي فرد من العائلة.

عندها انتهزت تلك الفرصة لأعتبرها حجة وأقنعه أن لا جدوى من متابعة ذلك الموضوع الذي تعثر ووصل لطريق مغلق، مبديًا رغبتي بالعودة معه إلى مجاميع حزبنا في كوردستان العراق، فلم يعلق بشيء وتلك دلالة رفضه لاقتراحي بالعودة لعدم رغبته بمساعدتي من أجل الرجوع لمجموعتي بناوچة ماوت، أو حتى الانتقال للعمل بناوچة بنچوين التي يقودها هو بنفسه.. والمحير بذلك الرجل أنه لم يكن متحمسًا أن أذهب لأعمل بعيدًا في المكتب السياسي وبنفس الوقت أدار ظهره لي عندما رجوته بأن يصطحبني معه أثناء عودته لمجموعته ناوچة بنچوين بكوردستان العراق..

وفي ذلك الموقف طلبت منه طلبًا آخر كنت أبغي من خلاله الابتعاد عن طريق ذلك الپاسدار الذي كان يزور مضيفي بين الحين والآخر، لأني كنت أخشى من نظراته العدوانية التي سرعان ما ستنقلب لأنياب كاسرة ستؤذيني حتمًا بغياب صاحبي شريف كچل، فقلت له:

– كاك شريف لقد أثقلت عليك بهمومي، وإني أستأذنك بالمغادرة للمكوث بإحدى الفنادق المتواضعة الموجودة بسوق المدينة.

فأجابني بحماس ونبرة حادة:

– ابقَ معنا لأننا نعزك ونحترمك، بل ونعتبرك واحدًا منا، فرجوته للمرة الثانية وكنت أبغي بذلك ليس الانتقال للفندق وحسب بل لأكون حرًا وبذلك أستطيع أن أحزم أمري وأعود مع العائدين من پيشمرگة حزبنا من الذين انتهت إجازاتهم إلى كوردستان العراق.

فقال صاحبي بغضب:

- سأخاصمك إن تفوهت بهذا الموضوع مرة أخرى، فسلمت أمري لله لقلة حيلتي بكيفية إقناعه بعد أن أغلق كافة أبواب الخلاص بوجهي.

مرت أيام أخرى كنت أقضي معظم وقتي أثنائها متجولاً بالسوق الصغير للمدينة، وهناك التقيت بأحد أصدقاء مضيفي من الذين يرتادوا مضيفه أثناء فترة المساء، وكان لديه دكانًا بسوق البلدة لخياطة الملابس وكان يجيد التحدث بالعربية، فأمضيت معه أوقات طويلة من أجل أن أخفف تواجدي الذي تثاقلت به على بيت مضيفي، وبنفس الوقت أصبحت أحد زبائنه عندما طلبت منه أن يخيط لي بدلة جديدة بالزي الكوردي مقابل ثمن اتفقنا عليه، وخلال فترة المساء كنت ألتقي بالعديد من الأخوة الكورد العراقيين والإيرانيين الذين كانوا من رواد مضيفة صديقي في بيته، ومنهم أيضًا ذلك الپاسدار الفارسي المدعو صادق الذي كان يرمقني خلسة بنظراته الخبيثة، وبإحدى المرات كان قد جلب معه كاميرا من أجل التقاط بعض الصور التذكارية لنا جميعًا ولكني استنتجت أنه أراد أن يصورني بالذات من أجل أن يتمعن بشكلي على مهل، على طريقة محققي الشرطة في الأفلام البوليسية التي يغرم بها الصبيان من أمثاله.

وعندما ازدادت شكوكي التي كانت كلها بمحلها بنوايا ذلك المتطفل، أخبرت مضيفي عن قلقي من صاحبه هذا، فأجابني: لا عليك فإنها مجرد تصرفات صبيانية ولا تعني بالضرورة أنه يبيت في نفسه أمرًا سيئًا ضدك، مؤكدًا بأنه حتى لو حدثته نفسه بذلك فإنه لن يستطيع أن يمسني بسوء لأني في بيته وبضيافته وتحت رعايته..

ومن الأمور التي عرفتها عن صديقي شريف كچل أن إحدى زوجاته الأربعة كانت هي ابنة خاله، الذي يرعى مصالح البيت أثناء غيابه في كوردستان

العراق، وخاله هذا رجل محترم وشيخ ختيار بعمر الستين عامًا، وله ابن اسمه كاوه كما ذكرت ذلك سلفًا، وبنت أخرى بعمر الثمانية عشر سنة.

بعد مضي أسبوع على وجودي معهم أخبرني مضيفي أنه سيغادر إلى كوردستان العراق للالتحاق بمجموعته، مشددًا علي أن أبقى في بيته عند سفره لوجود خاله وابن خاله، اللذان سيهتما بتلبية كافة احتياجاتي من بعده، ومن كلامه هذا تيقنت أن الحديث بموضوع نقلي قد تسوف وأصبح لا قيمة له، بل لا وجود له على الإطلاق. وقد شدد علي بأن أتخلى عن موضوع نقلي إلى المكتب السياسي والمكوث معهم بصفة دائمة بمريوان، فقلت له:

- كيف يكون هذا ولماذا؟

فقال وتلك هي المرة الوحيدة التي وجدته يتحدث بجدية:

- لتستقر وتعيش معنا كبقية الكورد هنا وإن شئت نزوجك أيضًا.

- والثورة الكوردية التي هجرت أهلي وأحبائي من أجلها؟!

- هل تصدق أن هناك ثورة وثوار من أجل القضية الكوردية، الكل يتطلع ويسعى من أجل مصلحته الشخصية باستثنائك أنت وهذا ما أعجبنا بك لأنك رجل موقف ومبادئ، ثم أضاف: انظر يا عزيزي إنني وجميع أفراد مجموعتي البالغ عددهم أكثر من خمسين مقاتلاً كنا ضمن تشكيلات الجاش، نعمل بالضد من الحزب الديمقراطي وباقي الأحزاب الكوردية من أجل مصلحتنا، وليس خدمة للدولة العراقية، باعتبارها على حق أو على باطل..

وأخذ يقص علي كيف كان يذهب إلى بغداد ويدخل لوزارة الدفاع وهو يحمل مسدسين بخاصرته، وكيف كان كل ضباط الاستخبارات العسكرية هناك يهابونه ويحترمونه لمقدرته العسكرية وبنادق مجموعته التي يحتاجوها، وأضاف:

- وعندما اتصل بي الحزب الديمقراطي ليعرض علي امتيازات مادية ومعنوية أكثر تحولت مع كامل أفراد مجموعتي من الجاش لنكون بناوچة بنچوين كپيشمرگة نقاتل الحكومة التي كنا معها، ولا أذهب بك بعيدًا عندما أضرب لك جلال الطالباني مثالاً على قولي هذا، باعتباره هو من عمل على تأسيس قوات الجاش بعام ١٩٦٦، وهو اليوم زعيم كوردي بارز ورئيس لحزب الاتحاد الوطني الكوردستاني، ثم أضاف قائلاً: يا صديقي العزيز تخلى عن هذه الأوهام من رأسك لأني أخشى عليك من تبعاتها، ذلك لأنني أقدر فيك إخلاصك، وأحترمك لأنك واضح بطرحك لما تريده، على العكس من كل أولئك الذين تراهم كل يوم في مجلسنا هذا، لأن كل واحد منهم يلف ويدور سعيًا من أجل مكاسبه الشخصية فقط..

بتلك الكلمات ختم الرجل قوله من غير أن أنتبه ويا للأسف إلى أنه كان تحذيرًا لي أكثر مما هو نصيحة أخوية، ولكني لم أفهمها حينها لجهلي بطبيعة الناس من حولي، فقلت له:

- إني أشكرك على مشاعرك الأخوية الصادقة تجاهي، واعلم يا صديقي العزيز أن منزلتك عندي جدًا عظيمة، ولكني لا أستطيع أن أحيد عن الخط الذي نذرت له نفسي في خدمة الآخرين من أهلنا، وليس الالتفات إلى مصالحي الشخصية التي هي أصلاً أبعد ما تكون عن ذهني وتفكيري، فتلك هي وجهة نظرك في الحياة وأنا أحترمها وأقدرها، ولي وجهة نظر أخرى لا أستطيع أن أغيرها، وهذا لا يمنع أن نستمر بصداقتنا الأخوية بعد أن طوقت عنقي برعايتك وبمعروفك وبكرمك اللا محدود لي.

- يؤسفني أن أقول لك بحكم تجاربي التي لم تمر أنت بمثلها، إنك ستندم في يومٍ ما.

- أندم على ماذا؟ وأنا قد وهبت حياتي وهدرت دمي من أجل المبادئ التي تعرفها أنت قبل غيرك، فأنا رجل بلا مستقبل، وهكذا هي لعبة الزمن تبدأ بولادة وتنتهي بموت تتخللها حياة نترك فيها بصمة لسيرة حسنة تبقى خالدة من أجل أن يترحم على أرواحنا كل من عرفنا وعاشرنا، وحتى على افتراض أنني لو قبلت أن أنقلب لأكون من الذين يبحثوا عن مصالحهم وهذا لن يكون حتمًا، فمصلحتي بالتأكيد لن تكون بالاستقرار بإيران على وجه التحديد.

على هذا انتهى ذلك الحوار الذي كان على المكشوف كما يقال بيني وبين صديقي شريف كچل، ومن جانبي كنت صادقًا بكل كلمة قلتها له، لأنني مؤمن بما أقول، وكنت ولا زلت من الذين لا يتخفوا وراء الشعارات البراقة، إضافة لذلك فإن صورة تلك المرأة العجوز التي كنت قد التقيتها عند إحدى المقابر بأعالي التلال بمنطقة شهرباژير كانت ماثلة أمامي عندما هزت حينها حزامي البشتين الكوردي وهي تقول لي: إن شرف كوردستان معلق بأياديكم فلا تتخلوا عنها بهذه المرة أيضًا.

في صباح اليوم التالي غادر مضيفي بصحبة البعض من أفراد مجموعته إلى كوردستان العراق، وتم توصيلهم بسيارات عسكرية إيرانية إلى الحدود من قبل ذلك الپاسدار الفارسي الذي كنت أشعر بأنه كان يتربص بي ويضمر لي الشر بنفسه، وبقيت مع خال مضيفي في بيته بانتظار المجهول وكأنني كنت تحت الإقامة الجبرية وليس ضيفًا بإمكانه أن يغادر متى يشاء، وحينها أخذت أقلب كل الأحداث التي تسارعت معي بالآونة الأخيرة، وأربط أحدها بالآخر، حتى استنتجت أن موضوع أمر نقلي لا وجود له بالأساس، وما أنا فيه لا يعدوا سوى نفي أو إبعاد قسري عن مجموعتي بناوچة ماوت، بعد أن أصبح وجودي فيها أمر غير مرغوب به، نتيجة مواقفي واعتراضاتي ضد الأعمال المخزية

التي كانت تمارس تحت غطاء النضال والثورة، وهي بحقيقة أمرها كانت تخدم أحزابهم وأطماعهم الشخصية كما شرحها لي صديقي شريف كچل بالتفصيل، ونتيجة لذلك فقد تفضل علي صديقي الذي أعتقد أن له علم بذلك الموضوع، وبدوره سعى مشكورًا أن يتبناني، ولكني لم أفهمه، أو قد فهمته من خلال صورة ضبابية وتغاضيت عن التجاوب معه اعتزازًا بنفسي لأني لست سلعة رخيصة تباع وتشترى.

وعند المساء وبينما كنت جالسًا مع مضيفي خال صديقي شريف بغرفة الضيوف، دخلت علينا مجموعة من قوات الپاسداران الإيراني متجهمة الوجوه يترأسها ذلك الفتى الفارسي المدعو صادق، فاستأذنوا من مضيفي بغرض الانفراد بي لغرض محاورتي، فأذن لهم وقد خُطف لون وجهه لاحتمال معرفته بنواياهم الخبيثة، لقد كانوا أربعة أشخاص بضمنهم مترجم عربي من حزب الدعوة الشيعي العميل لإيران وهو يرتدي نفس الزي العسكري للپاسدار، فعرفت حينها إني مقدم على امتحان عسير سأرسب به بكل تأكيد، لأني كنت ولا زلت فاشلاً بكيفية التلون كما تقتضي الحاجة الشخصية، ولا أعرف لماذا حينها قفزت لذهني الكلمة الأخيرة لصديقي شريف التي قالها لي بنهاية حوارنا بالليلة الماضية: إنك ستندم! لترتبط بذلك الحدث.

بدأ ذلك القزم الفارسي المدعو صادق بالحوار على الشكل الاستفزازي الآتي:

سؤال (١): لقد علمنا من مصادرنا في العراق أن أي فرد عندما يكون ضابطًا في الجيش العراقي فذلك يعني بالضرورة بأنه منخرط بتنظيمات حزب البعث، فهل لك أن تخبرنا عن درجتك الحزبية عندما كنت برتبة ملازم في الجيش العراقي؟

– أنا لم أكن عضوًا بحزب البعث وكذلك لم أكن ضابطًا برتبة ملازم في الجيش العراقي، والصحيح إني كنت برتبة نائب ضابط قوة جوية أعمل بصنف الهندسة الجوية، وإثباتي على صحة أقوالي هو مدون بهذا الكتاب الصادر من الفرع الرابع لحزبنا، والموجه إلى المكتب السياسي في قيادة الحزب الديمقراطي الذي هو حليفكم، أما رتبة ملازم التي سمعتها أنت عندما ناداني بها صديقي كاك شريف كچل فهي رتبة رمزية منحني إياها الحزب الذي أنتمي له في الوقت الحاضر كما تعلمون، ونفس الأمر ينطبق على اسمي الذي تغير من هشام ليكون سه رچل بحسب رغبة مسؤولي كاك قادر قادر وبموافقتي طبعًا.

كان الپاسدار صادق هو الذي تولى طرح الأسئلة بتلك الجلسة ودور رفاقه الآخرين هو تدوين ما نقول إضافة لتحضيرهم للأسئلة القادمة، ورفيقهم الآخر من حزب الدعوة الشيعي العميل كان ينقل ما أقوله أو ما يطرحه أسياده من أسئلة علي بعد أن يترجمها من وإلى الفارسية التي كان يجيدها ولم يترجمها بأمانة لأنه قد جعل من نفسه طرفًا معاديًا باعتباره واحدًا منهم، علمًا أن عناصر حزب الدعوة العميل لإيران كانوا على نوعين، الأول منهم كان موزعًا على جميع قوات الپاسدار كعنصر مقاتل لمحاربة العراق ناهيك عن الترجمة التي كانوا يقدموها للفرس من خلال التحقيقات التي تجرى مع أسرى الحرب العراقيين، إضافة إلى لعبهم لدور الجلادين أثناء تلك التحقيقات بكل حقد وكراهية تجاوز على الحقد الفارسي المعلن والدفين للعراق والعراقيين على مدى آلاف السنين.

والنوع الآخر منهم كانوا على شكل تنظيمات سرية بداخل العراق من أجل التخريب، من خلال زرع العبوات الناسفة بمناطق سكنية عديدة من أجل بث الرعب بين الناس، إضافة لتزويد حلفائهم أو أسيادهم في إيران بالمعلومات

الاستخبارية عن أي شيء ينفع أو تطلبه منهم إيران، ومن سخرية القدر أنهم حاليًا بعد أن ولاهم الأمريكان حكم العراق يتبجحون بكل صلف باعتبار أن تلك الفترة كانت مرحلة نضال لهم، ولله في خلقه شؤون.

سؤال (٢): باعتبارك من سكان بغداد، نريد منك أن تصف لنا حجم القطاعات العسكرية الأمريكية التي تقاتل إلى جانب العراق، ويقال إنها تتجول بمدنه بشكل علني؟

- ليس هنالك أية قطاعات عسكرية أمريكية تقاتل إلى جانب الجيش العراقي، كما أن كل تجهيزات الأسلحة العراقية هي من مصادر روسية المنشأ، ونحن في القوة الجوية كل طائراتنا كانت روسية أيضًا، وليس بينها طائرة واحدة أمريكية الصنع.

قاطعني مستنكرًا:

- لماذا لا تقول الحقيقة ونحن لدينا معلومات تؤكد اشتراك الأمريكان في الحرب على الجمهورية الإسلامية، والجميع يعرف أن العراق مدعوم من قبل قوى الاستكبار العالمي الذي تترأسه أمريكا، التي هي بحالة عداء دائم منذ ولادة الثورة الإسلامية بإيران..

فقلت متهكمًا:

- ما دامت مصادرك تؤكد لك ما قلته للتو فلماذا تسألني عنه؟ وعلى أية حال أنا أجبتك بما أعرفه من خلال ما كنت أسمعه وأشاهده كل يوم ببغداد، وبأمكانك أن تسأل أي عراقي آخر موجود في إيران ليجيبك بنفس ما أجبتك بهذا الصدد..

أدار وجهه تجاه ذلك الدعوجي الخائن الذي أجابه من فوره بعبارة: باليه الفارسية، وتعني نعم توجد قطاعات أمريكية في العراق، فقال صادق:

- هذا واحد من أهل العراق يشهد خلافًا لما تقوله أنت، فلماذا تضللنا بمعلومات غير صحيحة؟

عندها نظرت باشمئزاز إلى ذلك المنافق الخائن الذي لم ألتق طيلة حياتي بمثل نوعه الرخيص وما أكثرهم اليوم، وتيقنت حينها أن الموضوع ليس مجرد أسئلة بريئة مطلوب الجواب عليها، بل هي مؤامرة مدبرة للإيقاع بي، ويجب علي أن أكون حذرًا، والفرس دهاة بطبعهم وأنا قليل الحيلة.

سؤال (٣): ما هي معلوماتك عن وجود بعض الإيرانيين الخونة الذين يحاربوا بلدهم إيران إلى جانب الجيش العراقي؟ من هم؟ وأنصحك أن لا تنكر وجودهم أيضًا، كما أنكرت وجود الجيش الأمريكي في العراق؟

(طبعًا هو يعتبر خصومه الإيرانيين من مجاهدي خلق خونة لإيران، وبنفس الوقت لا يعتبر أن العراقي الذي يصطف معه لضرب وطنه العراق خائنًا؟ هكذا هم الفرس متعالين على القوميات والمِلل ويسعوا لأن يجعلوا الجميع خدمًا لهم).

- ليس لدي معرفة تفصيلية عنهم بالرغم من مشاهدتي لهم في التلفزيون العراقي بإحدى المرات، وعلى ما أذكر فإنهم يدعوا بمجاهدي خلق أو ما شابه.

فقال بحدة:

- إنهم منافقون خلق وأنت تعظمهم وتسميهم بمجاهدين خلق، فهل أنت معجب بهم؟

فقلت وقد ثارت ثائرتي:

- يا أخي أنت تعرفهم أكثر مني فلماذا تسألني عنهم؟ واعلم أنني غير معجب بهم أو بغيرهم، وكلامك يناقض بعضه البعض، فمن ناحية تسألني عن حزب

البعث وتذكر اسمه كما هو، ومن باب آخر تسألني عن غيرهم وتريدني أن أغير اسمهم بما يتلائم وما تشتهي. وأنا لا يعنيني إن كان البعثيون هم عبثيون أو المجاهدين هم منافقين وأرجوك أن تدخل مباشرة بقول ما تريده مني لكي أجيبك بما أعرف.

سؤال (٤): حسنًا أخبرنا عن سبب تواجدك على الأراضي الإيرانية وهل دخولك إليها كان بطريقة غير شرعية؟ أم ماذا؟ وأنت تعلم أننا بحالة الحرب مع العراق.

- إن سبب وجودي بمريوان معلوم لك منذ اليوم الأول لوصولي، وكتاب النقل الذي زودني به الحزب الديمقراطي الذي هو حليفكم أضعه الآن بين يديكم ليفسر لكم الموضوع كاملاً.

سؤال (٥): هل أنت مسلم أم سني؟

- أنا مسلم طبعًا.

وأيامها لم تكن الطائفية معروفة في العراق وأنا كنت ولا زلت علماني التوجه، موحدًا بالله، وأكثر شيء كنت أعلمه بخصوص المذاهب هو أن من يعتمر العمامة البيضاء هو سني ومن يعتمر العمامة السوداء هو شيعي، حتى علمت خلال فترة الاحتلال الأمريكي للعراق أن من يعتمر بالعمامة البيضاء هو شيعي ويدعى بالشيخ، وأن من يعتمر العمامة السوداء هو شيعي أيضًا ويدعى بالسيد.

عندها ضحك ذلك العميل الدعوجي التافه باستهزاء وهو يسخر من إجابتي بأني مسلم، وقال لي:

- ألم تفهم أن السؤال معناه: هل أنت شيعي أم سني؟

فذهلت ولم أجرؤ لأصرح بعلمانيتي خشية من اتهامي بالكفر أو الزندقة. فقلت بكل صدق وذلك يعني أيضًا أنني مسلمًا:

- أنا الاثنان معًا..

فقالوا:

- يبدو إنك لم تقرأ التاريخ الإسلامي جيدًا، فكونك مسلم فذلك يعني أنك من أتباع آل البيت عليهم السلام، وكونك سني فذلك يعني أنك من أتباع صنمي قريش.

- مهلاً مهلاً فأصنام قريش قد كُسرت وتحطمت أثناء الفتح الإسلامي لمكة.

ضحكوا علي وقالوا:

- صنمي قريش هما أبو بكر وعمر ويبدو أنك فعلاً جاهل ولا تفقه من التاريخ الإسلامي شيئًا..

اقشعر بدني وأنا أسمع بكلتا أذناي شتم كبار صحابة الرسول الكريم ومن المقربين له، ومن شدة غضبي تناسيت الموقف الذي كنت فيه ولم أستطع كتمان استيائي لما سمعته منهم، واستنكرت عليهم ذلك القول الشائن وقلت لهم:

- إن آل بيت الرسول الكريم وأصحابه الكرام هم من نصر الإسلام ونشره في كافة البقاع..

فانقلب الأمر وبالاً على رأسي بتلك الإجابة، واستنكروا جميعهم وقالوا لي:

- كيف تساوي بين الحق والباطل؟ وبين الإيمان والكفر؟

لم أجبهم واعتمدت الصمت بهذه المرة...

انتهى الأمر على هذا بعد أن اتهموني بأني جاهل بالتاريخ، فتنفست الصعداء باستقبال سؤالهم القادم، بعد أن انكشف لي أن الغاية من تلك الأسئلة الاستفزازية الملغمة كانت من أجل ترويضي، أو بمعنى أصح من أجل تحميلي

للعديد من التهم تمهيدًا لما سيطلبونه مني لاحقًا.. ولكني خرجت باستنتاج مفاده بموجب تصنيفهم لمعنى المسلم بعقيدتهم الشيعية الصفوية، أن كنية جمهوريتهم الإسلامية تعني أنها جمهوريتهم الشيعية، ونفس الشيء ينطبق على تسميتهم للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذي يعني بموجب تصنيفهم بأعلاه هو المجلس الأعلى للثورة الشيعية في العراق.. وقد كنت صادقًا عندما أخبرتهم أنني جاهل بالتاريخ الإسلامي، الذي قصدت به ذلك التاريخ المزيف الذي كتبه ملالي الشاه إسماعيل الصفوي قبل مئات السنين، عندما دسوا فيه الروايات الهزيلة التي لفقها خيالهم الفارسي المريض.

سؤال (٦): نريدك أن تعرفنا بأهداف حزبكم الديمقراطي وما هي عقيدته؟

- لدي بعض الكتيبات الصادرة من الحزب الديمقراطي والمطبوعة بموافقات رسمية هنا في إيران، وهي تعبر عن أهدافنا القومية وعقيدتنا السياسية بهذه المرحلة، ومنها ما هو مطبوع بالعربية والكوردية ولا علم لي إن كان هناك نسخ منها قد طبعت باللغة الفارسية، اطلعوا عليها لأنها ستجيبكم عن كل ما تريدون معرفته عن حزبنا الديمقراطي.

فقال بصلافة:

- هذه الكتيبات طبعت من أجل أن تُرسل إلى العراق وليس من أجل أن تُقرأ هنا بإيران، حدثنا أنت بما تعرفه عن حزبك الذي انتميت له عن قناعة بمبادئه وأهدافه، لأن هذا الأمر يهمنا أن نتعرف عليه من خلالك أنت بالذات، ولا يعقل أنك لا تعرفها وأنت عضو مرشح للعمل بالمكتب السياسي للحزب الديمقراطي؟.

فقلت بكل صدق كل ما أعرفه عن شعبي الكوردي ونضاله على مدى التاريخ، ولم ألتزم فقط بشعارات الحزب الديمقراطي الذي يذكرها بكل أدبياته السياسية من باب الإعلان وليس من أجل التطبيق كما اتضح لي، وأستطيع الجزم أن كل

الذين كانوا بتلك الجلسة على معرفة بذلك التاريخ النضالي العريق لشعوب الأمة الكوردية عبر الزمن ومنذ آلاف السنين..

فقال وكان الزبد يتطاير من فمه القذر:

– ما هذا الذي تقوله؟ إنه الكفر بعينه..

فقلت بحزم:

– لماذا نكفر عندما نقول إننا كورد ولا نكفر لو قلنا نحن فرس أو عرب أو أتراك، والله عز وجل يقول بكتابه الحكيم: "إنا خلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا.."، فما الضرر من التمسك بالقومية الكوردية تحديدًا؟ وأين مكمن الكفر بهذا الحق الذي لم ينكره الله على عباده؟!

فقال متملصًا:

– إنك لم تكمل الآية لتكون: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

وكان يشير بإصبع إبهامه إلى صدره وهو يتلفظ عبارة: إن أكرمكم. على أساس أنه ابن الأكرمين على باقي الشعوب والقبائل كما تحدثت عنها الآية الكريمة. فاستطردت قائلاً بحزم أقوى:

– إذا كانت لديكم أية اعتراضات على نهج عقيدتنا القومية الكوردية باعتبارها نوع من أنواع الكفر؛ فلماذا تسمحوا بفتح مكاتب ومقرات للحزب الديمقراطي الكوردستاني على أراضيكم؟ وبالذات مقر قيادة الحزب الذي يشغله رئيس الحزب كاك مسعود البرزاني، لتبلغوه شخصيًا باعتراضكم على نهجه القومي، أو على الأقل لا تسمحوا له بطبع منشورات حزبه بمطابعكم..

فقال بكل صلف:

– سمحنا لكل المكاتب والمقرات الحزبية للحزب الديمقراطي بالعمل في إيران، لأنهم لا يدعوا لنفس ما تقوله أنت، وضمنهم رئيس حزبك مسعود البرزاني

الذي ذهب لمواجهة الإمام الخميني، وجلس عند قدميه، ووعده بتسليمه كوردستان على طبق من ذهب إن هو زوده بالمال والسلاح والدعم اللوجستي من قبل الجيش الإيراني له، ولهذا فكلهم يقولون قولاً مغايرًا لما تدعيه، وإذا أردت أن تتعرف على السبب فذلك لأنهم جميعًا يعملوا لدينا بالأجرة، ونحن من يتحكم بكل خطواتهم وتحركاتهم، سواء في العراق أو في إيران، وأظنك لا تعلم أيضًا أنهم يقاتلوا إلى جانبنا بقمع التمرد الكوردي الإيراني من الذين يؤمنوا بنفس أطروحاتك القومية المستهلكة هنا في مريوان وبأماكن أخرى من شمال إيران.

قلت وقد ضاقت نفسي حد الاختناق:

- لماذا كل هذا اللف والدوران؟ لماذا لا تقول ما تريده مباشرة؟ وما الغاية من كل هذا الكلام، الذي تارة تكفرني به، وتارة أخرى تهددني من خلاله بشكل مبطن؟ قل لي ماهو المطلوب مني وسأجيبك مباشرة بشكل واضح، سواء رضيت أم لم ترضَ به، واعلم أن كاك مسعود البارزاني لا يحتاجكم بقدر ما أنتم تحتاجوه، وما تقوله عنه من تبعية ذليلة لكم هو أمر لا صحة له لأنه من بنات أفكارك أنت..

سؤال (٧): حسنًا، نحن ندعوك أن تنضم إلى قوات بدر، وهي مجاميع عراقية مقاتلة، تمَّ توحيدها تحت تشكيل أسسناه حديثًا أسميناه المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وهو يقاتل القوات الصدامية في الجنوب كما تفعله مجاميعكم الكوردية بمقاتلة القوات الصدامية في شمال العراق، وباعتبارك عسكري سابق في الجيش العراقي؛ فمن المؤكد أن لك خبرة في القتال، ولذلك فنحن نحتاجك، وبالطبع لن يضيرك أن تقاتل القوات الصدامية تحت أي عنوان لأنه نفس العدو، وهذا ما نريده منك بالضبط!

- كان بإمكانكم أن تدعوني لهذا الموضوع مباشرة من غير أن تكفروني تارة وتخونوني تارة أخرى، ثم تستخفون بنضال شعبي الكوردي بالختام، وجوابي على طلبكم هو أنني كنت قد جئت بمهمة محددة من قبل حزبي للالتحاق بالمكتب السياسي، لا من أجل أن أذهب كما تدعوني إلى تشكيلات غير كوردية لا تربطني بها صلة العقيدة أو الهدف، ويؤسفني أن أقول لكم إنني أرفض طلبكم هذا، وأنكم قد اخترتم الشخص غير المناسب لهذه المهمة.

قال وعلامات العجب كانت بادية عليه:

- لكنك على أرضنا، ويجب أن تُطيع أوامرنا كدولة إسلامية، ولا تنسَ أنك مسلم.

قلت وقد ركب التعصب الكوردي رأسي:

- لنتكلم بصراحة أكثر، لقد قلت عن رفاقي البيشمرگة أنهم يعملون لديكم بالأجرة، إذن كيف تفسر استمرار الثورة الكوردية في العراق لعشرات السنين من النضال؟ فهل كانوا طوال تلك الفترة الطويلة من نضالهم يتلقوا الأوامر منكم والثورة الإسلامية في إيران- ومع شديد احترامي وتقديري لها- بعامها الثالث بعد ولادتها، وخلاصة كلامي هو أن لكم طريق ولنا طريق..

ولعجز ذلك الفارسي التافه من الإجابة فقد قال:

- هل تشبهنا بالكفار بزمن قريش؟

فقلت:

- معاذ الله، متى قلت هذا؟

ولم أعلم ماذا كان يقصد. فقال:

- كيف لا وأنت تقول نفس الكلام الذي قاله المسلمون لكفار قريش ببداية الدعوة الإسلامية: "لكم دينكم ولنا دين..".

علمت أنه قد رجع لأسلوب التهديد فقلت له:

– يظهر أن هناك سوءًا مقصودًا في الترجمة من أخينا العراقي العربي، لأنه يحرِّف عن قصد ما قلته من كلام واضح. وبالمناسبة فاللغة الفارسية كانت مفهومة لدي بأغلب جملها لأنها تحتوي على مفردات من اللغة الكوردية والعربية.

فرجع مرة أخرى يزايد بشكل رخيص وقال:

– يجب أن تعلم أنه ليس هناك بيننا عربي أو كوردي أو فارسي، فكلنا جنود للثورة الإسلامية، ونحن ماضون من أجل تأسيس الدولة التي لم يتسن للإمام علي (ع) إقامتها بسبب مقتله.

فقلت بعد أن أجهدتني تلك المناقشة السقيمة:

– في هذه المواضيع الدينية ومن غير لبس أو تحريف لكلامي؛ فإنني أعترف لكم وبكل وضوح بعدم فهمي بأمور الدين والفقه، وكذلك فإني لست مطلعًا على التاريخ الإسلامي بكل فصوله.

(طبعًا كنت أقصد عدم اطلاعي على التاريخ المزور الذي كتبه الفرس)، وأن جميع اهتماماتي منصبة فقط برفع الظلم عن شعبي الكوردي، وكيفية استرجاع حقوقه المغتصبة، فأنا مقاتل كوردي عراقي، وأهدافي معلومة ومعلنة من قبل قيادتي التي هي في إيران، فإذا لم يرق لكم أمرنا أغلقوا جميع مكاتب ومقرات حزبنا واطردونا إلى خارج حدودكم وحينها سأكون أول المغادرين. فقال بخبث:

– ذلك يعني أنك ترفض القتال إلى جانبنا ولا تقدم ولاء الطاعة للجمهورية الإسلامية ولقائدها الإمام الخميني؟

قلت موضحًا:

- مهلاً، نعم أرفض طلبكم، ولكن ليس كما تصفه أنه خروج على الطاعة لأنني حر بقراري فأنا اعتذرت لكم عن قبول مادعوتموني له لانشغالي بمهمة أخرى.

فقال بامتعاض:

- أخبر مضيفك أننا نريد المغادرة من أجل إفساح المجال لنا بالخروج.

فناديت على مضيفنا الذي جاء ليصطحبهم حتى الباب الخارجي للدار، ولدى رجوعه سألني بقلق عن ما دار من حديث بيني وبين ذلك الپاسدار وجماعته، فأخبرته تفصيليًا بكل ما دار بيننا من حوار سقيم دام لثلاثة ساعات.. فقال:

- إن الذي قلته لهم أمر لن يمر بسلام، خصوصًا تصريحك القومي بما يخص النضال الكوردي، لأن لا أحد منا بإمكانه أن يتجرأ ويتفوه ولو بكلمة من هذا الذي قلته لهم، حتى لو كان المتكلم كاك مسعود البارزاني الذي هو رئيس حزبنا، لأنه يعرف كيف يدير اللعبة مع هؤلاء..

- إذا كان البوح بما نؤمن به خطيئة فما جدوى نضالنا هذا؟ وإذا كان لازمًا علي أن أجاري صبيان الفرس بأطروحاتهم السخيفة، فكان الأولى بي مجارات مسؤولي حزب البعث الذين لم أسمع منهم نفس ما سمعت من تفاهات بهذه الليلة، ولكنت قد صفقت لهم ومدحتهم بمناسبة وبدون مناسبة ليتركوني وشأني، وبذلك أكون قد وفرت على نفسي الجهد والمشقة والهجرة عن بيتي وأهلي..

- لكني لا أخفي عليك قلقي الشديد لما قد يستطيع فعله هؤلاء الصبية من سوء بك، لننتظر للغد ولنرى ما سيكون من أمرهم معك..

- والله لن أرضخ لما طلبوه مني مهما تكون النتائج، وأنا لست نادمًا على كل كلمة قلتها لهم، ولن أرضى لنفسي أن أكون بندقية للبيع.

في اليوم التالي تعمدت أن أقضي معظم وقتي متجولاً بسوق المدينة، أفكر بطريقة لا تثير الشكوك أستطيع من خلالها العبور لكوردستان العراق أثناء رجوع بعض الپيشمرگة الذين انتهت إجازتهم، ولكن بدل أن أعثر على البعض منهم، التقيت بالبعض ممن أعرفهم، ليخبروني أن كاوه ابن مضيفي يبحث عني بطرقات البلدة من أجل الرجوع للبيت لأمر مهم..

ذهبت لدارهم وهناك وجدت الپاسدار صادق بانتظاري جالسًا بصحبة ثلة من رفاقه المسلحين، فسلمت عليهم جميعًا ومددت يدي لمصافحته، فمد يده بعد أن قبض على كفه على طريقة المتلاكمين، وهي على ما كان يبدو طريقة فارسية تعبر عن عداء صاحبها، كطريقة البعض منا عندما يمتنع من مد يده لمصافحة من له خصومة معهم.. فعرفت على الفور أن هناك أمر سيء بانتظاري، وأثناء جلوسي وسط ذلك السكون الذي خيم على الجميع، تفحصت تلك الوجوه المتجهمة على أمل أن أفهم من ملامحها شيئًا، وعندها سألت مضيفي عن الموضوع المهم الذي من أجله بعث ابنه ليبحث عني في سوق المدينة؟، أخبرني بالكوردية والأسى بادي على محياه:

– إن الجماعة جاءوا لكي يلقوا القبض عليك بتهمة التجسس لصالح العراق!!

فسألت صادق بلهجة المعاتب:

– كيف حدث هذا بين ليلة وضحاها؟

– لقد وصلتني اليوم معلومات تؤكد أنك كنت ضابطًا في استخبارات مدينة البصرة بجنوب العراق، وتم نقلك إلى مدينة السليمانية في الشمال لكي تندس في صفوف الحزب الديمقراطي من أجل أن يتسنى لك المجيء لإيران، ذلك لمعرفتك السابقة بمدى علاقتنا الوثيقة بهذا الحزب، لكي تنفذ من خلاله مهمتك التجسسية التي سنتعرف على تفاصيلها من خلال التحقيق معك..

– إنها أكاذيب اختلقتها بنفسك من أجل إلحاق الضرر بي، وكان الأجدر بك أن تُلقي القبض علي ليلة البارحة أثناء تقاطع أفكارنا ومبادئنا، لتتهمني بالكفر نتيجة تمسكي بقضيتي الكوردية التي أنكرتها أنت، ناهيك عن عدم تلوني للصبغة التي أردتني أن أكون عليها، عندما دعوتني بلهجة الأمر للالتحاق بقوات بدر التابعة للمجلس الأعلى للثورة الإيرانية في العراق... على أية حال فأنا لا زلت متمسكًا بأقوالي وثباتي على ما أؤمن به ككوردي قومي، وسآتي معك حيثما تريد، ولكن بشرط حضور مسؤول مكتب حزبنا الديمقراطي في مريوان المدعو حمه سور حسين، لأنه يعرفني جيدًا ويعلم بأمر نقلي إلى مقر قيادة الحزب.

– عن أي مسؤول حزب تتكلم أنت؟؟ أنا أستطيع الآن أن أذهب إليه وأهدم سقف مكتب حزبكم على رأس مسؤولك الحزبي هذا، ولكني احترامًا للبيت الذي أنا فيه الآن، ولحرصي على عدم إحداث ضجة؛ سأرسل بطلبه وسترى بأم عينك ماذا سيكون موقف ممثل حزبك هذا منك.

عندها أرسل أحد رفاقه من الپاسدار بطلبه، وأثنائها استأذنت بحجة الذهاب للمرافق الصحية لكي أحصل على فرصة أعطي ابن مضيفي كاوه ما كنت أحمله من نقود عراقية كانت بحدود المائتين دينار التي قيمتها بتلك الفترة ستمائة دولار، لأني خشيت أن يصاردها ذلك الپاسدار التافه أثناء تفتيشي بمقرهم، ثم رجعت لمكان جلوسي.

جلسنا بانتظار قدوم حمه سور حسين صامتين حتى حضر وهو مرعوب مما سمعه عني من تلك التهم الكيدية الملفقة، وقال من فوره: لا مانع لدي على الإطلاق من إلقاء القبض على هذا الرجل الذي لست على معرفة تامة به، أنتم تمثلون الدولة وأنتم أعرف منا به. وعندها كشر صادق عن أنيابه بابتسامة

مسمومة صفراء، وعينيه تقول لي: ألم أقل لك البارحة إنهم جميعًا مدفوعي الأجر ويعملوا بأوامرنا، فالتفت لمضيفي خال صديقي شريف كچل عسى أن يشفع لي بهذا الموقف ويدافع عني ولو بكلمة يسجلها لتاريخه الشخصي، فأدار الرجل وجهه عني لجهة أخرى كدليل عجز عن مواجهة الموقف الذي هو أعلم من غيره بخلفيات وأسباب تلك التمثيلية المدبرة...

عندها وضعت يدي على كتفه وأنا أنهض لكي أذهب مع الپاسدار صادق وقلت له: لا عليك يا خال إن الله مع الصابرين.. مضيت بطريقي نحو الاعتقال مع ذلك الپاسدار الفارسي القزم صادق، متوكلاً على رب العباد من شر العباد، ورأسي مرفوع بعد أن تخلى عني رفاق الأمس الذين كانت رؤوسهم مطأطأة نحو أقدامهم، لأترك وحدي أقاتل بالكلمة الصادقة ضد عدو متجبر غير آبه بكل العواقب التي كانت تنتظرني، ولسان حالي يقول: السعادة بالنضال والتعاسة في الخنوع.

عند خروجنا لشارع باب الدار وجدت بعض الفضوليين اللاجئين من الشباب الكورد الذين كثيرًا ما حادثتهم أثناء ضيافة شريف كچل لي ولهم في بيته، وقد أسمعوني كلامًا نابيًا كان الغرض منه أن ينالوا رضى الپاسدار عنهم، وليس لأنهم صدقوا أنني جاسوس عراقي، وعندها وضع الپاسدار الأصفاد بيدي ورجلي ثم حملوني ليرموا بي بحوض سيارة البيك أب التي كانت متوقفة بذلك المكان وكأني حيوان ولست إنسان، ثم صعد أصحاب البنادق منهم ليحوطوني أثناء وجودي بحوض البيك أب، بينما صعد الپاسدار صادق ليقود السيارة، وعند تحركنا تجاه مقر الپاسداران رفع جميع من كان حاضرًا هناك يده من أجل تحية الوداع لأفراد الپاسدار، مع ابتسامة منافقة مرسومة على وجه كل واحد منهم، وكأنهم كانوا يقدمون ولاء الطاعة أو الشكر الجزيل على اعتقالهم لي،

وأنا الذي تصورت ببداية رؤيتي لهم أن تجمعهم قد يكون من أجل التعبير عن اعتراضهم أو امتعاضهم بسبب اعتقالي.. ألا تبًا لهم ولما كانوا يفعلون.

كان الوقت هو الغروب، فنظرت لنفسي وأنا مستلقي على ظهري مكبلاً بالأصفاد من يداي وأرجلي، وعيناي معلقة بالسماء، وأجزم أن كل من تعرفت عليه أو هو يعرفني من أبناء جلدتي الكوردية قد تبرأ مني بذلك اليوم، وعندها تفتح ذهني لأستنتج أن ذلك الپاسدار اللعين لم يأتني هكذا من غير سبب ليعرض علي الانتقال لخدمتهم كبندقية للبيع، لولا أن هناك رغبة من جماعتي في الحزب الديمقراطي للتخلص مني، ونصيحة صديقي شريف كچل لي لم تأتِ من فراغ، وهذا يعني أنه كان على علم بتلك الصفقة الرخيصة ببيعي على الجاهز لإيران، ولذلك طلب مني التخلي عما جئت من أجله لأكون واحدًا منهم باعتباره يعرفني حق المعرفة وأراد أن يشتريني بدلاً منهم، ولكني لم أفهم معنى كلامه وما كان يدار بالخفاء من حولي، خصوصًا عندما أكد لي من خلال قوله: إن كل واحد منهم ينظر لمصلحته فقط، وهذا يدل على أن ضيافته الكريمة لي لم تكن من أجل تلك الصداقة الوليدة بيننا...

من خلال مراجعة سريعة للتواقيت الزمنية التي حدثت خلالها كل تلك التطورات؛ اتضح لي أن الرجل الذي كان مضيافًا كريمًا قد رفع غطاء حمايته لي فور سفره بصباح ذلك اليوم، عندما أوصله نفس ذلك الپاسدار صادق للحدود بنفس السيارة العسكرية البيك أب التي ستنقلني لمعتقلي، وهذا يوضح مدى العلاقة المتينة بينهما، وعليه فهل يعقل أن ذلك الپاسدار القزم قد تجرأ ليقتحم بيت أحد رموز القادة الذين لإيران مصلحة معهم من غير حصوله على الضوء الأخضر منه؟!... في تلك اللحظة فقط عرفت كم أن طيبة قلبي ونقاء سريرتي قد صنعت مني إنسان ساذج، يسبح ببحار الخطر دون أن يشعر

بالمخاطر التي كانت تدبر من حوله.. فقلت لنفسي بكل ألم: يا لتعاستي ويا لشقائي.. وإن كتبت لي الحياة لأعيش فيها مجددًا، فهل سأتعلم من ذلك الحدث ومن غيره مما هو قادم بتلك الرحلة الدروس أم سأظل كما أنا، أضحك لكل من يضحك بوجهي، وأتصور أن كل الناس مثلي؟ الجواب أقوله ونحن الآن بعام ٢٠١٦ أي بعد مرور أكثر من ٣٠ عامًا هو أنني بقيت ذات الشخص الشفاف ولم أستطع أن ألبس غير جلبابي، فالصراحة وحسن النية والصدق والثبات على القيم والمبادئ كانت وستبقى عنوانًا بارزًا يميزني عن الآخرين مادمت حيًا أرزق، والمثل يقول: إن لم تتألم لن تتعلم.. وأنا صعب علي أن أتعلم الغش والخداع لأنه ليس بالثوب الذي يليق بي بعد كل الآلام التي عانيت منها بسبب صراحتي وشفافية طرحي.

ولا يتصور من يقرأ كلماتي هذه أنني بصدد امتداح نفسي وتجميلها، لأن كل هذه الصفات الإنسانية الرائعة أصبحت مستهلكة بزماننا الحالي، بعد أن أصبح من يتمسك بتلك القيم والمبادئ العليا التي تربينا عليها يوصف بأنه فاشل بحياته أو مخبولاً بعقله.

وصلنا لمقر الپاسدار وكان على شكل قصر كبير بحديقة واسعة، من المؤكد أنه كان من قصور أحد أغنياء الزمن الشاهنشاهي وصادرته قوات الپاسداران. ترجلنا جميعًا من السيارة عند الباب الخارجي لمقرهم، وهناك لحق بنا مسؤول مكتب حزبنا بمريوان حمه سور حسين، وكان يود محادثة الپاسدار صادق، حيث قال له: افعلوا ما شئتم به ولكن أرجوكم لا تقتلوه، فقال صادق: لقد اعتقلناه من أجل التحقيق ومعرفة حقيقة أمره وبعدها سنرسله إلى طهران من أجل أن يلحق جموع الأسرى العراقيين حال فراغنا منه.. فقال حمه سور حسين: إذا كان هكذا فلا بأس من ذلك.

وأعتقد أن تصرف هذا الرجل على ذلك النحو الإنساني لم يكن نابعًا من ذاته أو لصحوة ضميره، وإنما كان مدفوعًا من قبل مضيفي خال شريف كچل الذي قرأت بوجهه علامات الأسى والألم لما حصل لي أثناء مغادرتنا لبيته، أو على أقل تقدير أنه كان وفيًا للاحترام المتبادل بيننا على مدى الفترة القصيرة التي عشتها معه في بيتهم.

دخلنا بناية مقر الپاسداران الإيراني، وهناك أدخلني القزم الفارسي صادق إلى غرفة مكتبه، وجلس على كرسيه واضعًا أرجله على منضدة مكتبه تجاهي على نفس الطريقة الأمريكية الوقحة، وابتسامة النصر الصفراء تعلو شفتيه التي يتناثر منها الزبد أثناء كلامه، وقال:

– سنرى إن كنت ستغير أقوالك بهذا الليلة أم أنك ستصر عليها كما كنت بالليلة الماضية!

فقلت برباطة جأش وحزم لم أرَ نفسي عليها طوال حياتي السابقة:

– سترى، ولكن بودي أن أعرف هل ستكون مناقشتك مصحوبة بتعذيبي جسديًا؟ بعد أن عجزت عن إذلالي لضعف حجتك أثناء الحوار الذي دار بيني وبينك بالأمس؟

قال بغضب:

– بل ستكون على طريقة الثورة الإسلامية..

ويقصد طبعًا ثورتهم الدموية، فقلت:

– ولكني أعرف أن الإمام علي الذي تتمثلون بقيمه كما هو معلن عندكم لم يكن حاشاه كذابًا، لأن المسلم الحقيقي لا يكذب، ولا يلفق التهم الباطلة مع من يختلف معه بالرأي كما فعلت أنت وألبستني تهمة كيدية رخيصة، وجعلتني جاسوسًا وأنت أول من يعرف أنني لست هكذا..

ولأن رحمة الله عز وجل واسعة لعباده المخلصين من الذين لا يبغون من متاع الدنيا شيء؛ فقد حدثت مفاجأة غير متوقعة، فقبل أن نستمر بحديثنا السقيم دخل علينا ضابط من الجيش الإيراني برتبة رائد، الأمر الذي جعل صادق يكف عني ويعتدل بجلسته، ونهض من كرسيه ليستقبل ذلك الزائر غير المتوقع، فالعلاقة بين الجيش والپاسدار لم تكن ودية، وهي متوترة على الدوام، وبذلك أراد صادق أن يثبت العكس، لأنه لا يريد أن يعكر صفو حفلة التعذيب التي أعدها لي بتلك الليلة، من خلال مشكلة قد تحدث مع ذلك الضابط..

عندها تحدث ذلك الضابط مع صادق بأمر يهم الاثنين لم أفهم تفاصيله، ولكنه أثناء كلامه انتبه لوجودي وسأل صادق:

- من هذا الذي عندك؟

فقال صادق:

- إنه ضابط استخبارات من الجيش العراقي مندس ضمن صفوف حلفائنا البارزانيين.

فقال الضابط:

- ماذا أنت فاعل بشأنه؟

- لقد قبضنا عليه للتو وسنحقق معه.

- لا يجوز لك التحقيق معه كما تنص القوانين لأنه عسكري من جيش معاد، ويجب التحقيق معه من قبل استخبارات الجيش الإيراني حصرًا..

- لكننا نحن من ألقى القبض عليه..

- ذلك لا يخولك سلطة التحقيق معه لأنك غير مختص بعمل الاستخبارات العسكرية، وأكرر القول لإنه عسكري وليس مدني لكي تحقق معه بموجب صلاحيتك التي تخولك باعتبارك مسؤول عن الأمن الداخلي..

ومن أجل أن يحسم الضابط ذلك الجدل لم ينتظر موافقة صادق بتسليمي له، وتوجه إلى جهاز التليفون الموجود على المنضدة ووجه نداءً لوحدته العسكرية يطلب فيها إرسال مفرزة عسكرية بغرض نقلي إلى سجنهم العسكري، غير آبه بقبول أو رفض ذلك الپاسدار اللعين صادق.. عندها تناسيت حجم المصيبة التي حلت بي بذلك اليوم، وتبسمت تشفيًا وأنا انظر باستصغار لذلك الفارسي النتن صادق، لأني تخلصت من سطوته وما كان يدبره لي من عذاب، أو لأنني تصورت حينها أن موضوع الدعوة الكيدية التي ألصقها بي صادق ستنكشف أثناء التحقيق معي من قبل الاستخبارات العسكرية الإيرانية لعدم وجود الدلائل الثبوتية، وتصوري أن محققي الاستخبارات سيسألونني عن الأسباب الحقيقية لاعتقالي، وعندها سأحكي لهم أن السبب هو رفضي الالتحاق بمجاميع الشيعة العراقيين من العاملين معهم ضمن تشكيلات قوات الپاسداران، وينتهي الأمر ببرائتي ورجوعي لصفوف الحزب الديمقراطي الذي هو حليف للجيش الإيراني بقتاله ضد العراق، وبعدها سيكون لي موقف وتصرف مع حزبي الديمقراطي بعد أن أتخلص من ذلك الفخ الذي وقعت به..

وما هي إلا فترة قصيرة حتى حضرت المفرزة العسكرية فخرجت معهم بعد أن رفعوا القيود التي كبلني بها الپاسدار من يداي وأرجلي، وذلك الضابط يقودنا حتى السيارة الجيب العسكرية المتوقفة خارج مقر الپاسداران، ركبناها ومضت بنا بعيدًا عن صادق وزمرته المهووسة بالدم والتعذيب، وأنا لم أصدق خلاصي بتلك السرعة، حتى أن الغبطة قد تملكتني وكأنني قد أطلق سراحي، فهل كانت العناية الإلهية ترعاني؟ أم أنها كانت مجرد صدفة؟ سؤال أترك تقديره لقارئ سطوري هذه لأني حتى الآن لم أعرف إجابة لذلك السؤال، ولكني علمت بعدها أن هناك تضاربًا بالرؤى كانت بين الجيش الإيراني وما يسمى بالحرس الثوري المسمى بالبارسدارن، وأن هناك حقد مكبوت بين الاثنين، وهذا ما جعلني مستغربًا من زيارة ذلك الضابط إلى مقر هؤلاء المجانين بذلك التوقيت..

أوصلتني المفرزة العسكرية إلى دائرة الانضباط العسكري للجيش الإيراني بمريوان التي كان موقعها على الشارع العام بوسط تلك البلدة الصغيرة، وهناك سلمتني المفرزة العسكرية إلى خفر الدائرة العسكرية بكل احترام من أجل الاحتفاظ بي والمحافظة علي حتى إتمام التحقيق معي، واستلمني حراسي الجدد بداخل المبنى وكانت معاملتهم لي غير سيئة وخالية من الخشونة التي كان عليها أفراد الپاسدار أثناء تعاملهم معي، وبدورهم أدخلوني لغرفة السجن التي كان فيها نافذة عالية مطلة على الشارع العام الذي تجولت فيه لعدة مرات من غير أن يخطر على بالي بأني سأستقر يومًا خلف قضبان تلك النافذة..

وقد علمت أنه قبل فترة كان قد شغلها بعض الجنود العراقيين الذين تمَّ أسرهم من قبل حزبنا الديمقراطي، وتحولوا لطهران ليلتحقوا بباقي أخواتهم الأسرى العراقيين بزنازين الأسر هناك، فتذكرتهم على الفور لأنهم نفس الجنود البسطاء الذين حاورتهم عندما كانوا محجوزين بمقر الفرع الثالث والرابع للحزب بمنطقة شهرباژير بكوردستان العراق، وكانوا من محافظة بابل، وسلموا أنفسهم طواعيًا إلى پيشمرگة الحزب الديمقراطي أثناء مداهمتهم لربيتهم العسكرية قبل حوالي الشهرين..

لقد كانت زنزانة السجن خالية من أي سجين آخر عند دخولي لها، الأمر الذي أتاح الفرصة لحراسها أن يسألوني عن سبب اعتقالي؟ فأخبرتهم بما حصل بيني وبين الپاسدار صادق، فقالوا إن هؤلاء الپاسدار قوم مجانيين ونحن متأكدين أنك عندما تلتقي بالمحقق وتخبره بذلك فإنه سيطلق سراحك ويعيدك لجماعة البارزاني على الفور، فسألتهم: متى سيأتي المحقق باعتقادكم؟ فقالوا: إنه عادة ما يأتي مرة كل أسبوع.. وعندما حل المساء جاءوا لي بطعام العشاء وبعض الأغطية من أجل النوم لبرودة الطقس أثناء الليل، لأننا كنا قد أوشكنا

على الدخول بفصل الشتاء، فجلست أنظر وأتفحص ما حل بي، وما عساي أن أفعل بعد أن تخلى عني الرفيق والصديق وكل من له صلة بي من أبناء جلدتي الكوردية، وحينها شعرت بحاجة ملحة لمراجعة صريحة لكل ما حدث معي، وذلك أمر تعودت القيام به عند مصادفتي لأي مطب كان يعترضني، وما أكثرها منذ أن بدأت مسيرتي من قرية گورگه يير تجاه المجهول الذي أوصلني إلى تلك الزنزانة.

وجدت سؤالاً واحدًا يدور بذهني: هل كنتُ على خطأ، وكل الذين اختلفت معهم بالرؤى والتطبيق العملي للنضال من رفاقي في الحزب الديمقراطي كانوا على صواب؟ ولماذا يبحثوا عن مصالحهم ويتلونوا كما يقتضي الزمان والمكان؟ وبنفس الوقت أنا لا أتزعزع عن المبادئ التي هم فقط يرفعوها كشعارات، من تلك التي يناضل الشعب الكوردي من أجلها، في حين أنهم تربوا وترعرعوا بربوع كوردستان، وأنا ولدت وكبرت بمجتمع بغداد بعيدًا عن كوردستان حيث موطن أبائي وكل أجدادي وعن ثقافة الشعب الكوردي، الأمر الذي أدى بي لأن تكون لغتي الكوردية شبه معدومة، واللغة بأدبيات الكورد تعتبر من مقومات القومية إن لم تكن هي عمودها الفقري، قياسًا للغة الكوردية التي كان رفاقي في الحزب الديمقراطي يجيدوها، ولكنهم تخاذلوا للباطل وتخلوا عن الحق وتبرأوا مني نتيجة جبنهم وعمالتهم للفرس الأنجاس وحكومتهم المللية الرعناء.

عندها شعرت أنني قد وضعت يدي على السبب الذي قد يكون هو العامل لاندفاعي القومي على ذلك النمط، باعتبارها مسألة نفسية ناتجة عن عجزي بموضوع اللغة استنادًا لمقولة: وكل ذي عاهة جبار، الأمر الذي انعكس على تصرفاتي بشكل لا إرادي، عندما عوضت عن عاهتي اللغوية من خلال التحدي

بعنفوان الكوردي الحقيقي الذي تطلعت لأن أكون هو، أو على أقل تقدير على نفس خطه، أو بتعبير آخر سائر على خطاه التي كتبها التاريخ عن الكورد ومآثرهم بالصمود والتحدي بعنفوان وشموخ عالي، حتى انتهى بي الأمر لأكون كبشًا للفداء وقربانًا لذلك الرمز الكوردي الذي سكن بعقلي وضميري..

وبافتراض أن ذلك الاستنتاج كان صحيحًا؟ فإلى أي حد سأبقى متماسكًا وعنيدًا وأنا الذي لم أتعود الحبس وما قد يصاحبه من مهانة؟ سؤال لم أعرف له إجابة، وتركته للأيام القادمة وما سيحل بي خلالها، على الرغم من يقيني المطلق على مدى استعدادي لمواجهة الموت كمحطة أخيرة محتملة، باعتباره نصرًا قياسًا لأي نوع من الإهانات التي كنت ولا زلت أفضل مغادرة الحياة بغير أسف ولا أعيش ذلها..

وعليه واستنادًا لكل ما تقدم من مراجعة مع ذاتي وضميري وضعت استراتيجيتي للخلاص من ذلك الفخ الذي وقعت به، وذلك بالمضي قدمًا على نفس النهج الثوري الذي أوصلني إلى تلك الزنزانة، على مبدأ: وداوها بالتي كانت هي الداء، وذلك يعني التمسك بكل الثوابت التي من أجلها سلكت طريقي هذا، إيمانًا بأن النجاة بالصدق، بل كل الصدق لأني كنت أؤمن أن الله لن يتخلى عني وهو أعلم بما تضمره نفسي من نية حسنة، ولأن الموقف الذي كنت عليه بذلك المخاض الصعب لم يكن من أجل مكاسب أو مطامع أو منافع شخصية تمنيتها لنفسي لا سمح الله، وإنما كانت من أجل الانتصار لكلمة الحق التي لم أساوم على تغييرها من قاموس معتقداتي، أو أتخلى عنها بسبب هذا الظرف أو ذاك، لأن الرجل الحقيقي يجب أن يكون ثابتًا في المواقف الصعبة..

أما بالنسبة لعلاقتي برفاق الأمس من الذين تخلوا عني وباعوني بثمن بخس؛ فإني لم أكن راغبًا أن أفكر بما سيكون من أمري معهم، باعتباره أمر مؤجل

حتى أنال حريتي من جديد وأنتهي من ذلك الكابوس، وهو أمر اعتقدته قريب كما أكده لي بعض حراس ذلك السجن عندما قالوا لي: إن بقائك معنا هو مسألة وقت لا تستوجب منك القلق بشأنها، لأن الپاسدار صادق سبق وأن فعلها مع غيرك وأطلق سراحهم بعد إجراء بعض التحقيقات الروتينة البسيطة معهم.. ولكني لم أكن متفائلاً من إمكانية حصولي على حريتي مجددًا بتلك البساطة التي صوروها لي، لأنني أصبحت تحت رحمة دولة الملالي التي تفتقر إلى كل شيء له صلة بالعقلانية، بمجمل تصرفاتهم الصبيانية الرعناء..

وبين هذا أو ذاك من تلك الأفكار الطارئة أو الثابتة التي كنت أراجعها مع ذاتي، وبين واقع حال لإنسان حر عشق الحرية ويقبع خلف قضبان تلك الزنزانة، صعب علي أن أشبهه بالأسد القابع بقفص أسره كما يحلو للبعض أن يصف نفسه عندما يكون بمثل موقفي هذا، وإنما أشبهه بعصفور الكناري وهو يغرد بأنغامه الشذية آملاً بنيله للحرية وهو وحيدًا بقفصه بعيدًا عن أهله وأقرانه.. وبالنتيجة كان هناك شعور واحد كان يشوش علي كل أفكاري، ويجعلني أشعر بالمرارة؛ وهو تخلي رفاقي عني على ذلك الشكل المهين للشخصية الكوردية قبل أن يكون مهين لهم كرجال...

انقضت تلك الليلة التي كنت أشعر فيها وكأن جدران زنزانتي كادت أن تطبق على أنفاسي، وجاء الصباح بشمسه التي اخترقت خيوطها قضبان نافذة الزنزانة لتنير المكان من حولي وتخفف من وطئة واقعي المُر الحزين، وفي ذلك الصباح تعرفت على أحد الجنود الإيرانيين من العاملين بتلك الثكنة العسكرية، وكان ينحدر من أصول كوردية واسمه قهرمان، وقد أظهر الرجل تعاطفه معي من خلال الاهتمام والرعاية والاحترام لي، بعد أن علم بما كان من أمري مع الپاسدار صادق الذي هو معروف من قبلهم باعتباره رمزًا من رموز الحقد والكراهية بتلك البلدة الكوردية الإيرانية الصغيرة.. وحينها قال لي: لقد

مضى علي وقت ليس بالقصير وأنا أعمل بهذه الثكنة العسكرية، وقد مرَّت علينا حالات كثيرة مماثلة لنفس أسباب سجنك، ولكنها المرة الأولى لي وأنا أرى أحد أفراد حزب البارزاني بهذه الزنزانة، ذلك لأنهم جميعًا من غير استثناء لأحدهم أبعد الناس من الذين قد تلصق بهم أية تهمة سياسية أو كيدية، لأن علاقتهم بالسلطات الإيرانية وبالخصوص قوات الپاسداران مبنية على الطاعة العمياء والولاء التام لهم..

بعد سماعي لرأيه لم أعلق على ما قاله ولا بكلمة واحدة، لأني كنت قد قررت عدم الخوض بأية نقاشات لها علاقة بتوجهات حكومة الملالي وشعبها مع أيًا كان حتى نيلي لحريتي من جديد، ويكفيني ما كنت فيه من تحميلي لتهمة التجسس على إيران، وهي أخطر تهمة على الإطلاق.. ولكن ذلك لم يمنعني من مجاملة (أغا) قهرمان، وهكذا كنت أناديه لأنني وجدت فيه الصورة المثالية للإنسان الكوردستاني في جميع ربوع كوردستان، التي هي الحلم المنشود لكل الأجيال الكوردية التي عاشت بعد تقسيمها لأربعة أجزاء، ونفس الشيء حصل للأمة العربية التي تقسمت ٢٢ دولة، ويحلم الكثير من القوميين العرب بالوحدة العربية بكافة أدبياتهم ولهم كامل الحق بذلك..

قبل أن تنتهي فترة الدوام الرسمي لتلك الثكنة العسكرية ويغادر قهرمان عائدًا لبيته؛ عرج علي بزنزانتي وسألني إن كنت محتاجًا لأي شيء يبتاعه لي من السوق وهو بطريق عودته إلى عمله بصباح اليوم التالي؟ فقلت له:

– أريد أن أكلفك بموضوع بسيط تفعله من أجلي، وهو أن تذهب إلى مكتب الحزب الديمقراطي المعروف بموقعه بالناحية المقابلة من الشارع، وتبلغهم بمكان وجودي الحالي، على أمل أنهم قد يتداركوني ويفعلوا شيئًا يعيد لهم القليل من ماء وجوههم بعد أن أصبح موضوعي خارجًا عن سيطرة الپاسداران.

- هل تعلم يا أخي العزيز أني إذا ما عملت ما طلبته مني للتو فإنهم من غير تردد سيخبرون إدارة هذه الثكنة بذلك، الأمر الذي قد يتسبب بنقلي إلى إحدى المعسكرات البعيدة.

- لماذا سيفعلون ذلك؟!

- لأنهم بلا ضمير، وأريدك أن تعلم أنهم لو كانوا جادين بنجدتك فإنهم لن يصعب عليهم معرفة مكانك الحالي، والأيام القادمة ستكشف لك صحة كلامي، وعلى أية حال بإمكانك مناداة من تعرفه منهم أثناء سيرهم أمام الثكنة أثناء رؤيتك لهم من خلال شباك الزنزانة المطل على الشارع العام، وإن كان عاليًا بعض الشيء ولكنك تستطيع تدبر الأمر من خلال الإمساك بقضبانه الحديدية لترفع نفسك إلى الأعلى بين الحين والآخر، وسأوصي زملائي الحراس الخفر ألا يمنعوك من ذلك ويسمحوا لأيًا منهم إذا ما رغب بمواجهتك..

فشكرته مودعًا إياه على أمل لقائه في اليوم التالي..

أمضيت وقتي لعدة أيام مترقبًا المارة من الناس على ذلك الشارع الذي كان بوسط تلك البلدة، عسى أن أرى بينهم أحد من رفاقي البيشمرگة من الذين أعرفهم ويعرفوني، ورأيت الكثير منهم وكانوا كلهم يتجاهلون مناداتي لهم وأنا متعلقًا بقضبان شباك سجني، حتى أن البعض منهم كان يولي هاربًا وبشكل مهين وكأن أحد يجري من خلفه لكي يلقي القبض عليه، وبقيت أكرر تلك المحاولات حتى تيقنت أخيرًا أنه لم يعد هناك رجاءً يرتجى من هؤلاء الأقزام، وحينها تيقنت من صحة مقولة صاحبي الكوردستاني أغا قهرمان وبنفس الوقت التمست له العذر من عدم تلبيته لدعوتي بالذهاب إليهم، الأمر الذي جعلني أمنع نفسي مرات عديدة من تكليفه بإخبار بيت مضيفي شريف كچل لكي يعيدوا لي الأمانة المالية التي أودعتها عندهم لحاجتي الماسة إليها، كوني كنت أدخن ولا أملك من المال ما يكفي لشراء سيجارة واحدة..

بقيت على ذلك الحال وحدي بزنزانتي حتى دخل إليها في صباح أحد الأيام اثنان من الشباب الكورد، كانوا على ذمة التحقيق الروتيني لطالبي اللجوء في إيران.. وعندما وجدوني جالسًا بإحدى أركان الزنزانة وأنا بكامل الزي الكوردي الذي كنت أرتديه، فرحوا لذلك وأمطروني بسيل من الأسئلة التي لها علاقة بموضوع اللجوء، بعد أن توهموا أني طالب لجوء مثلهم، باعتبارهم قد سلموا أنفسهم للتو ولا يعلموا بالسياقات المتبعة لطلب اللجوء بإيران، وعندها أخبرتهم أني لست بلاجئ وليست لدي أية أجوبة عما يسألون، فأخذهم الفضول المعهود عند نزلاء السجون لسؤال أحدهم للآخر عن دواعي وأسباب سجنه، وسألوني عن سبب مكوثي بذلك السجن؟ فأخبرتهم بالخطوط العريضة لما كان من أمري مع الپاسدار الإيراني صادق، وتوقعت أن أسمع منهم كلامًا متعاطفًا يرثوا به حالي، فسكت أحدهم ولم يعلق بشيء لأنه كان مؤدبًا بتربيته كما كان يبدو، وسخر الآخر مني وقال بالحرف الواحد:

- هل أنت مغفل أم متخلف عقليًا؟

قلت له وقد تملكني الغضب الشديد:

- احترم نفسك من أجل أن أحترمك وإلا؟

قاطعني قائلاً:

- لا تفهمني بشكل خاطئ لأن الذي بدر مني كان بدافع الأسى عليك وليس تشفيًا بك، وأنا احترم فيك روحك القومية وأتأسف لك بالتأكيد، ولكني متعجب لأمرك، لأنه لم يعد أحد من كل الكورد بكوردستان أو بخارجها لا يعلم بسلوك وأخلاق أولئك الذين انتميت لهم، فأحدهم لا يتوانى عن بيع أبيه إذا ما دعته الحاجة لذلك، ثم تأتي أنت من بغداد من أجل تغيير هذا الواقع الكريه الذي مللناه بعد أن شبعنا من شعاراتهم الجوفاء، فمن أي عالم قدمت؟ ولأي زمان أنت تنتمي؟

قلت ساخرًا والمرارة بشفتيَّ:

- نعيب زماننا والعيب فينا، وما لزماننا عيب سوانا.. إذًا أنت ضد سلوك الناس بهذا الزمان، وذلك يعني أن العيب ليس في الفكرة التي أنشدها بالمشاركة على رفع الظلم عن كاهل شعبنا الكوردي، وإنني حقًا أتعجب عندما أسمع مثل هذا الكلام الذي قلته أنت ويردده الكثير من الناس بكوردستان، بحق أي شخص يتمسك بقيم الماضي الجميل سعيًا منه لتصحيح قيم الحاضر، التي أنت وأنا ننكرها، وكأن قيم الماضي قد أصبحت ورقة تالفة نتيجة لتقادم الزمن عليها وتعرضها لعوامل التعرية.

- أنا أكرِّر اعتذاري لك، لأن ما قلته لك كان بعفوية نتيجة حرقة فؤادي عليك بعد الذي سمعته منك وما حصل لك، فأنت في نظري أشبه بالإنسان البالغ الذي يرمي بنفسه من فوق جبل للهاوية من غير أن يعلم أن ذلك سيؤدي بفقدانه لحياته، وتلك بديهية يعلم بعواقبها ويخشاها حتى الطفل بعمر الخمسة أعوام، وكما أرى أنك قد رميت بنفسك إلى التهلكة وأنت بعز شبابك، انظر لنا، ألسنا كورد مثلك؟ لماذا نحن لم نسلك نفس طريقك؟ هل فقدنا الغيرة القومية؟ أم نحن محبطين من هذا الواقع الذي لن نستطيع أن نغير منه شيئًا؟ بالتأكيد نحن لازلنا نتمسك بكورديتنا، ولكننا لا نملك القوة بتغيير هذا الواقع المرير الذي أصبحت فيه القضية الكورية تباع وتشترى من أجل المصالح الشخصية لقادتنا الكورد، ولذلك نحن جئنا لإيران نطلب اللجوء فيها، وبعد أيام سنرحل لطهران لننضم لبقية اللاجئين بطهران، ومن ثم سنذهب للسويد لنصنع مستقبلاً زاهرًا لنا ولعوائلنا.. وانظر لنفسك وأنت ترمي بنفسك للجحيم؟ أليس كذلك يا أخي العزيز؟ وأرجوك اعذرني على صراحتي معك، وأكرر أن السبب هو حزني الشديد عليك وليس الشماتة بك بالتأكيد، وأرجوك أن تتدارك نفسك إن بقي

مجال لك أن تُصلح ما حدث معك، وتبحث عن مصلحتك كما يفعل كل الناس، وهذا أمر لم يعد عيبًا لتختزي منه..

- إن الطريق الذي سلكته وأوصلني للذي أنا فيه بهذه الزنزانة كان بملئ اختياري، وأنا لست نادمًا على كل ما حدث معي جراء ذلك، وتفاوت الرؤى بيني وبينك هو اختلاف بفهم أصل صراع الثقافات والعقائد الثورية، فكل واحد منا يفهمه بحسب ما يمليه عليه ضميره، فأنت ترى بعين المصلحة الشخصية، وأنا أرى بعين التضحية ونكران الذات، وشتان ما بين الانتهازية والثورية، واعلم يا أخي أنه كان بإمكاني أن أسلك نفس طريقك الذي يوصلني كلاجئ في السويد، وما أسهله، لأن إمكانياتي المادية تؤهلني لأصل لأي مكان أريد، ولكني رفضت الكثير من الدعوات التي قدمت لي من قبل بعض الأصدقاء الذين مروا بي عندما كنت أسكن بقرية گورگه يير من أجل مرافقتهم والهجرة للسويد عن طريق إيران، ولكني رفضت بسبب نيتي بمساعدة أهلي الكورد، لأني لو فعلت ذلك فإني سأستبدل غربتي الماضية ببغداد بغربة أخرى ستكون للأبد. فاذهبوا يا إخوتي واستمتعوا بحياتكم في السويد، ودعوني مع من بقي من الشرفاء لنضحي بأرواحنا التي سنقدمها رخيصة لكوردستان..

بهذا القدر من تلك المناقشة انتهى حوارنا الذي لم نعد الكرة للغوص بأعماقه مرة أخرى، حتى تمَّ ترحيل الاثنان بعد يومين لمجمع اللاجئين العراقيين بطهران على أثر انتهاء الإجراءات المتبعة بتلك الثكنة العسكرية، بتقديمهم لطلب الإقامة بغرض اللجوء.

ومن ناحية موضوعي فإنني قد تمَّ استدعائي لإدارة السجن بعد خمسة أيام من تاريخ اعتقالي، وكان صاحبي أغا قهرمان هو المترجم بيني وبين المحقق الذي جاء لذلك الغرض، وكان برتبة ملازم يتكلم الفارسية التي أصبحت أفهم الكثير

من مفرداتها، كانت أسئلته لي مهنية استخبارية بحتة، خالية من أي ضغينة شخصية أو تطرف ديني وكالآتي:

– ماهو سبب وجودك بإيران؟

– وجودي بإيران هو لغرض الالتحاق بالمكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة حليفكم مسعود البارزاني، وكتاب نقلي الذي أراه بين يديك يوضح ذلك.

– أمامي ورقة مكتوبة باللغة الكوردية ومختومة من قبل الحزب الديمقراطي لكوردستان من غير الإشارة لكوردستان العراق أو لإيران، كيف تفسر ذلك؟

– الحزب الديمقراطي لكوردستان العراق طبعًا..

– ولكن في إيران يوجد حزب مُعادِ للدولة ويقوم بعمليات تخريبية ويحمل نفس الاسم؟

– لا علم لي بهذا الأمر، وإني أتساءل: هل في شكلي أو طريقة كلامي ما يشير لكوني من الكورد الإيرانيين؟!.

– ليس بالضرورة أن تكون كورديًا إيرانيًا من أجل أن تكون ضمن هذا الحزب المُعادي، لأن بإمكان الكوردي العراقي الانتساب لهم أيضًا، لأنكم تؤمنون بالأمة الكوردية الواحدة.

– هذه المسألة حلها بسيط، فباستطاعتكم التأكد من جهة انتمائي من خلال سؤال مكتب الحزب الديمقراطي لكوردستان العراق في مريوان، ومكتبهم على بُعد خطوات منا، ولا أظنهم سينكرون ختم حزبهم الموجود بكتاب نقلي للمكتب السياسي، إضافة لاسم مسؤولي قادر قادر الذي وقَّع هذا الكتاب..

– أين تمَّ إلقاء القبض عليك؟

– في بيت صديقي شريف كچل بمريوان، وهو قيادي بارز ومسؤول لمجموعة بنچوين القتالية في كوردستان العراق، وهو من استضافني ببيته منذ اليوم الأول لوصولي لإيران..

– هل كنت منتسبًا للجيش العراقي؟

– نعم، لقد كنت منتسبًا للجيش العراقي بصفة فني ميكانيك بالقوة الجوية، قبل التحاقي بصفوف الحزب الديمقراطي بالقرب من مدينة السليمانية قبل حوالي الأربعة أشهر.

– ما هو جوابك على التهمة الموجهة لك باعتبارك جاسوسًا لدولة معادية في زمن الحرب؟

– هي تهمة كيدية عارية عن الصحة ومن غير إثباتات، لفقها لي الپاسدار صادق على أثر نقاش حاد حصل بيني وبينه بسبب رفضي قبول دعوته للالتحاق بحزب الدعوة وقوات بدر في الجنوب، لأني پيشمرگة كوردي وأعمل ضمن نشاطي بكوردستان، ولا علاقة لي بأي تنظيم قتالي آخر سواء عراقيًا كان أو إيراني..

– التهمة تُشير إلى أنك كنت برتبة ملازم باستخبارات الجيش العراقي، في الوقت الذي أنت تذكر أنك كنت برتبة نائب ضابط قوة جوية، فما قولك بهذا؟

– عندما أصبحت پيشمرگة ضمن صفوف الحزب الديمقراطي منحني مسؤولي قادر قادر كنية فخرية واسم حركي، وتحولت لأكون ملازم سرچل، وليس ملازم هشام، ولكم أن تتأكدوا من ذلك، وهو أمر ليس بالصعب عليكم، باعتباركم دولة ومسؤولي قادر قادر هو أحد حلفائكم.

– حسنًا، لقد أنهيت ما عندي من أسئلة، وسأعرض أجوبتك على المسؤولين من أجل اتخاذ القرار بشأنك، شكرًا لك على تعاونك معي، ولا تحزن لهكذا

مسألة، فهي أمور روتينية بسيطة قد تحدث مع أي شخص قادم من العراق حتى لو كان من حلفائنا، وماهي إلا أيام وسينتهي كل شيء لتعود لحياتك السابقة.

ثم نهض من كرسيه وهو يرسم على شفتيه ابتسامة لم أعرف لها تفسيرًا بحينها لأنها لم تكن تلائم ما كانت عيناه تقول، ثم جمع أوراق التحقيق من أمامه، وصافحني مودعًا إياي عائدًا من حيث أتى، وبقيت مع صديقي ومترجمي أغا قهرمان وحدنا في الغرفة، وسألته على الفور إن كان المحقق جادًا في أقواله قبل أن يغادرنا بقليل.. فقال لي همسًا: كل شيء جائز في عهد دولة الملالي، وبعد نظرة عتاب مني كانت تدعوه للكف عن البحث بمثل تلك المواضيع الخطيرة، سكت الرجل من فوره وأغلق الموضوع.. فقلت: أغا قهرمان أرجعني إلى زنزانة سجني من فضلك..

في الزنزانة أخذت أقلب ما سمعته من بصيص أمل ورد على لسان المحقق قبل مغادرته لنا، فهل نهاية هذا الكابوس هي حقًا قريبة؟ ولمَ لا تكون قريبة؟ والرجل قد عاملني بمنتهى اللطف والاحترام إلى درجة لم أكن أتصور أني قد أحظى بمثلها لو كنت موقوفًا في العراق على ذمة أية تهمة سخيفة بإحدى مراكز الشرطة في بغداد، وإذا كان ظني ليس بمحله فما هو السبب الذي يجبره على تقديم وعد زائف سيتكشف بعد عدة أيام؟ أسئلة وأجوبة عديدة راودتني حينها، وتركتها للأيام القادمة التي تكشف فيها كل شيء..

بعد مضي يومين سمعت من داخل زنزانة سجني ضوضاء لجمهرة من الناس عند الشارع، فوثبت لأمسك بيدي قضبان شباك الزنزانة، ثم رفعت نفسي للأعلى من أجل أن أتبين حقيقة ما كان يجري في الخارج.. فوجدت الناس وقد اصطفوا على جانبي الطريق وهم يحييوا رتلاً من سيارات البيك أب العسكرية

العائدة لقوات الپاسداران، فظننت أن الأمر لا يعدوا سوى استعراضًا لقواتهم العسكرية المتجهة إلى ساحات الحرب، وما أكثرها بتلك الأيام، فنزلت من أجل أن تستريح يداي قليلاً لأواصل بعدها، ثم وثبت مرة أخرى لكي أتفحص ما كانت تحمله تلك العجلات العسكرية، فصعقت لبشاعة ذلك المشهد المروع الذي بقيت صورته مطبوعة بمخيلتي حتى يومنا هذا..

لقد شاهدت في تلك السيارات الحوضية المكشوفة جثثًا لكثير من الرجال القتلى وهي مرمية بعضها فوق بعض وكأنها خرفان أو عجول وليست أجسادًا أدمية، قد تمَّ ذبحها في المجزرة وهي في طريقها لكي تسوق لمحلات القصابة، وكان الناس على جانبي ذلك الطريق يهتفون من غير حماسة بأصواتهم المخنوقة بحياة الثورة الإسلامية وقائدها الخميني.. فبقيت أتمعن بأسف بالغ على ذلك المشهد المروع من أجل أن أتعرف على هوية الضحايا.. حتى نادى علي قهرمان من خلف قضبان باب زنزانتي يطلب مني أن أنتهي عن النظر للخارج.. فنزلت، وسألته والأسى يطحن قلبي على تلك المشاهد البربرية:

– ما هذا الذي يحصل بالخارج يا قهرمان؟! ومن هم أولئك القتلى يا ترى؟

فقال بصوت منخفض:

– إنهم پيشمرگة الحزب الديمقراطي لكوردستان إيران، وقد قتلهم الپاسداران على أثر هجوم مباغت شنوه على مناطقهم بمساعدة من جماعة البارزاني.

قبل أن يكمل حديثه أغرقت عيناي بالدموع على الرغم من محاولتي لحبسها وذلك حزنًا وألمًا عليهم، فأدركني قهرمان قائلاً:

– كفكف دموعك قبل أن يراك أحدهم ويلحقك بمن رأيتهم قتلى بالخارج..

فتراجعت عن الباب وتوجهت إلى ركني بالزنزانة، وأنا أجر خطاي وعيوني مسمرة إلى سقف الغرفة، أسأل: لماذا يا ربي؟

كان عزائي الوحيد لرفاقي الشهداء، نعم رفاقي الذين تجمعني وإياهم وحدة الهدف والدم والوجدان؛ هو رحيلهم وهم يقاتلوا الطغاة من أجل الدفاع عن كل القيم النبيلة للشعوب الكوردية، وكأن لسان حالهم كان يقول: لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم، وتنهدت تنهيدة مصحوبة بحسرة عميقة.. آه يا كوردستان كم أنت عظيمة بأبنائك البررة من الذين قدَّموا ولا زالوا يقدمون أرواحهم لتكون قرابين على مذبح حريتك.. وكم أنت عظيمة بشعوبك الصامدة رغمًا عن أنف كل الخونة والعملاء، ممن ادعوا بأنهم من أبنائك وهم في حقيقة أمرهم قد رموا أنفسهم بالدرك الأسفل من الرذيلة..

لقد كان لوقع تلك المجزرة الرهيبة شأنًا عظيمًا بداخل نفسي، لأني شعرت حينها وأنا بذلك الحال البائس؛ أني قزمًا صغيرًا أمام تضحية أولئك العمالقة الأبطال وهم سائرون في بعثة الشهداء، وأصبحت أهتف من أعماقي: يا ليتني كنت معكم، ولأني كنت أدرك أن ذلك لم يتحقق لأني لم أقاتل بجانبهم ثم أستشهد معهم، تمنيت قائلاً: يا ليتني ألحق بهم على طريق الشهادة، وتبًا للحياة بلا كرامة ولا حرية...

بعد انقضاء تلك المظاهرة البربرية وتفرق جموع الناس، ساد الهدوء بذلك الشارع، وجاءني قهرمان الذي كان بنوبة خفر بذلك اليوم بحجة إحضار الطعام، وكان الوقت حينها يميل للغروب، وأخبرني أن الپاسداران قد أجبروا الناس المتواجدين في الأسواق حينها على الاصطفاف على جانبي الطريق من أجل ترديد هتافات التأييد لهم، ومن أجل إدخال الرعب أكثر بنفوس سكان مريوان، فإن الپاسداران قد علقوا جثة زعيم بعثة الشهداء من پيشمرگة الحزب الديمقراطي لكوردستان إيران، على سارية إحدى الرافعات العالية، من أجل

إرهاب جميع من يراه في تلك البلدة التي غالبية سكانها هم من الكورد الإيرانيين، وعلى مدى ثلاثة أيام ابتداء من ذلك اليوم..

أخبرني أيضًا أنه قد شاهد مسؤولي الحزب الديمقراطي وهم يصطفوا ويهتفوا بحياة الخميني من أمام واجهة مقر حزبهم، في الوقت الذي قرأت بأدبيات كراريسهم التي كانت تسوق لأمثالي من المغفلين نفس المبادئ التي استشهد من أجلها هؤلاء الأبطال في بعثة الشهداء، ناهيك عن أن هناك معلومة مؤكدة قد شاعت بين الناس أن بعض البيشمرگة لحزبنا الديمقراطي من الذين كانوا بإجازات في مريوان قد تمَّ زجهم ليشاركوا بتلك المجزرة، وتلك خطوة تؤكد سوء ظني فيهم وخيبة أملي بهم، ولو قدر لي أن أكون شاهدًا على تلك المجزرة وأسأل پيشمرگة حزبنا وپيشمرگة بعثة الشهداء عن أهداف كل منهم لأجابوني بنفس الهتاف: يحيا الكورد وتحيا كوردستان، ولكن دائمًا للقيادات حسابات أخرى، فمنها من يرفع الشعارات وهو مؤمن بها ويعمل من أجلها، ومنهم من يرفعها للتموية ويعمل بالضد منها!..

عندما حل الليل بظلامه؛ انزويت بركن زنزانتي، جلست مدليًا برأسي لحجري، وبكيت بحرقة مكبوتة، وكانت دموعي تنساب من عيوني كما تنساب دموع الشمعة وهي تحترق بصمت على أبطال بعثة الشهداء وما كان من أمرهم، بكاء فيه شجون لم أبكِ مثله حتى عندما كنت طفلاً صغيرًا، وحينها قلت لنفسي: من الآن فصاعدًا يتوجب علي التوقف عن ملامة رفاق الأمس جراء تخليهم عني لأنهم منغمسون بالرذيلة حتى آذانهم، والاعتماد على النفس بعد الاتكال على الله، وهو خير معين لي بتلك المحنة التي كنت ومن كل قلبي أتمنى الشهادة فيها، للخلاص من الفرس الأوغاد بكل أشكالهم ومسمياتهم، لأن جُلُ ما كان يؤرقني فعلاً هو فكرة أن ينتهي بي الأمر لأصبح أسيرًا في عاصمة الشر

والعدوان، طهران اللئم والعنصرية الفارسية، حيث الذل والمهانة حتى انتهاء الحرب، لأُسلم بعدها إلى الحكومة العراقية التي بدورها ستسألني عن كيفية أسري وأنا الهارب من وحدتي العسكرية في قاعدة الوليد الجوية على الحدود الأردنية، بعيدًا جدًا عن جبهات القتال المفتوحة بالحرب مع إيران..

وعليه فإني كنت أتمنى أحد أمرين، إما الحرية وهي على ما كان يبدو أنها مستحيلة المنال، أو الشهادة، وما دونها هي فكرة مرعبة وكابوس مخيف، باعتبار أن الأمنيتين كانتا تحققان لي الخلاص من تلك القيود والزنازين التي كانت بانتظاري، وإن كنت بمجمل تصرفاتي بعد اعتقالي لم أدفع بالأمور لتتجه إلى إحداها، وإنما تركت ذلك لعواقب الأمور لتسير وفقًا لما سيسوقه القدر الذي سيكون طبعًا مثقل بالمفاجأت غير المتوقعة...

لقد كنت في تلك الفترة العصيبة بأمس الحاجة للحديث إلى أي شخص آخر بأي موضوع من أجل تبديد ما كنت أشعر به من حزن وملل وأنا وحدي بتلك الزنزانة أنتظر ما سيكون عليه مصيري، وشاءت الصدفة ونحن في ذلك الوقت من السنة الهجرية وحلت علينا ذكرى عاشوراء التي استشهد فيها سيدنا الحسين، وكانت الحكومة الإيرانية تُحيي تلك الذكرى بكل طقوسها المعروفة عن طريق كافة قطاعاتها الرسمية والشعبية، وذلك يستدعي بحسب وجهة النظر الرسمية نزول أفراد من قوات الجيش والپاسداران والپسيج ومنظمات أخرى إلى الشارع، والاصطفاف بطوابير من أجل اللطم على الصدور إحياءً لذكرى استشهاد سيدنا الحسين، الذي هو حتمًا بريء من هؤلاء الفرس، الذين هم أبعد ما يكونوا مسلمين يتبعون الرسالة المحمدية وسيرة آل بيت الرسول الكريم، الذي ليس له من ذكر بكل أدبياتهم الدينية في التشيع الصفوي، وكأنه دين آخر لا يشبه الإسلام المحمدي الحقيقي بشيء سوى بالاسم فقط..

ولأن صاحبي أغا قهرمان هو من ضمن تلك التشكيلات، فإنه كان ملزمًا أن ينزع عقله من رأسه ويضعه على الرف ليلطم جهارًا في الشوارع، وهذا ما كان يرفض القيام به، الأمر الذي دعاه لأن يتملص منهم من خلال إخفاء نفسه بداخل زنزانتي حتى انتهاء فترة ذلك الهيجان الجنوني، وكانت فرصة حسنة لي للتباحث معه بحرية حول بعض الأمور التي تخصني بعيدًا عن أذان من قد يسمعنا بتلك الثكنة العسكرية، لأني كنت قد أمنت جانبه باستثناء تلك الحوارات التي تنتقد تفاهة وسفاهة حكم الملالي بإيران، الأمر الذي دعاني لأكون ببعض المرات عندما كان يحلو له أن يذكرهم بسوء هو الإصغاء فقط دون أن أعلق بشيء على ما كان يذكره بهذا الصدد..

تحدثنا بحرية بمواضيع شتى حتى سحبته للحديث بشأن موضوعي وما استجد منه؟ فقال: هذا ما كنت أنوي ذكره لك بكل أسف، لأني سمعت أن هناك جنديين من ثكنة الحراسات قد تبلغا باقتيادك إلى مديرية الاستخبارت العسكرية بمحافظة سنندج بوقت مبكر من صباح الغد.. وصدق قهرمان بما قاله لي لأني صحوت في الغد على مناداة الحراس لي مبكرًا من أجل الاستعداد للمغادرة، وعند خروجي من الزنزانة وضع الحارسان اللذان كانا بانتظاري القيود بيداي، وحينها تلفت يمينًا وشمالاً أتفقد صديقي أغا قهرمان لكي أودعه وأشكره على كل ما صنعه من أجلي فلم أجده، وأظنه قد تعمد إخفاء نفسه عني بتلك اللحظات خشية من إظهار تعاطفه معي بذلك الموقف المؤثر، وهو أمر محظور على كل من يعمل بتلك المهنة، خصوصًا عندما يكون السجين من دولة معادية ومتهمًا بالتجسس...

مضيت مع الحرس الذين أظهروا في البداية بعض الخشونة بالتعامل معي عندما أمسك كل واحد منهم بإحدى يداي، وأقتادوني إلى الخارج وكأني قد تمَّ

القبض علي للتو واللحظة، وليس قبل حوالي عشرة أيام، ولم أجد حينها كلمة تناسب ذلك الموقف إلا بقولي: حسبي الله ونعم الوكيل، إليه فقط أشكو ضعفي وقلة حيلتي، وله أنيب أمري بكل ما كان وسيكون.. وعند وصولنا للشارع العام بتلك البلدة وجدته خاويًا من المارة بسبب خروجنا المبكر، وحينها وقع نظري على إحدى اليافطات السوداء المعلقة على جدار أحد دكاكين السوق بمناسبة يوم عاشوراء الذي تمَّ إحياء ذكراه باليوم السابق، وكانت مكتوبة باللغة العربية وقد نسب ما كتب عليها من قول إلى سيدنا الحسين ومفادها كالآتي: إذا كان دين محمد لن يستقيم إلا بقتلي، فيا سيوف خذيني..

هزني ذلك القول لأنه جاء متطابقًا مع المحنة والحال البائس الذي كنت عليه، فاستهويتها لما كان لها من وقع خاص على نفسي، خصوصًا المقطع الثاني منها: فيا سيوف خذيني، لأنه كان يرمز للخلاص من الدنيا وأنا سائر لمصيري المجهول وكأنني بذلك كنت أريد أن أقول: إذا لن يستقيم سلوك رفاقي الخونة إلا بعد مقتلي، فيا سيوف خذيني وعجلي بموتي، عسى أن يستحوا من أنفسهم وتصحى ضمائرهم، ولكن الواقع شيء والتمني شيء آخر فهم سيبقوا على نفس حالهم المخزي حتى لو حصدت السيوف رؤوس الملايين من أمثالي..

مضيت بطريقي مع حراسي بطرقات البلدة بإحباط تام وخطى مثقلة، وأنا أردد متغنيًا: فيا سيوف خذيني، حتى وصلنا لكراج النقليات لنستقل الحافلة المتجهة إلى محافظة سنندج جنوبًا، وعند وصول الحافلة إلى أطراف تلك المدينة حيث السيطرة العسكرية، اصطففنا خلف رتل طويل من السيارات بمختلف أشكالها، العسكرية منها والمدنية، وكانت جميعها تنتظر الإشارة للبدء بالمسير، وبعد انتظار دام حوالي الساعة انطلق رتل السيارات وقد تقدمته قوة من مفرزة عسكرية مسلحة من أمامها وأخرى من خلفها، ولدى استفساري عن دوافع تلك

الظاهرة من أحد حراسي قال لي: إن هذا الإجراء يتبع خشية من مهاجمة المخربين الكورد لنا، ويقصد البيشمرگة الكورد الإيرانيين الذين قد يتعرضوا للسيارات على ذلك الطريق، الذي عادة لا يخلو من العجلات العسكرية، أو عناصر الجيش الذين يستقلوا سيارات الأجرة كما كنا نفعل نحن من خلال صعودنا بتلك الحافلة المدنية.

حينها شعرت بغبطة أثلجت قلبي ونشوة كانت تحتضر بضميري جراء الممارسات الخيانية لرفاق الأمس، وانبعث الأمل في نفسي من جديد باعتبار أن قضيتنا ككورد لم تمت ولازال هناك بعض من أشراف الكورد، الذين ينتصرون لمبادئهم بحقهم القومي المسلوب، من غير أن أخشى على حياتي من الموت أو الأذى الذي قد يصيبني لو أننا تعرضنا إلى واحدة من تلك العمليات الهجومية التي ينفذها أولئك الأبطال على أرض كوردستاننا التي استولى عليها الفرس في الجزء الشرقي منها والذي يتضمن محافظة أرومية من الشمال، نزولاً إلى محافظة مهاباد ثم إلى محافظة سنندج ثم إلى محافظة مهران ثم إلى محافظة كرمنشاه حتى عيلام في أقصى الجنوب من الجناح الشرقي لكوردستان المجزئة...

لقد كان الطريق إلى محافظة سنندج الكوردية التي يسميها بعض الكورد سِنَه، على عكس ما توقعته عندما كنت أظن أننا سنقطعه خلال ساعتين من المسير، في الوقت الذي وصلناها ظهرًا بعد مسيرة متباطئة، عبر انبساط بعض السهول ووعورة العديد من الجبال، وكانت أولى المشاهد التي شَدت نظري أثناء نزولنا إليها؛ هو موقعها وسط الجبال التي تحيط بها من كل ناحية، فتذكرت حينها بشوق وحنين مدينتي الحبيبة السليمانية وهي عروس المدن بكوردستان، وكيف كنت أنزل إليها أثناء زياراتي المتكررة من المرتفعات الواقعة خلف

السيطرة العسكرية بطاسلوجة على طريق بغداد – كركوك، فشتان ما بين الأمس واليوم، وما بين سنندج والسليمانية، اللتان يقطنهما شعب واحد من نفس الجذور الكوردية، ويحكمه أناس من نقيضين..

فهناك في السليمانية يتواجد حزب البعث العربي وهنا بسنندج يتواجد حزب الله الفارسي، وهناك الجيش الشعبي وهنا حراس الثورة وهناك مقرات الاستخبارات العسكرية وهنا مقر الاطلاعات، وهناك ثكنات الجيش العراقي وهنا ثكنات الجيش الإيراني، وكذلك نفس الأمر ينطبق على الممارسات الوحشية ضد الكورد في كل من سوريا وتركيا، وحتى في أذربيجان التي يسكنها الكثير من الكورد، وشيء واحد كان يجمع ما بين كل هذه المسميات والعناوين بممارساتها الخائبة ضد أي توجه قومي كوردي؛ هو الخشية من تحرر الأمة الكوردية بأجزائها الأربعة وقيام دولتها على كامل ترابها القومي.

من خلال استعراضي لتلك المظالم التي تعرض لها شعب كوردستان الذي أُلحق إداريًا بكل تلك الدول، وما تعرض له العراق الذي كان للكورد المشاركة الفاعلة بتأسيس دولته الحديثة، من احتلال أمريكي بغيض، قفزت لذهني فكرة تحدث بها قبلي كثير من المنصفين بشعبنا الكوردي في العراق، مفادها أن الرئيس العراقي صدام حسين ما كان سيلاقي نفس مصيره عندما وقع بقبضة الاحتلال الأمريكي بعد أن حاربهم بدفاعه عن العراق ثم أُغتيل بتلك الطريقة البشعة، لو أنه قد تفهم خلال فترة حكمه القضية الكوردية بشكل حقيقي وليس صوري، من خلال بعض الاتفاقات الهزيلة مع الأحزاب الكوردية، وكان الأجدر به أن يتعايش مع الحقوق القومية للكورد والشعب الكوردي وليس مع السياسيين، ليطبق ذلك التعايش عمليًا وليس من خلال القمع لغالبية شعبنا الكوردي، وبذلك فإن شعبنا الكوردي في العراق كان حتمًا سيحفظ له الجميل وينصره عندما ضاقت به

السبل، ليخبئوه بجبال ووديان كوردستان، وأثنائها لن يستطيع كل أعدائه مجتمعين أن يصلوا إليه، ولا أستبعد أن كوردستان حينئذ ستكون منطلقًا له لتحرير كامل العراق من الاحتلال الأمريكي الإيراني..

نفس الأمر كان سينسحب على بقية خصومه من العراقيين الذين تضرروا من سياساته كما تضرر الشعب الكوردي، لينصروه بمحنته لو أنه فتح باب الحوار معهم بجدية.. طبعًا باستثناء أولئك الذين تربوا بطهران من حزب الدعوة وقوات بدر التي هي الذراع العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذي تأسس بإيران بقيادة إيرانية مللية، لأنهم بلا قضية سوى بعض الادعاءات بظلم النظام للشيعة، وهذا لم يكن حقيقيًا لأن حزب البعث لم يكن طائفيًا وتصنيفه للعراقيين كان بحسب قومياتهم، وليس بحسب عقائدهم المذهبية ومدى ولائهم لنظام حكمه، والدليل هو أن أغلب عناصره الحزبية كانوا من الشيعة العرب.

وتلك تفاصيل سأتي على توضيحها بمراحل لاحقة من رحلتي هذه، باعتبارهم كانوا ولا زالوا أدوات خبيثة بيد القيادت الإيرانية، من باب الطاعة المذهبية العمياء لهم بعد أن اشتركوا في القتال مع الفرس ضد بلدهم، تحت شعار تصدير الثورة الإسلامية وتحرير كربلاء، وهو شعار كان معلن بشكل واضح من قبل الملالي الفارسية النتنة، ويحاول بعض الخبثاء الآن طمس تلك الحقيقة لإظهار أن العراق كان هو من اعتدى على أسيادهم الإيرانيين، عندما تجرأ أكبر رأس مللي خبيث فيهم إلى التصريح علنًا بضرورة تعويض إيران بمبلغ مائة مليار دولار عوضًا عن ما خسرته في حربها ضد العراق على مدى ثمانية أعوام من القتال الذي استمر بسبب تعنت الفرس بإطالة أمد الحرب، وهو أمر لم يجرؤ أن يطالب به حتى الإيرانيين أنفسهم، وكأنه بذلك التصريح كان يزايد

على الإيرانيين بأصوله الفارسية التي كان يستحي من إعلانها بنفس الوقت، منوهًا إلى أن ذلك القزم الفارسي الذي يدعى بعبد العزيز الأصفهاني الطباطبائي الحكيم، عندما أدعى خاسئًا بأنه يمثل كل شيعة العراق من العرب، وهذا غير صحيح لأنه كان يمثل ثلة من الرعاع إيراني الهوى..

وولائهم الرخيص هذا لأمة الفرس اللعينة لم يكن من باب الانتهازية المنافعية، كما كان عليه قادة الحزب الديمقراطي الذين أداروا ظهورهم لإيران بمراحل لاحقة، بعد أن انتفت الحاجة من إيران بزمن الاحتلال الأمريكي للعراق، عندما تحالفوا مع قوى عالمية لها السطوة على كامل المنطقة..

وصلنا إلى كراج النقل بوسط محافظة سنندج، ومن هناك ركبنا سيارة أجرة من أجل الذهاب إلى معسكر الجيش الإيراني الكائن بإحدى جوانب تلك المدينة، وبعد أن دخلناه توجهنا فورًا إلى مقر مديرية الاستخبارات الإيرانية المعروفة بالاطلاعات الذي كان على شكل عمارات شاهقة وحديثة البناء، وكنت حينها قد قررت التخلي مؤقتًا بالإعلان عن توجهاتي القومية كما كانت ظروفي تقتضي، وانتهجت أسلوبًا جديدًا بتعاملي مع كل من سيحقق معي من عناصر الاستخبارات العسكرية الإيرانية، وذلك بالعودة لروحي العسكرية، باعتباري عسكري عراقي في بلد معادي، ويجب علي أن أتصرف كأي مقاتل يجد نفسه متوغلاً في عمق أراضي عدوه ليعمل بكل جهده من أجل الرجوع لوطنه من أجل أن لا يقع في الأسر.

بعد الانتظار لفترة وجيزة في صالة الاستعلامات، تمَّ استدعائي من قبل مدير الاستخبارات الذي كان برتبة عقيد، التي هي سرهنك باللغة الفارسية ويدعى توكان، فاقتادوني لمكتبه في إحدى الطوابق العلوية بذلك المبنى بعد أن رفعوا القيود من يدي، وعند دخولي عليه أخذ الرجل ينظر لي من تحت نظاراته وكان

في العقد الخامس من عمره، أخذ يتفحصني مليًا من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، وأنا لم أزل مرتديًا الزي الكوردي للپيشمرگة، ثم سألني عن اللغة التي أجيد التكلم بها؟ ولأني وجدت فيه صفة الشخص الهادئ فذلك شجعني لأن أتكلم معه ببعض ما كنت أعرفه من مفردات اللغة الإنكليزية التي تعلمتها أثناء الدراسة، ومن خلال عملي مع الخبراء الأجانب العاملين في القوة الجوية، لاعتقادي بأنه ضابط قديم من أيام نظام حكم الشاه لإيران، وذلك يعني بأنه حتمًا يعرف الإنكليزية إن لم يكن يجيدها، وتلك هفوة مني لم أتحسب لعواقبها، فقلت له بالإنكليزية:

– إنني أستطيع التفاهم باللغة الكوردية، إضافة إلى العربية التي أتكلمها بطلاقة كوني كنت أسكن في بغداد منذ ولادتي..

فأجابني بصوته المنخفض الذي بالكاد كان يُسمع وبلغة إنكليزية سليمة:

– حسنًا.. سأدون لك بعض الأسئلة وأريدك أن تجيبني عليها بكل صدق وصراحة، وبالمقابل فأنا سأتكفل بإطلاق سراحك وإيصالك إلى الحدود العراقية لتعود إلى بيتك جزاءً على صدقك معي...

فقلت دون تردد:

– حسنًا أنا أعاهدك بقول الصدق ولا شيء سواه..

عندها انتهى بيننا ذلك الحوار المقتضب باللغة الإنكليزية، واصطحبني اثنان من جنوده أرسل بطلبهما إلى غرفة مجاورة لمكتبه، وكانا من عرب الأحواز، لغرض تدوين إجاباتي على أسئلة العقيد توكان، فقالا لي بعد أن اختلينا ببعض:

– هل صحيح أنك تجيد التكلم باللغة العربية؟

– نعم.

– إننا من سكان مدينة المحمرة في الأحواز، ونحن هنا من أجل تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية والترجمة لكل من يؤتى به أسيرًا من أفراد الجيش العراقي.

ثم أضافا لكلامهما بعض عبارات التذمر من الوضع السيء الذي كان سائدًا بإيران، بقولهما:

- لقد ابتلينا بهؤلاء الفرس الذين تحكموا برقابنا عقب احتلالهم لإمارتنا الأحوازية العربية الخليجية!

نظرت إليهما متعجبًا لأن ذلك الكلام لا يقال لمن هو بمثل وضعي البائس، وقلت في نفسي: هل هذان الشابان يعتبراني غبيًا إلى هذا الحد الذي ينتظران مني بأن أتعاطف مع ما صرحا به لأشاركهما التذمر من الفرس وأنا متهم بالتجسس عليهم؟! وعلى أية حال فإن صدري أصبح رحبًا وكبيرًا يستوعب كل ما هو غير عقلاني من المفارقات العجيبة والغريبة التي وجدتها بهذا البلد اللعين، فالتجربة وإن كان عمرها قصير لكنها علمتني الكثير من الدروس بكيفة التعامل مع كل شيء غير طبيعي ولا منطقي، وعشمي بأن يعذرني أهل الأحواز العربية من الذين قد يطلعوا على حكايتي هذه، لأن الظرف حينها لم يكن يسمح لي بمجاملتهم أو التصديق بحسن نواياهم.. فقلت من غير أن أعلق على ما قالاه وكأني لم أسمعهما:

- هل بالإمكان المباشرة بالرد على أسئلة العقيد توكان؟

- حسنًا..

ونظر أحدهما للآخر بدهشة، من غير أن يحزرا أني كنت متعاطفًا معهما بشدة لقضية إمارتهم الأحوازية العربية المحتلة من قبل الفرس، إلى الحد الذي كنت أرغب فيه بمعانقتهم وضمهم لصدري، ولكن رحم الله أمرئ عرف قدر نفسه.

وبدأ التحقيق:

- ما هي رتبتك العسكرية؟ وأي منصب كنت تشغل في الجيش العراقي؟ إلى أية وحدة كنت تنتسب؟ في أي قاطع عمليات تمَّ أسرك؟ وكيف؟

- رتبتي قبل الهروب من وحدتي العسكرية كانت نائب ضابط بصنف القوة الجوية.. وحدتي العسكرية كانت هي قاعدة الوليد الجوية في منطقة (H3) على الحدود الأردنية.. تمَّ توقيفي في بيت صديقي شريف كچل بمريوان وهو قيادي بارز بالحزب الذي أنتمي له كپيشمرگة مقاتل، بقيادة حليفكم مسعود البرزاني، من قبل أحد ضيوفه من قوات الپاسداران واسمه صادق، على أثر نقاش سياسي دار بيننا هناك...

- ما هي المهمة التي جئت من أجلها إلى إيران؟ هل هي من أجل التجسس؟ أم القيام بأعمال تخريبية؟ ومن هم شركائك داخل إيران؟ اذكرهم بالاسم الكامل، واذكر عناوينهم؟

- لقد جئت إلى إيران من أجل الالتحاق بالمكتب السياسي لحزب مسعود البارزاني وهي حقيقة أستطيع إثباتها، وكذلك إثبات أن هذه التهمة كيدية وعديمة الصحة، كان قد لفقها ضدي الپاسدار صادق لأني رفضت رغبته بإلحاقي بتنظيمات حزب الدعوة وقوات بدر، من التي هي عاملة مع قوات الپاسداران في الجنوب..

وأخذت أسرد جميع التفاصيل التي لها علاقة بقدومي لإيران، وضمنها ملابسات اعتقالي بتلك التهمة الكيدية الجاهزة.. وبعد تدوين إجاباتي التي ترجمت للغة الفارسية على تلك الأسئلة النارية، تم إرسال الأوراق التحقيقية إلى مكتب العقيد توكان من أجل أن يطلع عليها، وجلسنا ننتظر، وأثناء ذلك أخذت أسأل نفسي: هل هذا العقيد مخبول بعقله ليسألني تلك الأسئلة المدمرة وهو بنفس الوقت يعدني أنه سيطلق سراحي إذا ما أجبته بصراحة؟ أو إنه يعتقد أني أبله لكي أجاريه وأعترف له زورًا على نفسي أني فعلاً كنت جاسوسًا، طمعًا بوعده الذي سيطلق فيه سراحي، لأذهب لحال سبيلي وأعود للعراق، والحرب كانت

دائرة برحاها؟! أمور وجدتها جدًا غريبة ومختلفة عن تلك التي دارت معي أثناء التحقيق في مريوان...

بعد انتظار ليس بالطويل استدعاني العقيد توكان إلى مكتبه، فذهبت إليه بصحبة أحد المترجمين العربستانيين، وقد تحضرت جيدًا لما سيقوله من كلام كنت قد توقعته، فقال لي بالفارسية بصوته المعهود المنخفض جدًا وبأعصاب باردة وهو يبتسم بخبث:

– لقد اتفقنا على قول الصدق والصراحة، وما قلته بأجوبتك هو هراء بهراء..

– لقد عاهدتك أن أجيبك على أسئلتك بصدق، وهذا ما فعلته وأوفيت به عهدي، على الرغم من أن أسئلتك كانت بعيدة جدًا عن ما حدث معي بمريوان من قبل الپاسدار صادق، الذي هو أساس التهمة الكيدية التي بسببها أمثل أمامكم، كما أن قول الحق ليس بالضرورة أن يكون مطابقًا لما يعتقده جنابكم ليكون صدق...

– إنها أسئلة روتينية تُطرح على كل من يقع في الأسر، بموجب المواثيق الدولية، ولكني من باب الفضول بودي أن أعرف إجابتك على سؤال آخر...

وقد فاجأني بسؤال فاق كل توقعاتي الاحتراسية، فقلت ولم أكن حينها على دراية بأنه سيلزمني الحجة بعد أن أوقعت نفسي بغلطة قابلة للتأويل، وكما يقال إن غلطة الشاطر بلوة:

– تفضل يا سيدي ولكن ليسمح لي جنابكم قبل أن توجه سؤالك لي، أن أوضح أنني لست أسير حرب بل معتقل بتهمة كيدية، وبالتالي لا شأن لي بالمواثيق الدولية وما شرعته لأسرى الحرب.

فقال بهدوئه المعهود:

- لا عليك، فسؤالي لن يكون بهذا الاتجاه، في إحدى أجوبتك ذكرت أنك كنت برتبة نائب ضابط، وما أريد قوله لك هو أن كثيرًا من الضباط العراقيين الذين حققت أنا شخصيًا معهم بعد أن وقعوا بالأسر وبعضهم كانوا برتب عالية، لم يكونوا على معرفة باللغة الإنكليزية بالقدر الذي كلمتني أنت فيه، فهل يعقل أن النائب الضابط على إلمام بالإنكليزية والضابط الذي هو أكاديمي وبرتبة أعلى لا يفقه منها شيئًا؟! فسر لي هذه المفارقة؟.

قلت مستدركًا الهفوة التي بدرت مني ولم أعمل حسابًا لعواقبها:

- نحن الفنيون العاملون في القوة الجوية وأنا أحدهم، نعرف الكثير من المفردات اللغوية الأجنبية، فبعضنا على إلمام ببعض المفردات الإنكليزية وبعضنا الآخر بالروسية وذلك بحكم عملنا الميكانيكي المشترك مع المهندسين الروس والأسبان والفرنسيين وغيرهم من الخبراء الأجانب العاملين بصناعة الطيران، وأفترض أن نفس الشيء ينطبق على فنيين القوة الجوية الإيرانية إذا ما قيست قدراتهم المعرفية باللغات الأجنبية بضباط إيرانيون من الصنوف الأخرى بالجيش الإيراني.

فقال متبسمًا وكأنه أراد أن يوهمني أنه قد اقتنع بوجهة نظري:

- حسنًا بإمكانك أن تنتظر بغرفة المترجمين ريثما أنظر بأمرك، أو قد أستدعيك مرة أخرى..

أخذوني إلى الغرفة المجاورة من غير أن أتفاءل بأي خير قد أحصده بعد تلك التحقيقات السقيمة، فهؤلاء الفرس على درجة عالية من المكر والدهاء المصحوب بالكذب، إلى الحد الذي لا يستطيع شخص بسيط مثلي التكهن بما كانت تضمره نفوسهم، وما يجول بخاطرهم وهم متخفون خلف تلك الأقنعة المتبسمة زورًا ونفاقًا، على الشكل الذي لم تكن ملائمة وما كانت تصرح به عيونهم التي تفيض بالحقد والكراهية.

بعد فترة وجيزة من الانتظار دخل علينا اثنين من الجنود بكامل سلاحهم من أجل اقتيادي، فمضيت معهم من غير أن أسألهم إلى أين المسير، لأني كنت أعلم بحدسي أنه لا جدوى من هكذا سؤال في ظرف أسود كذلك اليوم الأغبر... اقتادني الحراس إلى خارج مبنى مديرية الاستخبارت العسكرية الإيرانية وهناك كانت إحدى العجلات العسكرية بانتظارنا فاستقليناها بصمت، ومضينا في طريق أوصلنا إلى ناحية أخرى من ذلك المعسكر حيث السجن الذي كان يحوي مساجين من أفراد الجيش الإيراني، وهناك سلمني الحراس لإدارة السجن ومضوا لحال سبيلهم...

عندها أودعني مسؤولي إدارة السجن بزنزانة انفرادية طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف، من غير وجود لشباك أو قضبان حديدية على بابها السميك، وهي بوصفها كانت أقرب أن تكون مخزنًا محكم الجوانب على أن تكون زنزانة للحبس، وكان الوقت حينها عصرًا وأنا لم أذق نتفة صغيرة من أي طعام منذ مساء اليوم السابق بمريوان، ولأني كنت مرهقًا من رحلة السفر إلى سنندج ونهوضي المبكر بذلك الصباح، ناهيك عن ما لقيته من رعب صامت على يد العقيد توكان، فقد رميت بنفسي أرضًا جزعًا وحزنًا ويأسًا على ذلك التطور الخطير والمتسارع بمجرى الأحداث، التي أخذت منحى آخر بعيد جدًا عن ما تصورته قد يحدث لي بسنندج، بعد أن تسوفت أسباب تلك التهمة الكيدية التي سببها لي ذلك الپاسدار اللعين صادق، وأصبحت جاسوسًا من دولة معادية مطلوب منه الكشف عن أسماء خليته التجسسية بذلك البلد اللعين...

بعد غفوة نوم عميقة ذهبت خلالها إلى ماضي حياتي السابقة، في رحاب أهلي وأصحابي وأقاربي وما كنت عليه من حياة مستقرة وطبيعية؛ استيقظت منها على مناداة أحد الجنود بباب الزنزانة وهو يأمرني بالنهوض ليقتادني إلى

زنزانة أخرى، فتح بابها ودفع بي إلى الداخل ثم أغلق الباب خلفي، لأجد نفسي وسط ساحة مستطيلة وكبيرة بجدارها العالي وسقفها المكشوف الذي رُكبت عليه شبكة من الأسلاك الشائكة، تمكنت أن أرى السماء من خلالها بوقت الغروب.

توقفت أتأمل ذلك المكان حتى رأيت بابًا مفتوحًا بأخر تلك الساحة المكشوفة، فقصدته ووقفت عند عتبته أتأمل ما في الداخل، وجدت مجموعة كبيرة من المساجين يستلقوا على أسرة نومهم ذات الطابقين، تفاجئوا بدورهم من وجودي وأنا بشكلي الغريب عنهم، فنادى علي أحدهم وقد علمت بعدها أنه كان أقدم سجين فيهم، والأقدم في الفارسية يدعى أرشد، وهو همزة الوصل بين السجناء والإدارة، وكان أولئك المساجين هم جنود من الجيش الإيراني، وهم يقضوا مدة محكوميتهم كل بحسب التهمة التي وجهت له، وأغلب التهم كانت هي جريمة الهروب من الخدمة العسكرية..

تقدمت بخطواتي لذلك الأرشد وسلمت عليه بالفارسية التي تعلمت القليل من مفردات الحديث بها، فسألني:

- من تكون؟ وماذا تفعل هنا؟

- أنا پيشمرگة من جماعة البارزاني (مه ن موبارز بورتزاني).

- من العراق؟ (أز عيراق).

- نعم (باليه)...

فسألني أحدهم:

- هل تعرف اللغة العربية؟ (عربي بلدي).

فقلت بالعربية:

- نعم أنا أستطيع التكلم باللغة العربية كما ترى...

فقال بالعربية أيضًا:

- اسمي مسعود، وأنا تعلمت العربية أثناء فترة عملي بدولة الإمارات التي ذهبت إليها عن طريق التهريب وبقيت بها لعامين.

فقلت:

- أهلاً وسهلاً..

- هل أنت جائع؟

- جدًا...

- خذ هذا الصحن لأن وقت توزيع الطعام سيكون بعد قليل..

ذهبت لأجد لي مكانًا أجلس فيه، وعندئذ اكتملت صورة المشهد لدي، فتلك الساحة المكشوفة بسياجها العالي وسقفها المغطى بالأسلاك الشائكة؛ كانت من أجل أولئك السجناء إذا ما رغب أحدهم أن يتمشى أو يتشمس فيها بأي وقت يشاء، وهذا المكان الذي هم فيه مستلقون على أسرتهم ذات الطابقين هو مكان استراحتهم ونومهم، وبابه يغلقوه أو يفتحوه بحسب رغبتهم متى ما أرادوا، لأن باب سجنهم هي التي أدخلني منها الحارس إلى تلك الساحة المستطيلة..

بعد فترة قصيرة أدخل حراس السجن قدرًا كبيرًا فيه طعام العشاء إلى ساحة السجن، فأمر أرشد الزنزانة وهو يشمر عن ذراعيه اللتين ملأهما بالوشم، اثنين من الجنود المساجين لغرض إحضار قدر الطعام، ثم باشر بعدها بتوزيع الطعام، على المساجين بمعرفته وعلى مزاجه الخاص، بإعطاء الكمية التي هو يقدرها لكل واحد فيهم دون أن يعترض أحد منهم، وكان برغل مطبوخ بعناية مع قطعة صغيرة من اللحم لكل سجين، وعندما جاء دوري أعطاني حصة مضاعفة باعتباري كنت ضيفًا جديدًا على زنزانتهم، فأكلت حتى شبعت وحمدت الله كثيرًا على نعمته بتيسير رزقي، وفضله علي بإدخاله الرحمة بقلوب من

كان باستطاعتهم إهانتي أو إيذائي، ونحن بأجواء الحرب المشحونة بكل أسباب القتل والدمار بين الطرفين العراقي والإيراني، إضافة لذلك وجدت لنفسي مأوى أنام فيه وأرتاح عليه بإحدى الأسرة.

بعدها تعرفت على باقي المساجين الذين كان عددهم يتراوح بحدود ٢٠ فرد، وبعد أن دفع الفضول بجميع الموجودين لمعرفة أسباب سجني؛ أخبرتهم بكل ما حصل معي بمريوان، وكنت حريصًا أن لا أخبرهم بأنني كنت أحد منتسبي الجيش العراقي، مكتفيًا فقط بذكر إنني من جماعة البرزاني، فاستشاطوا غضبًا على ذلك الپاسدار اللعين صادق، وأخذوا بسب وشتم جميع الملالي واليوم الذي جاء فيه الخميني عائدًا لإيران... فتعجبت من قولهم وتأكدت من حجم الهوة بين قطاعات هذا الشعب، ودرجة بغض أفراد الجيش الإيراني لقوات الپاسداران.

في الأيام التالية وبجلسة حوار مع مسعود الجندي الإيراني الذي كان يتكلم العربية، حكيت له عن زيارتي السابقة لإيران بعام ١٩٦٨ بصحبة عائلتي بغرض السياحة، وكيف كانت أحوال الناس في إيران آنذاك حيث الرفاهية والترف والخلق الحسن الذي لمسناه عند كل من تعاملنا معهم، وبين ما وجدته الآن من اختلاف كبير نحو السيء بعد مرور أربعة عشر عامًا، مبينًا له استغرابي من التغيير الجوهري بطباع الناس، فحينها عندما كنا نتكلم مع أحدهم نراه بشوشًا ومرحًا ومتعاونًا، والأن أصبحت أراهم وكأن الشرار يتطاير من عيون أغلب من تعاملت معهم، فما سر هذا الانقلاب باعتقادك؟!

- إنهم الملالي بدون شك، فهم من زرع الأحقاد بين الناس بحجة أن هناك من يتآمر على الثورة فأحذروهم، ويدهم الضاربة على رؤوس الناس هم تلك الثلة التي تربت على يد الملالي من أبناء المتعة الذين يجهلوا من هم أبائهم وأمهاتهم،

وهم الآن ينتقمون من المجتمع الذي رفضهم ونبذهم طيلة حياتهم، وأصبحوا يكرهون كل شخص ذو جاه وحسب ونسب من أشراف المجتمع، بعد أن أصبحوا من علية القوم وتبوؤا مناصب عليا في الدولة وقوات الپاسداران، من خلال تنفيذهم لأجندة انتقامية باسم الثورة والدين، ولم يكتفوا بهذا وحسب، فقد عملوا على تصدير ثورتهم إلى العراق من أجل إشغال الناس بالحرب بغرض المحافظة على كراسيهم ومنافعهم، والحرب الدائرة الآن من صنع أياديهم الآثمة.. فهل لديك أية فكرة عن وقت انتهائها بحسب رأيك؟

فقلت متملصًا من الجواب:

- الله أعلم.

- هذا غير صحيح.

- كيف؟

- إن العراق وافق رسميًا على وقف الحرب، ولكن الملالي لم يرق لهم إيقافها، وهذا يعني أن إيقاف نزيف الدم مرهون بإرادتهم ورغبتهم على الاستمرار أو التوقف، وبالنتيجة فهم خير من يعلم متى ستنتهي هذه الحرب اللعينة..

فقلت بعد أن خرجت عن صمتي من أجل أن أسمع منه المزيد عما كان يحدث بإيران:

- إنك يا أخي تتكلم بسوء عن رجال دين اختارهم الشعب الإيراني بملئ إرادته، وضحى في سبيل ذلك بالكثير من أبنائه.. فماذا تقول بهذا الصدد؟

- سأحكي لك قصة قصيرة من التراث الفارسي، ومنها ستفهم حقيقة الأمر لأنها تنطبق بالتمام على ما نتحدث به: يُحكى أنه كان هناك ملكًا قد خرج للصيد بمعية حاشيته، وأثناء توغله بأحراش الغابة انغرست بيده ٢١ شوكة، الأمر الذي أدى به لأن يقطع رحلته ويعود إلى قصره ويستدعي طبيبه الخاص من

أجل نزع تلك الأشواك من يده، وعندما أمسك الطبيب بإحدى تلك الأشواك لكي يسحبها من يده، اشتاط الملك ألمًا وصرخ بطبيبه من أجل الكف عن تلك المحاولة، وبقي الملك على ذلك الحال من الألم لثلاثة أيام، لم يذق فيها طعمًا للنوم، حتى أصابه الإعياء والإرهاق وأخذته غفوة قصيرة وهو جالس على كرسيه، وعندها جاءت أميرة القصر وأخذت بانتزاع تلك الأشواك واحدة تلو الأخرى برقة وتأني لكي لا يستفيق الملك من غفوته ويعود لغضبه، وكانت كلما تنتزع شوكة من يده تضعها على منديل أبيض بجوار الملك، حتى تمكنت من أن تنتزع عشرون شوكة ولم يبقَ لها إلا أن تنتزع الشوكة الأخيرة، والملك لازال بغفوته العميقة لا يشعر بأي ألم بيده، وأثناء تلك العملية الدقيقة كانت خادمة الأميرة تراقب فقط من غير أن تتدخل بشيء، حتى أخذها الفضول ومدت يدها وانتزعت الشوكة الأخيرة بعنف ولا مبالاة، الأمر الذي أدى بالملك لشعوره بالألم وجعله يستفيق غاضبًا، ولكنه سرعان ما هدأت نفسه عندما نظر ليده ووجدها خالية من الأشواك، ثم نظر إلى جانبه فرأى الأشواك العشرين وهي مسطرة على المنديل الأبيض، ثم تحول بنظره للأميرة وخادمتها فرأى الشوكة الأخيرة بيد الخادمة، فظن أنها هي من انتزع كل الأشواك من يده وخلصته من ذلك الأرق الذي دام لثلاثة أيام من الألم، وعندها فرح متناسيًا الألم الذي جعله يصحى وأمر أن تصبح تلك الخادمة هي الأميرة، والأميرة الحقيقية تصبح خادمة لها لأنها تكاسلت ولم تساعده بمحنته بحسب ظنه، وهي التي قامت بالعمل كله.. إنها يا أخي قصة مطابقة لما حصل بإيران عام ١٩٧٩، فالشعب الإيراني بكل شرائحه كان قد ناضل من أجل إسقاط الشاهنشاهية التي كانت تسرق قوت الشعب على مدى سنين حكمها الطويل لإيران، والشعب قدم خيرة أبنائه ليكونوا فداءًا من أجل الحرية، حتى سلط الإعلام الغربي الأضواء على الخميني بمكان إقامته بفرنسا، وهو يوحي أنه يحمل الشوكة الواحدة والعشرين

بيده، وبذلك استولى على الثورة وأصبح على رأس السلطة بعد أن أسقط الشعب الحكم الشاهنشاهي... وتأتي أنت يا أخي وتقول لي إننا قد اخترناهم! وهو أمر بات شائعًا ولكنه عاري عن الصحة..

عندما انتهى مسعود من سرده لتلك الحكاية، وبعد سماعي لذلك الدرس البليغ الذي استوعبت كل أبعاده، تفاديت متعمدًا التصريح برأيي الحقيقي وقلت له:
- إنها حكاية ممتعة حقًا وهي تذكرني بحكايات جدتي عندما كنا صغارًا عن الملوك وما كان من أمرهم سابق الزمان..

فقال متذمرًا وهو يهز برأسه:

- أسأل الله أن يسامحك يا أخي..

وفي مناسبة أخرى ومن غير أن ألفت الانتباه طلبت من صاحبي مسعود أن يحكي لي عن طبيعة النهج الديني السائد بإيران، من أجل الاستفادة بتكوين فكرة عن التركيبة النفسية لشخصية هؤلاء الملالي، مدعيًا أني جاهل بأمور الدين الإسلامي وبودي الاستيضاح فقط! فقال:

- سأحكي لك الحقيقة ولكن لا تسخر لأنها مأساة وكارثة إنسانية حلت علينا!

- أعاهدك على ذلك..

فكلمني عن أمور عجيبة وطقوس غريبة لم أسمع بمثلها أنا وغيري من العراقيين بتلك الفترة، وهي اليوم معروفة ومكشوفة ومنتشرة على الفضائيات الطائفية بالقول والتطبيق في العراق، بعد أن انتقلت إلينا من إيران، وطبعًا هي بمجملها طارئة على الدين الإسلامي المحمدي السمح الذي يعرفه ويطبق تعاليمه أكثر من مليار مسلم، وكذلك نفس الشيء على التشيع العربي الجعفري الذي لم يخرج عن السنة النبوية والقرآن الكريم، باستثناء ثلة من الذين انتقلوا ليتبعوا التشيع الفارسي الصفوي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، الذي هو أشبه

بالدين الجديد الذي يختلف مع الإسلام الذي نعرفه بكل شيء ويتشابه معه إلا بالاسم فقط لا غير.

بعدها استرسل صاحبي مسعود وأخذ يسرد لي بعض الشواهد على كلامه بخصوص الممارسات السيئة التي تحصل بإيران باسم الدين، وقال:

– ومثال ذلك أن بعضهم عندما يذهب لزيارة المراقد الدينية بمشهد وقم، فإنه لا يمانع من اصطحاب أمه التي ترغب بالذهاب معه بقصد أن تستمتع حتى لو كانت كبيرة في السن من خلال معاشرة بعض الرجال هناك، على طريقة زواج المتعة المرهون بفترة زمنية يتم تحديدها بليلة أو ليلتين، أو بعدد من الليالي التي تقضيها خلال فترة الزيارة، باعتباره أمر غير مكروه وهو من الدين، ولا حياء في الدين كما هم يقولون، فهل هذا التصرف مقبول عندكم وهل هو موجود ومباح بدينكم الإسلامي في العراق؟! ناهيك عن أن بعض الملالي الذين كانوا في العهود السابقة يتجولوا بين القرى والأرياف وضواحي المدن بُغية إرشاد الناس على طريقتهم، وبعد أن ينتهوا من سرد كلامهم الترهات كان بعض الأهالي يكافئوهم بتقديم أصغر بناتهم من البكارى لهم، لكي يتبركوا بهذا المعمم أو ذاك الدجال على طريقة زواج المتعة لليلة واحدة وبدون مقابل.

هذا ما شرحه لي صاحبي مسعود، وهو كما ذكرت سلفًا كان أحد الجنود الإيرانيين المحبوسين معي بزنزانة واحدة، وكان على درجة من الوعي والثقافة، ويتكلم معي باللغة العربية التي تعلمها أثناء عمله السابق بدولة الإمارات، واستمر بسرده وقال:

– إن إحدى القرى النائية قديمًا في إيران، كانت تعاني من حدوث الكوارث الطبيعية بشكل غير طبيعي، وتصادف أن زارها أحد الغرباء من رجال الله الصالحين الذي مرَّ بها وكانت على ذلك الحال، فتوقفت بالصدفة كل تلك المظاهر

المصحوبة بالمطر والبرق والرعد الذي كان يخيف سكان تلك القرية النائية، وحينها هدأت نفوس الناس واعتقدوا أنها بركة من ذلك الرجل الصالح الذي دخل لقريتهم، وبعد يومين من استراحة ذلك الرجل الصالح الذي تقدم بالشكر لملالي القرية بضيافتهم له، مستأذنًا منهم بالمغادرة لإتمام رحلة سفره والعودة لدياره، فقالوا له متوسلين: ابقَ معنا يا مولانا لأنك رجل مبارك جلبت لنا الأمان والطمأنينة بقدومك علينا، فاعتذر الرجل عن تلبية مطلبهم بكل أدب، فقالوا له، لكننا يا مولانا لا نستطيع التفريط بك والسماح لك بالمغادرة، فقال: كيف بإمكانكم أن تمنعوني من المغادرة ولدي عائلتي بانتظاري؟! فتقدم أحدهم نحوه بعد أن شمر عن ساعديه وأغمد خنجره بقلب ذلك الرجل الطيب وهو يردد قائلاً هكذا ستبقى معنا إلى الأبد لنتبرك بك يا مولانا، فمات الرجل المسكين بلحظتها، وتجمع الملالي من حوله بعد أن اخفوا علامات تلك الجريمة البشعة، وبكوا عليه قليلاً ثم أشاعوا بين الناس خبر وفاته المفاجئ الذي روجوا له على أنها هبة من الله لقريتهم البائسة، ثم جمعوا الأموال لكي يبنوا له مرقدًا يزوره كل من يسعى لطلب البركة وتقديم النذور لحل العقد المستعصية، من خلال تقديم القرابين التي ستنزل بجيوب من قتله من ملالي القرية...

ثم أضاف مسعود قائلاً:

- ولذلك فجوهر الصراع بين الملالي بإيران سابقًا وحاليًا هو من أجل الاستحواذ على المال الذي يجنوه من زيارة الناس للمراقد، إضافة لجني خُمس الدخل السنوي من مقلديهم، فما بالك وقد أصبحت الغنيمة هي ميزانية دولة كبيرة مثل إيران بحقولها النفطية وما شابه من خيرات وما أكثرها؟!

فقلت بشكل عفوي:

- هكذا الموضوع إذًا؟

- نعم.. وأظنك بدأت تفهم ما أريد أن أوصله لك..

فقلت في نفسي:" أحمد الله أنه لا يوجد لدينا أمثال هؤلاء الملالي في العراق ليحكمونا"، ولم يخطر على بالي مطلقًا حتى وبأتعس كوابيس أحلامي، أن تلاميذ هؤلاء الملالي الإيرانية هم من سيحكموا العراق في ظل الاحتلال الأمريكي الذي تحالفوا معه بشكل مخزي، والاحتلال الأمريكي بدوره عاملهم بكل احتقار واستخفاف، فلم يرتقوا من خلاله لينالوا صفة الحليف، بل لصفة الخادم الوضيع المطيع الذي لا يملك سوى تنفيذ ما يطلب منه أسياده.. على أية حال دوام الحال من المحال، والتاريخ سجل وسيبقى يسجل كل مآثر الشعوب وبطولاتهم من ناحية، ومخازي وانحطاط ثلة الخونة من ناحية أخرى، في هذه الحياة التي لم تدم للسابقين ولن تدوم للاحقين..

ورجوعًا لما كان من أمري خلال تلك الفترة القصيرة من تواجدي بتلك الزنزانة، تعرفت على أحوال باقي المساجين، واطلعت على أسباب سجن كل واحد منهم، فوجدت أن أغلبها كانت محصورة بأمرين، أولها بسبب التغيب أو التخلف عن الخدمة العسكرية الإلزامية، وثانيهما بسبب تعاطي المخدرات، وهي ظاهرة شائعة وممنوعة بنفس الوقت، ومنهم كان ذلك السجين الأقدم الذي وشَم يديه وكان يدعي أنه من ممارسي الزورخانة، وهي رياضة شعبية قديمة في إيران..

ومن أجل أن أحتوي كل من كان بتلك الزنزانة من الجنود الإيرانيين؛ شاركتهم بألعابهم التي كانوا يمارسوها بعد فترة العشاء من أجل التسلية وتمضية الوقت، ومنها لعبة المحيبس على الطريقة الإيرانية، وفي إحدى المرات شاركتهم بلعبة المصارعة بلوي الأذرع، وفزت عليهم الواحد تلو الآخر حتى جاء دور سجينهم الأقدم، فتحرجت من ذلك وامتنعت عن مصارعته لأني كنت واثقًا من فوزي

عليه وبالتالي فإنه لن يتقبل الهزيمة بروح رياضية ومن المؤكد أنه سيحقد علي لأنه سيخسر هيبته وسلطانه على باقي المساجين، باعتباره زورخنجي كما كان يحلو له عندما يصف نفسه، وهو صاحب فضل علي لأنه احترمني منذ دخولي عليهم بتلك الزنزانة.

وبعد إلحاح منه لم أجد مفرًا من منازلته فهزمته بسهولة لأنه كان يصعب علي أن أجعله يغلبني من باب المجاملة، بسبب كونه حشاش ومدمن على المخدرات، وأنا كنت شابًا مفتول العضلات نتيجة ممارستي السابقة لرفع الأثقال والكمال الجسماني، فغضب مني كما توقعت بحجة أني قد أخذته على حين غرة، فقلت مطيبًا خاطره: دعنا لا نحتسب تلك النتيجة ولنتصارع مرة أخرى، فمكنته من لوي ذراعي وخسرت نفسي من أجل أن يفور هو، لأني لم أكن أريده أن يغضب مني لأي سبب كان، لأن الرجل كان يحترمني ويعاملني معاملة حسنة منذ دخولي عليهم، وقد كان بإمكانه إزعاجي - إن لم يكن إهانتي - صباح مساء من غير أن يحاسبه أحد، بالرغم من كونه سجينًا معي بنفس الزنزانة، وبالتالي فهو جندي إيراني وأنا أعتبر عدو عراقي، ورحم الله من عرف قدر نفسه. وعلى أثر فوزه نفش الرجل ريشه وهو يتمشى متبخترًا ومزهوًا بنشوة انتصاره المزعوم، وكنت حينها وأنا أشاهده لا أدري هل أضحك على تلك المهزلة التي وجدت نفسي فيها، وكأنها أضغاث أحلام من تلك التي تراود الناس بفراشهم الدافئ..

في ذلك المساء على وجه التحديد؛ أخبرنا أحد حراس السجن الذين كنا نادرًا ما نراهم باستثناء وقت جلبهم للطعام، أنني سوف أغادر الزنزانة بصباح اليوم التالي، فتهيأت للرحيل عن أولئك الجنود الإيرانيين الذين لم ألمس منهم أي سوء يذكر بحقي، دون أن أعلم إلى أين المسير يا ترى بهذه المرة، وفي

الصباح خرجت من تلك الزنزانة بعد أن ودعني كل من كان فيها بشكل ودي حميم لا زلت أذكره لهم بطيب.

ثم اقتادني الحراس الذين عاملوني بقسوة كالمرة السابقة وكأنهم قد ألقوا القبض علي للتو بإحدى ساحات الحرب، ولكني بأسلوبي الذي انتهجته واعتبرته ناجحًا عند التعامل مع مثل تلك الحالات؛ كنت قادرًا على جعلهم يغيروا من تلك الأساليب التعسفية التي عادة ما ترافق المسيرة مع سجين كان متهمًا بالتجسس على بلادهم، وذلك بأن أكون متعاونًا مع سجاني أثناء اقتياده لي، وكذلك عدم سؤالهم المتكرر، إضافة لاحترامهم الذي سينعكس إيجابيًا ويجبرهم على احترامي، وهذا ما كنت أحرص عليه على الدوام بكل مكان كنت أحل فيه من تلك الأماكن التي أخذوني إليها مخفورًا، فكرامتي كانت تحتل الدرجة الأولى من اهتماماتي الشعور بالجوع أو النوم في العراء، أوحتى تعرضي للموت...

اقتادني حراسي الجدد إلى كراج السفريات بسنندج، وهناك علمت وجهة سفرنا إلى أين ستكون بهذه المرة، لأننا ركبنا الحافلة المتجهة للعاصمة طهران، واسم طهران كان بالنسبة لي مرعبًا لارتباطه بداخل عقلي بالإهانة التي هي أتعس من الموت بنظري، باعتبار أن طهران كانت هي المحطة الأخيرة لي، لأن أقفاص الأسرى العراقيين كانت هناك، وتلك معلومة أكدها ذلك الپاسدار اللعين صادق وهو يقول لممثل الحزب الديمقراطي بمريوان المدعو حمه سور حسين، الذي ترجاه ألا يقتلني بعد أن سلمني إليه صاغرًا ومطيعًا: أن أخر المطاف بعد التحقيق معه سيكون بقفص الأسرى العراقيين بطهران وليس القتل، والقتل كان أهون من الأسر بشهادة كل الأسرى العراقيين الذين التقيت بهم لاحقًا بطهران.. فماذا كان يجب علي أن أفعل وقتها؟ هل أتوسل لهم من أجل أن يقتلوني؟! الجواب هو كلا، لأني لم أتوسل لأحد بكل حياتي ولن أفعل ذلك ما حييت..

وكالعادة وكما حصل في التسفير الأول من مريوان إلى سنندج، فإن الطريق مهما كان بعيدًا أو قريبًا فإنه كان يتوجب علي الصيام الإجباري، على الرغم من أن الحافلة التي كانت تقلنا تتوقف لمرات عديدة بمطاعم واستراحات منتشرة على طول الطريق، بسبب عدم امتلاكي للنقود بغرض شراء الطعام أو السجائر، التي كانت هي السلوى الوحيدة لي برحلتي مع العذاب، وأصبحت بعدها هي النقمة الوحيدة لي أثناء تسفيري من مكان لآخر، لأني أثناء تواجدي في الزنازين التي مررت بها؛ كان هناك من يعطف على حالي ويقدمها لي من باب الرحمة الإنسانية، ولو كنت قد استرجعت نقودي التي كنت قد وضعتها كأمانة عند مضيفي خال صديقي شريف كچل لما كنت سأحتاج لأحد، علمًا أن الفرصة كانت متاحة له أن يرجع لي نقودي أثناء تواجدي بزنزانة معلومة بوسط مريوان، ولكنه لم يفعل لأسباب كنت أجهلها، وبالتأكيد السبب لم يكن هو نكران الأمانة، لأن الرجل والشهادة لله كان من الأخيار وليس من الرعاع..

أخيرًا وصلنا إلى طهران بوقت الغروب وكنا قد تركنا سنندج منذ الصباح، ولم أكن أعلم كم من الوقت قد استغرقنا بتلك الرحلة حتى وصلنا لطهران لأن حساب الزمن والأيام كان معدومًا لدي، بعد أن أصبحت خارج المعرفة بأي شيء كان يحدث خارج زنزانتي.

الجزء الثالث

التاريخ: شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢

المكان: عاصمة الغدر والعنصرية - طهران

الموقع: معسكر دوژبان مركز

الزنزانة: قفص تسفيرات الأسرى العراقيين

وصلنا إلى طهران عاصمة الشعوذة والدجل بعد غروب الشمس بقليل، وترجلنا في ساحة توقف حافلات النقل بالقرب من ساحة الحرية ميدان آزادي، وهناك تجمهر بعض الناس لغرابة المشهد الذي كنا عليه.. اثنان من الجنود الإيرانيين بكامل سلاحهم يقتادون شخصًا يرتدي الزي الكردي الخاص للحزب الديمقراطي الكوردستاني، ومكبلاً من يديه بالأصفاد، الأمر الذي استشعر فيه حراسي بالريبة أو الخطر، فوضعوني على عجل في سيارة تاكسي وانطلقوا بي إلى داخل شوارع المدينة طهران...

وشاءت الصدفة أن نمر بخيابان ناصر خسرو وهو شارع مشهور بوسط المدينة، حيث كنت وباقي أهلي قد نزلنا بإحدى فنادقه أثناء زيارتنا السياحية لإيران في الشهر الأول من عام ١٩٦٨، ولزحمة السير تيسر لي أن أتطلع بوجوه الناس عن قرب، فوجدتها شاحبة وليست مثل أخر مرة تواجدت فيها هناك، حينما كان أحدهم يتمشى وهو يرتدي أرقى الملابس الأنيقة معتمرًا قبعته الباريسية المستوردة، متنقلاً بين المحلات التجارية ذات الأنوار البراقة ليتبضع أي شيء يخطر على باله، وما أراه الآن وقد حل الدمار باختفاء كل تلك المعالم البهيجة وحل محلها شبح الموت بهذه المشاهد السوداوية التي تبعث بالكآبة على نفوس ناظريها، وأثناء هذا وذاك من مشاهد قارنت بها بين وضعي الحالي الذي كنت عليه وأنا مكبل ومنقاد إلى مصير مجهول، وبين حالي أيام كنت شابًا يافعًا قبل أربعة عشر سنة خلت عندما كنت أتنقل مع أخي الأكبر لؤي النورسي بنفس ذاك الشارع الذي كان يسر ناظريه، وشتان ما بين السببين اللذين جعلاني متواجدًا على تلك الرقعة من الأرض في الزمان المختلف كليًا، وأنا مندهش كليًا من تلك الصدفة.

ظللنا نسير حتى وصلنا إلى معسكر يقع بوسط العاصمة، وترجلنا من سيارة التاكسي لندخل إلى دائرة استعلاماته، وهناك سلمني حراسي بعد أن أوصوا بي خيرًا ضابط الاستعلامات الخفر لحسن سلوكي معهم أثناء تلك الرحلة الطويلة ومضوا عائدين إلى معسكرهم بسنندج، وقد علمت لاحقًا أن ذلك المعسكر خاص بالمقر العام لدائرة الانضباط العسكري للجيش الإيراني، الذي هو مختص لإدارة شؤون الأسرى العراقيين...

منذ اللحظة الأولى التي تمَّ فيها استلامي لاحظت فرقًا شاسعًا بالمعاملة التي اتسمت من بداياتها بالعنف والسوء المقصود من قبل حراسي الجدد، باستثناء ضابط الاستعلامات الخفر الذي تعاطف معي بحذر بعد أن كلمته ببعض المفردات التي تعلمتها مؤخرًا من اللغة الفارسية، فأخبرني أنه سيرحم حالي ويرسلني إلى زنزانة ألتقي بها بعراقيين مثلي، أستأنس بوجودهم بدلاً من تلك الزنازين الانفرادية، التي علمت لاحقًا أنني لو كنت قد ذهبت إليها لأصبحت ضائعًا منسيًا خارج دائرة المعرفة بكل شيء، وعندها لن يسأل عني أحد من المحققين أو أي جهة معنية بأمر التهمة الكيدية التي ألصقها بي الپاسدار بسبب رفضي الانضمام لتشكيلات المرتزقة من فيلق بدر وحزب الدعوة من خلال الجهد العسكري الخياني الذي يقومون به ضد العراق، لصالح العدو الإيراني، صاحب مشروع احتلال العراق تحت مسمى شعارهم بتصدير ثورتهم الخبيثة للعراق..

بعد انتهاء محادثتنا القصيرة؛ أمر ذلك الضابط أحد الجنود بغرض إيصالي إلى خارج الاستعلامات، حيث تتواجد مفرزة من الجنود من أجل اقتيادي إلى قفص أسري هذه المرة، فسحبني ذلك الجندي الإيراني بقوة من يداي وفتح بابًا كان مطلاً على ساحة خلفية، ودفعني بشكل همجي من غير سابق إنذار إلى مفرزة مكونة من عشرة جنود صبية يافعين، وهم بدورهم أشهروا على الفور بنادقهم المحشوة بالرصاص وصوبوها إلى صدري وهم يصرخون بأعلى صوتهم بكلام

لم أفهم معنى له، ولكني تيقنت أنها كانت ألفاظًا لكلمات نابية، كان الغرض منها استفزازي أو إخافتي، وهم أبعد ما يعلمون أني كنت أطلب الشهادة وأتمناها وأنا بذلك الحال المهين، لأنها أفضل من العيش بينهم، فاحترت ماذا أعمل؟ وما المطلوب مني أن أفعله لكي يكفوا عن صراخهم؟.

أشاروا إلي أن أرفع يديَّ المكبلتين للأعلى فرفعتهما، ثم أشاروا بالتقدم، ففعلت، بعدها تجمعوا كلهم من خلفي وصراخهم قد ملأ سكون المكان ضجيجًا، فمشينا على ذلك المنوال حتى وصلنا إلى مفترق طرق بذلك المعسكر الكبير وهم من خلفي يصوبون بنادقهم نحوي، التفت إليهم لأستعلم ما هي الخطوة التالية، فعلا صراخهم وهم يصوبون فوهات بنادقهم إلى رأسي هذه المرة ويأمرونني بالسير إلى الأمام.

مضيت وسط تلك الجوقة من الصبيان الذين لا يصلحوا حتى أن يكونوا فرقة للكشافة، مضيت قدمًا بالسير وأنا أسخر من قدري، وقد تعجبت حقًا من ذلك المشهد الذي كنت فيه مكبلاً بالقيود وسط عشرة من جنود الشطرنج بداخل أسوار معسكرهم الكائن بوسط عاصمتهم اللعينة، وهم بصرخاتهم تلك التي تعني لدي كعسكري قديم أن مطلقيها على ذلك النحو كانوا يطردون الخوف من داخلهم، لِما كان للعراقي من شأن يخشوه بداخل نفوسهم الخبيثة، وكلما علا صراخهم فإن ذلك يعني أن خوفهم كان قد ازداد، وذلك نفس ما فعله الجنود الأمريكان أثناء مداهماتهم للبيوت الآمنة لأهلنا العراقيين أيام احتلالهم للعراق، وأعتقد أن هناك سببًا آخر لذلك النباح، فهم يعتقدون خاسئين أن ذلك سيرهبني ويبث الرعب في نفسي، وبالتالي فإنهم سوف يتلذذون بما قد يرونه من خشيتي منهم، وفي كلتا الحالتين فمن يُطلق مثل تلك الصرخات التي تشبه إلى حد ما طلق النساء عند الولادة، فهو بالتأكيد جبان رعديد، فما بالكم ومطلقها هو فارسي جبان.

على أية حال بالرغم من خطورة تلك اللعبة الصبيانية؛ إلا أنني التزمت الهدوء بتصرفي، لأن ما كان يشغل بالي وقتها خشيتي من أن تكون زنزانتي الجديدة هي خاتمة المطاف، لأنتهي بإحدى تلك الأقفاص البشعة التي يتواجد فيها إخوتي العراقيين، واستمرينا بالمشي على ذلك المنوال حتى وصلنا إلى بوابة بناية كبيرة من طابق واحد، كان يصدر منها ضجيج لتجمهر كبير يُشبه ذلك الذي كنا نسمعه من جمهور لعبة كرة القدم، أثناء تشجيعهم لفريقهم في الملاعب، وذلك يعني أن عدد الناس الذين كانوا بداخلها أكثر من أن يتسع لهم ذلك المكان!

توقفنا عند بوابة تلك البناية وخرج إلينا اثنان من الجنود غير المسلحين، بعد أن فتح بعض الحراس المسلحين من المتواجدين في الخارج البوابة لهم، وأدخلوني إليها ثم أقفلوا الباب من خلفنا، يعني من قبل الحراس في الخارج، وحينها وجدت نفسي مقابل غرفة استعلامات داخلية للحرس، وعلى يمينها قاعة كبيرة، وعلى يسارها قاعة أخرى أصغر بقليل، وكليهما مليئة بأخواتي الأسرى العراقيين الذين كانوا يرتدون زيًا موحدًا لبدلة متهرئة باللون الجوزي، وبعد أن تمَّ تفتيشي من قبل الحراس الداخليين، الذين صادروا بعض القطع من ملبسي للزي الكردي الذي كنت أرتديه، مثل الحزام (البشتين) وغطاء الرأس (الجامانه) وحتى الحذاء الذي زودوني بنعل بلاستيكي ممزق بدلاً منه لاعتقادهم أن تلك الأشياء قد تستعمل لخنق الآخرين إن لم يكونوا هم المقصودين بالخنق، بعدها تركوا لي الخيار أن أذهب يمنة أو يسرة لإحدى القاعتين.

أثناء ذلك كانت جموع إخوتي الأسرى تترقب انتهاء تلك الإجراءات الاحترازية بحقي من أجل أن يرحبوا بي ويأخذوني بالأحضان كما فعلوا لاحقًا.. مضيت إلى القاعة التي كانت على يساري لقربها، وهناك تواجهت مع إخوتي الأسرى العراقيين، وانتابتني مشاعر الفرحة الغامرة، وأخذت أتطلع لوجوههم التي

تبسمت لي، وأغرورقت عيوني بالدموع من شدة تأثري بذلك اللقاء الحميم، الذي لا أستحي عندما أصف نفسي فيه بأني كنت أبدو قزمًا صغيرًا وأنا بحضرة أولئك العمالقة، الذي قاموا بواجبهم الوطني بكل شرف أثناء الدفاع عن العراق، وليس عن نظام الحكم القائم آنذاك كما يشيع بعض المدلسين في أيامنا هذه، من أجل تبرير ذلك العدوان الفارسي اللئيم على العراق.

انتظروا حتى انصرف الحراس عنا إلى داخل غرفة استعلاماتهم وأحاطوني بسيل من الكلمات الأخوية الودية للغاية، دون أن يسألوني عن سبب تلك الهيئة التي كنت عليها في ملبسي بعد أن تكلمت بالعربية معهم، وأنا أتعرف عليهم الواحد تلو الآخر، وقد ظنوا ببادئ الأمر أني كنت ضمن المقاتلين الأكراد الذين تجحفلوا للقتال مع بعض التشكيلات العسكرية للجيش العراقي بجبهة القتال لقاطع العمليات الشمالية، وبعد أن عرفوا حقيقة أمري بشكل عام فسروا سبب تواجدي معهم باعتباري كنت عسكريًا في الجيش العراقي، وقد أصابوا بتخمينهم لأن الفرس لا يميزون بين من كان في الخدمة العسكرية وتركها لسبب أو لآخر وبين من كان يقاتلهم، لأن الاثنين في نظرهم على حد سواء، فهم عسكريون من جيش معادي واحد.

كان من بين الأسرى الأكثر حضورًا الأسير حلمي، وكان يمثل همزة الوصل بين الإدارة ورفاقه الأسرى بكلا القاعتين اللتين كان بالإمكان التنقل بينهما، لأنه كان يحمل صفة المترجم والأرشد بنفس الوقت، باعتباره كان يجيد التحدث باللغة الفارسية إضافة للغته الأم الكوردية وللعربية أيضًا، وهو شخص محترم وعراقي وطني شريف كان يقطن بمحافظة السليمانية قبل أن يقع بالأسر. وكان من أشد خصومه من بقية الأسرى أولئك الذين خانوا رفاقهم أثناء خضم المعارك، أو تغيروا ليركبوا الموجة الفارسية بعد أسرهم، وسآتي على ذكر

جميع تفاصيل أصناف الأسرى تباعًا، لأنها شهادة نابعة من ضمير حي ووجدان يقظ، لكي يسجلها التاريخ كأمانة لا بد لي من توثيقها.

حينها فرحت للقائهم بعد تلك الفترة من التجوال وحيدًا في الزنازين الإيرانية، بعد أن التقيت بأشكال شتى من البشر على مدى رحلتي التعسة هذه، من: پاسدار حرس ثوري وجنود إيرانيين وكورد إيرانيين من أهل المروءة والشهامة، وكورد عراقيين، لرفاق تخلوا عني، وعرب عراقيين خونة، من حزب الدعوة وجنود عربستانيين منصفين ومتعاطفين، ثم مساجين إيرانيين بمختلف الأشكال، ناهيك عن التحقيق السقيم لدى الاستخبارات – الإطلاعات الإيرانية – وبنفس تلك اللحظة من ذلك اللقاء الحميم بأخواتي الأسرى العراقيون حزنت كثيرًا لما انتهى عليه حالي، وبما آل إليه مصيري، على الرغم من كل الاجتهادات التي سعيت بها من باب حق الاحتيال على العدو بزمن الحرب، والأسر هو جُل ما كنت أخشاه حتى ولو بفكرة عابرة كانت تخطر على بالي طوال الفترة الماضية، وقد أصبحت الآن حقيقة وضاع كل أمل لي باستردادي لحريتي التي سلبها ذلك الپاسدار اللعين بمريوان قبل أن أتمكن من الهرب والعودة لوطني العراق.. فسلمت أمري لله عز وجل وهو خير معين.

كان أول ما تبادر لذهن مترجم الأسرى حلمي هو سؤاله لي إن كنت قد مكثت لفترة في تلك الزنازين الانفرادية للأسرى في الجانب الآخر من نفس هذا المعسكر، باعتباره أمر كان متبعًا من قبل إدارة ذلك المعسكر، للتحقيق مع بعض الأسرى، وليس كلهم من أولئك المأسورين للتو من جبهات القتال، أو من الذين يأتوا من الأقفاص الدائمة للأسرى المنتشرة بشمال ووسط إيران، ومنها معسكر الداودي.. حشمتية.. برندك.. قصر زندان.. مشهد.. ومعسكر گورگان بأقصى الشمال وهو الذي قتل فيه مجموعة كبيرة من الأسرى العراقيين من

قبل حراسهم المتهورين أثناء نقلهم من قفص لآخر، باعتبار أن سجني هذا هو القفص المخصص للتسفيرات فقط، فأخبرته أني قد جئت إليهم مباشرة بعد أن أمضيت فترة بقضاء مريوان، وأخرى بمحافظة سنندج لغرض التحقيق.. فقال حلمي:

– يظهر أن محققي الاستخبارات أو الاطلاعات قد حسموا أمرك، ولم يعد هناك من حاجة لتحقيق آخر معك في الزنازين الانفرادية للأسرى..

فقلت:

– حسبي الله ونعم الوكيل.

وأثناء تلك الجلسة مع إخوتي الأسرى العراقيين؛ قدموا لي ما تيسر عندهم من طعام كانوا قد ادخروه من وجبة طعامهم الوحيدة بظهيرة كل يوم، بعد أن علموا أني لم آكل أي شيء طيلة ذلك اليوم الشاق، فأكلت ما جمعوه لي من فتات الخبز مع شربة ماء لكي أسد رمقي، وأنا خجل من نفسي بحضرة هؤلاء الأبطال الذين أسروا لأنهم كانوا يقاتلون دفاعًا عن مبدأ مشروع بالحفاظ عن حدود الوطن، في الوقت الذي كنت أنا تائهًا بعد أن فقدت بوصلتي وبعد أن اجتهدت بخدمة شعبي الكوردي، ولم أتمكن من تحقيق أي فعل حقيقي بذلك الاتجاه، وعندما تيقنت وعلمت ما علمته كان الوقت قد مضى بي ولا مجال للاستدراك بعد أن أصبحت نزيل زنازين الفرس.

بعد ذلك اللقاء الحميم جلب لي أخي حلمي من الإدارة التعيين الخاص بالأسير من الأغطية، وكانت بطانيتين قديمتين يسكنهما جيش من القمل الفارسي، وهو أشد إيذائًا من القمل المتواجد عادة بسجون العراق، ولله بخلقه شؤون، ففرشت واحدة على أرضية القاعة والتحفت بالثانية، عندما أعطى الحراس الأمر للنوم الإجباري وكنا في الساعة الثامنة مساءً، وأطفأت الأنوار وأصبحنا بحالة يسميها

الفرس (خاموش) وتعني الظلام، ومُنع الكلام والتنقل بين القاعتين، وتواجد بكل منهما حارس يحمل العصي من أجل تنفيذ أمر النوم الإجباري، ومراقبة الأسرى إن كان أحدهم يبغي شرًا بأحد زملائه من باقي الأسرى، أو بالإدارة المتواجدة بداخل القفص، فتوسدت بنعلي الممزقين من تحت رأسي ونمت من شدة الإرهاق والتعب، والألم يعتصر فؤادي وكأنه كان يقطر دمًا، لأصحى بوقت الفجر على ضربات الحرس المناوب بخفارته بعصاه التي كان يمررها بقسوة على أرجل كل الأسرى النيام بشكل مؤلم بغرض إيقاظهم لبدء يوم جديد من أيام يكاد يكون أحدها وكأنه الدهر بأكمله..

قبل أن يأتيني الدور هممت لأنهض واقفًا على طولي قبل أن تنالني واحدة من تلك الضربات اللئيمة الجبانة، فإذا كان النوم بوقت الفجر عزيزًا، فالكرامة أعز، خصوصًا عندما يكون صاحب ذلك الفعل المشين هو فارسي جبان.. وليس عراقيًا ابن بلدي حتى لو كان ظالمًا، وبعد أن صحى جميع الأسرى تمَّ تعدادهم باصطفاف خاص من قبل أمر حارس القفص الفارسي المدعو أيرج، وهو ضابط صف متعجرف وحاقد بشكل لا يوصف، مع ثلة من أعوانه الجنود الذين هم على نفس شاكلته العنصرية، وحينها يتم إحصاء الأسرى بكلتا القاعتين، وكانوا ١٢٠ أسيرًا من المثبتين في ذلك القفص لغرض الاستفادة منهم بأعمال السخرة التي كانوا يمارسونها يوميًا خارج القفص، بحسب حاجة المنشأت بذلك المعسكر الكبير من أعمال تنظيف وخدمات أخرى، إضافة إلى المتفرقة من باقي الأسرى الذين قدموا إلى طهران من معسكرات أسرهم الثابتة البعيدة منها والقريبة، لغرض مراجعة المستوصف الخاص بالأسرى والكائن بنفس هذا المعسكر، وهم لا يعدوا سوى أفراد قلة يتبدلون باستمرار بين قادم ومغادر لنا، وبذلك فإن معدل عدد الأسرى في الأيام الاعتيادية هو ١٢٠ إلى ١٣٠ أسيرًا، وذلك يعني طبعًا أن مساحة الأسير الواحد للجلوس أو النوم في كلا القاعتين

كانت متر مربع واحد وهذا العدد بالطبع لم يشمل الأسرى الذين أسروا للتو في جبهات القتال، وإن كان مرورهم إلى قفصنا هذا هو حتمي لأنهم سيوزعون بعدها على باقي المعسكرات الدائمة بشكل عاجل حتى لو كان عددهم كبيرًا... وعادة ما يبدأ التعداد الصباحي بطقوس ترديد نشيد فارسي لعين يُجبر على ترديده إخوتي الأسرى العراقيين باللغة الفارسية وكالآتي: خودايا خودايا هتا انقلاب مهدي خميني راجنگهدار؟ أو: ره هبه ر.. والترجمة الحرفية لذلك الشعار البائس هو: إلهي إلهي حتى ثورة المهدي، خميني هو العظيم (أو شيئًا من هذا القبيل)، وفي بعض الأحيان يستبدل بعض إخوانكم الأسرى الأبطال عبارة: "خميني راجنگهدار" بكلمة: "خميني قشمر" العراقية، وعلى أثرها ينالوا العذاب الأليم عندما يوشي بهم بعض ضعفاء النفوس من الأسرى من أجل كسب رضا الإدارة عنهم، بغرض تزويدهم أثناء وجبة الطعام الوحيدة برغيف خبز إضافي.. فألغي ذلك الشعار النتن باللغة الفارسية فيما بعد وتم استبداله بواحد آخر باللغة العربية وكالآتي: إلهي إلهي حتى ظهور المهدي احفظ لنا الخميني!!..

تصوروا أن أسيرًا يذق كل يوم الإهانة والعذاب من قبل صعاليك ذلك الخميني الخرف ويُطلب منه أن يدعوا الله أن يحفظه، أو يعظمه وهو يذيقه مرَّ العذاب وبذات الوقت هو ماضي بهجومه على بلده تحت شعار تصدير الثورة الحمقاء.. أية سفالة تلك التي كان ينتهجها الفرس بحق أولادنا هناك؟! وبعد أن ينتهي ذلك التعداد الصباحي الذي لم أكن من ضمن مصطفيه، بعد أن توقعت في ذلك الصباح المشؤوم أن يتم تزويدي بالبدلة الخاصة بالأسرى العراقيين، وهو أمر لم يحدث ولم أعرف السبب حينها وإن كنت قد استبشرت خيرًا بالرغم من أن صفتي بين إخوتي الأسرى هو أسير غير نظامي، وهذا معناه أنه قد تمَّ أسري خارج دائرة الصراع بساحات المعارك آنذاك..

بعد كل ذلك يتم المباشرة بتنظيف القاعتين ومرافقها الصحية لغرض التهيؤ ليوم أسود جديد، يبدأ بمناداة بعض أسماء الأسرى المثبتين لغرض الخروج من القفص والقيام بالأعمال الخدمية بداخل ذلك المعسكر الكبير المسمى دوزبان مركز، وهي فرصة كانت تتيح للأسير مجالاً لأن يتمشى ويستنشق الهواء الطلق وينال قسطًا من أشعة الشمس عندما يكون الطقس صحوًا.. وكذلك الفوز أحيانًا عندما يستخدمونهم بأعمال مطبخ المعسكر؛ بتفاحة أو برتقالة يحتفظ بها الأسير العراقي الشهم لكي يقتسمها مع عشرة من رفاقه عند عودته للقفص.

وبعد أن تذهب وجبة الأسرى الذين يستخدمونهم كعمال بحوالي الساعتين؛ ينادى على بعض أسماء الأسرى من المتفرقة لغرض تسفيرهم إلى معسكراتهم.. وبين هذا وذاك كان الوقت يمر ببطئ شديد على من بقي في قاعتي ذلك القفص، فعلى مدار ساعات الدوام الرسمي يجبر الأسرى على الجلوس كل بمكانه، وإذا أراد أحد منهم أن يكلم من حوله من إخوانه فإنه يحادثهم همسًا بغية عدم إعطاء الحجة للحراس الذين كانوا متحمسين بإهانتهم لنا على مدى فترة الدوام الرسمي.. وذلك هو سبب تواجد الحراس بشكل مكثف بداخل القاعتين، لأنهم كانوا يتلذذون بإهانة إخوتي الأسرى.

وللأمانة أذكر أن الفرس بذلك القفص لم يكونوا ينادوا أيًا منا بالعراقي أو الكردي أو العربي أو الشيعي أو السني، فلقد كانوا ينعتون الجميع بصفة واحدة هي بالصداميين، وهذه التسمية بتلك الصفة أجدها اليوم قد أصبحت شائعة للتداول بين عملائهم الأزليين من حزب الدعوة العميل وفيلق بدر الغادر في العراق، ويرددها طبعًا كل المغفلين من أتباعهم ضد أي عراقي مقاوم شريف يقاوم الاحتلالين الأمريكي والفارسي.

وقبيل انتهاء الدوام الرسمي، وبعد أن يعود أسرى الأشغال؛ يتم إحصاء كامل الأسرى للمرة الثانية، وبعدها توزع حصة الغذاء الوحيدة عليهم لكل أربعة وعشرين ساعة، والتي عادة ما تكون رغيف خبز واحد مع صحن من المرقة لكل أسير، وفي بعض المناسبات التي لم نكن نعلم ما هي أسبابها، كانت تضاف كمية من الأرز إلى حصة الأسير، وللأمانة أذكر أن ذلك الطعام عادة ما يضاف له كمية عالية من الملح بقصد خبيث، لكي لا يهنأ أحدنا به على الرغم من كميته القليلة التي لا تشبع حتى الطفل!

وتلك معاناة أخرى ممزوجة بالإهانة ونحن نقف بالطابور بانتظار حصولنا على لقمة الزقوم التي عادة ما يوزعها رئيس الحرس المدعو أيرج بنفسه، لأنه كان يتلذذ بإهانة الأسرى، وعلى سبيل المثال فإنه عندما كان يوزع مرقة الفاصولياء كان يتعمد إعطاء ماء المرقة لبعض الأسرى، ويعطي الفاصولياء لبعض الآخرين وعند اعتراض الأسرى على ذلك ومطالبته بأن يحرك (يخوط) ما في ذلك القدر الكبير من أجل الحصول على كامل نوع المرق، كان يقول مزمجرًا أن بإمكانكم أن تتبادلوا بينكم الفاصولياء بحساء المرقة، ولدى تذمر بعض أخواتكم الأسرى من ذلك التصرف السادي، ينهض إيرج من كرسيه ويركل القدر برجله فيسكب كامل ما تبقى في القدر من طعام على أرضية القفص، ثم يطالب الأسرى أن ينظفوا أرضية المكان بشكل عاجل، وهذا يعني أن الكثير من الأسرى سيحرموا من وجبة طعامهم الوحيدة، ولكن هذا لا يعني أنهم سيبقوا جياعًا حتى وقت توزيع الطعام في ظهيرة اليوم التالي، لأن باقي رفاقهم من الأسرى يجمعوا لهم من كل صحن تزود به باقي رفاقهم، القليل من الطعام بالشكل الذي يعوضهم على ما خسروه.

وبعد فترة توزيع الطعام الزقوم الذي عادة ما تكون متزامنة مع انتهاء الدوام الرسمي يُترك الأسرى وشأنهم لفترة بحدود الساعتين، وفي بعض الأحيان يؤتى في وقت العصر بجهاز تلفزيون صغير يبث سمومه باللغة العربية من محطة إيرانية، فيعرض بعضًا من أفكارهم الخرافية المعروفة عنهم، أو بعضًا من خطابات الخميني وهو يتوعد خاسئًا باحتلال العراق وتحرير كربلاء. وفي أحيان أخرى كانت تلك المحطة الإيرانية تبث التسجيلات التي يرسل فيها الأسرى العراقيون إلى أهاليهم في العراق التحية من خلال تلك المقابلات التلفزيونية وما يتاح لهم من ذكر أسمائهم ومدن سكنهم في العراق بغية متابعة ذويهم لهم وهم على ذلك الوضع المَهين، وهي فرصة ذهبية تتاح للأسير الذي لا يعلم ذويه في العراق شيئًا عنه، ليعلمهم أنه لا زال على قيد الحياة، ولا زلت أذكر مشاهدتي لإحدى تلك التسجيلات المميزة من التي أطلعت عليها كالآتي:

"ظهر لنا في تسجيل الفيديو ساحة كبيرة لأحد المعسكرات، كانت مزدحمة بإخواننا الأسرى بأحد أقفاص الأسر الثابتة يجلسون على الأرض ينصتون إلى أحد الملالي، وهو فارسي الأصل اسمه محمد باقر الطباطبائي الأصفهاني، ويعرف بهذه الأيام أنه (الحكيم) الأول وهو الذي قُتل شر قتلة في النجف بالعراق، وقد تصادف وجوده مع فترة عملية تصوير الأسرى بالفيديو للتعريف عن أسمائهم من خلال بثهم التلفزيزني الموجه، وزبانيته من فيلق بدر هم من كانوا يشرفوا على إدارة تلك اللقاءات التلفزيونية مع الأسرى العراقيين، بأسلوب خشن خالي من كل رحمة، دون أن نتبين وجوههم الخبيثة بالصورة على التلفاز، وعندها سأل أحد الخونة من أتباع ذلك المعمم الفارسي، واحدًا من الأسرى وهو من إخواننا المسيحيين بعد أن تعرف عليه من اسمه: لماذا أنت مسيحي؟ ولماذا لا تتبع دين الحق المتمثل بالجمهورية الإيرانية؟ فسكت المسكين وضاعت عليه فرصة إعلام أهله وذويه في العراق بوجوده حيًا يرزق

لأنه لم يتسن له ذكر باقي بياناته، وسؤال لعراقي آخر كان قد نوه إلى أنه من محافظة التأميم بكركوك وهكذا كان اسمها بتلك الفترة، فقاطعه ذلك الخائن البدري وكأنه يحاسبه قائلاً: هل تعرف ماذا يعني التأميم؟ فسكت صاحبنا وضاعت عليه فرصة إكمال سرده لبياناته الشخصية في ذلك البث الموجه للعراق.."."

وبعد أن انتهت تلك المقابلات التي كانت بطلب من منظمة الصليب الأحمر الدولية، والتي حرم منها الكثير من الأسرى الذي كانوا متواجدين هناك بسبب المشاكل التي أثارها أولئك المرتزقة البدريين، وبدأ ذلك المعمم المدعو محمد باقر الحكيم الذي نصَّبه الفرس لأن يكون رئيسًا لجمهورية العراق الإسلامية على حد قول ملالي طهران، بعد أن يتم لهم خاسئين ما أسموه بتحرير كربلاء ونجاح تصدير ثورتهم المزعومة، وللأسف نالوا مرادهم بهذه الأيام بعد أن توغلوا تحت عباءة المحتل الأمريكي، ليعيثوا بالعراق قتلاً وتدميرًا للنفوس وللممتلكات، وعندما أكمل ذلك المعمم ما بجعبته من كلام ترهات وقد أصبح بزمن الاحتلال الأمريكي للعراق أحد رموز السياسة.. كان يدعوا بها الأسرى للتوبة على أياديه الملطخة بدماء العراقيين، بغية تحويلهم بما كان يُدعى حينها بالتوابين، وعندها سأله أحد الأسرى أن يتوسط لهم لدى الإيرانيون بغرض أن يحسنوا من معاملتهم القاسية لهم، لكي يوفروا لهم أبسط المستلزمات الضرورية التي يحتاجوها كبشر؛ أجابهم رئيسهم الموعود بكل وقاحة وضمير ميت: إنكم مرتزقة ومرتدون عن الدين، ولستم بأسرى حرب، وهذا الذي لقيتموه من جنود الثورة الإسلامية هو أقل ما تستحقوه من معاملة، لأنكم قاتلتم أمكم الجمهورية الإسلامية وهذا هو جزائكم في الدنيا.. فسأله أحد الأسرى بجرأة: ومن هو الأسير الحقيقي الذي أوصى به القرآن الكريم يا مولانا؟ فقال ذلك المعمم الذي لا أجد له وصفًا يتناسب وخيانته لأسميه به: إن الأسير

الحقيقي الذي أمرنا الله بحسن معاملته هو من الأعداء الكفار وليس أنتم المرتدون عن الدين الإسلامي، فمثلاً عندما نذهب لنحرر القدس بعد أن نحرر كربلاء وحينها يقع بين أيدينا بعض الجنود من إسرائيل؛ عندها سنعاملهم بالحسنى كما أوصانا الإسلام بحقهم! لأنهم أسرى حقيقيون وليسوا مثلكم لأنكم مرتزقة ولستم أسرى..

تلك كانت اللقطة الأخيرة من ذلك التسجيل الذي بثته تلك المحطة الخبيثة.. ورجوعًا لاستعراض ما كنا نتحدث بصدده عن يومياتنا بذلك القفص.. فقد كان الأسرى العراقيون يعيشون بكل يوم نفس ذلك المنوال، حتى يأتي المساء وينادي الحراس بحلول وقت (الخاموش)، وهو وقت النوم الإجباري بتمام الساعة الثامنة مساءً، لنُصبح كالمعتاد بفجر كل يوم جديد على الضرب بالعصي.. والزمن كان يمضي من غير أن يعرف أحد منا التاريخ أو الأخبار لما يدور في العالم ونحن خلف تلك القضبان، إلا عندما يدخل علينا أسير عراقي جديد تمَّ أسره حديثًا ليخبرنا بأحوال العراق وأخبار المقاتلين على جبهات القتال، وكيفية سير المعارك..

هذا هو وصف الحياة اليومية التي كانت عليها الحياة بذلك القفص اللعين، وبقي أمر واحد كان يخصني حدث أثناء الصباح الأول من تواجدي بذلك القفص؛ وهو تواجد نائب ضابط إيراني يدعى حسين، والذي كان مسؤولاً عن الأقفاص الانفرادية للأسرى بالجانب الآخر من نفس المعسكر، وكان الأسرى يطلقوا عليه اسم السجن الكبير، وفي بعض الأحيان يأتي ذلك النائب الضابط بزيارة لهذا القفص عند الحاجة، وقد استدعاني للاستعلامات بداخل القفص من أجل معرفة حقيقة أمري وتدوين البيانات الخاصة بي، كأسمي وما شابه من معلومات، وبعدها أبلغني أنه قد صنفني ضمن مجموعة المتفرقة التي كانت

على الدوام بحالة الاستعداد من أجل التسفير إلى أقفاصها الثابتة، وهذا يعني أنني سأكون من غير المشمولين بجدول أعمال السخرة اليومية للأشغال بداخل ذلك المعسكر، الأمر الذي يعني أن تجهيزي بملابس الأسرى الخاصة أمر لم يكن يعنيه هو باعتباره أمر متروك إلى إدارة المعسكر الذي سيتم ترحيلي إليه.

وقبيل رحيله إلى مكتبه الآخر حيث الأقفاص الانفرادية للأسرى في الجانب الآخر من ذلك المعسكر، أمر أحد جنوده بحلق كامل شعر رأسي، وحسنًا فعل ذلك لأن القمل كان منتشرًا بشكل جنوني بداخل ذلك القفص، بسبب أن الاستحمام يكاد يكون معدومًا، على الرغم من أن الماء كان متوفرًا في الحمامات والمرافق الصحية داخل القفص، ولكن لا أحد كان يجازف بالاستحمام بتلك الأجواء، لأن الماء كان بارد جدًا بسبب تغير الطقس الذي أصبح بارد جدًا خارج القفص وذلك يعني الإصابة الحتمية بالمرض، بمثل تلك الظروف الصعبة التي يكون المرء فيها بأشد الحاجة لصحته وعافيته بغياب الدفئ والدواء والغذاء.

تعرفت من خلال علاقتي الجديدة مع إخوتي الأسرى بذلك القفص مع مرور الوقت على معظمهم، باستثناء أسيرًا واحدًا كان قد حذرني باقي الأسرى بعدم مخالطته ويدعى علي صبري، لأنه كان قد قتل غدرًا مجموعة من رفاقه الجنود في جبهة القتال ثم سلم نفسه طوعيًا للعدو الإيراني بغية الحصول على ضيافة إيران بموجب ما يسمى بالنداء الذي وجهه الخميني ذلك المعمم الفارسي عبر الأثير لمقاتلي جيشنا العراقي بهذا الخصوص، وهو يناشدهم بتسليم أنفسهم للجيش الإيراني ليصبحوا ضيوفًا على جمهوريته الإسلامية، وسأحكي حكايته التي أوردها هو بنفسه علنًا بحسب تسلسل الأحداث..

ومن خلال تعارفي مع الجميع اتضح لي أن الأسرى العراقيين هناك كانوا على ثلاثة أنواع: النوع الأول منهم هم الرافضين لتلك الغطرسة الفارسية وإن كانوا

خلف القضبان، من خلال تصديهم لكل أسير تسول له نفسه عندما ينجر لأن يخون بلده، من خلال تجاوبه مع مشروع غسيل الأدمغة الذي يمارسه الفرس عليهم، من خلال إذلالهم بالإهانة والتجويع، وبالتالي يحصل الخائن على صفة ما يدعى التواب من أجل مكاسب رخيصة تميزه بالمعاملة الخاصة عن باقي رفاقه الأسرى، وطبعًا من كان يستجيب لتلك الترهات هم ضعفاء النفوس فقط، وكانوا قلة جدًا قليلة.

وأولئك الأسرى الأبطال الذين أسميتهم بالرافضين المقاومين، وهم ليسوا بالضرورة سياسيون أو كانوا منتمين إلى حزب البعث مثلاً، أما البعثيون فقد كان لتنظيمهم الحزبي نشاطًا غير اعتيادي على الرغم من انكشاف تنظيماتهم التي كانوا يعيدون تشكيلها بين فترة وأخرى، وبالتالي يفرقهم الإيرانيين من خلال توزيعهم على أقفاص أخرى لمعسكرات بعيدة في محافظات أخرى، وهناك يبدأوا مرة أخرى بتأسيس تنظيم لخلايا حزبية جديدة، ثم يُكتشفوا ويحصل لهم نفس ما حصل لهم بالسابق، ومرة بعد أخرى ولمرات عديدة يبدأوا بنشاطهم الحزبي من جديد من غير كلل أو ملل على الرغم من الظرف القاسي الذي كانوا يعيشوه أيامها باعتبارهم المستهدفين بالدرجة الأولى من قبل الفرس.

والخلاصة فإن تلك الجموع العراقية من الأسرى المقاومين أو الرافضين ومنهم البعثيين؛ كانوا نسيجًا متنوعًا من الوطنيين أصحاب الغيرة والشرف من كل مكونات الشعب العراقي بكافة قومياته وأديانه. وكانوا من خلال تواجدهم الفعال إياه داخل كل أقفاص الأسرى العراقيين في إيران هم الأغلبية من ناحية العدد..

والنوع الثاني منهم وهم القلة القليلة من الأسرى أصحاب النفوس الضعيفة، وكانوا منبوذين من الجميع وإن كانوا يمارسوا خيانتهم سرًا، من خلال تعاونهم الخسيس مع إدارة القفص التي لا تحترمهم بدورها أيضًا، ولكنهم كانوا

مكشوفين من باقي رفاقهم. وأضرب مثالاً على واحد منهم كان قد تسلل خلسة عن باقي زملائه الأسرى إلى إدارة القفص الداخلية قبل حلول فترة النوم متصورًا أن عيون الأسرى كانت بعيدة عنه.. فأخذ يتودد للخفر المناوب من الحراس مدعيًا أنه من مناصري ولاية الفقيه، وأنه من أتباع آل بيت الرسول الكريم، وأنه من شيعة الإمام علي، ويا حبذا لو تمَّ تزويده برغيف خبز إضافي يكسر به جوعه بتلك الليلة، متوهمًا أن الفرس على نفس معتقده المذهبي أو هم مسلمين على نفس دينه!! فربت الحارس على كتفه وهو يلاطفه بعد استماعه له ومشى به حتى وصل به إلى بوابة الاستعلامات وهناك دفعه إلينا بعنف بعد أن ركله على مؤخرته قائلاً له بعصبية: مالي أنا وعَليكُم؟! أنا فارسي وعلي هذا هو عربي فما الذي يربطني به.. ثم أنهى كلامه القذر هذا بكلمة فارسية نابية ليصف بها ذلك الأسير الانتهازي وهي: كَسيف؟ وتعني قذر، فرجع ذلك الانتهازي الوضيع إلى مكانه خائبًا ذليلاً يجر أذيال دناءة نفسه التي تسببت بتعرضه للإهانة الشخصية له وللشخصية العراقية، وللسمعة المطهرة المتعالية لسيدي أسد المشارق والمغارب علي ابن أبي طالب عليه السلام ورضي الله عنه..

السلام عليك يا سيدي أبا الحسن والحسين.. عذرًا فلقد أصبح من يروج بحبه ومعزته لك كذبًا ونفاقًا هم من أراذل القوم، ويقينًا أنك تبرأ من هذه النماذج الخائنة النكرة بعد أن باعوا شرفهم الوطني بثمن بخس.. فهذا هو حال الفرس الحقيقي ومن يتبعهم من أراذل القوم منا كعراقيين، ولو كنت يا سيدي أسد المشارق والمغارب بزماننا هذا لكنت أول من قاتلهم، بعد أن شوهوا صورة دين الإسلام المحمدي السمح الذي حملت لواءه وأنت رجل السيف والقلم، والفارس البطل المغوار، والأديب الفصيح والإمام التقي، وهذه الصفات لا تتوفر بشخص واحد باستثنائك أنت يا سيدي أبا الحسنين. وبذلك الموقف تذكرت

حينها صحة المقولة الشعبية البغدادية وأنا انظر بمرارة إلى ذلك الأسير الانتهازي المغفل الخائن: خل روحك بعز دوم وبالك تذلها ولا تطلب الطيبات إلا من أهلها...

أما النوع الثالث منهم كانت هي الحالة الوسط ما بين الخشية وبين التصدي، وكانوا من النوع الذي يتحاشى أي نوع من الممارسات التي قد تعرضهم للمصادمة مع الفرس خشية الإهانة والتعذيب بالجلد في أكثر الأحيان، ومن ناحية أخرى فقد كانوا مقاومين للضغوطات التي تجعلهم مرغمين للسير في الدروب الآسنة للخيانة من خلال برنامج الفرس بغسيل أدمغتهم، وذلك من خلال اعتمادهم أسلوب معتدل بالحفاظ على ماء وجوههم من خلال التزامهم بالسكينة والهدوء بجميع تصرفاتهم، حتى يفرج الله عز وجل عنهم بمحنتهم تلك ويعودوا للوطن العزيز بعد انتهاء الحرب، وكانوا من الذين نستطيع أن نصفهم بالوطنيين الذين تهتف قلوبهم للعراق، ولكنهم لا يقووا على المواجهة والأغلال بأيديهم بعد أن سقطت منها بنادقهم جراء الأسر.. وقد اعتمدت أسلوبهم إياه حتى أرى ما سيكون من أمري بقادم الأيام وحتى إشعار آخر، وإن كنت ميالاً للانحياز إلى جانب المقاومين من إخوتي الأسرى؛ لأني كنت متعاطفًا معهم بدرجة كبيرة، امتثالاً لمقولتي الراسخة بوجداني: السعادة في النضال والتعاسة في الخنوع، ولكن الوقت لم يحن حينها لأكون أحدهم، لأني كنت أحلم وأعمل بطريقة تجعلني أتخلص نهائيًا من ذلك الكابوس لكي أعود لوطني، حتى لو تعاونت مع الشيطان في سبيل نيلي لحريتي التي ستجعلني قادرًا على تنفيذ ما وعدت به ربي وأشهدته عليه؛ بالعودة للوطن الغالي.

بتلك الفترة كانت علاقتي قد توطدت مع جميع إخوتي الأسرى الثابتين بذلك القفص من أصحاب الغيرة والشرف، ومنهم أخي العزيز الأسير حلمي الذي كان

يدير أمور واحتياجات أخواته الأسرى بصفته كمترجم، وبعد أن تعرفت عليه جيدًا وأمنت جانبه فاتحته بصراحة لأتعرف منه وهو من المطلعين على كل خفايا الأمور هناك، فسألته عن رأيه إن كنت سأسفر للأقفاص الثابتة؟ أم أن لا زال هنالك بصيص من الأمل لأنال حريتي من جديد؟ فأجابني:

– إن أمر نجاتك من ذلك الكابوس متوقف على مدى فطنتك وتصرفك الصحيح حياله، باعتبار أن حالتك حالة خاصة جدًا.

فسألته:

– كيف يتم لي ذلك وأنا الذي اجتهدت وتحملت وعانيت الكثير في سبيل ذلك كما أخبرتك، ولم أفلح حتى استقر بي المقام هنا..

فقال لي:

– من خلال ما أخبرتني به من تفاصيل ما مر بك؛ فإنني أعتقد أن الفرس قد يعرضوا عليك بقادم الأيام أمرًا سيكون على نفس الشاكلة التي طرحوها عليك في مريوان، بغية التحاقك بمجاميع حزب الدعوة وقوات بدر التي تقاتل العراق معهم ورفضتها أنت، وهذا ما جعلهم يرموا بك إلينا بهذا القفص، ولكنك بحسب اعتقادي بقيت بعيونهم مقاتل ضمن صفوف حليفهم مسعود البرزاني الذي له ثقله عندهم، وهي فرصة إن تكررت مرة أخرى فستكون ثمينة ويجب عليك أن تتهيأ نفسيًا لذلك، وتتخلى عن بعض من ثوابتك الوطنية مؤقتًا، وتتصرف بحنكة وبدون انفعالات، ولا أحتاج أن أذكرك أن الخدعة مشروعة بزمن الحرب خصوصًا أن الغاية نبيلة في نيتك بالرجوع مباشرة إلى العراق فور حصولك على حريتك، فدع الشفافية والصراحة والصدق جانبًا لأنك تتعامل مع الأعداء..

فقلت متعجبًا ومتشوقًا:

– كيف لي أن أنجو بهذا الأسلوب؟ وما هو الشيء الذي تعتقد أنه سيعرض عليَّ من قبل الفرس؟!

- من خلال ما ذكرته لي بخصوص تفاصيل التحقيقات التي دارت معك من قبل الاطلاعات أو الاستخبارات التي مررت بها قبل أن يحولك المحققون إلينا، فقد تبين لي من كلامك هذا أنهم لم يعذبوك جسديًا، وهذا يفسر أنهم قد تركوا فسحة من المجال كي لا تبغضهم أو تحقد عليهم إذا ما عذبوك بشكل قاسي، أسوة بالعراقيين الذين أسروا بجبهات القتال، ذلك لأنهم قد يستفيدوا منك لاحقًا بحسب اعتقادهم، وهذه هي رؤيتي لموضوعك، وأتمنى أن أكون مصيبًا بها لكي تنجو وتصل لبغداد وتنقل مشاهداتك لما اطلعت عليه لأحوال أخواتك الأسرى هنا، وفي حالة إرجاعك لجماعة مسعود البرزاني، ستكون طليقًا حينها، وكما تعلم أن الهروب أو التملص منهم ليس بالأمر العسير، ولكن تذكر أن الحكمة والحذر وسرعة البديهية ستكون مطلوبة بكل خطوة تخطوها والتوفيق من عند الله سبحانه...

عندها فهمت واستوعبت كل ما نصحني به ذلك الأخ العراقي الشهم بتفاصيلها العامة، وبعدها أخذت أحلم برجوعي للوطن الغالي، وهان علي حالي الذي كنت أعيشه لأن الأمل تجدد في نفسي.. ومن الأمور التي أُجبرت على أن أتبع ممارستها بالضرورة؛ هي أن الأسير عندما كان يتعرف على زميل آخر له فإنه كان يتحاشى أن يذكر له اسمه الصريح المدون بسجلات إدارة القفص، كأن يقول أنا أبا فلان، حتى لو كان أعزب، بسبب أن بعض الأسرى من ضعاف النفوس كانوا يستغلوا معرفتهم لأسماء الأسرى بغرض الوشاية الكاذبة عليهم من أجل الحصول على بعض المكاسب الرخيصة من الفرس، كحصولهم على رغيف إضافي من الخبز أو استثنائهم من برنامج الإهانة اليومي المتعمد ضد الجميع... في الوقت الذي لا يستطيع أحد منهم الوشاية بأبو فلان، لعدم وجود مثل هذا الاسم في سجلات الأسرى لدى إدارة القفص، والوشاية عادة ما تكون أن الأسير الفلاني قد ذكر الخميني بسوء أعماله، أو أنه تهجم على الجمهورية

الإسلامية، أو تفوه بكلام غير لائق على حراس الثورة الإسلامية أو على حزب الله الحاكم هناك، أو أن فلان كان قد امتدح الرئيس صدام حسين، أو أنه كان من أعضاء تنظيم حزب البعث قبل الأسر أو بعده، أو أنه كان يعمل بدائرة أمن وحدته العسكرية قبل الأسر، أو أنه قد استبسل في القتال أثناء المعارك السابقة ونال نوطًا للشجاعة، وعادة ما تكون تلك الوشايات الرخيصة تصب بالبلاء على الكثير من الأسرى، وأكثرها كانت كاذبة ولم تحدث أصلاً، والعقوبة كانت إما بجلدهم أمام زملائهم، أو تحويلهم إلى الزنازين الانفرادية لغرض التحقق من صحة الوشاية بما يرافقها من التعذيب أو العزل المنفرد لفترة طويلة من الزمن، بإشراف العملاء من فيلق بدر أو حزب الدعوة، الذين كانوا يتفننون بتعذيب الأسرى بتلك التحقيقات التي يكونوا فيها هم الجلاد وليس الجنود الإيرانيون لأنهم أشد خبثًا وعداءًا للعراقيين من الفرس أنفسهم.

ولا زلت أذكر حكاية أحد الضباط الأسرى، كان اسمه النقيب حسين هيلان، الذي سمعنا بموضوعه من أحد الأسرى الذي كان قد التقاه قبل فترة وجيزة، وبدوره حكى لنا أسباب تعذيبه، وملخصها أنه قد تمَّ استدعائه من أحد الأقفاص الثابتة لأحد المعسكرات، ليحل نزيلاً بإحدى تلك الزنازين الانفرادية التي هي بنفس معسكرنا الذي يقع فيه قفصنا هذا، وذلك لأن أحد الأسرى من عديمي الغيرة والشرف كان قد تعرف عليه أثناء عرض فيلم تلفزيوني بقفصه، استعرض بعض الأسرى الذين وقعوا للتو بالأسر، وكان النقيب حسين هيلان معهم بعد أن عمد على نزع رتبته العسكرية لكي لا يتعرف عليه الفرس، لأنه كان ضابط الاستخبارت بوحدته، وهو من أهالي محافظة تكريت، وكان الفرس من خلال تعذيبه يبغوا انتزاع المعلومات منه بالقوة بخصوص التشكيلات العسكرية عن الجيش العراقي..

وأشد ما تأثرت له حينها؛ تلك الوقائع التي نقلها لي أكثرهم بخصوص التنسيق المسبق مع إيران من قبل بعض الجنود أو ضباط العراق الشيعة، الذين كانوا من المنتمين لحزب الدعوة، ومندسين بصفوف القوات العراقية المسلحة، وأكثرهم كانوا من الضباط الذين كان بعضهم يشغل مناصب أمراء لوحدات مقاتلة، وقد عملوا على تسليم كامل وحداتهم بكامل سلاحها وألياتها وأفرادها للعدو الفارسي دون أن يسمحوا لمقاتليهم أن تثور طلقة واحدة من بنادقهم، بحجة أنهم محاصرون ولا فرصة للمواصلة بالقتال ولا مناص من التسليم!

وذلك ما حدث بمعارك المحمرة بصيف تلك السنة ذاتها التي أسر فيها عشرات الآلاف من مقاتلي الجيش العراقي، وقد استعرضتهم إيران بشوارع طهران بعد أن أخلوا على الفور من منطقة عربستان، وحينها تعرضوا للإهانة القاسية من قبل المتجمهرين من الفرس العنصريين، وبذات الوقت ذهب أولئك الضباط الخونة إلى أحضان الملالي الفارسية بعد الأسر، ولم يدخلوا لأقفاص الأسرى باعتبارهم قد قدموا ولائهم لما يسمى بالمَذهَب على ولائهم للوطن الغالي المُذَهب بالذهب الخالص والمكحل بتربته الزكية الطاهرة!

والغريب بذلك الأمر أن كل أولئك الضباط الخونة كانوا أعضاءً بصفوف حزب البعث العربي، الذي استنكر علي بعض من أعضائه بوحدتي العسكرية وطنيتي العراقية بسبب عدم انتمائي لصفوف حزبهم، الأمر الذي دعاني حينها أن أخطو أولى خطواتي برحلتي مع العذاب.. ومن أجل ألا تكتشف خيانة أولئك النفر القليل من الضباط الخونة لدى السلطات العراقية في بغداد؛ فلقد تمَّ تزويدهم باستمارة الرسائل التي كان الصليب الأحمر الدولي ينظمها لكتابة الرسائل لأهلهم وذويهم في العراق، على اعتبار أنهم بداخل أقفاص الأسرى في إيران، وأنهم يعانوا كبقية الأسرى ما يذيقه لهم الفرس من الذل والهوان، وهم بحقيقتهم

كانوا من المتسكعين بشوراع طهران، بضيافة العملاء من حزب الدعوة وفيلق بدر لحين تأهيلهم الخياني.

والتأهيل عادة ما يكون استمتاعهم بممارسة العهر اليومي وغيرها من المفاسد، وبذلك يكون أحدهم قد تأهل للمشاركة بطعن العراق بخاصرته من خلال وقوفه على الساتر الأمامي لجبهة القتال بطرفها الإيراني ليقاتل وطنه العراق.. وللعلم أن الغاية من تسجيل أسمائهم بسجلات الصليب الأحمر كانت من أجل إبعاد الشبهات عنهم في العراق، باعتبارهم لا زالوا من الموالين للوطن، وهم بحقيقة الأمر ليسوا أسرى ولا هم يحزنون، وبذلك يتقاضى أهلهم وذويهم كامل حقوقهم ورواتبهم الشهرية كأسرى حرب، ناهيك عن عدم تعرضهم للمحاسبة القانونية من قبل الحكومة العراقية آنذاك إذا ما تسرب خبر تلك الخيانات إليها، في الوقت الذي كان أبنائهم منغمسون بالخيانة لحد أذانهم من خلال القتال ضد العراق، وأستطيع أن أجزم أن ذويهم كانوا على علم بتلك الخيانة، لأنهم خرجوا من رحمهم الخبيث.. لقد تبين ذلك الموضوع بوضوح بعد أن عادت رسائلهم التي كتبوها وعلى ظهرها أجوبة أهاليهم في العراق، واطلع عليها باقي الأسرى الذين يعرفونهم بالاسم والرتبة العسكرية..

ولطريقة توزيع الرسائل القادمة من العراق حكاية مؤسفة أيضًا، فلقد أخبرني أحد الأسرى من معسكر برندك أن كيس بريد الرسائل القادم بأجوبة الأهل لا يفرز على عنوان كل أسير بمعسكره، لأنهم كانوا دائمي التنقل بين كل المعسكرات، وضمنها المعسكرات الخاصة بالضباط، ومنها معسكر قصر زندان، بعد أن تمَّ فرزهم عن باقي الأسرى من المراتب.

والرسائل التي تكتب للعراق يمر عليها زمن طويل حتى ترجع للأسير لكي يطلع على جواب أهله، الذي يتم تدوينه على الصفحة الثانية من الرسالة، وعندها

سيكون ذلك الأسير قد تنقل ما بين معسكر لآخر من تلك التي تتواجد فيها أقفاص الأسرى، وعليه فإن كيس الرسائل كان يدور على كل المعسكرات التي تتواجد بها أقفاص الأسرى الواحد تلو الآخر، وذلك بأن يرمى كيس الرسائل إلى الأسرى في إحدى الأقفاص لانتقاء ما يريدون أخذه منه بعد أن يتعرف أصحاب تلك الرسائل على أجوبة أهاليهم، وما يتبقى من تلك الرسائل يحول إلى قفص آخر وآخر، وهكذا حتى توزع كامل الأجوبة العائدة لكل من كان له نصيب بكتابة رسالة من ذويهم بالعراق، علمًا أن ليس كل الأسرى كان يسمح لهم بكتابة الرسائل، لأن ذلك عائد إلى أن المعسكر الذي يتواجد به الأسير هل هو مسجل لدى منظمة الصليب الأحمر أم لا؟ فإذا كان من غير المسجلين فذلك يعني أنهم من المنسيين ولا حق لهم بكتابة رسالة أو بمتابعة الصليب الأحمر لأحوالهم وشكاويهم..

لقد كان شعوري كعراقي بالغ بالخجل وأنا أطلع على تلك الوقائع المخزية التي لم يتسنَ لأحد معرفتها حينها، إلا لمن يقع بقبضة الأسر وينالـه القسط الأوفر من تلك المأسي، أو من يستطيع الهرب من الأسر بعد أن دخل تلك المعسكرات اللعينة عائدًا لوطنه، وذلك أمر مستحيل إلا إذا قدر الله له.. لأني كنت قد وضعت نفسي في بداية الرحلة على نفس طريق أولئك الضباط الخونة من غير أن أتبين حقيقة الجهة التي انضممت لها بسبب جهلي ولكن بمعطيات أخرى، مع فارق أني لم أكن أعلم إلى أين سيؤدي بي طريقي الذي مشيت فيه بشكل أعمى قبل أن أسلكه، ومن غير أن أمني نفسي بالحصول على أية منافع شخصية، لأن كل همي كان مد يد المساعدة برفع الظلم عن كاهل أهلي الكورد، بالتالي لا يمكن المقارنة بيني وبين هؤلاء الخونة الذين وجدتهم بطهران وهم في طريقهم الخياني الذي سلكوه بعد أن خططوا له بدراية تامة ونوايا شيطانية، بغية الانحياز لجانب عدو العراق المتغطرس ضد الوطن الذي هو ملكنا جميعًا

وليس ملكًا مجيرًا لأي نظام حكم، بضمنهم نظام الحكم القائم آنذاك وهو الذي كان يقود القوات المسلحة العراقية بكل اقتدار بإدارة حرب دفاعية ضد عدو متغطرس ولعين..

وبمقارنة تلك الأحداث التي عايشتها بأقفاص الأسرى العراقيين بإيران، وبين ما كنت وإياهم عليه داخل الوطن الغالي؛ فإني لمست فرقًا واضحًا بالعلاقات الفردية أثناء إدارة الحديث بين الأسرى أثناء مناقشاتهم لأمور عديدة لا حصر لها، من ناحية اهتزاز الشخصية لدى البعض القليل منهم والانزلاق لدى فئة ضالة أخرى منهم بدروب الخيانة بسبب ضعف الشخصية والتربية الوطنية وعدم إمكانية تحملهم للمزيد من تلك الضغوطات التعسفية المقصودة بحقهم من قبل أعدائهم الفرس، حتى رمى الضعفاء منهم بأنفسهم للهاوية من خلال استجابتهم لمشروع الخيانة والغدر الفارسي وإن كانوا قلة قليلة، ومثلهم طبعًا موجود بكل جيوش العالم، ولكنها حالة كانت بنظري تعتبر خسارة معنوية كبيرة لأنها لم تكن تليق بالشخصية العراقية، ولا توازي أيضًا حجم التحدي الذي كان عليه الشعب العراقي وقواته المسلحة بالتصدي لتلك الهجمة الفارسية على العراق، ويبدو أن الرجال لا تظهر معادنهم إلا بأوقات الشدة، عندما توضع على المحك، فيظهر معدن كل منهم على حقيقته بشكل واضح وجلي، وهذا ما شاهدته واطلعت عليه حينها بإيران بتلك الفترة..

ونفس الشيء يتكرر اليوم والعراق يرزح تحت الاحتلالين، الأمريكي الغاشم والفارسي الخبيث، ويبقى الرجل الحقيقي ذلك المعدن الصافي الذي كلما وضع على المحك ازداد بريقه الذهبي إشراقًا ونقاءًا وعطاءًا، والحمد لله الذي مكننا لنكون منهم سابقًا وحاليًا، فعندما كنا في العراق كانت الأحاديث ودية بين الجميع ولا تتخللها الخلافات الحادة، أما هنا عندما كنا بين أيادي الفرس بتلك المحنة الصعبة وذلك الامتحان العسير؛ فالأقنعة المصطنعة كلها زالت وسقطت

عن وجوه الجميع لأنه لم يعد لزوم لوجودها، والحوارات أصبحت تأخذ طابع المواجهة المباشرة سواء بالسلب أو بالإيجاب من غير مراعاة لأدب الحوار الذي يعتمده كل عراقي شريف، فأحوال الكل قد أصبحت سواء ولم يعد هناك أحد أفضل من الآخر، ولا أحد يحتاج لأحد، ولا أحد قادر على مد يد العون لمساعدة أحد، لأن الكل كان مفلسًا بتلك القافلة من المغلوبين على أمرهم وهم تحت الحراب الفارسية باستثناء أغنياء النفس، بل لا أحد يستطيع أن يمسك بزمام أمره على الأقل.

وبسبب زوال تلك الأقنعة البشرية الكاذبة والمنافقة لمن كان يستخدمها داخل الوطن حصلت هناك مكاشفة ومحاسبة بشكل علني وصوت مسموع بين قلة من الأسرى وضمائرهم التي كانت تعذبهم، فمثلاً عندما كنت أتحدث بحوار معين مع أحد ما، فإني كنت أتعجب عندما أسمع منه، ومن غير مناسبة وهو يستعرض لي ماضيه وأخطاءه وهفواته وتجنيه على أهله أو جيرانه أو أحبته أو زملائه أثناء حياته السابقة، لأنه يعتقد أن ما هو عليه اليوم من حال بائس وهو تحت رحمة من لا رحمة بقلوبهم، كان بسبب الظلم الذي أوقعه بمن كانوا حوله في العراق، وكأنه كان بتلك الاعترافات يريد التكفير عن ذنوبه بحق كل الذين قد تسبب بالإساءة إليهم، اعتقادًا منه أن الوضع السيء الذي كان يعيش مآسيه عشرات المرات باليوم الواحد جاء نتيجة غضب من الله عليه، بعد أن طغى وتمرد عندما كان يعيش ميسور الحال بأمواله أو بجاهه أو بمنصبه الوظيفي أو بقوته أو بمقدرته على إهمال إن لم نقل إيذاء الآخرين.

والناس كما هو معلوم مستودع للأسرار، وهم ليسوا بالضرورة ملائكة، فكلنا خطائون وخيرنا هو من يتعظ من تجاربه، ويعمل على تطوير ذاته وترويض نفسه الأمارة بالسوء لتصحيح تلك الهفوات أو الأخطاء.. وإذا ظن أحد أن أولئك الرجال كانوا سيئون بماضي حياتهم، فليسأل نفسه بصدق وليراجعها

على نفس طريقتهم وليحكي ويكاشف الآخرين بماضيه إن كان هو من المنزهين عن الخطأ كما يعتقد..

وأنا أيضًا بدوري كنت قد تساءلت عن سبب تواجدي بذلك المكان القاسي من خلال مراجعة وحوار صريح مع ضميري بالرغم من أنني لم أتسبب بإيذاء أحد بسابق حياتي، وسألت ربي إن كان ما كنت فيه من سقم هو غضب منه علي، أو عقوبة ربانية كما كان شائع عند بعض الأسرى من الذين أشرت لهم بأعلاه، أم أنها مجرد أحداث عابرة يتعرض لها كل الناس؟ أم هو بسبب حالة استثنائية لا تشبه هذه أو تلك؟ نعم تجرأت لأسأل ربي على طريقة سؤال النبي موسى لربه حتى أجابه ربه تأدب يا موسى، وأتمنى أن ربي قد غفر لي ذلك التساؤل وهو الغفور الرحيم، والسؤال كان يتلخص أنه إذا كان كل ما حل بي هو سخط منه وأنا أحد عباده، وهي إرادة ربانية بحقي؟ فإن كانت كذلك؟ فهل هو قادر أن يعيدني لنفس نقطة البدء التي شرعت بها بهذه الرحلة التي أصابني من خلالها شديد العذاب، لأرجع لنفس ما كنت عليه من معيشة مستقرة في العراق، بشرط أن تكون على نفس التسلسل الذي بدأ من بغداد وانتهى بي في مقبرة الأحياء بأقفاص الأسرى بإيران، أو على أقل تقدير يتسبب بنيلي لحريتي من جديد بطريقة مشرفة؟.

وعندها نذرت وعاهدت ربي إن تحقق لي ذلك التمني الذي أشبه ما يكون بأحلام العصافير كما يقال، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة والقادر على كل شيء، وهو أمر كان بالحسابات الدنيوية أمرًا لا يمكن تحقيقه، إن لم أقل إنه كان من سابع المستحيلات، إذا ما استبعدنا رحمته وغفرانه وهو أرحم الراحمين، وعليه فإني نذرت أن أرجع للعراق غير آبه بما قد ينتظرني هناك من عذاب، لأن الرجوع بحد ذاته هو نصر مبين، وما عدا ذلك فهو أمر ليس له أهمية، حتى وإن فقدت رقبتي هناك لأني سأكسب حتمية دفن جثتي بتراب بلدي

الطاهر، وهذه وحدها كانت أمنية مستحيلة الحصول لكل أسير عراقي بإيران، لأن الأمل للعيش مرة أخرى في ربوع الوطن أصبح ضربًا من الخيال بتلك المرحلة بالذات..

لقد كنت أتمنى طوال تلك الفترة التي قضيتها في سجون إيران، لو أن مكروهًا قد حدث لي وتوفيت بسببه فأمنيتي كانت هي أن ترمى جثتي على حدود العراق، وهي أمنية مستحيلة طبعًا بتلك الظروف التي مررت بها في الأسر بالأقفاص مع إخوتي الأسرى الذين كان العديد منهم يتوفى بين الحين والآخر، بسبب المرض أو القتل المتعمد من قبل الحراس أثناء الحياة اليومية، أو من خلال التعذيب بالأقفاص الانفرادية أثناء التحقيق ببداية الأسر، أو بسبب الوشاية من أحد الخونة بعد الأسر..

والحقيقة أن تلك الأمور والأحوال التي اطلعت عليها عن كثب بذلك القفص اللعين؛ كانت بالغة في القسوة على نفسي، لأني إنسان شفاف بطبعي، ولم يكن لي اطلاع على تلك الأهوال التي عايشتها هناك، وإن كانت قد أصبحت دروسًا لي لأني استفدت منها بنهج حياتي اللاحقة، بعد أن أخذت العبرة منها، وعلى رأس تلك العبر هو يقيني الراسخ أن كل مباهج الحياة تافهة لأنها لا تدوم لأحد، وبالتالي أصبح الحلم الوحيد لي هو كيف أترك بصمة خير بهذه الدنيا، والوصفة السحرية لذلك هو المراجعة اليومية مع الضمير وهو الرقيب على كل أعمالنا الدنيوية لنسأل ضمائرنا بصدق وشفافية إن كانت راضية عنا أم لا، فالضمير لا ينافق، وبذلك يستطيع أحدنا أن يعرف إن كان ظالمًا أم عادلاً بنهج حياته، وبذلك فإن السبيل الوحيد لمعرفة إن كانت أعمالنا تصب بمجرى الظالمين أو العادلين هو من خلال مراجعة الضمير، وسؤاله عن ذلك من خلال مكاشفة صادقة، فإن وجدنا ضمائرنا مرتاحة لأي قرار يصدر منا؛ فذلك يعني أننا على الطريق الصواب، وإذا وجدنا ضميرنا يؤنبنا فذلك يؤشر أننا على الطريق الخطأ بالقرار أو بالتصرف.

ومرت الأيام، وكنا كالمعتاد بصباح كل يوم بعد التعداد اليومي لنا وقراءة أسماء بعض الأسرى الذين سيذهبوا للأشغال بغرض الاستفادة من خدماتهم كعمال تنظيف.... إلخ، يتم بعدها قراءة بعض أسماء الأسرى من غير المثبتين لكي يسفروا لمعسكرات أسرهم، وفي صباح إحدى تلك الأيام السوداء تمَّ قراءة اسمي معهم، فخرجوا هم من غير أن أكون معهم لأن أحد الحراس أخذني لغرفة إدارة القفص لأن هناك محقق يريد مواجهتي! استغربت جدًا لذلك الموضوع لأني كنت متهيئًا للانتقال إلى إحدى الأقفاص الدائمة في حالة مناداتي كما كان متبعًا مع كل الأسرى، من غير أولئك الأسرى المثبتين بداخل قفص التسفيرات هذا، وكانت هي المرة الثانية لي أن أدخل إلى غرفة الإدارة، وإن كانت هي داخل القفص لأنها تقع في الممر الذي يربط ما بين القاعتين، وكنت قد دخلتها في اليوم الأول لي عندما استدعاني نائب الضابط حسين بغرض تزويده ببعض بياناتي، وعند أول لقائي بذلك الشخص بادر هو بالتحدث معي باللغة الكوردية وباللهجة السورانية التي كنت أفهمها إلى حد ما، من غير أن أتمكن لغويًا بالتحدث بها على الشكل المطلوب كما أنا الآن لأنني بغدادي الولادة والسكن.

كان ذلك الشخص هادئ غير عدائي، يرتدي الملابس المدنية، ولم يتبين لي ببداية حديثه معي إن كان كورديًا إيرانيًا أم أنه كورديًا عراقيًا؟ حتى توضح لي بعد قليل أنه من كورد إيران لأنه لم يستخدم بلغته الكوردية بعض المفردات العربية التي يدخلها كورد العراق بلغتهم الكوردية، المهم إني تأكدت أن ذلك الشخص ليس فارسي، وتلك من محاسن الصدف أو محاسن القدر لأن الفارسي معروف ببغضه الذي لا يخفيه لكل عراقي، أيًا كان ذلك العراقي عربيًا أم كورديًا أم مسيحيًا أم مسلمًا شيعيًا أو سنيًا، لأنهم قوم مهووسين بفارسيتهم اللعينة بشكل عنصري مقيت..

وعندها قال لي ذلك الشخص إنه جاء من أجل معرفة بعض بياناتي: كالاسم الثلاثي واللقب وعنوان مسكني في العراق وعنوان وظيفتي السابقة وكذلك أسماء كافة أفراد عائلتي، فأخبرته بما طلبه مني بكل صدق، دون أن أزوده بمعلومات خاطئة، ولأني وجدت أسلوبه لطيفًا معي ولو بالظاهر فقد سألته عن سبب سؤاله عن كل تلك البيانات العائلية ونحن في إيران وليس بالعراق؟ فلم يتردد عن إخباري أن تلك المعلومات الشخصية ستذهب إلى أصدقائهم من عملائهم المناضلين في بغداد من حزب الدعوة، الذين سيتحرون عني بطريقتهم الخاصة، ليعرفوا إن كانت معلوماتي التي زودته بها صحيحة أم كاذبة، وهل أنا فعلاً عسكري برتبة بسيطة في القوة الجوية؟ أم أنني كنت ضابط استخبارات كما اتهموني؟ ثم انتقل بعدها ليسألني عن ظروف اعتقالي بقضاء مريوان الإيراني الحدودي؟ فأخبرته بانتسابي إلى حزب مسعود البرزاني وأسباب المشكلة التي حصلت معي هناك وأدت لاعتقالي، ولكن دون أن أشير إلى ما تفوهت به من كلام تحديت به ذلك الفارسي اللعين الپاسدار صادق أثناء تلك المحادثة السقيمة التي دارت بيني وبينه قبيل تلفيقه تلك التهمة الكيدية لي بالتجسس.

سألني بعدها عن التشكيل القتالي الذي كنت منخرطًا به في كردستان العراق، فزودته بالمعلومات التي تثبت أنني كنت بالفعل معهم قبيل إرسالهم لي لإيران بسبب نقلهم المزعوم لي إلى المكتب السياسي لحزبهم بمقره الرئيسي الذي يسمى باللغة الكوردية: السركردايتي، وهو الذي لم أكن على علم أنه في إيران، فسألني عن نوع السلاح الذي كنت أحمله هناك؟ فلم أحرج وأجبته على الفور إنها كانت بندقية كلاشنكوف روسية الصنع، فسألني عن رقمها، تعجبت من السؤال وقلت له إنني لم أتفحص رقم البندقية، لأنه لم يكن أمر مهم بالنسبة لي ولباقي رفاقي من الپيشمرگة، وعندها سألته ممازحًا: وما سبب ذلك

السؤال؟ فقال لي وهو متبسم من غير أن يتشنج: ذلك لأن كل أسلحة جماعة حزب مسعود البرزاني مصدرها من إيران وهي معروفة لدينا من خلال تسلسل أرقامها، ثم رجع بي ليسألني عن بيانات أخرى من نوع آخر غير تلك التي سألني إياها في بداية جلستنا، فسألني نفس ذلك السؤال الذي سألني إياه ذلك الپاسدار اللعين صادق وتشنجت بسببه في مريوان: هل أنت سني أم مسلم؟ فأجبته بهدوء تام بهذه المرة وكأنني قد سمعت مثل ذلك السؤال لأول مرة طالبًا منه المعذرة عن عدم الإجابة عليه بسبب جهلي بأمور الدين من ناحية، وبسبب أن الكورد قوميون أكثر مما هم متدينون، وكان تهربي من الإجابة خشية من وقوعي بفخ جديد، وبعد أن انطلت عليه حيلتي والحرب خدعة ومن يجيدها ينجوا، على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، الذي هو باعتقادي مبدأ مرفوض بالمجالات الأخرى بالحياة باستثناء الحالة مثل التي كنت فيها، لأن الطرف الآخر عدو لدود، وأنا لم تغرني ابتسامة ذلك الرجل الذي بدت عليه علامات الوداعة ولو ظاهريًا، لأني تعلمت حتى تلك الساعة الكثير أثناء تلك الفترة التي قضيتها في سجونهم وزنازينهم، وكنت قد حفظت الدرس جيدًا وجعلت النصائح القيمة التي قالها لي أخي الأسير حلمي أمام ناظري. فقال:

– سأسجل إنك سني لأن كورد العراق كلهم من أتباع أبي بكر وعمر.. إلخ من كل الذين مشوا على طريقهم ولم يرتضوا الإسلام الحقيقي المتمثل بأتباع آل بيت النبي الكريم (ص وآله)...

فقلت له متبسمًا وبهدوء تام:

– لك ذلك، واكتب ما تشاء عني بهذا الموضوع لأنه أمر لا يعنيني.

فقال وكأنه قد اقتنع بكلامي لينتقل لسؤال آخر:

– حسنًا أريد أن أعرف منك السبب الذي دعاك لأن تأتي إلى طهران؟

قلت له من غير أن أستهجن سؤاله، الذي جعله يبدو إما أن يكون مغفل أو حشاش، وهو لم يكن كذلك حتمًا لأنه يعرف كل شيء عني وعن أسباب تواجدي بإيران وكيفية تسفري لطهران فقلت:

– لقد جئت إلى طهران بغير رغبة أو إرادة مني لأني كنت تحت القيد ومخفورًا من قبل الجنود الذين اقتادوني من سجني بمحافظة سنندج، كما وضحت لك بالتفصيل عندما سألتني عن ظروف اعتقالي.

فقال بهدوء والبسمة الصفراء كانت تعلو شفتيه، وحقيقة أنا بتلك الفترة احترت لمعنى أو تفسير تلك الابتسامات الخبيثة التي تكررت معي من قبل كل المحققين الذين وعدوني خيرًا ثم أرسلوني بعدها إلى محطات أخرى كانت أكثر سوءًا وإذلالاً، وبالمناسبة فأنا الآن أعرف معنى تلك الابتسامات الصفراء للفرس لأني أجدها على شفاه كل العمائم الشيطانية من الفرس وأعوانهم من المتفرسين بعد احتلال العراق، فمثلاً عندما يقع أحدهم بالإحراج نتيجة سؤال يوجه له من قبل صحفي ولا يستطيع الإجابة عليه فحينها يراوغ بتلك الابتسامة الصفراء لكي لا يبدو عليه أنه قد وقع بالحرج وليس لديه إجابة، وكذلك نفس الشيء بالنسبة لكل المحققين الذين قابلتهم بإيران، فقلوبهم مليئة بالغل والحقد والكراهية ولكنهم يراوغوا بتلك الابتسامات التي يغشوا بها من لا يعرف تلك الطبيعة الخبيثة الكامنة بنفوسهم الحقيرة.. فقال:

– حسنًا ما هو اسم أولئك الجنود الذين اقتادوك إلى هنا في طهران وأنت مكبل بالقيود كما تقول؟

قلت ببالغ الهدوء بعد أن تأكد لي أن الغاية من تلك الأسئلة السخيفة هو إثارتي لأتعصب وأخرج عن تعقلي بأجوبتي له:

- الحقيقة أنا لم يحصل لي الشرف بالتعرف على أسمائهم ومعرفتها بالنسبة لك هو أمر بسيط، إذا ما رجعت لسجلات الاستعلامات الرئيسية لهذا المعسكر بتلك الفترة التي استلموني بها من أولئك الجنود قبل حوالي شهرين من الآن.

ففاجأني باقتراح حسبته حينها إنه من بشائر النصر بعونه تعالى وكان كذلك حتمًا.. عندما قال لي:

- إذا كنت تريد أن تنال حريتك من جديد فإنني أقترح عليك أن تكتب عريضة تعنونها إلى مكتب الإمام الخميني، وتشرح فيها بشكل مختصر جدًا ملابسات اعتقالك على شكل استرحام تطلبه من أجل إطلاق سراحك، لتعود لرفاقك ضمن تشكيلات مسعود البرزاني لتقاتل القوات الصدامية من جديد، ولا مانع من كتابتها باللغة العربية.. فهتف قلبي فرحًا وسرورًا وقلت في سري: مرحى يا عراق.. ثم قلت له من غير تردد:

- أعطني ورقة وقلمًا من فضلك لأكتبها..

وقلت بداخلي وربي يسمعني حينها وحاليًا: معذرة منك يا ضميري المعذب فالحرب خدعة، وإني لست مباليًا بالتفاصيل التي ستمكنني من تحقيق ذلك لكي أعود لوطني وأتخلص من ذلك الكابوس اللعين، وكان قسمًا مني وعهدًا علي لن أنكثه إذا ما نلت حريتي فعلاً، وهو عهد وميثاق شرف تقدمت به لرب العرش العظيم، ولست بمبالي من أجل تنفيذه حتى لو أدفع حياتي ثمنًا بخس في سبيل تحقيقه، حتى لو قطعوني إربًا إربًا عند وصولي لبغداد كما كان يشيع الخونة من خلال الدعايات التي يطلقونها على أن كل من ينوي الإقدام لنفس هذه الخطوة بالرجوع للعراق؛ يجب أن يضع بحساباته أنه سيعرض حياته للخطر الذي سينتظره في بغداد من قبل النظام الحاكم في العراق... لكني لم أعد مباليًا بما سيترتب على ما سيحدث لي في العراق بعد أن أصبحت أحمل أمانة

يجب أن أوصلها، بخصوص أحوال إخوتي الأسرى الذين لم يكن أحد في العراق يعرف عنهم أي شيء بالشكل الذي أطلعت أنا عليه، إضافة لمشاهداتي الأخرى في العمق الإيراني من التي مررت بها أثناء رحلتي هذه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالعراق بيتي والعراقيون كلهم أهلي ومنهم أبناء شعبي الكوردي.

لذلك أخذت من المحقق ورقة وقلمًا وكتبت الآتي:

(إني المستضعف فلان الفلانت كنت قد جئت للجمهورية الإسلامية بالمهمة الفلانية، وحدثت معي المشكلة الفلانية، وأرجو إطلاق سراحي لكي أعود لمهمتي النضالية مع مجموعتي ضمن تشكيلات حليفكم مسعود البرزاني ودمتم للإسلام"..

لقد كتبت تلك العريضة لأني بعد أن فكرت سريعًا بالأمر لم أجد أمامي خيارًا آخر غير القبول الذي لن أضر به أحد من أبناء وطني، أو سأخسر فيه شيء أكثر من خسارتي لحريتي، وأنا تحت الحراب الفارسية والقهر اليومي الذي كنت أمر به يطحن بقلبي، والرفض طبعًا ستترتب عليه تبعات وأمور مجهولة النهايات.

وفي حقيقة الأمر إنني بإقدامي على ذلك التوجه؛ كانت نقطة تحول جوهري بمساري على الطريق الصحيح، وصولاً للحرية، بعد أن تعلمت الدرس وحفظته بشكل جيد، فالشفافية والصدق هي عنواني الدائم بكل حياتي السابقة واللاحقة، التي كنت ولا زلت أردد فيها مقولة إن النجاة في الصدق، وهي لا تنفع مع الأعداء، لأنني بذلك الموقف كنت بحالة استثنائية، لا تحدث مع أي من إخوتي الأسرى بنية الرجوع للوطن، باستثناء أولئك الخونة من القلة القليلة من الأسرى الذين باعوا شرفهم وانضموا للعدو الفارسي اللعين بصفة التوابين، ألا تبًا لهم وللحليب المسموم الذي رضعوه من ثدي أمهاتهم..

بعد أن أتممت كتابة العريضة وختمتها بتوقيعي أعطيتها لذلك المحقق الذي استلمها مني وانصرف، دون أن يتعهد لي بأي وعود زائفة بإطلاق سراحي كما كان يحصل معي بكل مرة، عندما ينتهي التحقيق معي من قبل كل المحققين الذين سبقوه... فاستبشرت خيرًا من ذلك التصرف، وأنبت أمري لخالقي مؤكدًا على عهدي الذي قطعته على نفسي بأنني لن أنقضه مهما كانت الظروف والمغريات، ومنها تقديمي اللجوء بغرض السفر لأوربا كما حصل مع الكثيرين من العراقيين أمثال صاحبنا سعيد، الذي التقيته بزنزانة مريوان وكان يروم بالهجرة للسويد.

ومرت علي أيام أخرى من القهر والإهانة والاستعباد والإذلال الفارسي اللعين، وأنا بين إخوتي الأسرى، وكنت قد نسيت ما كان من أمر تلك العريضة التي سلمتها لذلك المحقق، باعتبارها مهزلة أخرى من مهازلهم، والفرس كما وصفتهم سابقًا هم عباقرة بالدجل والكذب والتضليل، وكانت أيامًا صعبة وثقيلة لأن الوقت فيها كان يمر ببطء شديد، وكأنه كان كسيحًا يزحف على ركبتيه، وفي كل يوم كان يمر علي هناك؛ كنت أكتشف شيئًا آخر لم أمر بمثله بسابق حياتي.

وفي إحدى الأيام كانت مجموعة من الأسرى المرضى بنفس قفصنا قد ذهبوا إلى المستوصف الطبي الخاص بالأسرى بنفس معسكرنا؛ لغرض تلقي العلاج بسبب تعرضهم لنزلة برد حادة وكنت أحدهم، فخرجنا من القفص بمصاحبة مفرزة من الحراس لنا وتوجهنا إلى المستوصف الذي كان يبعد مسافة قصيرة، لأنه قبالة القفص، وهناك لكم أن تتصوروا كيف تمَّت معالجتنا؟ لقد عاملونا وكأننا حيوانات قذرة من خلال أسلوبهم الذي لم يخلُ من الاستهزاء بنا، ناهيكم عن التعالي وكأننا كنا نستجدي الحياة منهم، فالطبيب الإيراني الشاب كان يأمرنا بالوقوف بعيدًا جدًا عنه بحدود خمسة أمتار على الأقل عند سماعه إيانا

بما كنا نشتكي من ألم جسدي، بسبب تردي صحتنا، ولا زلت أذكر كيف أن إحدى الممرضات كانت قد عبرت عن اشمئزازها الشديد مني وهي تزودني ببعض حبات الدواء التي كانت هي علاجي، ولا زلت أذكر ملامح وجهها لأنها كانت تشبه الرجال من خلال حلقها لذقنها وهي حالة نادرة بين النساء بكل مكان، وكان بمعيتها ابنها الصبي الذي لم يكن قد تجاوز سن الثامنة من عمره، وهو يلعب بأرجاء ذلك المكان، فنظرت إليه بعطف وتذكرت طفولتي وكيف كنت بين أحضان أهلي أنعم ببراءتي وأنا نظيف الهندام والملبس مثله، وليس على الشاكلة البشعة والقذرة التي كنت عليها، وكأنني قد أصبحت بشكلي وأنا بالزي الكردي والذقن الطويل أقرب إلى سكان الكهوف، في الوقت الذي كانت والدته تنظر لي بقرف واشمئزاز، ولو كنت أجيد اللغة الفارسية مثلها لكنت قد قلت لها: أنا والله كنت على نفس شاكلة ابنك هذا، نظيفًا ومعتبرًا عند أهلي، ولكن ماذا أقول للزمن الذي جعلني هكذا وأنا بين أياديكم القذرة وأنتم تذيقونا مُرَّ العذاب؟! ... وصدق سيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورضي الله عنه عندما قال: الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإن كان عليك فاصبر، وإن كان لك فلا تبطر، فكلاهما سينحر، والله يشهد فلقد كنا من الصابرين حتى يومنا هذا، الأمر الذي وصل بي ببعض المواقف التي عشتها بحياتي وخصوصًا عندما توفي ابني البكر نوروز الذي فارقنا ضمن قافلة المليون شهيد من أطفال وشيوخ العراق، نتيجة مرض عضال وهو ابن الثالثة عشر عامًا خلال أيام الحصار الجائر بعام ٢٠٠٠، قلت يومها بحرقة قلب: اللهم لا تجعلني ظالمًا ولا مظلومًا، لأني قبل ذلك التاريخ كنت دائم الترديد لدعاء: اللهم اجعلني مظلومًا ولا ظالمًا، لأني تعبت من الظلم حتى ولو كان على المستوى العائلي أو المهني أو الحياتي، فأنا لم أعد أطيق الظلم وأتحمل تبعاته القاسية بكافة أشكاله التعسفية...

عند خروجنا من ذلك المشفى البائس صادفنا فريق طبي من فريق الصليب الأحمر وهم بجولة تفقدية لذلك المشفى، الذي كان يضم الكثير من الأسرى المعوقين، وبعضهم قد عوق عمدًا من قبل الفرس، فاستوقفهم أحدنا وكان مدرسًا للغة الإنكليزية في العراق واسمه علي، وكانت لي معه علاقة ودية في الأسر، وعندها أخبر ذلك الفريق التفتيشي للصليب بلغته الإنكليزية السليمة عن عدم زيارة أي من فرق الصليب الأحمر لقفصنا على مدى العامين المنصرمين ومنذ بداية الحرب، فاهتم مفتشي الصليب بذلك الخبر لأنهم فعلاً لم يكونوا على علم بوجود ذلك القفص بلوائحهم، فأشار لهم الأسير علي بيده لمكان القفص، لقربه منا ثم رجعنا بعدها لندخل إلى القفص من جديد، وبعد حوالي الساعة كان فريق الصليب بباب القفص يبغي الدخول بغرض التفتيش، وعندها لم يأذن لهم الحراس بالدخول لعدم صدور الأوامر لهم من مراجعهم العسكرية بذلك، وتوعد أفراد الفريق الدولي بأنهم سيأتوا بصباح الغد وبيديهم الأمر بالدخول بغرض التفتيش، ثم انصرفوا عن المكان.

وبعد انصراف فريق الصليب الأحمر بدأت التحضيرات الشكلية من أجل تزويق القفص مؤقتًا باحتمال عودة المفتشين، وحضر آمر المعسكر بنفسه للإشراف على الاحتياجات الضرورية لنا ولو مؤقتًا، من تلك التي يجب أن تتوفر بأي قفص للأسرى وهذا يعني أننا كنا بذلك القفص على درجة سيئة للغاية من ناحية الخدمات الضرورية.. لقد كان آمر ذلك المعسكر لا تبدو عليه إمارات العنصرية أو الحقد الفارسي الأصفر، وكان برتبة عقيد أو سرهنك، بالفارسي يدعى عه زه مي، وهو اسم يلفظ بالعربية هكذا: عَزِمي، وعند دخول العقيد عزمي لقفصنا وقف عند البوابة مقابل استعلاماتها الداخلية في الممر الذي يوصل القاعتين ببعضها، وأعطى توجيهاته لرئيس الحرس المدعو إيرج ولصاحبنا الأسير المترجم أو الأرشد حلمي وهو من شرفاء العراقيين، وعند

إتمام توجيهاته؛ أدار ظهره للخروج فاستوقفه ذلك الخائن المدعو علي صبري الذي كان قد قتل رفاقه في جبهة القتال وسلم نفسه للآيات الفارسية الشيطانية اللعينة، وتمتم له ببعض الكلمات الفارسية التي كان عاكفًا على دراستها باستمرار، طالبًا من عقيد عزمي السماح له بمواجهته بمكتبه الخاص وعلى انفراد، ليشرح له موضوعه، فوجه عقيد عزمي كلامه إلى صاحبنا الأسير المترجم حلمي قائلاً: أفهمه أنني جئت هنا بغرض توفير ما ينقصكم من لوازم وليس من أجل سماع الشكاوى، ثم استدار ليخرج، ولكن ذلك الخائن الرخيص رمى بنفسه عند قدمي عقيد عزمي متوسلاً إياه أن يسمعه، فقال عقيد عزمي: حسنًا قل ما تشاء الآن ونحن بوقفتنا هذه، وحينها كانت جموع الأسرى من القاعتين قد تجمهرت ذات اليمين وذات الشمال من ذلك المكان، وهذا يعني أن كل الأسرى سيسمعون كلام ذلك الخائن بملئ أذانهم، فتكلم الخائن علي صبري وهو غير مبالي بتلك الجموع المصغية له، وصاحبنا الأسير حلمي يترجم له وكالآتي:

- إن الذي أريد أن أقوله لك يا سيدي هو إنني لست أسيرًا.

فقال العقيد عزمي:

- إذن كيف تصادف وجودك هنا؟ ألم يأتوا بك من جبهات القتال؟!

فقال الخائن التواب:

- نعم، ولكنني كنت قد سلمت نفسي طواعية لكي ألبي نداء الإمام الخميني بعد أن سمعته عبر الأثير من خلال الراديو، وهو يحثنا على تسليم أنفسنا لنصبح ضيوفًا على الجمهورية الإسلامية، وهذا ما فعلته، فكيف أحتسب أسير حرب؟!

فقال العقيد عزمي أو سرهنك عه زه مي:

- كيف لنا أن نتأكد من أنك فعلاً كنت قد نويت تسليم نفسك طوعيًا كما تدعي؟

فقال علي صبري وهو غير مبال بجموع الأسرى المصغية إليه:

- لقد كنت ضمن خمسة من الجنود نقوم بالدورية الليلية على خط الجبهة التي أنا على إلمام بتضاريسها باعتباري من أهالي البصرة، وحينها كنا ننقل إحدى الأليات المدرعة، وعندما أصبحنا على مسافة قريبة من القوات الإسلامية فاتحت أولئك الجنود الذين كانوا معي من أجل أن نتفق على تسليم أنفسنا لإيران تلبية لنداء الإمام الخميني، فأبوا أن يفعلوا ذلك ونهروني بشدة، وعندها لم أجد أمامي إلا أن أقتلهم جميعًا وأقود العجلة تجاه القوات الإسلامية بعد أن رفعت راية بيضاء وأضئت المصابيح بإشارة واضحة لنيتي بتسليم نفسي تلبية لنداء الإمام، وبعد أن وصلت إليهم حاصروني وأمروني بالترجل من العربة، وعندها قبضوا علي بحجة أني قد ضللت الطريق ووقعت بأيديهم بالصدفة، ولكني أريتهم دليلي الذي أثبت صحة أقوالي وأخرجت إليهم جثث أولئك الجنود الأربعة الذين قتلتهم بداخل العجلة لأنهم رفضوا تلبية نداء الإمام، وعندها اقتنعوا بصدق نيتي، وأنا لا أكذب لأني متدين ومن أتباع آل البيت، وبعدها أخذوني معززًا مكرمًا إلى مقراتهم الخلفية وهناك التقيت بأخواتي المجاهدين من حزب الدعوة وفيلق بدر، وزودتهم بمعلومات مهمة بخصوص أماكن تواجد الألغام المزروعة على خط التماس لجبهة القتال، وعلى أثرها تمَّ تنفيذ هجومًا كانوا قد أسروا وقتلوا فيه الكثير من القوات الصدامية، وكان لي الفضل بنجاحه بدون أن يتكبدوا أية خسائر، وعلى أثر انتهاء ذلك الهجوم الذي ساعدتهم فيه، قيدتني القوات الإسلامية من الجيش الإيراني وأرسلوني إلى هذا القفص مع قافلة من الأسرى الذين وقعوا بأيديهم جراء ذلك الهجوم الذي ساعدتهم فيه، فهل يصح لهم أن يفعلوا بي ذلك؟ وهل ترى يا سيدي بعد كل هذا أني فعلاً أسير حرب، وأنا الذي لبيت نداء الإمام..

انتهى الاقتباس.. وهنا أنوه إلى أنني عندما كنت أنظر إلى وجه ذلك العقيد وهو يستمع إلى ذلك الخائن التواب، وجدته على درجة عالية من الاشمئزاز لما كان يسمع عن طريق الترجمة التي أدارها صاحبنا حلمي الذي بدوره كان حريصًا على ترجمة أقبح المفردات التي تفوه بها الخائن علي صبري، وبعد أن أكمل الخائن الرخيص ما كان يريد قوله من غير أي خجل يذكر سكت بانتظار جواب العقيد الإيراني وهو متبسم متفاخر، وكأنه قد أنجز ملحمة بطولية، فنظر إليه العقيد عزمي بازدراء وبصق بوجه ذلك الصعلوك قائلاً:

- إن زملاءك الذين قتلتهم كانوا جنودًا بسطاء دعيوا للخدمة العسكرية الإلزامية، وانساقوا ليأخذوا موقعهم فيها لأن بلدهم بحالة حرب وقتال، ولم يفعل أحدهم أي ذنب يتوجب منك أن تقتله بتلك البساطة سوى أنانيتك من أجل الحصول على دليل تدعم فيه أقوالك عندما تسلم نفسك لنا، فأي نوع من البشر أنت؟ ولو كنت أنا من وقعت بيده أول الأمر لقتلتك بالحال. كيف تريد منا أن نأمن جانبك بعد أن خنت وطنك؟!

عندها قاطعه الخائن بكل صلافة:

- ولكني لم أجد وسيلة أخرى أفعلها من أجل أن ألبي نداء الإمام.

فصرخ به العقيد عزمي بعد أن نفذ صبره:

- أي نداء تتكلم عنه؟ نحن والعراق بحالة حرب وليس كل ما يوجه في المذياع والإعلام هو حقيقي النية، ألم تكن لك دراية بذلك؟

كانت تلك هي أخر كلمات العقيد عزمي، لأنه خرج بعدها مسرعًا بعد سماعه لتلك الرواية المقرفة من ذلك الخائن. ولا يعيبني أن أنقل لكم وأنا صريح بطبعي أنني كنت قد حييت من كل قلبي ذلك الضابط الإيراني في سري، لأنه كان صاحب ضمير حي ووجدان يقظ وعدو شريف.. وعاد الخائن علي صبري

إلى مكان جلوسه يجر أذيال خيبته وهو يردد بصوت مسموع من أجل أن يبرر احتقار العقيد له قائلاً:

- إنه حتمًا من جماعة الشاه، ولا أدري لماذا استبقته الثورة الإسلامية هو وأمثاله للخدمة في الجيش الإسلامي؟ ولكني على ثقة أن الدور سيأتي عليه يومًا وستستأصله الثورة الإسلامية.

وأمام كل ما شاهدته وسمعته في إيران المللية من أهوال يشيب لها القلب قبل الرأس؛ هربت بي الذاكرة حينها إلى أيامنا الحلوة التي كنت قد قضيتها في العراق، وأين كان موقع ذلك الخائن علي صبري وأمثاله من وحدتنا وألفتنا ومحبة أحدنا للآخر، كعراقيين انصهرنا ببوتقة الوطن العراقي الذي كنا نعيش فيه جميعًا بكل ود وأخاء مع كل من هم حولنا من إخواننا العراقيين بكافة قومياتهم وأطيافهم، فما أشبه اليوم بالبارحة بعد أن تمكن أولئك الأشرار من تنفيذ مخططاتهم من غير أن أستبعد أن يكون ذلك الخائن علي صبري قد أصبح أحد عناوين ديمقراطية بوش المغمسة بالدم العراقي بهذه الأيام، إن كان قد بقي على قيد الحياة، والله أعلم...

في اليوم التالي من تلك الحادثة تمَّ فعلاً أخذنا إلى حمامات المعسكر بحسب ما وعدنا به العقيد عزمي، وخرجنا إلى ما وراء جدران ذلك القفص اللعين وكان يوميًا مميزًا، كانت الشمس فيه ساطعة على أثر نزول الثلوج أثناء الليلة الماضية، لأننا قد أصبحنا بوسط شهر ديسمبر ولم يبقَ لنا سوى أسبوعين وتنتهي سنة،١٩٨٢ وذلك يعني أنني قد قضيت فترة لا تقل عن الشهرين منذ أن تمَّ اعتقالي بمريوان، حسبتها وكأنها كانت الدهر بكامله، لما شاهدته وعايشته وسمعته من أحداث لم أكن سأعيش مثل أيامها لو كنت قد قضيت عشرة أعوام متنقلاً بين كافة سجون العراق.

ذهبنا للحمامات ونحن تحت الحراسة المشددة، وكانت هي المرة الثانية لي وأنا أستحم منذ وصولي لإيران بأوائل الشهر العاشر أكتوبر، وهناك توزعنا كل ثلاثة منا للاستحمام تحت دوش واحد، فاغتنمت تلك الفرصة الثمينة لأغتسل سريعًا لأن الوقت كان محددًا بخمسة عشر دقيقة لكل مجموعة منا، وبذلك كنت قد أزلت عن كاهلي أحد همومي اليومية التي كنت أعاني منها بسبب تفشي القمل الذي عشعش بجسدي، ولدى رجوعنا إلى القفص وجدنا الحراس كانوا قد أزالوا كافة مظاهر التمثيلية التي أرادوا بها أن يغشوا مفتشين الصليب الأحمر، الذين يبدو أنهم سوف لن يعودوا ثانية لزيارة قفصنا، وهذا يعني أن أمر المعسكر قد توفق بإقناعهم أن ذلك القفص هو للتسفيرات فقط، ولن يبقَ الأسير فيه سوى أيام ليرحل بعدها لقفصه الثابت...

وبعد كل ذلك السقم الفارسي الذي عايشته مع إخوتي الأسرى المتواجدين في بذلك القفص اللعين بمعسكر دوزبان مركز الكائن وسط عاصمة الشر والعنصرية طهران.. إضافة لتلك الزنازين التي قضيت فترات فيها مع نزلائها من الجنود الإيرانيين المساجين، واطلاعي على أمور أخرى كشفت لي الوجه الآخر للفرس من داخل بيتهم الفارسي القبيح بتلك الفترة من تواجدي كأسير غير نظامي، الأمر الذي جعلني متيقن أن اعتقالي ببادئ الأمر بقضاء مريوان بالقرب من الحدود العراقية كان رحمة بحقي وليس نقمة عليَ، لأنه تسبب بإيقافي إلى ما كنت قد أنزلق إليه من مهانة وعار بحق نفسي وشرف عائلتي، وما تربيت عليه من مبادئ وطنية منذ نعومة أظفاري، إذا ما استمريت بالمضي لأعمل بالمكتب السياسي لحزبنا الذي هو بإيران، بعد أن تكشف لي وجهها البشع وأنا مع إخوتي الأسرى بأقفاص زنازينهم، فرب ضارة قد تكون نافعة ولو بعد حين.. وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. صدق الله العظيم.

وفي هذا السياق أذكر ما كنت قد تكلمت به عما دار بيني وبين عراقي كوردي التقيته بزنزانة قضاء مريوان، وهو يعيب علي وطنيتي بسبب رفضي الانضمام لمجاميع الخيانة لما يدعوا بفيلق بدر وحزب الدعوة، في الوقت الذي أدعى فيه أنه قد تقدم بطلب اللجوء في إيران، ومنها سيتمكن من السفر إلى السويد ليصنع مستقبلاً زاهرًا له، وافترقنا حينها ليذهب هو إلى مجمع اللاجئين العراقيين بطهران، وأذهب أنا للتحقيق بمحافظة سنندج لدى مديرية الاستخبارات للجيش الإيراني المسمى بالاطلاعات، بتهمة التجسس عليهم، لأتلقى عواقب فعلتي بعدم الانضمام لأرتال الخيانة، فبعد فترة من تواجدي بقفص الأسرى، رمي إلينا بأسير جديد كان على حالة من التعب والإرهاق لدرجة يرثى لها، إلى الحد الذي مزقت ثيابه من على جسده نتيجة التعذيب في الزنازين الانفرادية للأسرى بنفس معسكرنا هذا، وقد تعرفت عليه بالحال، فهو نفس ذلك الشاب الذي تعرفت عليه بمريوان، فتقدمت إليه على الفور من أجل مساعدته وتأمين مكان لجلوسه بيننا ليستريح فيه، فهمس بأذني يرجوني أن أبتعد عنه لأنه يعرف التهمة التي كنت معتقلاً بسببها، ظنًا منه أن هناك من كان يراقبه إذا ما جلس بجواري وبالتالي سيناله بحسب اعتقاده، غضبًا مضافًا من الفرس عليه، أكثر مما ناله منهم من أذى على ما كان يبدو عليه بشكل واضح، وهو لا يعلم أن جميع المتواجدين من الأسرى العراقيين، هم بمحطتهم الأخيرة، وبالتالي لا أحد من المحققين يتابع ما نقوله أو نفعله، فتركته بعد أن أمنت له مكانه الجديد تفهمًا لمبتغاه واحترامًا لرغبته بحصوله على الطمأنينة التي قد تريح أعصابه المنهارة، ولم أفشِ سره لباقي إخوتي الأسرى وكأني لا أعرفه..

وبعد أيام وحين اطمئن الرجل من عدم وجود رقابة علينا حكى لي ما حصل له بعد أن فارقني في مريوان، فبعد وصوله إلى مجمع اللاجئين بطهران، أجرى

جميع الترتيبات الخاصة بتقديمه للجوء، وعلى أثرها تمَّ قبوله كلاجئ، بعد أن خضع لبرنامج غسيل الأدمغة الذي يتم بانتظام هناك، ثم بعد فترة أخرى تقدم بطلب لدى إدارة مجمع اللاجئين بمنحه إجازة لعدة أيام يسافر خلالها إلى قضاء مريوان الحدودي مدعيًا أنها بغرض زيارته لبعض أقاربه من الكورد العراقيين هناك... ومن هناك عَبَرَ الحدود إلى العراق مع بعض مهربي التموين والأغذية من أجل زيارة عائلته، التي كانت تنتظره بإحدى القرى الكوردية على الجانب العراقي، لحاجته لبعض الأموال التي سيستفاد منها بالضرورة في إيران، بغرض الهجرة إلى السويد، وفي طريق عودته لإيران تمَّ إمساكه عند الحدود، فادعى كذبًا أنه كان هاربًا من ظلم النظام في العراق، وجاء بقصد طلب اللجوء في إيران لأول مرة بعد أن غيَّر اسمه وباقي بياناته بالكامل، وعندها أرسلوه مغفورًا إلى مجمع اللاجئين بطهران كما حصل له في المرة الأولى وهناك تعرف عليه بعض الجنود العاملين بذلك المجمع، باعتباره كان قد قدم اللجوء قبل فترة بسيطة بنفس ذلك المجمع ثم هرب منهم، فتم إلقاء القبض عليه فورًا بعد أن صادروا تلك المبالغ المالية التي حصل عليها من أهله في العراق، ثم أرسل للتحقيق بالزنازين الانفرادية، والتي صاحبها التعذيب بكل قسوة لاتهامه أنه قد خرج من إيران بغية نقل ما جمعه من معلومات ليقدمها إلى السلطات الاستخبارية العراقية، التي بدورها زودته بالثمن المالي الذي ضبط بجيبه لحظة اعتقاله بحسب اعتقادهم، وقد اعترف أثناء التحقيق أنه كان جندي هارب من الخدمة العسكرية في العراق وتلك معلومة لم يذكرها في البيانات السابقة التي زودهم بها عند تقديمه للجوء في المرة الأولى، وعليه فإنهم قد اعتبروه أسيرًا لأنه قد مارس نشاط استخباري بزمن الحرب، لاعتقادهم أنه نقل المعلومات من إيران للعراق، والمسكين وإن كان يستحق ذلك، ناهيك أنه لم تكن لديه أدلة أو إثباتات توضح صحة أقواله كما فعلت أنا عندما ألصقوا بي نفس التهمة وادعيت

حينها أني أحد أفراد حلفائهم من حزب مسعود البارزاني وكنت صادقًا، ونجحت إلى حد ما في البداية حتى أخذ الموضوع منحى آخر من قبل الاستخبارات العسكرية الإيرانية بمحافظة سنندج، ثم حولت إلى قفص الأسرى العراقيين هذا، فتأسفت لما آلت إليه أحواله لأنه أولاً وأخرًا أحد أبناء بلدي العراق، ولم أتشمت به قطعًا باعتباره كان قد تسبب لي بالأذى النفسي في مريوان عندما وصفني بالمجنون على أساس إني لم أراعِ مصلحتي الخاصة، في حين تباهى أنه ذاهب ليتفرج على الشقراوات في السويد، ولأذهب أنا إلى الجحيم..

ولم تمضِ سوى أيام ونودي عليه من قبل الإدارة باسمه الحقيقي وكان يدعى سعيد، بغرض تسفيره إلى إحدى الأقفاص الثابتة للأسرى العراقيين الكائنة في الشمال الإيراني، فودعته بحزن شديد كحزني على نفسي، لأن الرجل لم يكن عميلاً للفرس ولم يتسبب بالأذى المباشر لي، وقد أذى نفسه لكونه لا يعدوا سوى إنسان جاهل ذو نزعة انتهازية، وحينها تعجبت كثيرًا لمفارقات الدنيا، فأين كان هذا الرجل يبغي الوصول؟ وإلى أي مستقر قد انتهى.

وفي نفس سياق الحديث عن تلك الحالات الفردية لبعض الأسرى لا يفوتني ذكر الناحية الأخرى للوجه الآخر للعراقي الحقيقي الذي هو شهم وشجاع، وذلك ما تجسد بالبطولة التي كان عليها أحد إخوتي الأسرى، لرجل يدعى حمدي جاسم هزاع، وهو الذي جعلنا جميعًا كأسرى نبدوا وكأننا أقزامًا بالقياس لما كان عليه من تحدي لأولئك الفرس الأنذال، ففي تلك الزنزانة اللعينة وبإحدى تلك الأيام السوداء أدخل علينا الحراس أحد الأسرى العراقيين من ذوي الشرف الرفيع والبطولات النادرة، وكان بحالة يرثى لها بسبب التعذيب الذي تلقاه في السجن الانفرادي، ولكنه لم يكترث لذلك الحال المرثي الذي كان عليه وكان يمشي بخطى واثقة بكل عنفوان ورجولة، بسحنته السمراء وهامته العالية ولهجته

البدوية أثناء الكلام، وكان من الأسرى القدامى بإحدى الأقفاص الثابتة خارج طهران، وقد علمت أن الفرس قد اقتادوه من قفصه إلى طهران بغرض التعذيب فقط وليس للتحقيق بأي أمر آخر، بل من أجل تأديبه وكسر شوكته لكي يرضخ لهم، ويصبح من الخانعين لسياستهم ومنهاجهم التعسفي اللئيم.

وكان ذلك الأسير البطل حمدي جاسم هزاع قد مكث معنا لخمسة أيام لم يذق فيها طعمًا للراحة أو الطمأنينة، وكذلك كان باقي الأسرى من الذين كانوا يتعاطفون وآلامه، وهو بانتظار تسفيره بغرض إعادته لقفص أسره بسبب قتاله الأعزل وحده ضد الجنود الإيرانيين، إضافة لما كان واضحًا عليه من تعب وإرهاق سابق، وكل ذلك بسبب إنه كان يرفض تلك الممارسات التعسفية والتسلطية والعنصرية بالإنتقاص المنظم الذي كان يمارسه الحراس على الجميع منذ الصباح الباكر وحتى حلول المساء، ولم يساوم أو يهادن الفرس وكأنه لا زال في العراق، وبسبب رفضه إياه فقد تلقى أشد وأقسى أنواع الضرب، بالعصي تارة وبالأيادي تارة أخرى، والرفس بالأرجل بأغلب الأحيان في قفصنا الذي مكث به لبضعة أيام حتى أرجعوه لنفس معسكر قفصه الثابت، على أثر تعليقه بالأصفاد من معصمي يده بإحدى القضبان العالية لإحدى الأبواب الحديدية، بسبب تمزيقه لصور الخميني، تلك المنتشرة على الجدران، واصفًا إياه بالدجال، على أثر مشادة كلامية مع أحد الحراس الذي كان يأمره باستهزاء أن يمسح بلاط الزنزانة كعقوبة له، لأن صاحبنا البطل مرَّ من أمامه ونظر إليه بشكل غير ودي، يعني عينه بعين الحارس، وتلك من الكبائر غير المسموح بها فارسيًا على الإطلاق.

وعلى الرغم من كل تلك الأنواع القاسية من العذابات كان صابرًا وشامخًا كالجبل الذي لا تهزه أية ريح صفراء مهما كانت، عاتية ولم تصدر منه حتى

صرخة ألم مكبوتة، بل على العكس فلقد تعمد أن يبتسم وهو في أشد عذاباته، وذلك هو السر الذي أثار غضب أولئك الحراس الأوغاد لأنهم تصوروا أن كل العراقيين على شاكلة ذلك الخائن علي صبري وأمثاله من الأوغاد، حتى إنهم عندما علقوه على قضبان تلك الباب الحديدية من معصمي يديه، تعمدوا تركه لفترة طويلة وهو معلق على أمل إنه سيتوسل لهم من أجل إنزاله أرضًا، ولكنه أبى إلا أن يبتسم والأصفاد التي علقوه بها قد أحدثت جرحًا بكلتا يديه، وانسال دمه الطاهر شأن حليبه الطاهر من موضع النزف بمعصميه، حتى وصل الدم لكتفيه وهو يهتف متباهيًا بعراقيته بأعلى صوته: (أنا العراقي.. أنا العراقي) الأمر الذي أجبر أولئك الحراس على إنزاله أرضًا بعد أن انتصر عليهم بإرادته الفولاذية، لقد كان أمر صموده على ذلك الشكل من التحدي صعبًا للغاية إلى الحد الذي اعتبرته متفوقًا حتى على من يصمد ضد الأعداء بخط المواجهة الأمامي وقذائف الحمم بكل أنواعها تسقط من حوله.

لقد كنت قريبًا منه عندما حصل ذلك المشهد الذي تقشعر له أبدان الشرفاء من أهل الغيرة، وحينها أدركت أن الولاء للعراق كوطن لا يقنن بالانتماء إلى هذا الحزب أو لتلك الطائفة أو لذلك المذهب، أو لأي معتقد آخر عرقي أو ديني... وأستطيع أن أجزم أن البطل المغوار حمدي جاسم هزاع كان بكل فخر وشرف عراقيًا صميمًا فقط لا غير، وكان مثلي الأعلى بتلك الفترة لأن قيم الرجولة تجسدت بقتاله الأعزل بمقارعة الفرس وهم بعقر دارهم، وكفى بالعراق وطن لعنوان تهتف له القلوب، وأستطيع أيضًا القول إنني بذلك القفص اللعين قد تعلمت من البطل حمدي جاسم هزاع ومن غيره من العراقيين الحقيقيين كيف يكون الحب والتفاني للأوطان، وكيف يجب أن يكون الرجال، لكي تليق بهم صفة الرجولة كعنوان، بل وأستطيع القول بكل صدق إنني قد تعلمت الوطنية

وحب الأوطان من الفرس الذين كانوا يجاهروا بفارسيتهم الخبيثة التي يتعالوا من خلالها على باقي القوميات والأمم بشكل عنصري مقيت..

هذا ما كان من حال إخوانكم الأسرى العراقيين في إيران، من الذي عايشته أو اطلعت عليه من خلال إخوتي الأسرى في ذلك القفص اللعين، وقد اختصرت منه الكثير في سردي هذا، بعد أن قفزت على بعض التفاصيل الحياتية اليومية التي كان الأسرى يشتكون منها، بسبب الظلم الذي يعانون منه جراء القسوة المفرطة للفرس أثناء التعامل معهم، لسبب أو من غير سبب..

ومن أجل أن أجعل الوقت يمضي بذلك المكان ونحن تحت حراب الفرس بذلك القفص اللعين، وقد أصبحت أشعر وكأن عجلة الزمن قد توقفت بنا عن الجريان، عكفت منذ بداية دخولي لقفص الأسرى على مطالعة الجريدة اليومية لإحدى الصحف الرسمية التي كانت توزع على أقفاص الأسرى بالنسخة العربية، لأنني أردت أن أفهم من خلالها طريقة تفكير الملالي الفارسية بإدارة شؤون الحياة، وقد أثار انتباهي ذلك المقال اليومي الذي كان يستعرض قراءة تاريخ الفتوحات الإسلامية، التي كنت ولازلت أطالعه بشغف كمادة علمية تستعرض التاريخ المشرف لأمة المسلمين الأوائل، الذين انضووا تحت لواء الإسلام المحمدي السمح، قبيل ظهور المذاهب وتفشي الفتن في تلك الأمة العظيمة التي نشرت السلم والسلام بدين الإسلام في أغلب بقاع العالم القديم، ولكني أردت أن أعرف من خلال تتبعي لتلك السلسلة من المقالات اليومية الكيفية التي يكتب بها الفرس لتلك الحقبة من التاريخ..

فتتبعتها بالرغم من التدليس والتزوير الملحوظ فيها، حتى جاء دور فتح بلاد فارس من قبل المسلمين العرب، الذين لم يذكر الكاتب اسم لهم فيها منذ بداية تلك المقالات المتسلسلة، ومن غير أن يتطرق أيضًا لمعركة القادسية التي تكللت

بالنصر على الفرس المجوس حينها وسقوط عرش كسرى وإطفاء نار مجوسيتهم، وكأنَ القوم يخجلوا من ذكر تلك الواقعة التي تمَّت بزمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعليه السلام، أو كأنها كانت نقطة سوداء بسجل تاريخ أجدادهم المجوس، والمتتبع لتلك السلسلة من المقالات سيجد نفسه بالتأكيد أمام إيحاء من كاتبها، وكأن كل تلك الفتوحات الإسلامية قد انطلقت من بلاد فارس، لأن الكاتب لم يشر إلى العرب بالاسم على طوال سرده اليومي بتلك الصحيفة لذلك التاريخ، واكتفى بتسميته لأولئك الفاتحين بالمسلمين فقط، حتى قفز أثناء السرد على فتح بلاد فارس لأنه لم يذكرها أبدًا.. وعَبرَ بالقراء لفتح بلاد الهند والسند وحتى حدود الصين بعد أن استعرض فتح مكة كبداية ثم فتح بلاد الشام ثم مصر فالمغرب العربي وصولاً إلى الأندلس، والسؤال هنا لكل عاقل كان قد اطلع على تلك الخزعبلات: إذن من فتح بلاد فارس؟ وكيف أصبح الفرس مسلمين؟!

واستناد لكل ما تقدم؛ فإنني استنتجت أن السبب الكامن وراء تأليفهم لتلك الروايات الهزيلة والبغيضة التي يتهجمون بها على فاتح بلادهم وتخليصهم من مجوسيتهم، وقد اطلعت على قسم كبير منها من خلال نفس تلك الصحيفة الرسمية الصفراء، لأنهم لا يعتبرونه فاتح عندما تعرضوا للهزيمة التي منيوا بها بعهد خلافته، ودليل ذلك – ونحن هنا نتكلم تاريخ ولسنا من الطائفيين والحمد لله ومن أفواههم ندينهم – تعظيمهم لقاتله أبي لؤلؤة المجوسي الذي يسمونه باللغة الفارسية بابا شجاع، وبجعل قبره مزارًا للناس في أيامنا هذه بظل ورعاية حكم الجمهورية الإسلامية، التي تدعي زورًا أنها تدافع عن شؤون المسلمين بكل مكان، وكأنه أحد المراقد الشريفة للأمة الأطهار، ورجال الله الصالحين التي تزار في إيران قبل التوجه لزيارة العتبات المقدسة بكربلاء والنجف، ومن ثم لمن يبغي التوجه بنية الحج إلى مكة المكرمة.

وعليه فإنني وجدت نفسي أمام كل ما قرأته من تلك الكتابات المشوهة والروايات السخيفة المدلسة وغيرها من تلك الأفعال المشينة من التي أطلعت عليها؛ مجبرًا أن أستنتج الآتي: أن هؤلاء الفرس يعيشون بمجتمع مريض بسبب تسميم ملاليهم المشعوذين لأفكارهم، نتيجة جهل البسطاء منهم للغة العربية وهي لغة القرآن الكريم وبالتالي فهم حتمًا بحاجة لمن يعلمهم أصول الدين الإسلامي، وتكفلت الملالي الفارسية بدلاً من ذلك، بتلقينهم طقوس عجيبة وغريبة ما أنزل الله بها من سلطان، وكأنها تعاليم لدين آخر غير الإسلام، وحال الحاجة بالتعليم لأصول الدين هو نفس حال باقي الأقوام الأخرى التي لا تنطق اللغة العربية أو تفهم معانيها، ومنها الكوردية والهندية والأفغانية والتركية وغيرها من الملل في بلاد المسلمين، وبذلك فملاليهم يحشوا أفكار المتلقين لخطابهم بما تشتهي أنفسهم الخبيثة، وليس كما جاء من نهج سمح لكلام الله عز وجل في القرآن الكريم.

ناهيكم على أن الفرس بمجملهم يعيشون الأوهام بدرجة عالية من مرض انفصام الشخصية المركب ما بين ولائهم المطلق لقوميتهم الفارسية، وبين تظاهرهم بالولاء للدين الإسلامي، الذي أدخلوا عليه ما طابت له أنفسهم وما تهواه عقولهم المريضة، عندما حذفوا منه ما يدعوا للتآخي والمودة والعيش المشترك بسلام مع باقي المسلمين، أو ما قد يبعدهم عن ولائهم الحقيقي لعنصرهم الفارسي، حتى تمكنوا أن ينفردوا بنوع خاص من طقوس التدين الذي ابتدعوه عن طريق الإضافة والحذف، من أجل عدم ذوبان الفرس بنسيج الإسلام الذي يتبعه أكثر من مليار مسلم، وهذا يعني أيضًا أن دينهم الإسلامي هو دين آخر يشبه دين الإسلام الحقيقي بالاسم فقط، ونفس هذا الأمر ينسحب على ادعاءهم أنهم من شيعة سيدي الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام، وهم في الحقيقة على مذهب آخر مبتدع سُمي بالصفوي، ويشبه بالاسم فقط مذهب سيدي الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي يتبعه ويطبق تعاليمه

السمحة العرب الشيعة، قبل أن يغيروا الفرس مذهبهم السني ليصبحوا شيعة صفويين بعدهم بمئات السنين وهم العرب الجعفريين، ومنهم من هو فعلاً الحفيد الحقيقي لأهل بيت رسولنا الكريم، وليس أي فارسي نتن اعتمر العمامة السوداء ويدعي تبجحًا أنه منهم.

ومثال ازدواجية الفرس بتلك المعايير؛ هي أنهم في الوقت الذي هم يجاهرون بعدائهم للعرب، فإن أحدهم يُدهَش عندما تُخبره أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعليه السلام هو قرشي عربي مكي من أمة العرب.. هذا هو تفسيري المتواضع لذلك الحال الذي وجدت الفرس عليه، من خلال مشاهداتي التي تبحرت وغصت بأعماق مسبباتها آنذاك، بالرغم من أنني علماني التوجه بنهج حياتي العامة ولكني موحدًا لله عز وجل بوجداني، وطنيًا بولائي لوطني، قوميًا حتى النخاع لكورديتي، وأعتبر أن اتهامي بالطائفية سبة شنيعة لي لأنها مبعث ازدراء وعنوان للتخلف، ولا بأس أن أتهم بالكفر بالمقارنة مع الطائفية، لأن أمري حينها سيوكل لربي ورب الخلق أجمعين، وسبحانه خير من يعلم بما تجود به صدور عباده المخلصين..

واستنادًا لكل ما تقدم من قول فإني كنت أنظر للموضوع من زاوية كوني مراقبًا لظاهرة شاذة، كانت تحتاج إلى التأمل والتفكر بغية التعرف على حقيقة أولئك القوم المارقين، وفي زاوية أخرى من تلك الصحيفة الصفراء كانت هناك صفحة خاصة تدعى بمكتب الإمام، والمقصود بذلك هو استعراض النشاطات الخاصة بالخميني.. وفيها تذكر كل أقواله التي يصرح بها بخطاباته للشعوب الإيرانية ونصائحه، أو بالأحرى أوامره للحكومة الإيرانية، وكذلك سرد تفاصيل كل ما يراه في أحلامه أثناء نومه، وهي خزعبلات مضحكة لا تنطلي حتى على الأطفال في العراق، في حين أن تلك الصفحة بتلك الصحيفة النتنة كانت تذكر أيضًا جميع تحركات الخميني أثناء زياراته أو استقباله لزواره، وخلاصة القول

فإنني وجدت أن جميع ما كتب بتلك الصحيفة الصفراء كان بقصد غسل دماغ قرائها، وهو كلام لا يستحق الالتفات إليه حتى من بعيد، ولكن ماذا أفعل والزمن قد أوشك أن يتوقف بذلك القفص اللعين، وإلا فمالي وتلك الترهات والسخافات التي كانت تبعث بالأشمئزاز لكل إنسان يحترم عقله عندما يطلع على تلك الجيف من الكلمات..

ناهيك عن مشروعهم بغسيل الأدمغة الذي لم يكتفِ بتلك الصحيفة وحسب؛ فهناك الكتب التي بالإمكان استعارتها من إدارة القفص، التي يسمونها تهكمًا أنها دينية وهي مطبوعة باللغة العربية، وقد دفعني الفضول مرة للاطلاع على ما تحتويه تلك الكتب، فاخترت أن أقرأ ما كان يشار له بأنه أعظمها عندهم وهو كتاب لأحد العمائم الفارسية ويدعى بهشتي، وهو الملقب عندهم حينها بمفكر الثورة، فتصفحته على أمل أن أفهم حقيقة هؤلاء القوم أكثر وأكثر، من خلال ما يصرح به مفكرهم على الأقل، فوجدت فيه كلمات لحروف عربية جمعت لتصبح سطور، ثم صفحات، ثم كتاب ضخم لا يعرف أوله من أخره، ولكن من غير معنى.. نعم من غير معنى لأني لم أفهم جملة مفيدة واحدة مما كان مكتوبًا، وكأني لا أعرف أبجدية اللغة العربية أو جاهل بمعانيها، فقد كان يحوي على كلمة مجاورة لأخرى... إلخ من الكلمات، دون تجانس بالربط بين كلمة وما كان يجاورها من كلمات أخرى، وذلك لا يعطي أي معنى لقارئها، وكأن المقصود كان إتاهة القارئ ليظل بحيرة من أمره! أو لجعله يشعر أنه جاهل وأن ما قرأه فوق مستوى تفكيره، وعدم قدرة عقله على التجميع والفهم!!

هذا كل ما كان يطرح من مطبوعات تدخل إلى أقفاص أسر إخواني الأسرى بغاية ما يسمى بغسيل الأدمغة، وهي باعتقادي سياسة غير موفقة، لأن المتلقي

كان عراقي على درجة من الوعي الفطري، حتى وإن كان غير مثقف، ولأنه نشأ وتربى في بيئة مختلفة عن ما تربى عليه الفرس، والموضوع برمته كان يطرح سؤالاً واحدًا هو: هل بالإمكان غسيل أية مادة بقصد إعطائها درجة أعلى من النظافة عندما يتم غسلها بالمياه الآسنة القذرة؟! الجواب طبعًا هو كلا، لا يمكن لنا ذلك، لأننا حينها سنحصل على مادة ملوثة لا تنفعنا بأي شيء، وذلك هو ما كان ينطبق علينا كعراقيين نحترم عقولنا المتنورة، وإن كنا تحت رحمة أولئك المجانين الجهلة، حتى أنني أستطيع الجزم أن تلك القلة القليلة من الأسرى الانتهازيين أو المهووسين بالطائفية، من الذين أدعوا أنهم قد استجابوا لمثل تلك الترهات والخرافات، فهم بحقيقتهم كانوا على يقين أن تلك الأفكار الفارسية هي مجرد كلام فارغ لا قيمة له ولا مصداقية بطرحه، ولكنهم أدعوا بأنهم من المؤمنين والمصدقين لها من أجل تدعيم منافعهم الشخصية، وما أكثرها...

وفي إحدى بدايات تلك الصباحات السوداء، عندما كانت قاعتي قفصنا قد ضاقت بالأسرى بسبب كثرة أعدادهم المتزايدة بكل يوم، وبالتالي لا بد من توزيعهم على باقي الزنازين الثابتة الأخرى، من التي هي منتشرة في الوسط والشمال الإيراني فقط، ولا توجد لها معسكرات تضمهم في الجنوب العربستاني، والأسباب معروفة لأنها كانت مناطق قتال ساخنة، فنودي في البداية بأسماء المعسكرات التي قدم منها بعض الأسرى من الذين جاءوا لمراجعة المستوصف الطبي أو للتعذيب في الأقفاص الانفرادية، وكان إخوتي الأسرى من تلك المعسكرات يخرجوا عند سماعهم لاسم معسكرهم الذي قدموا منه، ومن ثم نودي على أسماء الآخرين من إخوتي الأسرى الذين تمَّ أسرهم حديثًا ليوزعوا على معسكراتهم الجديدة، وقد تردد اسمي لعدة مرات ولم أنتبه لذلك لأني كنت قد نسيت اسمي هشام الذي استبدلته باسمي البيشمرگياتي (سه ر جل) خشية

من وشاية البعض من ضعاف النفوس الذين يتصيدوا الفرص من أجل الفوز بكسرة خبز، فنبهني صديقي حلمي لذلك، وذهبت لإدارة القفص لأستلم أغراضي التي كانوا قد احتفظوا بها في الأمانات بأول دخولي للقفص، وكانت عبارة عن بعض القطع من الزي الكوردي الذي كنت ألبسه، إضافة لجعبة كتف صغيرة فيها أدوات الحلاقة وبعض قطع الملابس الاحتياطية، وبعد استلامي إياها خرجت إلى ساحة السجن بخارج زنزانة القفص، حالي حال باقي إخوتي الأسرى، وعندها شعرت بأني قد فقدت أية فرصة كنت أخطط لها بالنجاة من ذلك الكابوس اللعين وأخرها كانت تلك الفرصة التي عرضت علي من قبل المحقق قبل فترة وذهبت بأدراج الرياح كما توقعت حينها.

وبعد أن اكتملنا جميعًا خارج الزنزانة؛ تمَّ عزلنا على شكل مجاميع صغيرة كل حسب معسكره السابق، وللأسرى الجدد كان هناك عزل لهم عن باقي الأسرى، وكنت أنا أحد الأسماء من تلك المجموعة من غير أن يعلم أحد منا إلى أي من المعسكرات سنوزع؟ حتى تمَّ تسفير جميع الأسرى مجموعة تلو الأخرى إلى أماكن متفرقة من تلك المعسكرات، البعيدة والقريبة من طهران، وبقيت أنا وحدي وقد انتصف النهار حينها، بعد تلك الفترة التي كنا فيها وقوفًا بتلك الساحة المكشوفة، في ذلك الوقت الذي كان فيه الطقس بارد جدًا، ونحن في الأسبوع الأخير من تلك السنة ١٩٨٢، دون أن أعلم بوجهتي التي سأسفر إليها، حتى اقتادني الحراس وذهبت معهم مطيعًا لأمرهم، من غير أن أسال عن الوجهة التي سيأخذوني إليها، لأن التجربة علمتني أن الصبر مطلوب بمثل تلك المواقف حتى يتبين لي الموضوع من تلقاء نفسه.

أخذوني لإدارة المعسكر ومن هناك أرسلوا بطلب عجلة عسكرية لكي تنقلنا لمعسكر بداخل طهران يدعى شهيدان، وانطلقت بنا العجلة بشوارع طهران

بوقت الظهيرة المزدحم، وكانت فرصة ثانية لي لمشاهدتها عن كثب بعد أن شاهدتها على عجل أثناء قدومي لها قبل أكثر من شهرين، لكي أتفحص وجوه الناس مرة أخرى، فوجدتها شاحبة وكئيبة، وشبح الموت كان يخيم على تلك الأجواء بكل المشاهد التي كنا نمر بها ببطء شديد بسبب زحمة السير فيها، ولم تمضِ سوى أكثر من ساعة على خروجنا من معسكر دوژبان مركز، حتى وصلنا إلى معسكر إيراني يدعى شهيدان، وسلموني لإدارة السجن التي بدورها أودعتني بزنزانة منفردة بانتظار الصباح، وفي الصباح علمت أنهم سيسلموني لحراسي الجدد الذين سينطلقوا بي هذه المرة إلى محافظة بأقصى الشمال الإيراني، والملاصقة للحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي آنذاك، لمدينة تدعى الرضائية القريبة من بحيرة أرومية، والحقيقة أنا لم أندهش لتلك النقلة، وإن فاجأتني على حين غرة، وكنت قد تمنيت لو بقيت بطهران لفترة أطول بانتظار ما كانت تلك العريضة ستسفر عنه، عندما تقدمت بها على شكل استرحام لرأس الشر بإيران، لأن القادم هو أمر مجهول، ذلك لعدم معرفتي بأحوال القفص الذي سأسفر له بأقصى الشمال الإيراني.

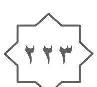
وفي عصر نفس ذلك اليوم بمعسكر شهيدان؛ استلمني حراسي الجدد الذين على ما كان يبدو أنهم قد قدموا من معسكر آخر وكانوا أربعة، وكان بحوزتهم اثنين من الشبان، الذين يبدو عليهم أنهم بحالة عقلية غير طبيعية، أو هكذا كانوا هم يدعون لسبب أو لآخر، وتم ربط يدي اليمنى بأحدهم وربطت يدي اليسرى بالآخر بالأصفاد، ودُفعنا بداخل عربة جيب عسكرية وخرجنا من ذلك المعسكر، وكانت الثلوج قد تساقطت بشكل مكثف بذلك المساء ونحن متوجهين بطريقنا إلى الكراج المركزي للنقليات بطهران.

الجزء الرابع

التاريخ: الثالث والعشرون من ديسمبر لعام ١٩٨٢

المكان: طهران — ميدان أزادي

الموقع: كراج النقل المركزي للسفريات



وصلنا لميدان أزادي التي تعني ساحة الحرية، وفيها كان الكراج المركزي للسفر لكل المحافظات الإيرانية، عند الغروب وبعد مسيرة شاقة داخل شوارع طهران التي كانت تكسوها الثلوج، بعد أن بدأت تتساقط بشكل مكثف منذ صباح ذلك اليوم المشهود، وعند وصولنا لمحطة الحافلات ترجلنا من العجلة العسكرية التي أقلتنا، وكنا سبعة أشخاص، أربعة منا كانوا حُرَّاسًا بكامل سلاحهم، والشابان المتخلفان عقليًا، أو هكذا كانا يدعيّان، وأنا ثالثهما.

وهنا أترك القارئ ليتصور ذلك المشهد الذي كنتُ فيه مكبلاً بهذين المجنونين وأربعة من الجنود، يصوبون بنادقهم على ظهورنا ونحن وسط حشد هائل من الناس الفضوليين، الذين تجمهروا من حولنا منذ لحظة ترجلنا من سيارة الجيب العسكرية وحتى دخولنا إلى المبنى المخصص للانتظار، من غير أن يتفوه أحدٌ من الجمهور المحتشد ولا بكلمة واحدة، وكأننا كنا بزفة عرس صامتة، العرسان فيها كانوا مجانين، وجمهور الزفة من حولهم هم من الخرس، وما كان ينقصنا حقًا بذلك المشهد الساخر والمؤلم على النفس، هو جوقة من الموسيقيين الطرشان!!

لدى دخولنا إلى قاعة انتظار المسافرين أجلسنا حراسنا على إحدى مصاطب الجلوس بمكان منعزل ووقفوا من خلفنا، وتجمع كل جمهور الخرس أمامنا وهم يتطلعون إلينا بدهشة، وكأننا مخلوقات كونية قد هبطت من كوكب آخر، حتى نطق أحد المتجمهرين وسأل الحراس بغية معرفة من نكون؟ فقال لهم أحد الحراس بشكل ساخر واشمئزاز واضح: إنهم أسرى عراقيون، فازداد فضول المتطفلين أكثر وأصبحوا ينظرون إلينا بعيون محدقة وأفواهٍ مفتوحة.

وبدوري تعجبت لذلك المنظر الذي كان يدل على البلاهة، وأخذت أتفحص ما توحي به ملامحهم لأفهم سر ذلك التعجب! فلم أجد إلا تفسيرًا عقلانيًا واحدًا

مفاده هو أن المحدقين بنا لم يتسن لهم رؤية أي عراقي عن قُرب بكل حياتهم، وبالتالي فهم بتلك النظرات البليدة قد قارنوا ما يبدو عليه زملائي المجانين من حال منكسر، وما يسمعونه عنا كعراقيين من بطولات في القتال تفوق أي وصف، من خلال إفشال هجوماتهم المليونية العدد على العراق، بغية ما كانوا يروجون له بتصدير ثورتهم وتحرير كربلاء... واستمر حال أولئك الفضوليين طويلاً، وازدادت أعدادهم أيضًا وهم على تلك الحالة البلهاء.

صرفت نظري عنهم لأتفقد ذلك المكان فوجدته غاية في التنظيم، وأعتقد أنه كان من منجزات ما تركه نظام حكم الشاه واستولى عليه نظام الملالي وآياته الخبيثة، فهناك كانت المكاتب المصطفة على طول تلك القاعة المسقفة الكبيرة التي تؤمن حجز السفر إلى كافة المحافظات الإيرانية وكان عددها بعدد تلك المدن، وقد لفت انتباهي أن أحدها كان يرفع يافطة كتب عليها سوريا، وذلك يعني السفر إلى مرقد السيدة زينب بدمشق، وبين الحين والآخر كنا نسمع الإرشادات بتوجيه المسافرين من تلك القاعة بالتوجه لخارجها حيث تنتظرهم الحافلة التي ستقلهم لوجهتهم التي يرومون السفر إليها، وتلك خدمة لم تكن متوفرة عندنا في بغداد، لا من ناحية التنظيم ولا من ناحية تهيئة مكان رحب كهذا للمسافرين إلى المحافظات، وكنت حتى تلك للحظة غير متيقن من وجهة تسفيرنا، بالرغم من أنهم أخبروني أن وجهتنا هي محافظة أرومية، لما للفرس من قابلية على الكذب والمراوغة.

وعندما نودي بمكبرات الصوت على المسافرين المتوجهين إلى محافظة أرومية، واسمها السابق الرضائية، صاح بنا الحراس من أجل أن ننهض للحاق بالحافلة قبل أن تغادرنا، فمشينا متوجهين إلى الخارج والحراس من حولنا، ولحقت بنا تلك الجموع الفارسية الحاقدة وقد ضيقت علينا بدائرة تجمعها، وكان حراسنا مرتاحين من ذلك التضييق، حتى وصلت أيادي بعض أولئك

الفرس الأنذال لتنال منا بالضرب ونحن مكبلين وتحت الحراب، وهذه هي شيمة أغلبية الفرس لأنهم جبناء، حتى ازدادت تطاولاتهم بزيادة أعدادهم، وتوالت الضربات العنيفة بحقنا، وحينها كنت حريصًا جدًا على التحمل من أجل أن لا أسقط أرضًا لكي لا يتشجع الباقون ويرفسوني بأقدامهم كما فعلوا برفاقي الذين تمَّ ربطي بهم، وحاولت جاهدًا أن أرفعهم كلما سقط أحدهم.

وعندها ثارت ثائرتي وقلت بملئ فمي بالعربية بصوت هز أركان تلك القاعة الكبيرة المخصصة لانتظار المسافرين، كعراقي طفح به الكيل من الظلم: ألا قرت أعين الجبناء، وكررتها لعدة مرات بعصبية بالغة مع ترديدي لبعض المفردات البغدادية اللاذعة التي شتمتهم بها، وهنا يكمن السؤال المهم: أين الرجولة بضرب عدو من خلفه وليس وجهًا لوجه حتى ولو كان مكبلاً ومربوطًا بآخرين؟ وهل كان أحدهم سيتجرأ ليمس شعرة من رأسي لو كنت طليق اليدين؟ ولكن ماذا أقول للأقدار التي جعلتني تحت رحمة من لا رحمة بقلوبهم، وأنا الذي أنادي بحرية المظلومين، فإذا بي أكون أحد المظلومين، ومِن مَن؟ مِن الفرس الأنجاس، ألا تبًا لهم ولكل من يتشدق بهم.

وبذلك فإننا قد أجبرنا على التوقف بسبب عدم وجود فسحة من طريق نمضي خلالها، وهذا يعني أننا سنتأخر عن موعد انطلاق الحافلة، وهذا ما أغضب أحد الحراس الذين لم يكونوا مبالين بالتحرش بنا ببادئ الأمر، وصرخ بتلك الجموع من أجل إفساح المجال لنا للمضي قدمًا بطريقنا نحو الحافلة التي تأخرنا عليها كثيرًا، بعد أن وجد الحراس أن تعريفهم لنا بكوننا أسرى لتلك الجموع الجبانة بقصد الإساءة إلينا؛ قد انقلب وبالاً عليهم بعد أن أوشكوا على فقدان زمام السيطرة بالحفاظ علينا، الأمر الذي تسبب بتعطيل مهمتهم بإيصالنا للحافلة التي أوشكت على الحركة، لتنتهي تلك المهزلة، وبنظرة خاطفة كنت أتفحص وجوه المعتدين من حولي؛ وقع نظري على إحدى السيدات العجائز التي كانت تراقب

ذلك المشهد من بعيد وهي تبكي بصمت من أجلنا وعلينا، فتبادر إلى ذهني أنها قد تكون صاحبة قلب رحيم، أو أن لها من هو أسير في العراق وتعتقد أنه يعيش هناك نفس تلك المحنة، وذلك غير صحيح على الإطلاق لأنه لم يحصل أن تمَّت الإساءة لأسير إيراني من قبل الجماهير في العراق.

وبين هذا المشهد الوحشي الجبان، وما كانت تتوعد به تلك الجموع الحاقدة الغاضبة التي ما كانت ستنتهي لولا حسم الحراس لأمرهم بعد أن أشهروا بنادقهم بشكل تقليدي، من أجل أن نمضي بطريقنا إلى مكان تواجد الحافلة التي ستقلنا إلى محافظة أرومية، على مدى اثنتا عشر ساعة قادمة من السير المتواصل ليلاً وحتى حلول الصباح، فانصاع الجميع وأفسحوا المجال مدبرين وخائفين حتى وصلنا إلى الحافلة بعد جهد جهيد وصعدنا إليها وتوزعنا، بحيث جلس كل حارس بجوار أحد منا نحن الثلاثة، وجلس رابعهم في الخلف من أجل أن يراقبنا جميعًا بعد أن حلوا قيودنا التي كانت تربطنا ببعض، وبقي كل واحد منا مقيد من معصميه فقط.

انطلقت الحافلة بنا وكنت أرغب في الحصول على منديل امسح به الدم الذي كان يتدفق من داخل عيوني، ولم أحصل على واحد منها حتى لو كان متسخًا، فتركت موضع الجرح ليتجمد الدم عليه، وبتلك الأثناء وجدت نفسي مطالبًا أكثر من أي وقت مضى خلال السنتين الماضيتين للحرب التي افتعلها الفرس بهجومهم على بلدي العزيز العراق، أن أشد على يد الرئيس صدام حسين الذي كان يهوي بالمطرقة العراقية الجبارة المتمثلة بإرادة شعبي العراقي بالتصدي، ليكسر بها تلك الرؤوس العفنة للفرس الأنجاس لعنة الله عليهم وعلى من يحتذي بهم من أراذل العراقيين، حتى وإن كنت محسوبًا على من كانوا يعارضوا سياسته الداخلية في العراق، باعتباري كنت پيشمرگة مناهض لنظام حكمه..

وعند أول حركة للحافلة بالسير على الطريق نهض أحد المسافرين الجالسين في المقدمة ليُتلي الصلوات على النبي وآله وقد بدأ بصوت منخفض خجول: اللهم صلي على محمد، ثم يهيج بشكل عنيف مرتفع وكأنه يدعوا للنفير بالحرب ليقول: وعلى آله صلوات الله عليهم، وجميع المسافرين يرددوا من بعده نفس ما يقول وعلى نفس طريقة إلقائه التي تفسر حتمًا بعيونهم الخبيثة على أن منزلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق أجمعين، لا يذكر اسمه الشريف من قبل هؤلاء القوم المنحرفين سوى من باب المجاملة بصوت مبحوح مخنوق، وإن آل بيته الأطهار هم الذين تصدح لهم الحناجر وكأنهم أكثر رفعة حاشاهم، من جدهم نبي الهدى للناس أجمعين، وتلك عادة كانت متبعة بكافة أنحاء إيران، وفاتني أن أذكر مثيلاتها التي حدثت أثناء ترحيلي من مريوان إلى سنندج ثم إلى طهران.

ولأن عدم ترديد ما كانوا يهتفون به يعتبر خطيئة بنظرهم، فلقد أصبحت أردد معهم بصوتٍ عالٍ ضاع وسط صراخهم لأقول: إن الله بريء مما تقولونه ولا تفعلوه، أسأل الله أن ينتقم منكم شر انتقام، إن النبي الكريم وآل بيته هم الأطهار وأنتم الأنجاس، ألا تبًا لكم وما تصنعه أياديكم من خبث وإيذاء... إلخ.

في تلك اللحظة بالذات شعرت متوهمًا، أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله وعليه السلام، كان قد أخطأ عندما أدخل تلك الملة الفارسية المشعوذة بدين مشترك يجمعنا وإياهم، ثم بعدها ينصبوا أنفسهم الخبيثة أوصياء علينا، عندما أدعوا بأنهم آيات عظمى و.. إلخ وصدقهم بعض المغفلين منا، وكان الأجدر به بعد أن كسر شوكتهم أن يتركهم لمجوسيتهم التي كانت ستحجم من غرورهم كفرس، وبذلك فإنهم لن يستطيعوا التعالي علينا بيوم من الأيام، وليس كما أصبح عليه الحال بعد أن أعلنوا إسلامهم ظاهريًا.

ذلك لا يلغي طبعًا وجود الرحمة بقلوب بعض الخيرين بذلك البلد اللعين الذي أصبح يدعى بإيران، لكن نسبة الخيرين منهم باعتقادي قليلة جدًا لا تتعدى نسبة الواحد من عشرة آلاف إذا ما أنصفتهم بهذه النسبة الافتراضية، هذا وأرجو من الله أن يغفر لي ما تفوهت به بحق سيدي ابن الخطاب في لحظة غضب نتيجة موقف لا أرجو لأحد غيري أن يمر به على الإطلاق. عفوًا يا سيدي عمر الفاروق على ما بدر مني وأسألك السماح يا سيدي وأنت صديق رسول الله وناصره على القوم الكافرين، وعذري بذلك هو إني كنت أشعر بظلم شديد من أناس أدخلتهم أنت بدين الحق وبعدها تنكروا لك قبل غيرك من المسلمين..

مضينا بتلك الليلة المظلمة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وجميع ركاب الحافلة قد خلدوا للنوم، وساد الصمت وأنا أتفكر وأقول لقدري: إلى أين المستقر هذه المرة يا ترى؟ وبتلك الأجواء كان قد اشتد بي الشوق والحنين للعراق أكثر من أي وقت مضى من وجودي بذلك البلد اللعين أو بكل حياتي السابقة فتناسيت جوعي وجروحي وألمي، وأخذت أردد ترنيمة بعينها بصوت منخفض وسط ذلك السكون المطبق بتلك الأجواء الساكنة، بشكل متقطع وعيوني تترقرق منها الدموع لتمسح الدم الذي علق بها نتيجة الجرح، وكنت أبدو حينها لمن تسنى له أن يسمعني أنني كنت أهذي، وهم لا يعلموا بأني كنت أغذي روحي وأشد من عزيمتي من خلال تذكري بوطني الغالي العراق.. ورددت: بلادي بلادي بلادي وإن جارت علي علي علي عزيزة وأهلي وأهلي وإن شحوا علي كرام..

استمرت الحافلة تسير بنا بذلك الليل الطويل، وقد علمت أن وصولنا إلى أرومية سيكون في الصباح الباكر، وحينها كنا بأولى ساعات الليل والأمر يستدعي بهذه الحالة نزول الركاب للاستراحة في المطاعم والمقاهي التي كانت

منتشرة على طول الطريق، ولعدة مرات قبل أن نصل في صباح اليوم التالي لمحافظة أرومية، الرضائية سابقًا، وبعد كل تلك الأحداث الدرامية شعرت بحاجتي لأن أدخن سيجارة علها تواسيني بذلك الموقف، لأني منذ ظهيرة الأمس عندما تركت قفص الأسرى، لم أستطع الحصول على واحدة منها لأدخنها، أو لقمة خبز أسد فيها رمقي، لأنني حرمت من وجبتي الغذائية الوحيدة التي كنت أحصل عليها هناك، وكذلك السجائر التي كنت بين الحين والآخر أحصل على واحدة منها، من تلك التي كان بعض إخوتي الأسرى من غير المدخنين، يحصل على ثلاثة منها بين الحين والآخر من الإدارة ضمن تعيينه كأسير، وكانت من نوعية إيرانية رديئة جدًا من غير فلتر، وببعض المناسبات كانت توزع عليهم السجائر العراقية من نوع سومر كنك سايز، وهي من تلك التي كانوا يغنموها أثناء المعارك، وعليه فلم أجد بُدًا لأن أطلب سيجارة من أحد المسافرين الذي كان يدخن بالقرب مني وسط ذلك السكون وباقي ركاب الحافلة نيامًا، فأعطاني سيجارة على مضض، استنشقتها وأنا بمعدة خاوية..

وفي أولى إحدى التوقفات من أجل تناول الطعام أو أداء الصلاة أو الاستراحة لمن كان يرغب من الركاب، وطبعًا نحن لم نكن نحتسب ركابًا ولا حتى بشرًا، وكان الوقت حينها التاسعة مساءً، فنزل الجميع باستثنائي ورفيقيَّ المجنونين المكبلين، وعندها قَسَّم الحراس أنفسهم على وجبتين، لينزل اثنان منهم إلى المطعم ويبقى الاثنان الآخران لحراستنا، على أن يتبادلوا المواقع بعد فترة وجيزة ليرجع من كان بالخارج ليبادله حارس آخر ممن كان معنا، ثم ليرجعوا بعدها مع بقية الركاب قبيل انطلاق الحافلة من جديد، فمكثت أتفرج على ما خطه الحراس من سيناريو بائس لم يحسبوا لنا فيه أي حساب باعتبارنا بشرًا نحتاج بالتأكيد للطعام أيضًا... حتى عاد جميع الركاب إلى الحافلة التي انطلقت بنا من جديد لتشق طريقها وسط ظلمة ذلك الليل وسكونه وأنا وسط أولئك

القوم الظالمون، وتوقفت الحافلة بنا من جديد بعد ثلاث ساعات أخرى وكان الليل قد انتصف حينها، فنزل جميع الركاب واثنين من الحراس كما حصل أثناء التوقف السابق، وبعد فترة قصيرة طلبت من أحد الحارسين النزول من الحافلة لقضاء حاجتي، فأنزلني من الحافلة وترك صاحبه لحراسة الاثنين الآخرين، وكان الطقس شديد البرودة بخارج الحافلة ولكنه سرعان ما تلاشى لدى دخولنا إلى قاعة المطعم الدافئة وروائح الأطعمة الشهية تفوح من المأكولات التي كانت تقدم إلى ركاب حافلتنا وغيرهم من ركاب لحافلات أخرى كانت متوقفة بذلك المكان للغرض نفسه، فمضى بي ذلك الحارس إلى مكان دورة المياه، ودخل فيها من أجل أن يفتشها إن كان هناك أي منفذ قد أستطيع الهروب منه، وعندما اطمئن لعدم وجود نافذة كبيرة، سوى واحدة صغيرة جدًا كانت قريبة من السقف، فك القيد من يدي وأدخلني لدورة المياه ووقف ينتظرني على بابها، ولأني كنت جائعًا فلم يكن لدي من حاجة أطرحها هناك، واكتفيت بغسل يدي ووجهي وخرجت بعدها لأجد الحارس قد حضر القيود ليعيدها إلى يداي، ثم اقتادني ليرجع بي إلى الحافلة.

وحينما مررنا بجانب المائدة التي كان يجلس عليها باقي زملائه وهم يتناولون طعامهم، طلب مني أولئك الحراس الأوغاد أن أجلس إلى مائدتهم، فانصعت لأمرهم لأني كنت حريصًا على ألا أضع الحجة بيد أحدهم وبالتالي أتعرض للإهانة التي لا تليق بي وبأي عراقي شريف، مع يقيني إنهم لم يبغوا الخير لي بذلك الطلب أو الأمر، وعندما جلست تعمد أولئك الجنود، وقد صدقت ظنوني، برمي بعض فتات الخبز أمامي على نفس طاولتهم وهم يضحكوا بصوت عالي واستهتار مبالغ به ونحن بمكان عام ومحترم على ما كان يبدو، ظنًا منهم خاسئين أني سألتقط إحداها بسبب الجوع، تمامًا كما يفعل البعض عند إطعام كلابهم، وللأمانة أقولها من غير خجل، أنهم لو رموا لي بسيجارة، لكنت قد

أخذتها على الفور ودخنتها من غير تردد، غير مباليًا بنواياهم الخبيثة وليذهبوا للجحيم، وهذه هي إحدى المساوئ الأخرى للتدخين بمثل ذلك الظرف الذي لا أتمناه حتى لعدو لدود، ولكن الطعام كان أخر ما كنت أفكر به، بسبب الحالة النفسية المزرية التي كنت عليها، وعليه فإني لم أعرهم أي اهتمام يذكر وكأني لم أكن أراهم أو أسمعهم، بعد أن كظمت غيظي والتفت إلى جهة أخرى كأن الموضوع لا يعنيني.

وهناك وقع بصري على رجل بالعقد الخامس من عمره وهو يتجه نحوي، باحتمال أنه قد رأى تلك السخرية المبتذلة التي أقدم عليها أولئك الحراس وهم يرموا لي بفتات الخبز، وقرر أن يقدم لي الطعام الذي كان قد طلبه لنفسه، وقال لي بالفارسية: بفرمو أغا، وتعني: تفضل يا سيدي، وهنا تدخل الحراس ونهروه لما فعله قائلين له: هل تعلم من يكون هذا؟ إنه أسير عراقي.. وكأنهم بذلك أرادوا أن يعيدوا استخدام نفس الورقة الصفراء التي نجحت معهم في كراج السفريات بطهران عندما حرضوا الناس ضدنا بقولهم هؤلاء أسرى عراقيين، لأنه برأيهم يريد أن يطعم كافرًا عراقيًا أسيرًا، وذلك باعتقادهم الأهوج أمر كان يسيء لأي فارسي بحسب اعتقادهم المنحط، وعندها صرخ بهم ذلك الرجل الطيب بعد أن خرج عن حالته الهادئة التي كان عليها، قائلاً لهم: تعترفون أنه أسير، والله يوصي بقرآنه بالأسير واليتيم وابن السبيل، فبئس المسلمين أنتم، وعلى أثرها خنس الحراس بعد أن ألزمهم ذلك الرجل الطيب الحجة، وسحبوا اعتراضهم قائلين لذلك الرجل الطيب: افعل ما تريد فعله.

فقلت بما تعلمته من اللغة الفارسية لذلك الرجل المسلم بحق:

- شكرًا على صنيعك يا سيدي ولكني لست بجائع.

ففهم الرجل مقصدي على أنها مكابرة وعزة نفس فقال:

- أرجوك أن تتقبل مني هذا الطعام يا سيدي!

فقلت :

- حسنًا أقبله إذا ما حضر زملائي المحجوزين بداخل الحافلة ليأكلوا معي.

فاستدار بوجهه إلى الحراس وقبل أن يتكلم إليهم، أرسل رئيسهم أحد زملائه لإحضار الاثنين الآخرين من الحافلة، وعندما اكتمل عددنا، وحضر رفيقيَّ المجنونين وجلسا على مائدة قريبة منا، باشرت أكل ما رزقني به ربي الذي سخره لي عن طريق ذلك الرجل الطيب، والطعام كان عبارة عن صحنين أحدهما فيه الأرز والآخر فيه مرقة الفاصوليا، وكنت بكل لقمة أدخلها لفمي انظر إلى ذلك الرجل الشهم وأدعو له بالعافية وتجنبه لأي مكروه بحياته، حتى شبعت أنا ورفيقي الاثنين، والجوع كافر لا يرحم لمن جربه، والرجل الطيب لم ينفك على خدمتنا طوال تلك الفترة ذهابًا وإيابًا، وعنما انتهينا من تناول الطعام، أحضر لنا الشاي بيده الكريمة، على الرغم أن الطريقة المتبعة بتلك الأماكن هي أن يقوم النادل بتلك الخدمة، ولكنه كان على ما كان يبدو حريصًا أن يأخذ أجره من الحسنات مضاعفًا من الباري عز وجل، وهو والشهادة لله يستحق أن يكون مثواه في الجنة بصحبة الصديقين والأولياء الكرام، والله أعلم، وأنا والله حتى لم أتعرف حينها على اسمه ولم أعد حاليًا أتذكر حتى شكله على الرغم من بغضي الشديد للفرس بسبب أعمالهم الخبيثة في إيذاء بلدي، ولكني مازلت أذكر ذلك الرجل الإيراني المسلم بكل خير لأنه من عباد الله المخلصين للإسلام الحقيقي، وأمثاله هم من القلائل جدًا ببلاد فارس..

صعدنا جميعًا لتلك الحافلة المتوجهة بنا إلى محافظة أرومية بعد أن أشبع بطوننا ذلك الرجل الإيراني الصالح الذي لم يكن أحد ركاب حافلتنا، وهو لم

يكتفِ بتصرفه الإنساني الذي طوق به رقبتي وأنا العراقي الذي لا يتنكر للجميل، فقد سألني قبل أن يودعني إن كنت أحتاج لشيء آخر يفعله من أجلي؟ فقلت له بحياء تام طمعًا بكرمه: ينقصني أن أدخن سيجارة، فذهب مسرعًا إلى إحدى الأكشاك المجاورة وعاد ليعطيني علبة دخان كاملة، وتوجه لرفاقي الاثنين الذين اشترى لكل واحد منهم جواريب شتوية سميكة وألبسهم إياها بيده بأرجلهم التي كانت عارية وترتجف من البرد وأعطاني واحدة منها، لأننا كنا نرتدي نعلاً صيفي ممزق، بسبب مصادرة أحذيتنا من قبل إدارة الزنازين التي كنا نقبع فيها، فشكرته حينها وودعته بكل محبة واحترام.

تمنيت لو كان كل الناس في إيران على نفس وجدانه وضميره وإسلامه الصحيح، وعندها سيتحقق لنا أن نعيش بسلام ولن نضطر لمقاتلة بعضنا البعض لنصبح أعداء على أمد الدهر، كما فعل الفرس بعدائهم للعراق منذ القدم، عندما هاجموا البابليين قبل أربعة آلاف سنة، وأسقطوا حضارتهم التي علمت البشرية الأبجدية وسن القوانين لتنظيم الحياة، ولكن كيف سيتحقق ذلك وهذه السماحة والخلق الرفيع وهي الخطوط الحمراء التي لا يسمح ملالي قم وطهران بتجاوزها أو العمل بها؟ لأن المسامحة والمحبة والتآخي وحسن الجوار؛ هي مفردات ممنوعة بقاموس حياتهم اليومية والسياسية وحتى الدينية التي ابتدعوها كما أسلفت بالشرح الوافي عن ذلك، لأنها مبنية على الثأر الشوفيني العنصري الفارسي الأعمى، منذ أن أطفأ المسلمون العرب نار مجوسيتهم بمعركة القادسية بصدر الإسلام على أقل تقدير.

عند تلك النقطة أود أن أنوه وأشير أن كل من تصرف معي بطيب وإحسان من كل أولئك الفرس الذين صادفتهم بإيران، باستثناء هذا الرجل الطيب، وذلك الجندي الإيراني الكردي قهرمان الذي صادفته في سجني بقضاء مريوان

الحدودي مع العراق.. لأن الباقين ممن عاملوني بأحسان كانوا يروا بصورة شخصي متوهمين أنني ذلك الحليف من جماعة مسعود البرزاني وبالتالي تعاطفوا معي، باعتباري واحد منهم وليس على اعتباري عراقي وحسب، فما بالكم لو أنهم تمكنوا من قراءة أفكاري الوطنية؟ ليعلموا أني كنت أحد مقاتلي الجيش العراقي! الجواب يكمن بتفاصيل ما رويته لكم من ذلك الإيذاء المتعمد وتلك الممارسات البغيضة التي تعرضت لها على طول أمد رحلتي هذه، ناهيك عن ما علمتوه من المعاملة الوحشية الدنيئة لإخوانكم الأسرى من العراق تلك التي نقلتها لكم وما خفي منها كان أعظم.

مضت بنا الحافلة مرة أخرى بظلمة تلك الليلة التي لا تنسى، لتسير بنا لما تبقى من الليل باستثناء توقف واحد كان من أجل استبدال السائق بواحد آخر، حتى وصلنا إلى أطراف محافظة أرومية أثناء الصباح الباكر، ولدى مرورنا ببعض المعسكرات الدائمية للجيش الإيراني الممتدة على جانبي الطريق العام، والحافلة متوجهة بنا لوسط المدينة، عندها نادى أحد الحراس على سائق الحافلة من أجل التوقف بغرض النزول، باعتبارنا قد وصلنا لمبتغانا، فنزلنا جميعًا وقيدنا الحراس ببعضنا على نفس الطريقة التي كنا فيها قبل أن نستقل تلك الحافلة في طهران، وذلك بأن ربطوا إحدى يداي بأحد زملائي المجانين واليد الأخرى بيد المجنون أو مدعي الجنون الأخ ومضوا بنا سيرًا على الأقدام باتجاه إحدى بوابات تلك الوحدات العسكرية المتفرقة هناك من التي كانت تبعد مسافة النصف ساعة مشيًا على الأقدام عن الشارع العام في الظروف الطبيعية، ولأن الطريق لم يكن معبدًا ويكسوه الجليد الذي كان على شكل صقيع متجمد، فإنه كان من الصعوبة علينا أن نمشي عليه ونحن مربوطين ببعضنا بالأصفاد الحديدية من غير أن نتزحلق ونحن بدون أحذية تساعدنا على الثبات أو موازنة أنفسنا، ناهيك عن برودة الطقس بذلك الوقت المبكر من ذلك الصباح، الأمر

الذي كان يتوجب مني أن أحافظ على توازني عندما ينزلق أحدهم من أجل أن لا أقع أرضًا بسبب ربطي بهما، وعليه فإني كنت أعمل على سحب ذاك الذي على يميني عندما ينزلق، ونفس الشيء كنت أفعل مع الآخر الذي على يساري، حتى تزحلق الاثنين سويًا وأوشكوا على إيقاعي معهم لو لم أكن محتسبًا لذلك، وعندها توجب علي رفع الاثنين معًا لكي يعتدلوا بمشيتهم، ومضينا من جديد بطريقنا إلى المجهول.

وكل ذلك الذي كان يجري لم يمد لنا أحد من حراسنا الأربعة الأوغاد يدًا للعون، لأنهم كانوا مستأنسين بذلك المشهد الذي جعلهم يغرقون بنوبة من الضحك الهستيري المستمر الذي أوشكوا به على الاختناق، ألا تبًا للفرس وتبًا لكل وضيع يتمثل بهم.

وأخيرًا وصلنا جميعًا إلى بناية لمقر وحدة عسكرية واستقبلنا حراسها الذين كانوا يراقبون حركتنا من مكانهم، بأهازيج وصرخات وعويل بصوت عالٍ لم أفهم مفرداتها بالتمام لما كانوا يرددونه وهم ينعقون، ولكني علمت أنها كانت كلمات نابية بذيئة تعبر عن شعورهم بنشوة النصر، لاعتقادهم أننا من الأسرى الذين تمَّ أسرنا حديثًا، ونحن في طريقنا إلى أحد أقفاص الأسرى العراقيين بتلك النواحي، فمررنا بجانبهم لندخل إلى استعلامات تلك الوحدة العسكرية من غير أن أعيرهم أي اهتمام يذكر أو ألتفت نحوهم.

واستمر حراس تلك الوحدة العسكرية على نباحهم الذي لا أستطيع أن أشبهه بنباح الكلاب لكي لا تدَّعي الكلاب أني ظلمتها كونها لا تنبح إلا عندما تستشعر بالخطر، ولأن لها صفة الوفاء التي تتميز به عن باقي المخلوقات، وهي صفة انعدمت بتلك الكائنات التي هي أبعد ما تحمل صفة الآدمية، وسيدنا آدم وجميع ذريته من البشر وخالقهم؛ هم براء من أفعال هذا العنصر البشري الخبيث

المتنكر لإنسانيته، باستثناء القلة القليلة منهم كما شرحت ذلك سلفًا، وعند دخولنا إلى دائرة الاستعلامات تلك الوحدة العسكرية سلمنا الحراس الأربعة إلى من يعنيهم أمرنا بعد أن زودوهم بوثائقنا من الكتب الرسمية، ورفعوا عن أيدينا أصفادهم الحديدية وانصرفوا عائدين لوحداتهم العسكرية بطهران، وجلسنا نحن الثلاثة بدائرة الاستعلامات، وكنت حينها بأشد حالات التوتر النفسي لما سيكون من أمري وزملائي الذين لم يتكلموا بحرف واحد منذ بداية سفرتنا من طهران، وهم يمثلوا بإتقان دور المتخلفين عقليًا، ليسبحوا بغياهب اللاوعي بكل ما كان يدور من حولهم، الأمر الذي جعلني بحيرة من أمرهم، لأني لم أتبين إن كانوا أسرى أم لاجئين تحولوا لأسرى، كصاحبنا سعيد طيب الذكر، ولكني وجدتهم أثناء تلك اللحظات الحرجة قد بدأ القلق والتوتر يظهر عليهم أيضًا، واستشعروا بأهمية ذلك الانتظار وهذا يؤكد أنهم ليسوا بمجانين. حتى جاءنا بعد قليل أحد الجنود من منتسبي تلك الوحدة العسكرية من الذين يعنيهم أمرنا، وسأل عن العبد لله هشام النورسي أي واحد هو فينا؟ فأخبرته بأنني هو الذي يسأل عنه وكنت على حالة من الضجر والتذمر وعلامات الغضب بادية على وجهي بسبب ذلك الاستقبال الهمجي لنا من قبل جنود الحراسة، فقال:

– لماذا أنت حزين وقد أصبحت حرًا طليقًا؟!

فقلت باستغراب شديد:

– ماذا؟!!

فأعاد على مسمعي نفس ما قاله لي قبل لحظات، ولا تزال تلك العبارة الفارسية التي تفوه بها مطبوعة بذاكرتي وكأنها جرس يدق بعالم النسيان:

– شُوما آزادي..

وتعني بالعربية: أنت حر طليق.

وبعدها أكمل حديثه ليوضح لي الموضوع أكثر وقال:

- سنرسلك إلى دائرة الانضباط العسكري بوسط البلدة، وهناك ستتم الإجراءات الرسمية لتسليمك إلى حلفائنا من جماعة البرزانيين باعتبارك أحد مقاتليهم.

وللعلم فإن المقاتل بالفارسية يدعى مبارز... ولا أكتم سرًا عندما أقول إنني حينها لم أفرح من كل قلبي لذلك الخبر الصاعق بل أستبشرت خيرًا باعتبار أن ذلك الحدث إن كان حقيقيًا فهو رحمة ونصر رباني سخره لي ربي ورب جميع الخلائق، وهو الذي يستجيب لدعوة المظلوم بكل زمان ومكان، ولكن التجربة علمتني ألا أستعجل بالتفاؤل لكل ما يقال لي بذلك البلد اللعين، كما كان يحدث معي في كل الوعود السابقة التي اتضح بعدها أنها زائفة، وبالتالي تنقلت من سجن لآخر ومن زنزانة إلى قفص للأسرى.

ومن أجل أن أختبر صدق كلامه على طريقتي الخاصة التي تعلمتها بتلك الظروف العصيبة، طلبت منه طلبًا لم أطلبه في السابق من أي أحد غيره وقلت له:

- أرجو أن تسمح لي بتناول قدح من الشاي أشربه مع هذه السيجارة؟

فقال من فوره:

- لك ما طلبت، وسأحضر لك بعض الطعام أيضًا لأنك بالتأكيد جائع بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة، ريثما أرسل بطلب سيارة تنقلك مع هذين الشابين الذين سيحقق معهم من قبل جماعتك في القيادة البرزانية، وعندها ستكون أوراقكم الرسمية جاهزة أيضًا..

كان هذا مؤشر على صدق أقواله باعتباره قد احترمني كطليق، وليس كأسير أو سجين كما كنت في سابق الأيام التي تعرضت فيها لكل أنواع القهر والإذلال. فابتسمت له في إشارة على القبول والرضا من ناحية وإلى احتمال قوي بصدق

ما قاله لي من خبر سار من ناحية أخرى، وذلك الحدث الذي كان بالأمس من سابع المستحيلات لكنه تحقق وأصبح ميسر بفضل من الله عز وجل ورحمة منه، وهو القادر على كل شيء بعد أن أصبحت على شفا حفرة من اليأس بالنجاة فرحمني ربي ونجاني..

وبعد تناولي الطعام الذي أشركت فيه زملائي الشابين اليافعين المجنونين أو مدعيّ الجنون، وقد تغير حالهما لدى سماعهما أنهما سيحقق معهما عند جماعة البرزانيين، وتلك إشارة عن أنهما فعلاً واعيان ويفسران ما كان يدورمن حولهما وبما سيحدق بهما من شر هناك، على عكس ما كانا يتظاهران به طيلة فترة سفري معهما.. وبعد أن انتهينا من تناول وجبة الإفطار، ويا للهناء الذي حل علي برحمة من ربي، عشاء كان في المساء يتبعه إفطار في الصباح، وعلبة دخان بكاملها بجيبي، وبشائر الحرية تهل علي بحق وحقيقة، وحينها شعرت أن كنوز الدنيا كلها لم تكن تعادل تلك اللحظات الممزوجة بين الفرحة المصحوبة بهاجس من القلق...

بعد ساعتين من وصولنا لتلك الثكنة العسكرية، اصطحبنا أحد الجنود إلى عجلة جيب عسكرية دون أن يضع القيود بأيدينا، وانطلقت عجلته تسابق الريح إلى داخل مدينة الرضائية، وهناك سلمنا إلى استعلامات دائرة الانضباط العسكري بوسط البلدة، وجلسنا في الاستعلامات ننتظر حتى حضر ضابط الاستعلامات وكان برتبة ملازم ثان، وهو شاب لطيف وكريم للغاية لاعتقاده أني من حلفائهم البرزانيين طبعًا وليس لأي سبب آخر، وقد جاملني كثيرًا وتودد لي وكأنه كان يعرفني منذ زمن طويل، وبشرني أنه قد أرسل بطلب حضور ممثل حزب البرزاني من المبارزين حسب تعبيره من داخل مدينة الرضائية من أجل أن يستلمني أنا والاثنين الآخرين بشكل رسمي... فقلت في نفسي: هل من الممكن

أن أستحق هذه الرحمة الكبيرة من ربي؟ ولم لا؟ وأنا لم أخن بلدي وقلت كلمة الحق وكنت صادق فيها في بلد معاد دون خشية أو خوف، والله ناصر لعباده الصادقين وهو الذي يعلم بما تخفيه الصدور.

حينها لازمني إحساس وهاجس خفي، وكأن أحد كان يهمس بأذني ويقول لي: إن هذه الرحمة مشروطة بالوعد الذي كنت قد ألزمت نفسك به، وأشهدت عليه ربك، بالعودة لوطنك من غير خشية للعواقب، ولا تغرك الحرية التي أنت فيها فتتراجع عما تعهدت به... لقد كان ذلك الصوت الخفي هو صوت الضمير بلا شك وهو يناديني ليذكرني بوعدي ويحذرني من النفس الإمارة بالسوء، وبعد كل تلك الهواجس التي انتابتني قضيت وقتي بانتظار من سيأتي من جماعة حزب البرزانيين ويستلمني.. ولم ينفك ذلك الضابط الشاب الذي كان يتكلم معي بكل ود بالفارسية تارة، وبالقليل من الإنكليزية تارة أخرى لأني أخبرته بمعرفتي لمفرداتها، وكذلك كان هو أيضًا ولكن بمستوى معرفة أقل، ولم أحترس من التكلم بالإنكليزية هذه المرة لأن الموضوع كان قد أشرف على نهايته لأخرج من ذلك الكابوس المرعب، لقد كان يبدو أن ذلك الملازم الشاب كان يلاطفني من أجل إزالة ما قد ترسب بنفسي جراء تلك المعاملة القاسية التي تلقيتها خلال تلك الفترة المنصرمة من تواجدي بذلك البلد اللعين، حتى إنه لشدة ارتياحه واطمئنانه لجانبي، قال لي بصوت منخفض بعد أن تلفت ذات اليمين والشمال ليتأكد بأن ليس هناك أحد آخر بالإمكان أن يسمعنا:

– يبدو لي أن المعيشة في العراق أفضل من إيران، لأن الحياة هنا قد أصبحت لا تطاق ولا تساوي شيئًا لانعدامها من كل مباهج الحياة الدنيوية، بعد أن أصبح الجميع ينادي بالحياة الآخرة، حتى أصبحت مفردة الحرام هي الطاغية بكل الخطب، في الوقت الذي قلت مفردة الحلال بقواميسنا...

ثم اقترب مني أكثر وهمس في أذني:

- كالويسكي مثلاً والملاهي الليلية التي كانت منتشرة عندنا في العلن وأصبحت الآن تدار في الخفاء فقط لأولئك المتنفذين في الحكم فقط...

وعند ذلك الحد من سماعي لكلامه وهو يهمس بالقرب من أذني ضحكت عميقًا وكأني قد أمضيت دهرًا من الزمان لم أجرب الضحك فيه، لما كان عليه ذلك القول من تفاهة، لأنه لم يكن المقياس الصحيح التي تقاس به الأوطان، وقلت له ممازحًا:

- حرام عليك يا رجل أن تقول هذا.

فضحك وقال:

- وأنت أيضًا تبدو من خطباء الترويج للحرام؟!

وأثناء ذلك دخل إلى دائرة الاستعلامات شخص بمتوسط العمر يرتدي البنطال والجاكيت ليقطع حديثنا ويرحب بي، لأنه قد عرفني من خلال الزي الكردي الذي كنت أرتديه وأنا معتمر للكوفية الحمراء برأسي على طريقة اللفة البرزانية الباهدنانية، وعرف نفسه لي أنه يدعى جهاد، وهو ممثل الارتباط ما بين حزبه وحكومة ملالي إيران... فأخبرته بلغتي الكردية الركيكة باللهجة السورانية غير المعمول بها لكل الأكراد من الباهدنانيين هناك، بشكل موجز وقصير عن ما كان من أمري عند اعتقالي في قضاء مريوان المحاذي للحدود العراقية، وبدا عليه أنه لم يكن مهتمًا بمن أكون وماذا حصل لي، وقال لي باللهجة السورانية التي هي غير لهجته البادنانية:

- يظهر أنك قد تعلمت اللغة الكردية حديثًا وهي ليست لغتك بالتأكيد..

فقلت له:

- هي لغة أبي وكل أجدادي لكنني مولود في بغداد وعشت وترعرت فيها أيضًا.

- أنا أعرف العربية جيدًا وبإمكانك التكلم معي بها إن شئت.

فقلت بالعربية:

- لنخرج أولاً وفي الطريق نستطيع أن نكمل حديثنا.

-من هذين الشابين؟

وكان يقصد زملائي المجانين، فقلت:

- لا أعلم عنهما سوى إنهما قد سافرا معي من طهران وقد تبين لي قبل ساعة فقط أنهما سيسلمان إليكم على ما يبدو، وحقيقة ليس لي علم إن كانا كوردًا أم عربًا أم هما من قومية أخرى.

فسأل صاحبنا المدعو جهاد ضابط الاستعلامات عنهما فأخبره:

- إنهما بحسب الكتاب الرسمي الذي تلقيته محولين للتحقيق عندكم.

عندها وقع جهاد على استمارة باستلامنا نحن الثلاثة، وأستلم أوليات كل منا من التي أرفقت بذلك الكتاب الرسمي ثم التفت إلي قائلاً:

- حسنًا لنذهب لمقري وهناك سنوفر لكم عربة لاندكروز نرسلكم بها إلى مقر القيادة العام للحزب، ما دمنا في بداية النهار لأنه يقع بضواحي الرضائية وليس بداخل المدينة، وبذلك أكون قد أنجزت مهمتي هذه لأن عملي محصور برعاية اللاجئين الكورد في هذه المدينة.

بعدها ودعت ذلك الضابط الإيراني الشاب وشكرته على حسن ضيافته لنا فقال:

- على الرحب والسعة وتذكر إذا احتجت إلى أي شيء فتعال إلي من غير تردد، وأنا متواجد هنا بصورة دائمة أثناء الدوام الرسمي، وما عليك سوى أن تطلب ذلك من الجنود الحرس في الباب.

عند خروجنا للشارع مشيت أولى خطواتي من غير قيود أو حراس يقودوني وقلت بيني وبين نفسي: بسم الله الواحد الأحد أبدأ بأولى خطواتي رجوعًا

للوطن الغالي، باسمك اللهم أتوكل عليك وأنيب لك أمري فانصرني ووفقني يا رب العالمين، وأتمم علي نعمتك إنك مجيب الدعاء بعد أن نجيتني من القوم الظالمين، إنك أعلم بما تخفيه الصدور.. وهتفت في سري أيضًا بحرقة فؤاد مرحى يا عراق إني قادم إليك يا بغداد لأكحل عيوني بتربة أرضك الطاهرة الزكية والله هو المستعان..

ركبنا بعدها السيارة الخاصة لذلك الرجل البارزاني الذي استلمنا من الجيش الإيراني.. وكانت متوقفة خارج تلك الثكنة العسكرية بوسط البلدة، ومضينا معه بعد أن كادت الأرض لا تسعني من شدة الفرحة، كوني أصبحت طليقًا من جديد، وقد أحسست حينها بمدى ثمن الحرية التي لا نقدرها عندما نعيش بظروفنا الاعتيادية، مع فارق كبير بمستوى الإدراك والوعي الذي أصبحت عليه من خلال تلك المحنة العسيرة التي مررت بها خلال تلك الفترة القصيرة، وبالتالي جعلت مني إنسانًا ناضجًا آخر، غير ذلك الإنسان الذي كنت عليه يوم اعتقالي في مريوان وما قبلها، عندما كنت أتصرف على سجيتي من غير تحسب، عندما كنت أحلم بتحقيق هدف تبين أنه صعب المنال وإن كان مشروعًا وعلى صواب تام، حتى شبهت نفسي، مفترضًا: أنني كالذي كان يتمشى على ساحل البحر الذي بدا له هادئًا وهو مسترخي بمشيته، ثم اجتاحته أمواج الإعصار العاتية التي داهمته بشكل مفاجئ لترميه وسط البحر الهائج، ليجد نفسه بمأزق لا يملك فيه سوى أن يبذل قصارى جهده من أجل أن يبقى عائمًا فقط ولا يغرق، على أمل أن تعيده إحدى تلك الأمواج المجنونة إلى ساحل البحر من جديد إن بقي صامدًا، قبل أن تخور قواه إلى حيث الأمان والاطمئنان، وبعد صموده المفترض سيجد نفسه قد أصبح سباحًا ماهرًا خبيرًا بما تخبئه الأقدار، ومختلفًا عن ذلك الذي لم يتحسب لما كان يدور حوله من أخطار.

هكذا كنت وما أصبحت عليه عندما شبهت نفسي بذلك الشخص الذي افترضت أنني هو، مع فارق اختلاف عواقب الرجوع وما سينتظرني لو تمكنت من الرجوع لرحاب الوطن من جديد لمثل حالتي.. فذلك الشخص الافتراضي رجع إلى ساحله الذي وجده هادئًا ووديعًا، وأنا بشخصي الحقيقي عائد إلى نفس النقطة التي كنت أقف عندها قبل أن يأخذني القدر عندما كنت في بغداد. وهناك احتمال أني قد أجد هناك من ينتظرني ليزايد على وطنيتي ويشكك بنزاهتي، وهو أمر لم يعد ذو أهمية في حساباتي حينها، لأن الرجوع للوطن هو النصر بحد ذاته، وهو أمر مفروغ منه كقرار لا رجعة عنه.. وفي كلا الحالتين، أنا والشخص الذي ضربته كمثل؛ لم يكن لدينا خيارًا آخر سوى الرجوع للوطن العزيز. وإذا ما صدقت ظنوني بما سألقاه من سوء في المعاملة الخشنة إن لم أعذب هناك بقسوة؛ فذلك أمر أستحقه وأقر به سلفًا، لأنه سيكون تحصيل حاصل لما جنيته أنا على نفسي.

ناهيك عن أن هذا الافتراض سيكون على أيادي من هم أهلي وأبناء وطني، وليس على نفس الشكل السقيم الذي جنيته من هؤلاء الفرس الملاعين، مع خشيتي من هاجس آخر بأن أقع مجددًا هناك في بغداد، بيد نفر من أولئك الخونة الذين يدَّعوا الولاء جهارًا للوطن، وفي سريرة أنفسهم ينظرون بعين التعاطف والولاء لإيران، لاعتقادهم أنها المعبرة عن ما تشعر وتؤمن به نفوسهم المريضة من ولاء مذهبي، إن لم يكونوا على نفس شاكلة أولئك العملاء مزدوجي الولاء من الضباط، الذين تعرفت على خياناتهم من خلال تسليم أنفسهم باتفاق مسبق مع الفرس، عن طريق تنظيمات حزب الدعوة العميل، على الرغم من أن رتب بعضهم كانت عالية ويشغلوا مناصب أمنية بوحاتهم العسكرية، لأن تسللهم بين صفوف حزب البعث هو بغاية مصلحية من غير أن يعلموا، أو هم على علم أن مشروع الفرس هو توسعي قومي عنصري

صرف... تلك كانت من أكثر المآسي التي اطلعت عليها أثناء فترة وجودي مع إخوتي الأسرى، حتى إنني كنت أخشى على العراق منهم، لأنهم كالسرطان الذي ينخر بجسم صاحبه من غير أية أعراض جانبية توحي بالخطر، حتى يتمكن من كامل الجسد ثم يجهز عليه دون رحمة أو سابق إنذار ليقتله بضربة قاضية جبانة... وهذا الأمر تبادر لذهني أول نيلي لحريتي بتلك اللحظات، وقلقت كثيرًا لما قد ألقاه عندما أقع بأيدي البعض منهم، وهم على ما بدا لي كثيرون ومنتشرون بكل مفاصل الدولة العراقية، وهذا ما تكشف لي خلال تواجدي هنا في إيران.. الأمر الذي لم أستطع أن أسقطه من حساباتي أثناء العودة التي أصبحت أمرًا محسومًا وغاية حتمية.. فبدأت بوضع الخطط لكيفية العودة أول ما علمت بأني سأكون حرًا طليقًا بذلك اليوم المشهود، الذي كان مصادفًا لليوم السابع المتبقي من تلك السنة لعام ١٩٨٢، حتى خلصت إلى نتيجة مفادها أن أتوكل على الله وهو سبحانه من سيتدبر أمري بعد أن نجاني من أولئك القوم الظالمين..

وعليه فإنني يجب علي أن أحصر كل تفكيري كخطوة أولى مهمة للخلاص وأنا بأقصى الشمال الإيراني المحاذي للحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي حينها، من خلال دراسة الجغرافيا والعراق لم يكن قريبًا بتلك النواحي على الغرب من إيران، لأن الحدود الغربية هنا كانت مع تركيا وليس مع الوطن العزيز كما كنا في بداية اعتقالي في قضاء مريوان غرب إيران وعلى الحدود مع العراق.. بمعنى أن هذا المكان هو شمال المثلث العراقي التركي الإيراني بمسافة بعيدة جدًا، وهذا يعني أنني كنت أرى أن الوطن الغالي بعيد جدًا عن موقعي الذي كنت فيه بمدينة الرضائية، وهي منطقة كوردية يعيش عليها الأكراد الإيرانيين بنسبة عالية ويليهم بنسبة العدد التركمان، ومن بعدهم الفرس وقليل من الأذريين.

واستنادًا لذلك، ومن أجل أن أحصر توجهي بهدف معين حتى لا تتشتت أفكاري وأرى أن الرجوع للعراق قد يكون مغامرة أو مجازفة صعبة المنال؛ فإني اتبعت طريقة هونت فيها الأمر على نفسي لبُعد المسافة الشاسعة التي كانت بيني وبين أرض الوطن، وذلك بأن أجعل كل تفكيري منحصر بإقناع قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني بالرجوع لمجموعتي في كوردستان العراق، ولدى نجاحي سأعمد بالعودة لقضاء مريوان الحدود المحاذي لأرض العراق من جهة كردستان، وذلك بالتوجه جنوبًا عبر اجتياز العديد من المدن الكبيرة والمحافظات الإيرانية، كمرحلة أولى لا يتوجب علي أن أفكر بسواها من بقية المراحل، والمرحلة الثانية ستكون بالتأكيد هي العبور إلى كوردستان العراق التي لم أضع الخطة لها، لأنه سيكون لدي متسعًا من الوقت الكافي بوضعها وأنا بذلك الطريق الطويل إلى مريوان وليس الآن، فالوقت كان مبكرًا على ذلك.

والمرحلة الثانية ستبدأ بالتأكيد عندما أنطلق من مريوان لأعبر الحدود على الشكل الذي سأرسمه بعد نجاحي بوصولي لمريوان، وعندها ستكون لي حتمًا خطة أتبعها من أجل أن أصل إلى محافظة السليمانية الحبيبة وبحسب الوقائع التي ستحدث هناك، أي بعد اجتيازي للحدود الدولية ما بين العراق وإيران، متحاشيًا التسرع والخوض بأي مجازفة من التي قد تعرضني للخطر وأنا في طريقي إلى أرض الوطن العزيز، في المنطقة التي كانت خارج سلطة الحكومة العراقية، ثم وضع خطة من أجل تسليم نفسي للسلطات الأمنية العراقية بداخل محافظة السليمانية كمرحلة ثالثة وأخيرة بعونه تعالى..

وما سيترتب علي بعدها عند وصولي سالمًا، وما سيحصل لي بسبب طرح كل أوراقي علنًا هو أمر لا ينبغي لي أن أفكر فيه على الإطلاق، لأن مهمتي حينها تكون قد انتهت بعد أن أوفيت بعهدي لربي ولضميري ولوطني، وانتصرت

بعون من الله عز وجل. وبافتراض أن أسوأ أمر قد يحصل لي هناك هو أنني سأخسر حياتي؛ فأنا قد نذرتها مقدمًا قربانًا لتربة وطني الطاهرة، والموت شهيدًا في سبيلها هي منزلة ليست من بعدها منزلة، خصوصًا أني حينها سأضمن دفن جثتي بأرض أبائي وأجدادي، وتلك أمنية وجدتها مستحيلة عندما كنت بقفص الأسرى العراقيين بطهران الخسة والنذالة الفارسية اللعينة..

لقد كنت أخطط لكل تلك المراحل وكأني كنت أرى من أمام عيني شريطًا يصور لي جميع تلك المراحل، التي لم أفكر بها بسابق أيامي عندما كنت حبيس الزنازين والأقفاص، وأنا الآن بعجلة من أمري لتدبير ذلك قبل أن أصل إلى مقر قيادة الحزب الديمقراطي، وبالتالي يتوجب علي أن تكون لي خطة جاهزة وتخطيط مسبق للبدء بتنفيذها من هناك...

وكنت قد تفكرت بكل ذلك السيناريو وطبعت ما وصلت له من خطة بثلاث مراحل بعقلي، عندما كان المدعو جهاد يقود سيارته التي أوصلنا بها إلى مقره بمنطقة منعزلة داخل المدينة، عقب استلامي من دائرة الانضباط العسكري للجيش الإيراني قبل نصف ساعة من ذلك الصباح، ومقره هذا كان وسط مجموعة من هياكل العمارات السكنية التي لم ينجز بنائها، وتسكنها أعداد غفيرة من عوائل اللاجئين الكورد العراقيين من البرزانيين أو من ينطقون باللهجة الباهدنانية للغة الكوردية، وكانت تسميتهم في إيران باللغة الفارسية هي بناهنده وتعني اللاجئين.

وهناك بمقر جهاد الذي كان أشبه بدكان صغير وسط مجموعة تلك العمارات غير المكتملة البناء، فأرسل جهاد بطلب أحد أعوانه ويدعى أحمد من أجل إيصالنا بسيارته إلى مقر القيادة المزعوم الكائن بخارج المدينة، وحينها أخذ زميلي المجنونين اللذين كنت بصحبتهما بالخروج عن هدوئهما وحاولا التملص

من ذلك المكان بنية الهروب، وذلك تصرف لم يمارسوه طيلة فترة سفرنا المارثوني من طهران إلى الرضائية، وعندما وجدوا أن موقفًا حازمًا قد اتخذ ضدهم؛ انصاعوا له مستسلمين بعد أن وجدوا أن لا مجال للهروب من وسط تلك المجموعة الكبيرة من الناس بتلك البقعة المنعزلة عن المدينة، فتألمت لحالهم كثيرًا وشعرت بما كانوا يشعرون به على الرغم من عدم علمي بأي معلومة عنهم، لأن الحرية هي منال وغاية أي كائن بشري يحترم نفسه وإنسانيته في هذا العالم..

وعليه فقد مضينا مع المدعو أحمد - وهو أحد مساعدي جهاد - في مكتبه، وانطلق بنا بسيارته الجيب المدنية من غير أن يدور أي حوار بيننا على طول الطريق الموصل ما بين الرضائية ومقر قيادة الحزب الديمقراطي بتلك الضواحي حيث القرى والأرياف، لأنه كان منشغل بقيادة سيارته من ناحية، ومن ناحية أخرى كنت أنا بدوري منشغل أيضًا بما كنت أخطط له بعقلي، لأثبت ما تراه عيني من تلك العلامات الدالة التي مررنا بها على طول ذلك الطريق، وهي شواهد ثبتها وطبعتها بذاكرتي من أجل ألا أتوه عن طريقي باحتمال رجوعي وحيدًا بأمل الخلاص منهم.

حتى وصلنا إلى منطقة مفتوحة الأفق وفيها بناية قريبة من الشارع العام وكانت تقبع وحيدة هناك، فتوقفنا عندها، وتلك البناية كانت شبيهة بالثكنة العسكرية، فدخلناها بعد أن تخطينا حراسها الذين توزعوا على منافذها، وكانت تلك البناية من الداخل عبارة عن باحة كبيرة تطل عليها العديد من الغرف، التي علمت فيما بعد أنها كانت مكاتب لهم، باستثناء واحدة منها كانت غرفة استراحة وطعام للمنتسبين ومنام للضيوف، وتدعى باللغة الكردية الميوان خانه، وهناك بغرفة الضيوف التي دخلناها وجدت بعض الأشخاص من اللاجئين

الكورد البارزانيين بإيران منذ عام ١٩٧٥، وقد جاءوا لذلك المقر بغية طلب المساعدة للحصول على مبلغ مالي يسدد تكاليف علاج أحدهم، أو التوسط من أجل أن تتشفع لهم القيادة بإطلاق سراح سجين لهم معتقلاً عند الفرس.

مكثنا هناك وافترقنا عن المدعو أحمد الذي جاء بنا بعد أن سلم أوراقنا إلى دائرة مكتب قيادة الحزب الديمقراطي، ليرجع عائدًا إلى مدينة الرضائية حيث مقر عمله وسكنه لدى رئيسه المدعو جهاد، وفي صالة الضيوف كان هناك شخص كبير في السن كان شغله منحصرًا بخدمة الضيوف، من خلال تقديم الشاي ووجبات الطعام بمواعيدها للضيوف والمنتسبين على حد سواء، وهو رجل طيب ولم يكن له دخل بكل ما كان يجري من سياسات هناك، جلسنا بانتظار أن يستدعينا أحد المعنيين بأمرنا بعد أن تعرفت على كافة الموجودين، وعرفت لهم نفسي على أنني مقاتل مثلهم ولكن في العراق، ولكن زميليَّ المجنويين لم يصبرا على الانتظار، فاستعرضا جنونهما بأفعال وتصرفات سخيفة ومكشوفة ومبالغ بها، الأمر الذي كسر سكون ذلك المكان وأحدث فوضى، تمَّ على أثرها استدعائنا للتحقيق من قبل مسؤولي تلك الإدارة بمكتبهم المجاور لصالة الضيوف التي كنا فيها...

كانوا أربعة أشخاص يرتدون الزي الكوردي، من غير أن أعلم أو أتحسب أن قرار أولئك الأربعة بحقنا عند التحقيق؛ قد يقودني لسجن كبير كان متواجدًا بذلك المقر، بعلم وبمباركة وثقة فارسية، وهو أمر علمته فيما بعد ولم أكن متحسبًا له عندما تكلمت معهم بكل ثقة، فخاطبني أحدهم باعتباري العاقل الوحيد منا نحن الثلاثة ليسألني عن موضوعي ومن أكون، فأخبرته باللغة الكوردية التي لم أكن أجيدها مثلهم حينئذ، بكل ما جرى لي في قضاء مريوان، الأمر الذي تسبب بسجني طوال فترة الثلاثة أشهر الماضية، من غير أن أذكر

لهم أني كنت متهمًا بالجاسوسية كتهمة كيدية جراء رفضي للالتحاق بقوات الغدر والخيانة من حزب الدعوة وقوات المجلس الأعلى، ولم أذكر لهم طبعًا تواجدي بأقفاص الأسرى العراقيين، وذلك من أجل أن أصغر حجم الموضوع لأجعله يبدو وكأنه مجرد مشادة كلامية بسبب حوار سياسي كوردي فارسي، مع شخص من الپاسدار وانتهى بسجني، وهو أمر مألوف واعتيادي في إيران بظل نظام حكم الملالي الشيطانية هناك.

وعند انتهاء إجابتي لسؤالهم سألني أحدهم مستفسرًا عن سبب طريقة لكنتي الضعيفة باللغة الكردية، وإذا كنت من جماعة الكورد الفيليين، فأخبرتهم بحسب ونسب والدي المولود بمدينة السليمانية، وهو من عائلة عريقة ومؤسسة لمدينة السليمانية، وذكرت لهم أسماء أبناء عمومته وكلهم من الأعيان المعروفين هناك، فتعرفوا عليهم، وذكر لي أحدهم أنه كان يعمل عند بعضهم بمشروع اقتصادي في السليمانية، فحمدت ربي كثيرًا على تلك المصادفة وتنفست الصعداء لأني حينها شعرت بمأزق حقيقي لو لم يتعرف علي أحدهم من خلال أقاربي وهم من أعيان مدينة السليمانية.

عندها تكلموا معي بود، وطلبوا مني إكمال تفاصيل اعتقالي في مريوان باللغة العربية من أجل أن يفهموا موضوعي بوضوح أكثر، ففعلت بعد أن رميت الكرة بملعبهم وقلت: أنا دافعت عن أهلي الكورد بالضد من مزاعم ذلك الپاسدار الذي ذكر لي أنكم أُجراء، تقبضون الأجر منهم جراء أعمالكم النضالية. وذكرت لهم متعمدًا أن ما أصابني من سوء كان بسبب دفاعي عن كاك مسعود البرزاني كقائد ثوري، فسكتوا جميعهم ولم ينبثوا ببنت شفة، وعندها تيقنت أنهم لم يستلموا من الفرس أية معلومات عني، وانتهزت الفرصة، والأيام العصيبة قد علمتني الكثير، فاستطردت لأسألهم بدوري:

– هل الكتاب الحزبي لنقلي إليكم ضمن الأوراق الخاصة بإطلاق سراحي من التي كان مندوبكم في الرضائية قد استلمها من دائرة الانضباط العسكري هناك؟

فقالوا:

– لا يوجد شيء من هذا القبيل، ونحن على أية حال لسنا بحاجة إلى أي كادر سياسي للعمل معنا هنا بمقر القيادة العامة للحزب، ولسنا بحاجة للاطلاع على تلك الأوراق أيضًا، لأننا عرفنا الآن من تكون.

انزاحت بقولهم هذا همومي التي كانت جاثمة على قلبي بكيفية الخلاص منهم، وهم الذين اعتقدوا أنني كنت أبغي البقاء عندهم بموقعهم الذي سيضيف إلى سجلي الشخصي مهانة أكثر، ولكن التعصب للشفافية والصراحة ركب رأسي مرة أخرى، وتناسيت أن ذلك المكان لم يكن يسمح بهذا المنهج الذي هو عنوانًا لشخصيتي لدى كل من يعرفني عن كثب، وقلت لهم:

– وأنا أيضًا لست براغب بالبقاء بمقر متواجد في إيران، لأني لم أعد آمن على نفسي من تلك المفاجآت المفجعة التي يمارسها الفرس لكل من يدافع عن القومية الكوردية، التي أنتم حتمًا عاجزون عن التصدي لهم، كما حصل معي بمريوان، ودفعت أنا الثمن باهظًا بسبب ذلك.

عندها قالوا لي من غير أن يهتموا لما قلت:

– إذا لم تعد لك الرغبة بالمواصلة والاستمرار على نهجك كمقاتل؛ فإننا سنسهل لك عملية تقديم اللجوء الرسمي في إيران من أجل أن تعيش بسلام، وبعدها ستتمكن كأي لاجئ هنا من السفر للخارج، لتعيش في إحدى دول أوربا بكامل حريتك، والأمر بسيط جدًا، وذلك من خلال تسليمك نفسك لدائرة الانضباط العسكري بمدينة الرضائية، وأخبرهم أنك من طرفنا وسيسهلوا لك الأمر.

فقلت لهم:

- بل أنا أفضل أن أرجع إلى نفس المجموعة القتالية بناوچة ماوت على أرض كوردستان العراق، قبل أن يصدروا كتاب نقلي إليكم وانتهى بي الحال على الشكل الذي علمتوه بدخولي العديد من الزنازين الفارسية، ذلك لكي أنعم بالحرية وأمشي على طول هامتي من غير أن أجبر على الخضوع لأي كائن كان، أو أن أكمم فمي من أجل ألا أقول كلمة الحق التي يفترض أننا أول من يعمل على إعلائها.

قالوا وقد بدا عليهم الملل مما سمعوه مني عن عبارات الحرية... إلخ، وكأنهم قد تصدقوا علي نيلي لحريتي باعتبارهم مسؤولين وصاحبي قرار نافذ:

- لا مانع لدينا من أن ترجع لمجموعتك بكوردستان.

- حسنا أحتاج لمبلغ من المال يكفيني للوصول إلى مقر فرع الحزب بقضاء مريوان، إضافة لحاجتي لورقة عدم التعرض منكم تؤمن وصولي دون اعتراض السلطات الإيرانية لي على طول الطريق.

فادعوا أنه ليس لديهم تخويل بصرف أي مبلغ مالي من أجل سفر أي منتسب لهم، وقالوا لي بالحرف الواحد:

- تلك مسؤوليتك، وكذلك ليست لدينا الصلاحيات بإصدار أوراق عدم تعرض مهما كانت نوعيتها، حتى لو كان السفر من هنا وحتى داخل مدينة الرضائية القريبة علينا، لأنها من اختصاص السلطات الإيرانية فقط.

ولدى ذكرهم لكلمة السلطات الإيرانية برقت أمام عيني صورة ذلك الملازم الشاب الذي تعرفت عليه في استعلامات دائرة الانضباط العسكري بداخل مدينة الرضائية باعتباره كان قد عبر عن استعداده لتقديم المساعدة إن احتجتها مستقبلاً، وأنا بذلك الموقف كنت بأمس الحاجة لمساعدته، بتزويدي بتلك الورقة التي تتيح لي السفر لقضاء مريوان بشكل آمن ويسير، أما المال فإنني

سأذهب لمقر المدعو جهاد بداخل مدينة الرضائية من أجل الحصول على المال اللازم للسفر بعد أن أحتال عليه وأخبره بأني مرسل من قبل القيادة العامة له لتسهيل أمر سفري للالتحاق بمجموعتي في كوردستان العراق.. ليقيني التام أنه ليس لديه اتصال مباشر بينه وبين مقر القيادة، وأنا لن أعتبره احتيالاً بالمعنى المتعارف عليه، لأنهم فعلاً سمحوا لي بالرجوع لمجموعتي بكوردستان العراق، وأنا لم أكن أملك فلسًا واحدًا بجيبي، والتجربة القاسية علمتني من الدروس الكفاية التي تتيح لي التصرف بحكمة وحذر بمثل تلك المواقف.

بعد صمت لوهلة فكرت فيها بشكل سريع بكل ما ذكرته بأعلاه قلت:

– حسنًا.. سأغادر بصباح الغد رجوعًا لقضاء مريوان، والله وحده هو من سيعينني على هذا الابتلاء.

عندها ظنوا أني كنت أقول ذلك الكلام من باب المكابرة فقط ولست جادًا بتنفيذه، لأنه من الصعوبة بمكان أن يقطع أي شخص غريب تلك المسافة الشاسعة بإيران من غير حيازته لأي أوراق ثبوتية تثبت هويته. وعندها انتهى الحوار بيننا بعد أن سمحوا لي بمغادرتهم على النحو الذي شرحته، وهو اتفاق كان مرضيًا للطرفين، لأنني لم يكن يشرفني البقاء للعمل معهم، وهم بدورهم لم يريدوني كذلك، وبذلك كنت قد تخلصت منهم وهم أيضًا قد تخلصوا مني.. وحينها تنبهت إلى أنني لم أكن وحدي معهم، بسبب أن زميليَّ المجنونين كانا التزما الهدوء بدرجة عالية من ضبط النفس حتى نسيت تواجدهما معنا، وقبل أن أغادر غرفة التحقيق متوجهًا لغرفة الضيوف، سألني أحد أولئك الرفاق المزعومين: نريد أن تخبرنا ما تعرفه عن هذين الشابين؟ فقلت لهم جملة واحدة كنت قد درست صياغتها سلفًا، من أجل ألا أتسبب بإيذائهما، لأني كنت

أعلم بحدسي أنهما ليسا بمجانين، وإنما هما شخصان اعتياديان ويبدو عليهما أنهما قد وقعا بورطة ما، والله أعلم، فقلت:

– أنا لا أعرف عنهما أي شيء بالمرة، وما جمعني بهما كان صدفة وطريق سفر ليس إلا.

فبادر أحدهم بسؤال أحد المجنونين:

– كم الساعة الآن؟

فتطلع ذلك المجنون لساعة يده بصورة لا إرادية، ولكنه استدرك نفسه وأحجم عن الإجابة، وكأنه لم يفقه فحوى السؤال الموجه له. وعند هذا الحد انتهت تلك المقابلة السقيمة وسمحوا لي بالذهاب إلى غرفة الضيوف بعد أن اتفقنا أنهم لا يمانعوا من عودتي لمجموعتي بكوردستان العراق من غير أن يساعدوني على ذلك.

وعندها كان قد حان موعد تناول الغداء الذي أعده ذلك الرجل الطيب الكبير في السن، أكلت حتى شبعت سريعًا، لأن معدتي لم تسعفني بتناول الطعام الذي أشتهي تناوله، ولكني أكتفيت بالقليل منه بعد تقلصت معدتي ولم تعد قادرة على استقبال وجبتي طعام بيوم واحد، بسبب أزمة الجوع التي مررت بها، وكأنها كانت أشبه بالصيام الذي لا يليه إفطار كنت أحتاجه ككائن بشري ولعدة أشهر، وبعد أن حان وقت شرب الشاي العراقي المهيل الذي كنت قد حرمت منه على طول الرحلة، وتذكري لما كنت عليه الليلة الماضية وما أنا عليه الآن، سبحت بحمد ربي بعد أن غير حالي على ذلك الشكل من التغيير الجذري.

أثناء تلك الجلسة سألني الحضور من الضيوف والمنتسبين، ومنهم ذلك الرجل المسن الطيب الذي كان يقوم بخدمتنا جميعًا عما حصل معي في الإدارة، فقلت:

- لقد وافقوا على رجوعي لالتحق مجموعتي القتالية بكوردستان العراق، وأكملت قائلاً: لكنهم لم يزودوني بورقة أثبت فيها انتسابي لهم، أو مبلغًا من المال يغطي نفقات السفر الطويل لقضاء مريوان الحدودي.

فقال لي ذلك الرجل الكهل:

- وكيف ستسافر كل هذه المسافة الطويلة من غير أوراق بعدم التعرض أو كمية من المال؟!

- سأذهب إلى مركز مدينة الرضائية وهناك سأحاول بمساعدة إخواننا اللاجئين الذين أتوقع أنهم سيساعدوني بمسعاي هذا، ولكني لا أملك حتى المال الذي أذهب به إليهم في صباح الغد.

عندها نهض الرجل ومد يده إلى جميع من كان حاضرًا بتلك الجلسة على التوالي؛ فأعطوه كلهم ما تيسر لهم من نقود معدنية بسيطة، وتجمع لدي مبلغًا يسيرًا، علمت بعدها أنه كان ضعف ما كنت أحتاجه للذهاب إلى مدينة الرضائية، بعدها تبادل من كان حاضرًا هناك الأحاديث التي فهمت منها أن ذلك المقر كان ببعض الأحيان عرضة للضرب بالنار من خلال هجوم البيشمرگة الإيرانيين بدافع الانتقام من عناصر حزبنا الديمقراطي العراقي، لأنها كانت تشارك الحكومة الإيرانية أثناء هجمات قواتها التي كانت تُغير عليهم بحملات عسكرية واسعة بتلك المنطقة الكوردية بإيران، وتقتل منهم الكثير من مواطنيهم أو من البيشمرگة الإيرانين المتواجدين هناك باعتبارها منطقة نفوذ لهم، وهو أمر لم أندهش لمعرفته لأني كنت قد رأيت واطلعت عن كثب على مثل تلك الهجمات الفارسية البربرية على كورد إيران عندما كنت بسجني بقضاء مريوان الحدودي.

ولكن المستغرب بتلك الجرائم بحق شعبنا الكوردي بإيران مهما كانت مبرراتها؛ هو أن كورد العراق، وبالتحديد عشيرة البارزانية المناضلة؛ قد سبق لهم أن جاءوا إلى تلك البقاع الكوردية الواقعة على الحدود الروسية، من خلال مسيرة طويلة وشاقة جدًا، مشيًا على الأقدام بقيادة الزعيم الكوردي الملا مصطفى البارزاني، من أجل نصرة القاضي محمد الزعيم الكوردي الإيراني الذي كان ينوي إعلان قيام جمهورية للكورد وعاصمتها مدينة مهاباد، وقد هلك أثناء ذلك الطريق الطويل العشرات من الكورد الذين كانوا بقيادة الملا مصطفى البارزاني، وحال وصولهم لمدينة مهاباد تمَّ إعلان جمهورية كوردستان برئاسة القاضي محمد، ووزير دفاعه الملا مصطفى البارزاني، وكانت أول كيان مستقل للكورد بالتاريخ الحديث، بعد أن سجل التاريخ أن الميديين وهم أجداد الكورد وكان قائدهم دياكو؛ قد وحد قبائلهم وقضى على الأشوريين، وأسس إمبراطورية ميديا الكوردية ونصب نفسه إمبراطورًا عليها بثمانمائة عام قبل بدء التاريخ الميلادي، ودامت لسبعين عامًا، وسقطت على يد الفارس بعد أن توفي الإمبراطور دياكو وتولى ابنه الحكم، الذي لم يكن حازمًا كوالده ليحافظ على ذلك المُلك، ومن يومها لم يقم للكورد قائمة حتى ولدت بأربعينيات القرن العشرين جمهورية كوردستان في مهاباد بعد أكثر من ألفي سنة.

وهنا أكرِّر المقولة الساخرة: ما أشبه اليوم بالبارحة! فبالأمس غير البعيد كنا مناصرين لإخواننا في مهاباد، واليوم أصبحنا قاتلين لنفس تلك الفئة من الكورد الإيرانيين.. ولسوء حظي فإن مفارقات الصدف قد رمت بي لتجعلني أنا القادم من بغداد لأكون شاهدًا على تلك الحالة المخزية التي يندى لها جبين كل منصف وصاحب ضمير يقظ، وأنا هنا لا أسعى طبعًا لتشويه صورة بذاتها، بقدر ما هي الحقيقة التي اطلعت عليها بتلك البقاع الكوردية، ولا يمكن لي أن أقفز عليها لكي لا أذكرها، وليتكلم غيري عن هذا الموضوع وليجد له المبررات التي قد

تكون مقنعة للكثير منا، ولكني لو كنت هناك وتم توجيه الأمر لي بالاشتراك مع الپاسدار الفارسي بقتل أولئك البيشمرگة من الكورد الإيرانيين؛ لكنت حينها قد عصيت الأمر مهما سيترتب على ذلك..

وحلَّ علينا المساء الذي تناولنا فيه وجبة طعام خفيفة، وعلمت حينها أن صاحبيَّ المجنونين قد حُولا للسجن الكائن بمعسكرهم القريب، وعندها ارتعدت فرائصي لأنه كان بالإمكان أن أكون معهما لولا رحمة ربي التي أنزلها علي، وجعل أولئك الذين نصبوا أنفسهم محققين يقتنعوا بصحة كلامي، ونمنا ليلتنا بنفس غرفة الضيوف –الميوانخانة–.

وعندما حل الصباح ودعت الجميع من الضيوف والمنتسبين، وهم بدورهم تمنوا لي سلامة الوصول، وقد شددوا على تحذيري بضرورة عدم ارتداء غطاء الرأس الكوردي الجامانة الذي كان باللون الأحمر ويرمز حصرًا لعشيرة البارزانيين، وذلك كي لا أكون هدفًا لنيران البيشمرگة الإيرانيين باعتباري عدوًا لهم، وأنا الذي كنت ولازلت أكن لهم بقرارة نفسي بالغ الاحترام والمحبة والتقدير العالي بسبب الدور البطولي بمقارعتهم للنعرة العنصرية للفرس وحكومتهم المتمثلة بالولي السفيه.

بعد توديعي للحاضرين مررت بجانب غرفة المكتب التي يجلس بها أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مسؤولين إداريين لذلك المقر، ويبدو أنهم كانوا منعزلين عن كل الموجودين بذلك المكان، وحينها ناداني أحدهم يستفسر مني إن كنت سأغادرهم، فقلت: نعم سأتوكل على الله ذاهبًا لمقر كاك جهاد في الرضائية، ومن هناك سأتدبر أمر سفري لمريوان، فلم يحرك ساكنًا وعقب قائلاً: اتضح أن الشابين اللذين كانا معك بالأمس غير مجانين، وقد اعترفا لنا بالحقيقة. ولم أعلق بشيء لأعلم بماذا اعترفا وقد تظاهرت بعدم اهتمامي لموضوعهما، وإن كنت قد تأسفت عليهما وعلى شبابهما بقرارة نفسي.

مضيت خارجًا من ذلك المقر لأمشي تلك المسافة التي كانت تفصلني عن الشارع العام، وسط تراكم الثلوج التي كانت تكسو بقاع كل تلك المنطقة بذلك الصباح المشمس، الأمر الذي جعلني أشعر بالبرد الشديد من ناحية، وبصعوبة الرؤيا من غير نظارات سوداء من ناحية أخرى، بسبب أن الدنيا كلها كانت بيضاء ناصعة، وبنظرة خاطفة للمقر الذي كنت فيه من خلفي وجدت أولئك المسؤولين كانوا يشاهدونني من نافذة مكتبهم وأنا أسير على تلك الثلوج الكثيفة بذلك الطقس الشديد البرودة، ولو قدر لي أن أقرأ أفكارهم لوجدتهم حتمًا يفكرون أن أحدهم لو كان مكاني لن يجازف ويغامر بالمشي وحيدًا بذلك الطقس المتجمد وبمنطقة تعتبر خطرة جدًا، هذا بالنسبة لهم فماذا لو كان الأمر لرجل ليس له علم ومعرفة مسبقة بتضاريسها، أو اللغة التي يتكلم بها أهلها، فالأمر كان يبدو وكأنه ضرب من الجنون، باعتباري كنت غريبًا ولا أملك أية وثيقة تثبت هويتي، وحينها قلت لنفسي والبسمة تعلو شفاهي مستأنسًا بأنسام الحرية: فاز باللذات من كان جسورًا.

والحقيقة أنا كنت مؤمن بشدة أن جميع المصاعب التي ستواجهني بطريق عودتي للعراق ثم لبيتي؛ ستَذُلل لتصبح سهلة المنال بعد أن فتحت السماء لي أبوابها مادمت سأوفي بعهدي لربي، واصلت المضي بطريقي حتى وصلت إلى الشارع الرئيسي العام، وهناك توقفت مشيرًا بكلتا يداي لكل السيارات المتجهة إلى مدينة الرضائية ولكن من دون جدوى لعدم توقف إحداها لي، ذلك لأن كل تلك السيارات كانت مليئة بالركاب للنقل العام أو الخاص، بعكس مثيلاتها السائرة بالاتجاه المعاكس للسير، الذي ليس لي علم إلى أين سيؤدي أو ينتهي، فانتقلت للجهة المقابلة من الشارع لأستقل أحدها، وفعلاً توقفت لي سيارة أجرة وصعدت إليها، مددت يدي أعطي السائق أجرته من إحدى الفئات النقدية التي معي دون أن أنبس بأي كلمة، كي لا يعرف أحد من الركاب أنني كنت غريبًا، أو

أنني ضمن جماعة حزبنا الديمقراطي، الذين ينبذه جميع أهل الرضائية من الكورد الإيرانيين وغيرهم من باقي القوميات باستثناء حلفائهم الفرس طبعًا.

وصلنا إلى نهاية خط سير تلك المركبة؛ حيث يتواجد موقف سيارات الأجرة المتجهة للرضائية، فنزلت وتبين لي بعدها أنني لو لم أنزل لكنت قد أكملت مسيرتي رجوعًا لمدينة الرضائية، وعليه فإني كنت مجبرًا لأن أتدافع مع الناس ضمن حشد هائل من الركاب على كل سيارة كانت قادمة من الرضائية بسبب عدم وفرتها، لأن ذاك اليوم كان يوم الجمعة وهو يوم عطلة رسمية، ومن شدة البرودة كان أكثر المتواجدين يراوحون بمكانهم لكي يدفئوا أنفسهم، الأمر الذي عندما كان أحدنا يطلق نفخة من الهواء كان يتجمد في الحال، كذلك التنفس كان يتجمد من مخارج الفم والأنف، وهذا ما كان يزعجني عندما تجمدت شواربي التي طالت كثيرًا خلال فترة سجني ولم أتمكن من الحلاقة طيلة تلك المدة.

أخيرًا وبعد جهد جهيد من التدافع بعنف مع من كان يزاحمني بالصعود لإحدى تلك المركبات، التي كانت تتوقف لإنزال الركاب القادمين من الرضائية؛ تمكنت أن أجد لي مكان بإحداها ومضيت إلى الرضائية، وهي مدينة كبيرة لا علم لي بمعالمها سوى أنه عند وصولي لنقطة التفتيش بمدخلها الشمالي كان يجب علي أن أنزل لكي أمضي بالطريق الذي سيكون من جهتي اليسرى، لأمشي بعدها مسافة طويلة بنفس الشارع تجاه الجنوب، بشكل مستقيم لن أحيد عنه إلى أن تتبين لي هياكل العمارات بجانبي الأيمن، وهي التي كان يسكنها إخوتي اللاجئون الكورد، وهذا ما سجلته بذاكرتي باليوم السابق عندما بعث بي المدعو جهاد إلى مقر القيادة..

عند وصول المركبة التي كنت فيها لنقطة التفتيش؛ نزلت بعدها بقليل لأكمل مسيرتي بنفسي، لأني لم أجرؤ أن أسأل السائق إن كان سيذهب باتجاه نفس

طريقي أم لا، لأني لم أكن سائحًا سهل عليه أن يسأل عن عنوان، وإنما كنت شخص غير مُعَرف بالاسم والهوية والعنوان، وبالتالي رحم الله امرئ عرف قدر نفسه، وهكذا مضيت بذلك الطريق الطويل الذي كان خاليًا من أي معالم، وكل همي هو الوصول قبل أن يحل المساء، وخلاله كنت مرة أمشي سريعًا ومرة أخرى أهرول فيها حتى وصلت إلى بدايات المناطق المأهولة بالسكان، حيث المحلات التجارية على الشارع العام، ومنها التي كانت تزين واجهتها بالزجاج المظلل الذي يعكس الصور وكأنه مرآة.

وأثناء سيري تمهلت قليلاً لكي أتطلع لشكلي كيف أبدو من خلال النظر إلى أحداها، وحينها صعقت مما رأيت! وكررت النظر لنفسي بتروي أكثر، فوجدت إنسانًا آخر، كان نحيف جدًا، وبهيئة رجل شبه متوحش بشكله، ثم أعدت النظر بملامح وجهه لأتبين مدى الشبه بيني وبينه، فوجدته معدومًا من أي شبه باستثناء العينين الغارقة بغابة كثيفة من الشعر الذي كان يغطي كل الوجه عدا شعر الرأس، الذي كان قصيرًا بسبب الحلاقة الإجبارية بقفص الأسرى، وقد كانت تلك هي المرة الأولى لي التي أرى فيها نفسي منذ أن اعتقلت بمريوان. لقد كان حقًا أمرًا غريبًا لم يسبق لي أن مررت بمثله بسابق حياتي، لأنني عندما رأيت ذلك الشبح النحيف الذي هو انعكاس لهيئتي التي كنت عليها، وجدته غريبًا عني بكامل ملامحه، وكأنه أشبه بسكان الكهوف الذين عاشوا بالقرون الوسطى في التاريخ.

على أثر ذلك تابعت المسير بذلك الطريق الطويل، بعد أن تأكد لي من بعض الشواهد التي مررت بها قبل يوم أني لم أضل عما رسمته لي الذاكرة، ومنها بناية دائرة الانضباط العسكري التي أطلقت سراحي، وعندها أخذت أسابق الزمن أحث الخطى بعد أن تجاوزت كافة المحلات التجارية والمباني المنتشرة

على جانبي الطريق، ودخلت مرة أخرى لمنطقة خالية من أي معالم حتى وصلت إلى هدفي بهياكل العمارات التي رأيتها لاحت لي من بعيد، وعند وصولي لها كان المساء قد حل بغياب الشمس، وتوجهت حينها مباشرة إلى مكتب إعانة اللاجئين الكورد فوجدت نفس الشخص الذي نقلنا لمقر القيادة بالأمس واسمه أحمد، وكان رئيسه المدعو جهاد قد غادر إلى بيته، فأخبرته بكل ما جرى معي في القيادة مع تشديدي على ذكر أن القيادة أرسلتني من أجل تأمين عودتي لمجموعتي بناوچة ماوت من خلال السفر لمريوان. فقال لي:

- تستطيع أن تخبر كاك جهاد بهذا عند عودته بصباح الغد.

- إذن سأبيت عندك الليلة حتى يأتي الصباح؟

- هذا أمر غير ممكن لأنني لا أملك أغطية لمنام شخص آخر.

- وما هو الحل برأيك؟ إذن سأبقى مستيقظًا حتى الصباح كي لا أتجمد من البرد.

فتمهل بالإجابة قليلاً ثم قال لي:

- اجلس ريثما أجد لك من بين العوائل من هو قادر على استضافتك هذه الليلة.

ذهب وغاب عني لفترة نصف ساعة، عاد بعدها مع شخص آخر كان بالعقد الخامس من عمره، وقد خط الزمن خطوطه العريضة بقسوة على ملامحه، وكذلك الفقر الشديد بمظهره البائس جدًا، وذلك الرجل كان مضيفي لتلك الليلة فتبادلت وإياه التحايا ثم رافقته إلى محل سكنه بإحدى هياكل العمارات التي لم تكتمل بعد.

في هذه الأثناء كان الليل قد عتم علينا بظلامه الدامس، لعدم وجود إنارة عامة بذلك المكان، وقد تبينا طريقنا ببالغ الصعوبة ونحن نصعد السلالم بتلك العمارة، خشية الوقوع للأسفل حتى توقفنا في الطابق الثاني عند بطانية مسدلة على شكل ستارة كانت هي بمثابة باب بيته أو شقته، فأزاحها ودخلنا لنكون وسط

فضاء أظلم، سرعان ما اجتزناه حتى وصلنا لبطانية مسدلة أخرى، أزاحها الرجل وعندها رأيت مشهدًا يتفطر له فؤاد كل من له ذرة من الرحمة الإنسانية! لقد رأيت أطفالاً صغارًا وكبارًا، أولادًا وبناتًا وعجائز وفتيات كلهم محشورين بعضهم ببعض بتلك البقعة التي تسمى غرفة، وعددهم قد تراوح بحدود الاثنى عشر فردًا، وعلى ما كان يبدو فإن مأكلهم ومنامهم واستحمامهم وطبخهم كان بتلك الغرفة البائسة، وكانوا بجلستهم تلك يتدفئوا من خلال مدفأة نفطية مهترئة، كانت تبعث بسمومها الكربونية بأجواء تلك الغرفة التي كانوا حريصين على غلق كل منافذها من أجل الدفء.

عند دخولنا عليهم صمتوا كلهم وأكاد أعلم السبب، فهو بالتأكيد لبشاعة شكلي الذي كنت عليه، جلسنا وبدأت بمحاورة مضيفي كسرًا للخجل العميق الذي شعرت به نتيجة هاجس خفي بضميري حملني الذنب والتقصير تجاه أولئك المساكين، ولم أكن أعلم لماذا انتابني ذلك الشعور وأنا الذي كنت مظلومًا مثلهم؟ وعندها تمتم مضيفي ببعض الكلمات الترحيبية، ولكني فهمت شيئًا منها لاختلاف اللهجة بين ما تعلمته من السوارنية وما تكلم به من الباهدنانية، وهذا يعني أنني سأفهم الخطوط العريضة من خلاله، وهذا هو المهم، فلا حاجة لي بفهم التفاصيل الصغيرة.

وبعد مداولات طويلة بينه وبين زوجته العجوز، فهمت منها أنه يدعوها لتحضير شيء من الطعام لي، ويبدو أنها لم تكن تملك أي شيء، ولكنها بعد قليل لم يبدو بأنها قد تذكرت شيئًا وهمت بالبحث عنه بين أغراضها المتناثرة هنا وهناك حتى وجدته، وكان علبة صغيرة من سمك الساردين، كانت هي كل ما تملك تلك العائلة الكريمة الطيبة التي قدمت لي عن طيب خاطر أخر شيء مدخر من طعامهم، والله أعلم كم من الزمن كان قد مضى عليها وهي تحتفظ

بتلك العلبة من أجل موقف كهذا... ولشدة حرجي ولتعودي على الجوع لأيام وليالي امتنعت عن قبولي بالأكل وأخبرتهم أنني لست بجائع، وأنا فعلاً لم أكن أشعر بالجوع حينها لأنني تناولت فطوري في الصباح وكنت قد أكلت ثلاثة وجبات باليوم الذي قبله، وطلبت منهم عوضًا عن ذلك قدحًا من الشاي، فقال مضيفي الذي أحرجته عن غير قصد طبعًا بطلبي هذا:

- حتى لو كنت غير جائع فهذا عشاؤك الذي نقدمه لك كضيف عزيز، ويجب عليك أن تتقبله، مع اعتذاري لك من عدم إمكانية تقديم الشاي بسبب نفاذه لدينا، وغدًا هو موعد استلام الحصة التموينية من مكتب كاك جهاد.

وحينها اضطررت من باب المجاملة لأكل لقمة من تلك العلبة الصغيرة ودفعت بالباقي إلى الصبية الصغار الذين كانوا قد تجمعوا من حولي منذ جلوسي، فانكبوا عليها جميعًا وأفرغوا ما بداخلها برمشة عين، ثم رموا بتلك العلبة الفارغة إلى بعض الأطفال الذين أخذوا يلعقوا بأصابعهم ما علق بجوانبها من الزفر!

لقد كان ذلك المشهد المؤلم قاسيًا على نفسي، مشهد جعلني أنسى كل ما عانيت منه خلال الفترة المنصرمة من رحلتي مع العذاب، وبنفس الوقت جعلني حزينًا بعمق لأني من خلال مشاهدتي معاناة تلك العائلة المنكوبة؛ تصورت حجم المأساة الحقيقية التي كانت تقع على كاهل الفقراء من شعبي الكوردي، وما أكثرهم بتلك الفترة من الزمن، وهي بالتأكيد ليست على نفس نمط معاناتي عندما كنت أعيش في بغداد بحثًا عن الهوية المفقودة وما إلى ذلك من كلام فارغ اعتبرته بوقتها همًا كبيرًا كان يجثم على صدري، والمعاناة الحقيقية هي هنا: جوع متوارث ومزمن، إضافة لغربة قسرية مرة كالعلقم عن وطن أصبح بمهب الريح، ناهيك عن صراعهم من أجل البقاء ضمن مجتمع غريب كان

ينبذهم بكل قسوة، وهي ليست بالتأكيد كتلك الشهور التي قضيتها جائعًا بعد أن عشت عمري كله مترفًا متبطرًا على نعم الله، كانت أثنائها الرغبة بتناول ما لذ وطاب من الطعام هي عادة من أجل اللهو والتسامر بجلساتنا التي نعقدها في بغداد مع الأقارب والأصدقاء، حتى أنني تذكرت وأنا بتلك الجلسة وسط تلك العائلة الطيبة مقطعًا من حوار كان قد دار بيني وبين أحد أقاربي الأعزاء خلال تلك الجلسات، عندما كان يتباهى بانتسابه للكورد باعتباره من عشيرة الجباريين، مشددًا على ولائه للقومية الكوردية، وهو بذات الوقت كان متزوجًا من سيدة عربية كنت أكن لها شديد الاحترام والوقار، وقد أنجبت له خمسة أولاد ومنحهم هو أسماءً عربية، وبالتالي فهم لا يفقهون اللغة الكوردية شأن والدهم لأنه لا يعرفها كذلك، والحوار معه كان كالآتي عندما سألته وهو يزايد علي بأنه قد قدم لكوردستان ما عجزت أنا عن تقديمه:

- هل لك أن تذكر لي يا قريبي العزيز بماذا ناصرت القضية الكوردية وبماذا ساعدت شعبنا الكوردي طيلة حياتك المنصرمة؟

فقال متباهيًا:

- أنا من الحريصين جدًا على الاحتفال بعيد النوروز بكل عام..

تصوروا!! هذا ما كان قريبي - وهو مثقف يساري معروف - يقدمه للقضية الكوردية، كان يرقص ويأكل ويشرب نخب هؤلاء الجياع من الكورد ومنها هذه العائلة المنكوبة. وإذا سألني أحد قراء روايتي هذه ليقول مثلاً: ماذا باعتقادك يجب أن يفعل قريبك هذا لكوردستان لكي ينال رضاك؟ فجوابي هو بالتأكيد: ليحتفل هو وغيره بذكرى عيد النوروز وهذا من حقهم طبعًا، وليرفع حينها كأس النبيذ عاليًا، ولكن بشرط أن لا يعتبر هذا الحدث هو نوع من النضال ليتباهى به من باب المزايدة على أي شخص كوردي آخر سواء معي أو مع

غيري، وبدلاً من هذا كان عليه أن ينصر مظلومية البؤساء من شعبنا الكوردي حتى ولو بالكلمة الصادقة التي يطلقها حتى لو همسًا بكل محفل عائلي أو اجتماعي، أو على الأقل يعرب عن أسفه بعدم قدرته على نصرة الشعب الكوردي كما كنت أفعل أنا دائمًا بأي مناسبة تجمعني مع كل المهتمين بالشأن الكوردي، أو أن يصمت على الأقل ولا يزايد من خلال كأس النبيذ الذي شربه نخب الشعب الكوردي بعيد النوروز..

ولنرجع لمضيفي الذي سألته عن الظروف التي دفعته للهجرة إلى إيران ليقع بهذه المحنة المعيشية القاسية، فقال بعد أن غير من لهجته ليكلمني بالسوارنية التي أفهمها، بعد أن عرف أنني لا أفهم إلا القليل من الباهدنايـنة:

- لقد هجرنا ديارنا بكوردستان العراق على أثر حرب ١٩٧٤، بعد انهيار الاتفاق الذي كان مبرم مع الحكومة العراقية لقيام الحكم الذاتي للكورد في العراق، بسبب المعاهدة التي وقعتها العراق مع إيران في الجزائر، لترسيم الحدود بين البلدين، وقد تنازل العراق فيها عن بعض حقوقه بشط العرب، وبتلك المعاهدة تخلت إيران الشاه عن دعمها للثورة الكوردية، التي سرعان ما انهارت عندما توقف الدعم الإيراني لها كشرط مهم من شروط اتفاقية الجزائر، وعندئذ أصبحت أراضينا التي كنا نعيش فيها على الشريط الحدودي العراقي الإيراني منطقة محظورة محرمة، وهذا يعني أن كل من يتواجد عليها قد أصبح هدفًا للقتل بعد أن بسطت الحكومة العراقية سيطرتها الكاملة على كوردستان، وعليه هجرنا أرضنا بكوردستان ودخلنا إيران مع الثوار لنصبح لاجئين فيها.

فقاطعته قائلاً:

- لازلت أتذكر تلك الأيام بكافة تفاصيلها.

فأكمل حديثه قائلاً:

– لقد كانت أمورًا معلنة ومعروفة للقاصي والداني بوقتها، ولكن الذي هو غير معروف للكثير؛ هو أننا عند وصولنا إلى إيران تخلى عنا من كنا نعتبرهم قادتنا وأولياء أمورنا، فذهبوا ليسكنوا بالأحياء الراقية بطهران وتركونا نواجه مصيرنا وحدنا، وعندما كنا نلجأ إليهم مضطرين ببعض الأحيان بغرض مساعدتنا عندما يمرض أحدنا وليس لديه المال الكافي ليعالج نفسه به أو بسبب حاجته لموضوع آخر، كانوا يلبوا بعض طلباتنا عندما كان زعيمنا الملا مصطفى البارزاني حي يرزق، ولكنهم أصبحوا يهملوا طلباتنا بعد وفاته، وبذلك انقطعت العلاقة بيننا، إلى ما قبل سنتين على أثر الحرب بين العراق وإيران، ورجعت علاقة الحزب الديمقراطي مع إيران من خلال التحالف مع نظام حكمها الجديد الممثل بالملالي المتعطشة للدماء، وعندها تذكرونا وعاودوا الاتصال معنا من جديد من أجل الحصول على مقاتلين يحاربوا بهم ضد الكورد الإيرانيين، الذين انطلقت شرارة ثورتهم الكوردية ضد ملالي الفرس من مناطقنا التي نعيش بها الآن بالرضائية وبغيرها من أراضي كوردستان إيران، فانضم إليهم من انضم من شبابنا، لحاجتهم للمال الذي يلزمهم للمعيشة من خلال القتال ضد إخواننا الكورد الإيرانيين، ومن لم يتطوع عندهم؛ فقد أصبح مُحارَبًا برزقه الرئيسي للعيش، من خلال تعثر تجهيزه بالتموين الذي خصصته لنا منظمة الصليب الأحمر باعتبارنا لاجئين منذ أن دخلنا لإيران، وتوزعه علينا الحكومة الإيرانية من خلال عناصر الحزب الديمقراطي، وكاك جهاد هو أحدهم.

فقاطعته قائلاً:

– لكنهم قد يرسلون أبناءكم إلى كوردستان العراق ليصبحوا پيشمرگة مدافعين عن حقوق الكورد هناك؟

فقال الرجل وقد خفض برأسه لحجره:

- بل ليصبحوا پيشمرگة سه ره وه (أعلى، والأعلى هنا تعني إيران) وسيقاتلوا كل كوردي إيراني يرفع سلاحه بوجه الملالي الفارسية، وللعلم وعلى حد معرفتي فإن إخواننا الكورد الإيرانيين لم يرفعوا سلاحهم بوجه نظام حكم الشاه من أيام جمهورية مهاباد، لأنه تركهم يعيشون بسلام أيام حكمه لإيران.

فقلت مستفسرًا:

- هل هذا يعني أنني مصنف لديكم كپيشمرگة خواره وه (أسفل، وهذا يعني العراق) لأنني أقاتل في كوردستان العراق؟

- نعم، مع فارق أنكم هناك تقاتلون خصمًا أزليًا من غير الأكراد، وأولادنا هنا مضطرون لقتال إخوة لنا، وهم أحباء على قلوبنا وسبق لهم أن احتضنونا وقدموا لنا المساعدات عندما هربنا من كوردستان العراق، وهم اليوم يدافعون عن أرضهم وحقوقهم، وبذلك فمن يحاربهم منا هو خائن لحقوق الكورد بكل مكان شاء أم أبى، وهذه حقيقة يعرفها صغيرنا وكبيرنا، والجوع كافر بل قاتل لأطفال مثل هؤلاء..

وقد أشار بيده إلى الأطفال الذين ظلوا يلعبون بعلبة الساردين الفارغة بعد أن لعقوا حتى الماركة المكتوبة على سطحها. فقلت وكأني كنت أحاول البحث عن مخرج:

- لو كان هذا الذي تقوله قد حصل معي لما استسلمت لهم، ولذهبت لأنضم بالقتال لجانب الكورد الإيرانيين.

- وهذه أيضًا قد أصبحت مستحيلة بسبب القطيعة التي حصلت بيننا، فنحن نحبهم ومستعدون لقتلهم من أجل لقمة العيش، وهم أصبحوا لا يحبوننا وبودهم لو يشربوا من دمائنا! ولهم الحق بذلك.

فقلت محاولاً إيجاد حل آخر:

- بهذه الحالة لن أحمل البندقية من أجل هذا أو ذاك، وسأسعى من أجل الحصول على عمل شريف أترزق منه بدلاً من الاعتماد على تموين اللاجئين والسكن على هذا الحال.

- إنه أمر سهل بالكلام ولكنه صعب جدًا عندما يكون حقيقيًا على أرض الواقع، بسبب أننا أصبحنا منبوذين من قبل كل الناس هنا باعتبارنا قتلة مأجورين، ولا ننفع لأي عمل سوى أن نكون جاشًا (مطايا).

فقلت بعد أن حاصرني اليأس الممزوج بالأسى الشديد على حالهم هذا:
- أسأل الله أن يكون عونًا لكم ليخرجكم مما أنتم فيه، فالفقر وحده لم يكن كافيًا على إيذائكم حتى ابتليتم بهذه الورطة التي جعلتكم بعزلة عن أبناء جلدتكم من الكورد الإيرانيين.

فقال ذلك الرجل المسكين وقد تفجرت الدموع من عينيه:
- وليس هذا فقط، فأنا في البداية لم أشأ إخبارك أنني فقدت اثنين من أولادي بهذه المهلكة الخاسرة قبل فترة، وبقي لي هذا الفتى الذي أمامك وهو ابن الثانية عشر عامًا، وهؤلاء الصبية والأطفال هم أولادهم وبناتهم الذين تركوهم لي لأرعاهم من بعدهم، ولا أعلم إن كنت سأضطر لأن أدفع أيضًا بولدي المتبقي لي من أجل أن يكون عونًا لي، وقد يكون مصيره مثل أخواته الذين كانوا لي خير معين بشيخوختي هذه، وبرحيلهم عنا تدهورت أحوالنا جميعًا.

عندها نهضت من مكاني وقبلت رأسه قائلاً:
- بالله عليك أن تسامحنا يا عم.

- وما ذنبك أنت؟ وقد علمت البارحة أنك كنت ضحية مثلنا عندما حاولت أن تدافع عنا أثناء جدالك مع الپاسدار بمريوان، وأودعوك السجن بعد أن تخلى رفاقك الذين تريد أن تعتذر بالنيابة عنهم.

- نعم، فعلاً لقد حصل هذا معي بمريوان.

فقال الرجل بنبرة صادقة جدًا:

- نصيحتي لك يا ابن أخي أن ترجع لبيتك وأهلك قبل أن يُغدر بك مرة أخرى، فأنت شاب طيب ولا تستحق كل ما جرى وسيجري معك إن استمريت على هذا الطريق، وأنت طبعًا غير مضطر مثلنا، إضافة إلى أنك إن بقيت فلن تستطيع أن تغير من الأمر شيئًا.

- أنا أشكرك على هذه النصيحة القيمة، وأدعوا الله أن يصبرك على ما أنت فيه، ويرجعك إلى أرضك وديارك لأنه الخلاص والأمل الوحيد المتبقي لك.

فقال الرجل وقد تبسم من أجل تغيير الموضوع:

- لقد أتعبناك بكلامنا هذا الذي أرجو أنه لم يكن ثقيلاً عليك، وقد حان وقت استراحتك لتنام بمكان جهزناه لك.

- حسنًا..

ثم نهضنا من مكاننا وتبعته إلى خارج تلك الغرفة، وكان البرد شديدًا ثم أزاح بطانية كانت ستار لغرفة أخرى، دخلناها وكانت فارغة بالكامل باستثناء الفراش الذي توسط أرضيتها، ولم يكن هناك أية تدفئة، ولم يتركني الرجل إلا بعد أن دخلت للفراش وتغطيت بزوج من البطانيات، ثم تركني لأنام بعد أن أخذ معه الفانوس الذي كان ينير لنا الطريق، وما هي إلا لحظات حتى أخذت أرتجف من شدة البرد القارص، فغطيت رأسي بتلك البطانيتان المتهرئتان، وأخذت أنفخ من أجل أن أتدفأ بالهواء الساخن الخارج من جوفي، ولكن بدون جدوى لأنني كنت أشبه بمن يفترش لينام بداخل براد كبير لخزن الأطعمة... وظللت أنفخ بشكل متقطع كلما شعرت بإيذاء البرد لي حتى حلول الصباح، وكانت فرصة مثالية أن أسهر ليلي حتى الصباح من أجل مراجعة خططي التي بدأت بوضعتها على

عجل منذ ظهيرة البارحة، ولكن ذلك كان أمرًا مستحيلاً ولم استفد من هذا السهر الإجباري بشيء، لأن النفخ المستمر بغاية التدفئة كان يمنعني من التركيز بما كنت أريد مراجعته، فجعل الموضوع مشوشًا من غير تمكني بإضافة أو حذف أي شيء باحتمال أنه قد فاتني الانتباه له.

وعليه فلقد تركت خططي على حالها وأخذت أراجع ما دار بيني وبين مضيفي من حوار، فاستنتجت أن الرجل مغلوب على أمره بالتأكيد بعد أن قهرته ظروف حياته الصعبة، وكان بحاجة لشخص غريب وعابر سبيل مثلي من أجل أن يفرغ ما ثقل على قلبه من هموم طفح كيلها، لكي يشعر ببعض الراحة على أقل تقدير، أو أنه أراد أن يُبصرني بعواقب الطريق الذي كنت عليه، أو بسبب رغبته أن أنقل حكايته هذه إلى الناس الذين أعرفهم أو لا أعرفهم، وهذا ما فعلته أثناء رجوعي، وحكيت موضوعه للكثير من الناس، وحرصت على تدوينه بعد أكثر من ٣٠ عامًا ضمن مشاهداتي برحلتي مع العذاب.

عند حلول الصباح غادرتهم مبكرًا بعد أن حلقت ذقني بأدوات الحلاقة التي لدي بحقيبة الكتف التي كنت أحملها، وأبقيت على الشاربين الطويلين لعدم امتلاكي مقص أشذب به شواربي، ورتبت من هندامي ثم شكرتهم على ما استطاعوا أن يقدموه لي، وبدوره أظهر مضيفي الكريم استعداده لمساعدتي أن يرسل ولده معي من أجل أن يدلني على أي مكان أرغب بالذهاب إليه داخل الرضائية، ومنها مكتب السفريات الكائن بوسط المدينة، ثم توجهت إلى مكتب كاك جهاد ووجدته مشغولاً بالإشراف على تفريغ حمولة الأرزاق من شاحنة كبيرة كانت تقف قبالة مكتبه، وبقيت هناك حتى وجدت فرصة مناسبة وأخبرته بأني مرسل من قبل القيادة من أجل مساعدتي بتأمين سفري لمريوان. فقال:

- انتظر حتى أفرغ من توزيع الحصة التموينية على اللاجئين.

- كما تشاء.

ثم تنحيت جانبًا، وكانت فرصة لي لأرى وأتفحص جميع الوجوه الحزينة والكئيبة من اللاجئين، ومعظمهم كان من كبار السن، من أجل أن أستوعب جانبًا من المآسي التي كان يعاني منها هذا الشعب المغلوب على أمره منذ أن عرف الحياة وحتى هذه اللحظة، وهي طبعًا كانت إحدى الأسباب التي جعلتني أهجر أهلي وبيتي من أجل ما اعتقدته أنني سأشارك برسم الابتسامة على شفاه البؤساء منهم، ولكن الرياح هبت من حيث لا تشتهي السفن، بعد أن تبين لي بأن أعداء الشعب الكوردي ليسوا فقط القوات العسكرية للجيوش في العراق وتركيا وإيران وسوريا التي كانت تفتك بهم من كل صوب، وإنما هناك الخطر الأكبر؛ هم الكورد المنتفعون من بؤس وفقر وتشريد هذا الشعب من الذين توغلوا بداخل مفاصله في استعداد دون تردد لتحطيم أي عنصر يسعى بالعمل على تخليص هذه الجموع البائسة من حزنها بأي وسيلة كانت، لأنها تتعارض بل تهدد منافعهم الشخصية، وهم باعتقادي أشد فتكًا وإيذاءًا للقضية الكوردية من غيرهم سواء كانوا فرس أم ترك أم عربًا... وهذه هي الطامة الكبرى لجذور أصل المشكلة الكوردية عبر التاريخ، عندما كانت السكين الكوردية تذبح الجسد الكوردي بالوكالة على الدوام.

بقيت أنتظر المدعو جهاد ليفرغ من عمله ويلتفت لي، حتى تجمع كل اللاجئين لاستلام حصصهم التموينية، وعندها خاطبهم جهاد بكلمة مختصرة قائلاً لهم بعد أن أشار لي:

- إن هذا الرجل هو أحد أفراد البيشمرگة خواره وه (أسفل) بكوردستان العراق، وقد تعرض للاعتقال والسجن بمريوان بسبب دفاعه عن حقوقكم، وقد استلمته البارحة بعد أن أطلقت سراحه السلطات الحكومية الإيرانية، وهو الآن يروم بالسفر للعودة لمريوان ليلتحق من هناك بمجموعته بكوردستان، ولكنه لا

يملك المال اللازم الذي يؤمن له أجور السفر، فأرجو منكم مساعدته على قدر استطاعة كل فرد منك، وسأكون أول المتبرعين.

ثم أخرج جهاد من جيبه ورقة نقدية لم أعلم كم كانت قيمتها، ودفع بها إلى مساعده أحمد الذي تولى جمع التبرعات لي، فنظر الجميع نحوي متعجبين مما سمعوه لأنهم وجدوني بقيافة مرتبة ولا يملك أحدهم شراء بدلة بالزي الكوردي كالتي كنت أرتديها، وبشكلي الذي أصبح مقبولاً بعد أن حلقت ذقني وأبقيت على شاربي الطويل الذي برمته وكاد أن يصل بطوله لأذاني، وهم قد تعودوا أن يروا من هو على شاكلتي من القياديين والدولارات تملأ جيوب شراويلهم، فمدوا أيديهم جميعًا ليعطوا ما تمكنوا عليه من مال لمساعد جهاد المدعو أحمد الذي تبنى جمع التبرعات بعد أن دار عليهم كلهم وهم بوقفتهم تلك.

شكرتهم جميعًا، وأجابوني بقولهم لا عليك فهذا واجب علينا وكلنا قد تعرضنا لنفس موقفك هذا لمئات المرات. وحينها أدركت المعنى الحقيقي لمقولة: خير العطاء هو في الوقت المناسب، لأنني لو كنت أحمل معي نقودي التي أمنتها في السليمانية وكانت خمسة آلاف دينار عراقي وهي تساوي حينها خمسة عشر ألف دولارًا، وعندها لما كنت قد ابتهجت وامتلكت الغبطة قلبي لما جمعه لي هؤلاء الناس البسطاء من قروش معدنية بالعملة الإيرانية، كانت هي كل ما تمكنت أن تجود به أياديهم الكريمة، وقد اعتبرته وقتها وحتى الآن موقفًا مميزًا بغاية النبل والسخاء.

بعد حصولي على المال الذي لم أكن أعرف قيمته من أجل تغطية مصاريف السفر وهل هو يكفي أم لا، طلبت من كاك جهاد تزويدي بورقة عدم التعرض الذي سأبرزه أثناء مروري بنقاط التفتيش من الرضائية وحتى مريوان، عندما يُطلب مني تعريف هويتي، فقال:

- لا مانع لدي من كتابتي لهذه الورقة، ولكني أعلمك أنها ليست لها قيمة وعديمة الفائدة حال خروجك من مدينة الرضائية، ولن تفيدك أثناء التفتيش بنقاط السيطرات العسكرية المنتشرة على طول الطريق.

- حسنًا زودني بكتاب حزبي معنون إلى مقر حزبنا بمريوان، تخبرهم به باستلامك إياي من الجيش الإيراني ثم تحويلي لمقر القيادة التي أمرت بعودتي إلى مجموعتي بكوردستان العراق عن طريق مريوان. وأعتقد أن هذا الكتاب سيفي بالغرض اللازم إذا ما تعرضت للمسائلة من قبل السلطات الإيرانية.

- لا مانع لدي من تزويدك بهذا الكتاب الحزبي كما طلبت وسأكتبه باللغة الكوردية.

كتب الرجل ما أمليته عليه ثم أيده بختمه الخاص بعد أن وقعه بخط يده. وأثناء ذلك انفض جميع من كان حاضرًا هناك وذهب جهاد لبيته بعد أن حل المساء، وبقيت أنا ومساعده أحمد في المكتب. فقلت له:

- كاك أحمد غدًا بعونه تعالى سأسافر لمريوان وأرجو أن تجد لي مكان أبيت به ليلتي.

وطبعًا لم أذكر له ما عانيت منه من برد جعلني صاحيًا حتى الصباح، خشية الإساءة لسمعة مضيفي الذي منحني كل ما كان يملك من طعام وأغطية للمنام أثناء استضافته لي.. فقال أحمد من فوره:

- هناك من قدم دعوة لاستضافتك لهذه الليلة فانتظره ريثما يأتي ويأخذك لبيته.

- حسنًا، وأنا شاكر لكم سعيكم الطيب من أجلي، أنت وكاك جهاد.

فقال متبسمًا:

- أنت من يجب أن نشكره ونتأسف له على كل ما عانيت منه أثناء فترة سجنك في سبيل قضية لم نحصد منها لا ناقة ولا جمل.

فقلت ضاحكًا:

- أنا عن نفسي حصدت منها الكثير من العبر والدروس، وعرفتني على العديد من الناس الطيبين، وأنتم منهم بكل تأكيد وهذه وحدها أثمن من امتلاكي لناقة أو جمل.

حينها أدركت حجم الهوة والفرق الشاسع بين هؤلاء الناس البسطاء وأولئك المسؤولين بمقر القيادة، الذين يعتبرون أنفسهم متربعين على كنز ثمين لن يسمحوا لمن هو مثلي بتقاسمه معهم، وأنا والله كنت ولا زلت لا أشتري الدنيا بكل مباهجها حتى لو كان ثمنها فلس واحد.

جلست أنتظر مجيء مضيفي الجديد ليأخذني لبيته، وكانت فرصة لكي أتدارس مع نفسي خطتي ليوم الغد بعد أن سارت الأمور معي على نحو مرضي بذلك اليوم، وقد قررت أن تكون أولى تحركاتي بيوم الغد هو ضرورة ذهابي إلى دائرة الانضباط العسكري الإيراني لزيارة ذلك الملازم الشاب الذي تعرفت عليه قبل يومين، وحينها أظهر استعداده لمساعدتي إن احتجت له، وقد جاء دورها الآن لكي يعمل على تصديق الورقة التي حصلت عليها من كاك جهاد، ومن ثم التوجه فورًا إلى كراج النقليات للسفر لمريوان، ولأنني لا أعلم أين يكون كراج السفريات بمدينة الرضائية، فكرت بما قاله لي مضيفي بليلة البارحة عن استعداده لمساعدتي بإرسال ولده معي لكي يرشدني إلى أي مكان أريد الذهاب إليه بداخل مدينة الرضائية، وهذا أول ما سأفعله غدًا صباحًا بعون من الله وتوفيق من عنده..

بعد فترة قصيرة دخل علينا شاب وسيم الشكل بهي الطلعة، فسلم علي بحرارة بالغة إلى درجة جعلتني أشعر أنني كنت أعرفه أو قد التقيت به سابقًا. وقال لي: تفضل معي فزوجتي قد حضرت لنا طعام العشاء وهي بانتظارنا. فمشيت

معه وأنا مستغرب لقوله هذه العبارة التي لا تقال إلا لمن له صلة القرابة بزوجته، وفي الطريق تبادلنا الأحاديث الودية حتى وصلنا لبيته أو شقته الكائنة بنفس هيكل تلك العمارات غير المكتملة البناء ومررنا بنفس المراحل التي تخطيتها بليلتي الماضية مع مضيفي على السلالم، حتى دخلنا إلى صالة شقته الجرداء بعد أن أزحنا الستار المعلق على بابها، ثم مضينا لندخل إحدى غرف الشقة وكانت هي كل منزله، فوجدتها على درجة عالية من الترتيب والنظافة والدفء إضافة لوجود بعض قطع الأثاث البسيط والأدوات المنزلية النظيفة والفرش الجديدة، وهناك تواجدت امرأة شابة محترمة كانت تحمل طفلاً رضيعًا على يدها، واستقبلتنا بالترحاب الممزوج بالاحترام بلهجتها السورانية، فعرفت أنها زوجته، فسلمت عليها بعد أن خفضت رأسي خجلاً من ذلك الموقف، وقلت: كيف حالك يا أختي، فردت التحية بأحسن منها، وحينها تدخل زوجها قائلاً بالسورانية أيضًا:

- هذا هو أخوك الذي كلمتك عنه وهو من نفس مدينتك في السليمانية.

فقلت ممازحًا:

- بل من نفس مدينة والدي وكل أجدادي، لأني في الحقيقة بغدادي المولد والمنشأ.

- هل حقًا ما تقول؟ هذا يعني أنك تعرف التكلم باللغة العربية التي أعرفها أيضًا وقد اشتقت كثيرًا للتحدث بها.

فقلت له ممازحًا بالعربية:

- وهي فرصة حتى لا تفهم أختي ما قد تقوله لي بالسر وقد يغضبها..

فقال ضاحكًا:

- أجل أجل هو ذاك أيضًا.

جلست بعد أن تنفست الصعداء لأني فعلاً كنت بحاجة لأن أقضي ليلتي بمكان دافئ من أجل أن أخذ كفايتي من النوم العميق، لأن ما ينتظرني بالغد هو يوم شاق وسفر طويل، إضافة لجو عائلي حميم يشعرني من ناحية بأنني وسط أهلي وأقربائي الذين ابتعدت عنهم كثيرًا، ومن ناحية أخرى يجعلني أتيقن أن بشعبي الكورد الكثير من الطيبين، وأن السيئين منهم هم أناس قلة لا يمثلوا سوى أنفسهم الخبيثة..

بعد جلوسنا بفترة قصيرة بدأ مضيفي بمساعدة زوجته التي كانت منزلتها عندي بذلك الموقف هي أعظم من أختي الحقيقية، من أجل تقديم الطعام الذي كان واضحًا أنه قد تمَّ إعداده خصيصًا من أجلي، وعندها استأذنت من مضيفي أن يعطيني إبريقًا من الماء الدافئ من أجل أن أغسل به رأسي بخارج الغرفة، فذهب مسرعًا وأفرغ إبريق الماء الحار الذي كان على المدفأة النفطية بوعاء كبير ثم أضاف عليه قليلاً من الماء البارد ليصبح دافئًا، وقال لي: تفضل. فتوجهت من أجل أن آخذ وعاء الماء الدافئ لأغسل رأسي في الفسحة الخالية بخارج الغرفة. فاستوقفني قائلاً: لا داعي بالذهاب للخارج والجو بارد هناك، بإمكانك الاغتسال هنا كما نفعل نحن.

عندها أصابني الخجل الشديد وتمنيت لو أنني لم أطلب منه ذلك، وهو بدوره سحبني بلطف لركن في الغرفة كان فيه حوض بلاستيكي صغير عادة ما يستعمل لغسل صغار الأطفال أو لبعض الملابس، ومددت رأسي فوقه من أجل أن أسكب عليه الماء الدافئ، فقال مضيفي الكريم:

– اغسل أنت رأسك بهذه الصابونة وأختك ستسكب الماء عليه عندما تريد.

وجدت في ذلك إحراجًا شديدًا لي، فتراجعت لأذهب إلى مكان جلوسي بعد أن عدلت عن غسل رأسي بتلك الطريقة المحرجة جدًا! فحلف الرجل بأغلظ الإيمان أن أرجع لأغسل رأسي وزوجته هي من ستسكب الماء عليه، ففعلت كما كان

يرغب وأنا محرج وخجل بدرجة عظيمة لم يسبق لي أن شعرت بمثلها بكل حياتي السابقة، وأتممت غسل رأسي على عجل وأنا أشعر وكأني قد أزحت جبلاً كان جاثمًا على رأسي، وبذلك زالت إحدى همومي التي كنت أعاني منها منذ اعتقالي، بسبب عدم إمكانية الاغتسال متى ما احتجت ذلك.

عندها بدأ مضيفي الشهم بتوزيع الصحون على سجادة سفرة الطعام التي فرشها فوق سجادة كانت مفروشة على أرضية تلك الغرفة، وامتلأت السفرة بما لذ وطاب من اللحوم والفاكهة والحلويات وحتى المكسرات من الفستق والبندق، فبدأنا بأكل الطعام ثم تبعه الشاي ثم الحلويات والمكسرات والفاكهة من ثلاثة أنواع، ونحن بجلستنا التي ما انفكينا أنا وهو من الحديث بمواضيع شتى، وذلك أمر كان يدل على أن مضيفي قد قدم لي ما لم يقدمه لنفسه بكل يوم، وهو من كرم أخلاقه وحسن تربيته، ولا أنسى طبعًا أختي التي لم تلدها أمي، التي كانت حريصة على خدمتنا بأن تأتينا بهذا الصحن من اللحوم أو ذاك الذي يحوي على الأرز الفاخر، طيلة فترة جلوسنا على سفرة الطعام وهي تحمل ابنها الرضيع على صدرها.

وللحقيقة فأنا أعترف بأننا بمجتمعنا المتمدن ببغداد لم يسبق لنا أن قمنا بواجب الضيافة على هذا النحو لأقرب الناس لنا، والسبب هو ليس لأننا بخلاء ولكن لأن المجتمعات المتحضرة لا يصادف فيها لعابر سبيل مثلي، يكون فيها جائعًا وغريبًا ومفلسًا، لكي نقوم له بنفس الواجب عن طيب خاطر كهذا الذي قدمه لي ذلك الشاب المحترم وزوجته الكريمة من غير معرفة سابقة لي، فكيف لي أن أجازي مثل هؤلاء الناس الطيبين؟ وبالمناسبة فإن شعوري هذا بالامتنان لمضيفي وزوجته بتلك الليلة لا يقلل من امتناني لمضيفي بالليلة السابقة لأنه قدم لي كل ما كان يملك، حتى لو كانت علبة صغيرة من سمك الساردين، لأنها كانت أخر ما كان يملك في بيته من طعام..

بعد أن أكلنا كل ما لذ وطاب من ذلك الذي قدمه لي مضيفي الكريم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وسألته بالعربية عن طبيعة عمله؟ فقال:

– إنني مثلك پيشمرگة بالحزب الديمقراطي.

– في الأعلى أم بالأسفل (يعني بالعراق لو بإيران)؟

فقال تلافيًا للإحراج:

– هنا في الرضائية.

فقلت:

– لنتكلم بصراحة ولا أحد هنا يسمعنا، فإنني بكل صدق أرغب بمعرفة شعورك وأنت تقاتل من أجل هدف أصبح معروفًا وأنا أحترم رغبتك هذه، ولكني على يقين أنك لا تؤمن بها قطعًا، أليس كذلك؟

– مشاعري وأنا أقاتل إخوتي الكورد الإيرانيين الذين يؤمنوا بنفس ما أؤمن به يشبه لحد ما: رجل يحمل بيده سكين يقطع بها من لحم جسده ثم يضعه بفمه ليسد حاجته من الطعام لكي يستمر بالعيش مثل باقي البشر، وأظنك تعرف السبب من وراء ذلك؟! هذا لأنه الطريق الوحيد أمامنا لنسلكه، وهذا لا يعني أننا عندما نكون إلى جانب الپاسدار بقتال إخواننا، أننا نعمل على ضربهم بقسوة لأن بيننا قنوات سرية مفتوحة نسرب من خلالها المعلومات بخصوص توقيتات الهجوم عليهم، من أجل أن يحتاطوا لذلك ولا يتكبدوا الخسائر، وهذا كل ما نستطيع أن نفعله من أجلهم في الوقت الحاضر...

وبالرغم من التبريرات والحجج التي قالها مضيفي –وأنا لم أشك بصدق كلامه– تملكني شعور تصورت فيه أن كل ما دخل بجوفي من طعام كان مغمسًا بدم أولئك الأبطال، على الرغم من التبريرات المنطقية لمن عرف معنى الجوع الحقيقي والتشرد غريبًا ببلد مثل إيران، وبذلك فقد أصبح هذا الموضوع خبر مؤكد من خلال سماعي للعديد من الناس هنا في الرضائية ناهيك عن الذي

رأيته بمريوان من مشهد دموي لبعثة الشهداء من الكورد الإيرانيين، وبذلك فإن الموضوع قد استوفى حقه كمعلومة مؤكدة، على الرغم من يقيني أن الكثير من رفاقي الپيشمرگة أو من يناصرهم في العراق لن يصدقوا هذه الأعمال الوحشية التي يندى لها جبين كل إنسان شريف ومنصف مهتم بالشأن الكوردي، مهما كانت جنسيته أو قوميته، وبالتالي سيكذبون كل من يتطرق لهذا الموضوع... على هذا الأساس فضلت أن أغير من موضوع نقاشنا إلى مواضيع أخرى بعيدة عن السياسة، لأنني لم أرغب أن تتغلغل بنفسي ذرة من البغض تجاه ذلك الرجل الشهم وزوجته الطيبة، اللذان آواني وأطعماني، وحتى غسلوا لي رأسي من غير معرفة مسبقة بعد أن قدمت إليهم من المجهول، فقفزنا على مواضيع اجتماعية ولغوية شتى، وبها طاب مجلسنا الذي دام حتى وقت متأخر من تلك الليلة، ونسيت ما كان من أمر حديثنا بالسياسة.

ومن خلال محادثتنا استطاع مضيفي الذي كان يتمتع بذكاء حاد أن يكون فكرة عني وعن أهوائي ومبادئي، لأنه رجع بي إلى موضوع السياسة ليختم بها جلستنا، بعد أن بدأت زوجته الكريمة بتحضير فراش نومنا، فقال لي:

– لقد تشرفت اليوم بالتعرف عليك لأنني منذ فترة طويلة لم ألتق بشخص نقي مثلك، وكذلك لأني وجدتك ظريفًا حسن المعشر وعلى خلق عالي كما توقعت عندما رأيتك بظهيرة هذا اليوم بمكتب كاك جهاد الذي أخبرنا جميعًا بموضوعك، وعليه اسمح لي يا أخي العزيز أن أتقدم لك بنصيحة أخوية خالصة بالرغم من أننا بنفس العمر تقريبًا مع فارق معرفة وعدم معرفة كافية بهذا الطريق الذي أنت سائر فيه، خصوصًا بعد أن ورد لسمعي أنك ذاهب لتلتحق بنفس مجموعتك بكوردستان العراق.. وعليه فأنا أرجوك يا أخي العزيز أن تنتهي عن ما بدأت به لأنك لن تستطيع أن تغير من الأمر شيئًا، وأقولها لك بصراحة أن أمامك خيارين لا ثالث لهما، أولهما أن تكون على نفس شاكلة محيطك الذي تعمل

فيه، بكل تفاصيله التي لا ترضاها. وثانيهما أن ترجع من حيث أتيت لأنك إذا لم تصبح مثلهم فإنهم سيدبروا لك مكيدة من خلال وسائل لن تأتي على بالك، وبذلك يتخلصوا منك، كأن مثلاً يقدموك ككبش فداء بمهمة لن ترجع منها سالمًا، أو يغدر بك الآخرين من بقية الأحزاب لعلمهم أنك غريب وليس هناك من سيطالب بدمك، وحسبما علمت من كلامك إنك غير مجبر على أن تسلك نفس طريقي الذي لم أجد غيره، باعتبارك من عالم مختلف ولديك خيارات عديدة أخرى من أجل أن تشق طريقك في الحياة من غير أن تتخلى عن اعتزازك بقوميتك وبكوردستان. هذا لأنك قادر على أن تخدمها بطرق ووسائل أخرى بعيدة عن حمل السلاح من أجل مصلحة هذا أو ذاك من الأحزاب التي تتاجر بقضيتنا الكوردية العادلة وبشعبنا المنكوب..

وبعد أن أكمل الرجل كلامه الذي كان محقًا به، شكرته على صراحته لأني عهدت به الصدق بكل ما قاله منذ أول لقائي به، ولكنني بنفس الوقت لم أؤيده وكذلك لم أخالفه بمضمون نصيحته لي، مع التشديد على عدم الإفشاء له بنيتي على رجوعي لبيتي، لأني أخذت العبرة من الدرس القاسي الذي تلقيته بسجون إيران، حتى أمسيت مرغمًا على الكتمان لما نويت وخططت له إلى أن أصبح بمأمن عندما أكون بخارج هذا البلد اللعين.

ومن أجل ألا أكون مضطرًا للتصريح بأي قول يتعارض وما نويت عليه حتى لا أكون ناكرًا لجميل ولكرم ذلك الرجل الطيب؛ أغلقت الموضوع بشكل غير مباشر وسألت مضيفي سؤالاً كان يتوارد بذهني كلما نظرت إلى خارطة إيران التي كانت معلقة على إحدى جدران تلك الغرفة، فقلت له:

– بودي يا أخي العزيز أن تشرح لي على هذه الخارطة عن موقعنا الحالي فيها وطول المسافة التي بيننا وبين مريوان، لكي يسهل علي الوصول بيسر أكثر.

- الأمر بسيط، أول شيء ليس لدينا خط مواصلات سفر مباشر لمحافظة سنندج، التي لو وصلتها سيكون الأمر سهل جدًا لتكمل طريقك لقضاء مريوان، والحل بهذه الحالة هو أن تستقل الحافلة المتوجهة لمحافظة كرمنشاه التي هي باتجاه الجنوب (هنا على الخارطة) ولكن لا تكمل الطريق وصولاً لها وعليك أن تُعلم السائق أنك تريد النزول عند تقاطع الشوارع الذي تكون فيه محافظة مهران على الشرق (يسارًا) ومحافظة سنندج على الغرب (يمينًا) وهناك ستجد العديد من الناس الذين ينتظرون الحافلة القادمة من مهران والمتجهة لسنندج، لتكمل طريقك معهم، وهناك احتمال أن من ضمن ركاب الحافلة التي ستستقلها سيكون هناك ركاب وجهتهم مثلك إلى سنندج، فتعرف عليهم ورافقهم حتى تصل لسنندج، ومن هناك ستجد العديد من الحافلات والعربات الصغيرة والكبيرة متجهة لمريوان التي ستنقلك لها بيسر وسلامة.

نظرت إلى الخارطة مليًا بعد أن استوعبت وحفظت الشرح الوافي الذي شرحه لي مضيفي، فتوقفت للحظات أنظر بها للخارطة، والتقطت لها صورة خزنتها بعقلي من أجل أن أتذكرها وأراجعها عند الحاجة، وبذلك تكون مهمتي قد سهلت أكثر والفضل يرجع لذلك الرجل الشهم.. وأثنائها كانت أختي العزيزة زوجة مضيفي قد أنهت تحضير فراش النوم، وكنت قد توقعت أنهم سيسمحوا لي بالنوم معهم بطرف بعيد عنهم من تلك الغرفة الدافئة، ولكني تفاجأت بتصرف كريم كان فوق العادة وفوق كل تصور، وذلك عندما طلب مني أن أستلقي للنوم على جانبه الأيمن في الوقت الذي كانت زوجته أختي بكل فخر ستنام على جنبه الأيسر!! فرفضت بشدة لأني كنت على يقين أنني لن أرتاح بنومتي بمثل وضع كهذا، ولكنه كعادته أصر بنفس الطريقة التي أصر فيها على أن تسكب زوجته الماء الدافئ على رأسي أثناء غسله.

وكالمرة السابقة لم أجد مفرًا من ذلك الموقف الأخوي جدًا، الذي كان فيه مضيفي شديد الإصرار، فوضعت رأسي على الوسادة، ونمت بعمق وكأنني كنت مخدرًا من شدة التعب والإرهاق ولأنني أيضًا كنت أشعر وكأني كنت نائم في بيتي أنعم بالطمأنينة.

لم أفق إلا عند الصباح عندما أيقظني مضيفي لتناول طعام الإفطار، فأكلنا سويًا، واستأذنته بعدها للمغادرة بعد أن شكرتهم على حسن الضيافة الأخوية، ودعوت لهم دعاء خرج من صميم قلبي قلت فيه: اللهم يا رب العالمين بجاه كل من له جاه عندك، وبجاه غربتي هذه، ومصيبتي التي أنجيتني منها، بأن ترزق هؤلاء الناس الطيبين الكرماء رزقًا حلالاً، وتحفظ لهم ولدهم الصغير وتجعله من الذرية الصالحة، وتجنبهم كل مكروه بحياتهم، اللهم أمين، وعندها ودعوني هم بدورهم بنفس الحفاوة التي استقبلوني بها، وخرجت من عندهم قاصدًا بيت مضيفي السابق من أجل السماح لابنه على مرافقتي بغية إرشادي لمكتب النقليات، وطبعًا لم أخبره أنني سأعرج على دائرة الانضباط العسكري لكي لا يتردد بالسماح لولده على مرافقتي.

وهذا ما سأمر عليه سريعًا دون أن أطيل شرح تفاصيله، بعد أن أطلت شرح تفاصيل ضيافتي للأيام الثلاثة الماضية لما كان لها من وقع دامغ على نفسي حينها، وعلى ذاكرتي بعدها، باعتبارها أحداثًا كانت مهمة برحلتي مع العذاب.

ذهبت لبيت مضيفي السابق واصطحبت ولده ابن الثالثة عشر عامًا من عمره، ومضينا سويًا لدائرة الانضباط العسكري، وهناك امتنع ذلك الفتى الطيب أن يتقدم معي قريبًا من حراس تلك الحامية العسكرية، وبقي ينتظرني على الرصيف بعيدًا، وهناك عند البوابة وبعد أخذ ورد مع حراس البوابة الذين لم يفهموا مقصدي خرج إلينا ذلك الملازم الشاب بعد أن رآني من نافذة

الاستعلامات، مناديًا على الحراس من أجل السماح لي بالدخول، فتوجهت إليه واستقبلني كالمرة السابقة بكل حفاوة واحترام، وسألني عن حاجتي لكي يلبيها لي، فابرزت له ورقة كاك جهاد المكتوبة باللغة الكوردية التي كتبها لمكتب مريوان للحزب الديمقراطي، طالبًا منه بأن يصدقها بختم الدائرة من أجل ألا يعترض طريقي أحد بنقاط التفتيش على طول الطريق لمريوان، فقال بعد أن اطلع عليها:

- أنا لا أفهم هذه اللغة، ولدي حل آخر.

فقلت بشوق:

- انجدني به أرجوك.

فقال سأزودك بكتاب رسمي أدون فيه ما جاء بالكتاب الذي استلمناه معك، وتم إطلاق سراحك بموجبه، بعد أن أضع صورتك عليه من أجل أن يبدو الموضوع رسميًا وغير قابل للشك والتأويل.

- ليست لدي صورة أحتفظ بها!

- اذهب للجانب الآخر من الشارع وستجد فيه عكاسي (مصور)، اطلب منه صورة فورية، وعند رجوعك إلي ستجدني قد أكملت طباعة الكتاب الرسمي ليصبح جاهزًا بعد أن نضع صورتك عليه ونختمها.

- أحقًا ما تقول؟ بهذه البساطة؟!

فقال ضاحكًا كعادته السابقة، بعد تلفت يمينًا ويسارًا ليتأكد أننا وحدنا:

- نعم، وذلك أبسط ما أستطيع عمله من أجل أن أعوضك على ما لحق بك من ضرر وسوء من أولئك الملالي الظلام، فاذهب وعد إلي بالصورة ولا تضيع الوقت..

خرجت مسرعًا قاصدًا استوديو التصوير في الناحية الأخرى من الشارع، ووجدت بطريقي ذلك الفتى الطيب الذي كان يرافقني لازال ينتظرني بنفس مكانه، وكنت قد ظننت أنه قد رجع لبيته، فذهبنا سويًا ووجدت استوديو للتصوير كُتب على بابه يافطة (عكاسي)، فدخلته وطلبت سحب صورة فورية لي، ففعل بعد أن أعلمني بتكلفة الصورة ووافقت من فوري، وسلمني الصورة بعد عشرة دقائق من الانتظار، وعدت مباشرة إلى صاحبي الذي كان عند كلمته ووعده لي، لأني حينها وجدته قد أكمل طباعة الكتاب الرسمي المستند للأوليات المحفوظة لديهم، فأخذ مني الصورة ودخل لغرفة المكتب وعاد بعد قليل ومعه الكتاب الرسمي وصورتي عليه، مختومًا بختم دائرة الانضباط العسكري لمحافظة أرومية، فشكرته كثيرًا بعد أن عانقته بحرارة جعلتني أنسى كل أحقاد الفرس علينا عبر آلاف السنين، وودعته متمنيًا له من كل قلبي ألا يريه الله مكروهًا بكل حياته، وخرجت إلى مرافقي ودليلي ذلك الفتى الطيب.

كان الوقت حينها قد أوشك أن يبلغ منتصف النهار، وطلبت منه أن يأخذني لكراج السفريات بداخل المدينة، فذهبنا مشيًا على الأقدام باعتباره كان قريبًا، وهناك تأكدت لي دقة معلومات مضيفي ليلة البارحة؛ أنه لا توجد خطوط مواصلات لرحلة مباشرة من الرضائية وحتى مريوان أو سنندج على أقل اعتبار، فحجزت على أول حافلة ستتجه لمحافظة كرمنشاه بعصر ذلك اليوم، ودفعت ثمن تذكرة السفر الذي كان يبلغ نصف ما كان بحوزتي من نقود، ثم سألت دليلي إن كان ما بقي معي من نقود كافية لتوصيلي إلى مريوان؟ أم أنها كثيرة وسيزيد منها بعض المال (لأني نويت أن أعطيها له)؟ فقال المسكين: لا أعلم لأني لم أخرج من هذه المدينة منذ ولادتي. شكرته كثيرًا على مساعدتي بإرشادي لما كنت أريده، ولولاه لما تمكنت من ذلك، وتمنيت له التوفيق بحياته من أجل أن يستطيع إعانة والده وأهله، ناصحًا إياه أن يصبر ويصابر لأن الغد

سيأتي بالفرج حتمًا، مشددًا عليه ألا ينسى أنه ينتمي لأمة عظيمة سيكون لها شأنًا بيوم من الأيام، أسوة ببقية الأمم من العرب والفرس وغيرهم، وأخيرًا ودعته بعد أن قبلته من جبينه وكأني كنت أودع ولدي الغالي نوروز الذي ولد بعد خمسة أعوام من ذلك التاريخ، وتوفي رحمه الله عندما أصبح بعمر ذلك الصبي النجيب، فمضى المسكين بعد أن ودعته عائدًا لبيته وهو يتلفت إلي بين الحين والآخر أثناء سيره ليلقي لي بتحية الوداع، فتأسفت كثيرًا لأنني لم أستطع أن أكافئ ذلك الفتى الشهم بشيء من المال بذلك الظرف الصعب..

ذهبت لأجلس بانتظار موعد انطلاق الحافلة الذي سيكون بعد ثلاثة ساعات لم تمضِ إلا بشق الأنفس، لأنها كانت جدًا ثقيلة على نفسي، وعندما نودي على الركاب بالتوجه للحافلة، تقدمت بثبات قائلاً: باسمك اللهم أبدأ أولى خطواتي عائدًا لبيتي، راجيًا أن تتم علي نعمتك بعد أن نجيتني من القوم الظالمين، لتخلصني من كل المارقين الذين سأمر عليهم حتى أصل سالمًا لبيتي.

صعدت بعدها للحافلة واتخذت موقعي بجوار إحدى النوافذ، وجلس بجانبي أحد الجنود الإيرانيين، وبأول حركة للحافلة تعالى صراخ بعض السفهاء من الركاب كعادتهم بهيجان مشعوذ كذلك الذي تكلمت عنه ووصفته أثناء مغادرتي لطهران، وكنت أثناء جلستي تلك حريصًا على أن لا أكلم أحدًا من الركاب بتلك الحافلة تجنبًا لأي مشكلة، واستمرت الحافلة في السير بنا على طول الليل بأكمله، وبذلك كانت قد اجتازت الكثير من المدن الصغيرة والكبيرة التي كانت بطريقنا، وتوقفت أثناء ذلك مرتين من أجل الراحة وتناول الطعام، وخلالها فضلت الجلوس بمكاني ولم أنزل من الحافلة إلى تلك المطاعم مع باقي الركاب، لسببين: الأول هو خشيتي مما قد يحدث لي من مفاجأت غير متوقعة، والثاني عدم معرفتي بقيمة المبلغ المتبقي بجيبي إن كان كافيًا لما ينتظرني في بقية

مشواري بما سأدفعه لأجور الحافلة إلى سنندج والأخرى من سنندج إلى مريوان، وهذا يعني أنني سأصوم حتى وصولي لمريوان التي لا أعلم متى سأصلها بنهار الغد.

وبما أن الرحلة كانت طويلة فالركاب عادة ما يكلمون بعضهم البعض وهذا ما أراد أن يفعله الجندي الإيراني الجالس بجواري، عندما قدم لي بعض التفاح الذي اشتراه أثناء نزوله للمقهى، ولكني لم أقبله منه على الإطلاق، واعتذرت عن قبوله لأني علمت منه أنه ذاهب ليلتحق بوحدته العسكرية بقاطع عمليات سومار جنوبًا من أجل قتال العراقيين، الذين حينها كانوا قد عادوا ليدافعوا عن العراق من داخل حدود العراق بعد أن اندفعوا في بداية الحرب ليقاتلوا طيلة العامين المنصرمين بداخل الأراضي الإيرانية، بعد الضربة الاستباقية التي اعتمدوها بشهر أيلول من عام ١٩٨٠، على أثر التحرشات التي قامت بها إيران على الحدود لأكثر من شهر، تمهيدًا لما أسموه بتصدير ثورتهم الإسلامية وتحرير كربلاء في العراق، إسنادًا لعملائهم من حزب الدعوة الشيعي الذي كانت له عمليات تخريبية بداخل العراق وفي بغداد على وجه التحديد، وقد تحول أثناء الحرب ليكون له دور خياني بارز وعلني بمهاجمة الجيش العراقي بجبهات القتال، ناهيك عن تعذيبهم للأسرى العراقيين بإيران، وهذه المعلومة يعرفها جميع العراقيين، ولا زال أزلام إيران من حزب الدعوة وفيلق بدر يتباهون بها باعتبارها كانت نضال مشرف لهم، ولكني أذكرها من أجل توثيقها بشهادة للتاريخ، بعد أن بدأ البعض بهذه الأيام بقلب حقائق التاريخ على اعتبار أن العراق هو من بدأ بغزو إيران لكي يجهض ثورتها المزعومة، وكأن العراق كان يبغي احتلال إيران من أجل توسيع رقعته الجغرافية أو لزيادة موارده النفطية كما فعل حقًا بعام ١٩٩٠ بغزوه للكويت وجعلها محافظة عراقية، وقد دفع العراق ثمنه غاليًا بكل السنين التي تلت ذلك الحدث.

ورجوعًا لموضوعنا فإن الحافلة لم تتوقف بعد تلك الاستراحتين وواصلت السير قدمًا على طول ما بقي من تلك الليلة، باستثناء توقفها الإجباري عند نقاط التفتيش العسكرية المنتشرة على طول الطريق، والتي كان خلالها جميع الركاب يبرزوا هوياتهم إلى الجندي الذي يصعد للحافلة من أجل التفتيش، ولم يحصل ولا مرة منها أن سألني أحد منهم عن هويتي أو ما شابه، وكأني كنت غير مرئيًا لهم عندما كانوا يمرون بجانبي بغرض التفتيش..

وفي مسيرتنا للفترة التي تلت اجتيازنا لمنتصف الليل، سألت ذلك الجندي الذي كان يجلس بجواري عن ذلك التقاطع الذي يربط محافظة مهران بمحافظة سنندج، مع يقيني التام بأننا لم نكن قد وصلناه، وذلك استنادًا للمعلومات التي حصلت عليها وحفظتها عن ظهر قلب. فقال لي وقد أظهر تودده على مساعدتي بعد ذلك الصمت الذي كنت عليه لأكثر من سبعة ساعات من السفر:

- سنصل في الساعات الأولى من الصباح وقد يكون بيننا من الركاب الذين هم مثلك يبغون الذهاب لسنندج.

وأثنائها نهض من مكانه وسط الظلمة الحالكة التي كنا عليها وأخذ ينادي بالركاب إن كان أحد منهم سينزل في تقاطع مهران سنندج، فأجابه أربعة من الجنود أنهم سينزلوا هناك. وعندها طلب منهم أن يأخذوني معهم ليدلوني على الطريق لسنندج، فقالوا نحن أيضًا ذاهبون لسنندج وسنأخذه معنا، وهنا أصبحت الأمور واضحة ومطابقة للخطة التي رسمتها في بالي، وبذلك زال التوتر والقلق الذي كنت عليه بعد أن سهلت الأمور معي. فأخذت أقلب خططي التي يجب أن أعتمدها لدى وصولي لمريوان وما يجب علي قوله لمسؤولي مقر الحزب الديمقراطي بمريوان، من أجل مساعدتي بتسهيل عبوري للحدود الدولية لتبدأ بعدها المرحلة الثانية من خطتي التي رسمتها بعناية، فارتأيت أن أفضل

خطة تجعلهم يعملوا على تسريع عبوري للعراق؛ أن أتخلى عن شفافيتي مؤقتًا لبعض الوقت، وهذا يعني أنني لن أذكر لهم أي شيء يتعلق بفترة سجني بقفص الأسرى العراقيين بطهران، وحجم المهانة التي تلقيتها هناك، لكي أصغر من حجم الموضوع، وأكتفي فقط بذكر أن الاستخبارات الإيرانية كانت قد حولتني لمقر القيادة بعد ترحيلي من مريوان إلى سنندج، إضافة لذلك فإنه من الضروري عدم إخبارهم عن الإهمال واللامبالاة التي لقيتها بمعاملة مسؤولي القيادة لي، لأخبرهم بدلاً من ذلك أنني قد لقيت أحسن المعاملة والترحيب منهم خلال الفترة التي قضيتها معهم، مع التشديد على ذكر أنهم قد تأسفوا لي عما حصل معي بمريوان مع تمسكهم بي من أجل العمل معهم في القيادة، ولكني رفضت ذلك لأنني رغبت بالعودة لمجموعتي بكوردستان العراق، وأنهم نزولاً لرغبتي فقد زودوني بالمال اللازم وكتابتهم لرسالة حزبية لمن يهمه أمري في مريوان مع عدم تعرض رسمي استحصلوه لي من الحكومة الإيرانية من أجل السفر لمريوان..

لقد وضعت تلك الخطة بتفاصيلها التي لم تحدث فعلاً آنذاك، وجعلتها مقبولة للتصديق تجنبًا للمبالغة بأحداثها كما حصل معي فعلاً، من أجل بث الرعب بنفوس أولئك الجبناء الذين يسموا أنفسهم بمسؤولين، وهم الذين تخلوا عني بشكل مخزي ببادئ الأمر بمريوان، لعلمي بأنهم يخشوا على مناصبهم الحزبية من الضياع لأنها كانت ذات منفعة شخصية لهم، وبالتالي فلا طاقة لهم بغضب القيادة عليهم بحالة عدم تعاونهم معي بهذه المرة، لأنني بموجب ذلك السيناريو المفترض سأكون مجبرًا على الرجوع لمقر القيادة في الرضائية وإخبارهم عن عدم تنفيذ أولئك المسؤولين الجبناء بمريوان لأمرهم بتسهيل عبوري لكوردستان العراق..

والأمر الذي جعلني مطمئنًا بتنفيذ تلك الخطة؛ هو يقيني التام الذي كنت متأكد منه بشكل قطعي أن الاتصالات حينها كانت شبه معدومة بين الاثنين، باستثناء التواصل ببعض الأمور الحزبية المهمة، وموضوع تسهيل عبوري بالتأكيد ليس ضمن تلك المراسلات الحزبية المهمة باعتباره حدث يومي عادي.

وعند انتهائي من وضع اللمسات الأخيرة لخطتي التي ستكون بمرحلتها الثانية من قراري برجوعي لبيتي في بغداد، شعرت حينها بالطمأنينة، وتذكرت أنني لم أتناول شيئًا من الطعام منذ الصباح وقد أوشكنا لاستقبال فجر يوم جديد، بعد أن مضى علي اثنتي عشر ساعة منذ أن غادرت الرضائية، وخشيت حينها أن أغفو قليلاً ويأخذني النوم أثناء توقف الحافلة في التقاطع المنشود عندما ينزل من يرغب بتكملة مشواره لسنندج، وأبقى أنا بعد أن تمضي بي الحافلة إلى كرمنشاه التي هي أكبر المدن بتلك المنطقة، لأتوه هناك بعد أن تصبح النقود التي بحوزتي غير مجزية لأجرة السفر إلى سنندج ثم لمريوان، وعندها ستضيع كل خططي بمهب الرياح.

وعليه فإنني بقيت يقظًا من غير أن يغمض لي جفن لأقاوم سلطان النوم، حتى وصلنا لذلك التقاطع المنشود عند الساعة الثامنة صباحًا، فتوقفت الحافلة ونزل الجنود الأربعة من الركاب ونزلت معهم، وكانت منطقة خالية جرداء مفتوحة ليس فيها أي بناء أو مقهى أو عمران نحتمي به من ذلك البرد القارص، سوى الشارع الذي كان قاحلاً ومغطى بالثلوج، ولم يمضِ على انتظارنا سوى بضعة دقائق حتى أخذنا جميعًا بالقفز المستمر بأماكننا حتى لا يتجمد الدم بعروقنا من شدة البرد، لأننا كنا في اليومين الأخيرين من تلك السنة الميلادية، وهو موسم ذروة البرد في إيران.

ومن مفارقات الصدف الغريبة إني لازلت أحتفظ بصورة لي كنت قد التقطتها بمثل تلك الأيام من السنة الميلادية بعام ١٩٦٨ في طهران، عندما كنت مع عائلتي بسفرة سياحية أثناء العطلة الدراسية لمنتصف السنة، ولكن بتفاصيل ظروف مختلفة كليًا..

بقينا على ذلك الحال لربع ساعة كدنا فيها أن نتجمد فيها لولا توقف إحدى الحافلات لنا من تلك القادمة من مهران والمتوجهة لسنندج، فصعدنا بها ووجدنا بعض الأماكن الشاغرة لنشغلها وننعم بالدفء، بعدها أعطى كل من صعد معي للحافلة مساعد السائق أجرته، ففعلت مثلهم وكان ثمنًا بخسًا قياسًا لما كان بحوزتي من نقود، واستمرت الحافلة بالسير المتواصل بنا حتى بلغنا سنندج بوقت الظهيرة وحينها توقفت الحافلة بنفس كراج النقليات الذي قدمت إليه مكبلاً من مريوان برحلة عذابي إلى سنندج ثم منه أيضًا إلى طهران، فنزلت من فوري لأبحث عن أية وسيلة نقل متجهة لمريوان، وقد نزعت كوفية الرأس الكوردية الحمراء خشية من بعض الكورد بسنندج، كما هو الحال ولنفس السبب لما كان يحدث بأطراف الرضائية، على الرغم من برودة الطقس وحاجتي لها بغرض الدفء، وعندها لم أجد سوى حافلة النقل العام للركاب التي كانت مكتظة بالركاب ولم يبقَ فيها مكانًا شاغرًا لأجلس فيه، في الوقت الذي كان هناك متسعًا من المجال للوقوف، فلم أبالِ وصعدت إليها.

انطلقت بنا الحافلة متوجهة لمريوان بمسيرة بطيئة ضمن رتل محمي من قوة عسكرية من أمامنا وخلفنا، حتى أصابني الإجهاد من شدة التعب نتيجة الوقوف والسهر والجوع المضني، إلى درجة كنت فيها أغفو وأنا واقف ببعض المرات عندما اتكأت على أحد المساند من خلفي، حتى وصلنا لمريوان، والوقت قد أوشك على الغروب بعد أن غابت الشمس، من غير أن يسألني أحد أثناء

الطريق بإبراز هوية أو دفعًا لأجرة، لأني لم أشأ أن أسأل أحد من الذين كانوا بقربي لعدم رغبتي بالتحدث، خشية من أن ينكشف أمري أني غريب، وعندها فرحت بوصولي الذي تحقق من غير حصول أي طارئ يعترضني، ونظرت إلى ما تبقَ بجيبي من النقود فوجدتها تكفيني للعودة إلى الرضائية، فحزنت كثيرًا وتأسفت بعمق لأنني لم أعطِ شيئًا منها إلى ذلك الفتى المؤدب الذي رافقني في الرضائية، بسبب جهلي لقيمة ما كان بحوزتي من تلك النقود التي تبرع بها اللاجئين الكورد من أجل أن أصل لمريوان، حتى أنني كنت أجهل بتفاصيل قيمة كل قطعة نقدية منها لأنه لم يتسنَ لي التعامل بها كثيرًا أثناء تلك الفترة القصيرة من مكوثي حرًا طليقًا في مريوان.

وأول ما وطأت قدمي أرض مريوان سجلت نجاحي للمرحلة الأولى وتحضرت لتنفيذ المرحلة الثانية من خطتي، وتوجهت إلى بيت صديقي كاك شريف كچل الذي كنت قد اعتقلت فيه وشاءت الصدف التي لم أخطط لها أن ترمي بطريقي ذلك الشخص الذي كان يمثل اللاجئين الكورد بفرع مكتب الحزب الديمقراطي بمريوان، وهو نفسه الذي استنجدت به عند اعتقالي وتخلى عني واسمه حمه سور حسين، فسلمت عليه ولم يتعرف علي، فأخبرته من أكون، فصعق من شدة الصدمة لأنه كان قد توقع أنني قد أصبحت بعداد الأموات إن لم أدخل بدهاليز أقفاص الأسرى العراقيين. فتلفت يمنة ويسرة وقال لي وهو يلهث:

– هل هربت من سجنك؟

فتلوت على مسامعه ذلك السيناريو الذي أعددته بعد أن طبخته على نار هادئة على طول الطريق من الرضائية لمريوان، داعمًا أقوالي بما كنت أحمله من مستمسكات أبرزتها له من أجل أن يقتنع أنني لست هاربًا. فقال كلامًا كنت متوقعًا أن يقوله:

– هل أخبرت القيادة عن فشلنا بمحاولة نجدتك من أيادي الپاسدار؟؟

فقلت له كلامًا من أجل تسوية الموضوع:

– وهل كان بيدكم شيء ولم تفعلوه بعد أن ألصق بي الپاسدار صادق تلك التهمة الخطيرة؟!

وللأمانة أذكر أن ذلك الشخص المدعو حمه سور حسين هو شخص ضعيف الحجة والشخصية، وهو ليس لئيمًا أو خبيثًا كغيره من السياسيين الذين تعاملت معهم بمقر القيادة، ولكن الحدث فعلاً كان أكبر منه، وبالتالي لم يستطع أن يقف بصلابة بوجه ذلك الپاسدار اللعين كما كنت أتمنى، وأن جل اهتماماته كانت منحصرة أن يدفع بالأمور بالتي هي أسلم وليس أحسن، من أجل أن يتدبر أموره واحتياجات معيشته، ولا زلت أذكر أنني بعد انقضاء ثلاثة أعوام من أخر مرة التقيته بمريوان؛ رأيت صورته منشورة بالجريدة الرسمية في العراق باعتباره كان أحد العائدين الذين سلموا أنفسهم للسلطة بعد شمولهم بقرار العفو العام عن الپيشمرگة من كل الأحزاب..

قبل أن أتركه وأذهب لبيت صديقي كاك شريف لكي أسترجع الأمانة المالية التي أودعتها عندهم وأمضي بحال سبيلي لأبيت بإحدى الفنادق المتواضعة بمريوان، سألته عن الموعد الذي سيحدده لي من أجل التحاقي بمجموعتي بكوردستان العراق، فقال:

– إن العبور لكوردستان يستوجب أن يكون على شكل مجموعة وليس فردي، من أجل ألا يتعرض لكم أحد من قوات الپاسدار بدورياتهم على الحدود، على اعتبار أن الموضوع سيكون واضحًا ولا يقبل التشكيك، ولدي بعض من أفراد الپيشمرگة من الذين أوشكت إجازاتهم على الانتهاء، وسيعودون إلى تشكيلات مجاميعهم في اليومين القادمين، وسأرسلك معهم بالتأكيد..

- بشرك الله بالخير وبارك بك، وإلى اللقاء.

ومضيت بطريقي لبيت صديقي كاك شريف، وقد علمت من حمه سور حسين أنه غير موجود بمريوان لأنه غادر بيته ليلتحق بمجموعته قبل عدة أيام، ولدى وصولي لهم طرقت بابهم الخارجي وخرج لي خال كاك شريف وابنه كاوه فسألني عن حاجتي، فعرفت بالحال أنه أيضًا لم يتعرف علي، فتقدمت بخطوات بداخل حديقة البيت والرجل أوشك أن يهرب لداخل البيت لخشيته مني، حتى تداركت الموقف وقلت له أنا ملازم سرچل، فنظر الرجل لي بتمعن وهو غير مصدق لما كانت عيناه ترى، وشهق من شدة فرحته بعد أن تيقن أنني فعلاً ملازم سرچل الذي اعتقدوا أنه قد ذهب مأسوفًا على شبابه بغياهب الأموات، ثم عانقني ودعاني بالدخول لبيتهم، وعندها استوقفته مترجيًا أن يتركني لحال سبيلي بعد أن يعيد لي مشكورًا الأمانة التي أودعتها عندهم، معللاً ذلك أنه يكفيهم ما نالوه من أذى معنوي بسببي، فأبى ذلك الرجل الكريم أن يتركني أرحل عنهم وسحبني من يدي لندخل للبيت، وجلسنا بغرفة الضيوف، وجاءت بقية العائلة الكريمة لتطل علينا بتلك الجلسة، وهو أمر غير مألوف طبعًا عند استقبالهم لأحد الضيوف، وقد فسرت ذلك على أن تلك العائلة الكريمة بكل أفرادها صغارًا وكبارًا اعتبرتني أحد أبنائها، وأنا فعلاً كان يشرفني أن أكون ابنا وأخًا لهم، ولم أنسَ أفضالهم علي ما حييت.

وبادر ذلك الشيخ الطيب ليكسر السكون الذي حل علينا بقوله:

- إن الله وحده هو الذي أنقذك، لأن كثيرًا من الذين نعرفهم ممن ألقي القبض عليهم بتهم مماثلة لنفس ظروف اعتقالك لم يرجع أحد منهم إلينا، سواء كانوا لاجئين أو پيشمرگة من حزبنا، فحمدًا لله على سلامتك.

وبعد كلمات الترحيب والمجاملة الودية كررت عليه رغبتي بالذهاب إلى إحدى الفنادق القريبة بغياب صاحبي كاك شريف عن بيته، لأنني حاليًا لم أعد أخشى من السلطة ولدي وثائق رسمية من الجيش الإيراني بعدم التعرض لي، ولا مجال للقلق مجددًا، كما أنني سأرجع لمجموعتي بظرف اليومين القادمين، وذلك ما اتفقت عليه مع كاك حمه سور حسين الذي لقيته وأنا بطريقي إليكم، ووعدني بتحقيق ذلك على وجه السرعة، وعندها رجوته أن يعيد لي الأمانة التي أودعتها عندهم بيوم اعتقالي وقدرها كان هو مائة دينار عراقي وتساوي حينها ثلاثمائة دولارًا. فقال الرجل:

- بالتأكيد أمانتك سترجع لك، ولكن من غير أن تغادرنا وتذهب لأي مكان آخر حتى تتم ترتيبات رجوعك لكوردستان، فهذا هو بيتك، وإن كنا قد قصرنا بحقك يومها لأن الموضوع الذي اتهموك به زورًا كان كبيرًا جدًا ولا يقدر على مواجهته سوى كاك شريف الذي كما تعلم لم يكن موجودًا حينها، وقد علم بالأمر عندما عاد من كوردستان بوقت متأخر، ولم تكن حينها بسجون مريوان، وعلى أثر ذلك ذهب لمقر الپاسدار وشتمهم علنًا بباب مقرهم، ومن أجل أن يطيبوا خاطره عملوا على نقل الپاسدار صادق الذي ألقى القبض عليك إلى مدينة أخرى، وعندما لم تقع بيده أية وسيلة يستطيع أن يساعدك بها عمل على إرسال برقية إلى مقر القيادة من أجل أن يتحروا عنك لدى السلطات بسجونهم..

فقلت له:

- إنني شاكر لكم صنيعكم هذا من أجلي، ولكني لا أريد أن أتسبب لكم بمتاعب جديدة بغياب صاحبي عن بيته.

- لا عليك، فلم تعد هناك مشاكل أخرى بغياب ذلك الپاسدار اللعين عن مريوان.

وعندها نزلت عند رغبته بعد أن دعاني ذلك الرجل الطيب للاستحمام، وكذلك دعاني أهل بيته الكرام على عشاء خاص يقدموه تكريمًا لي واحتفاءًا بعودتي سالمًا معافى، فاستحممت وكانت هي المرة الثالثة لي التي أغتسل بحمام حقيقي منذ قدومي إلى إيران، ثم تعشيت بأربعة أصناف من الطعام كان كل نوع منها مُعد من قبل إحدى إخوتي الزوجات الأربعة لصديقي كاك شريف، وجلست بعدها مرتاحًا بعد ذلك المشوار الذي انطلق بي من نفس تلك الغرفة قبل قرابة الثلاثة أشهر، لأرى كل تلك الأهوال والمصاعب التي كانت تعادل تجربة عمر بكامله، ثم أرجع سالمًا ومعافى إلى نفس نقطة انطلاقي القسري.

ومن أجل أن يعمل مضيفي بإدخال البهجة إلى قلبي بعد أن وجدني حزينًا وقد طغت الكآبة على طباعي التي تغيرت بشكل ملحوظ، حاول العثور على البث الموجه لمحطة التلفزيون العراقي باللغة الكوردية من أجل تلطيف الأجواء بتلك الجلسة، وكانت النتيجة أنه قد استقبل بث المحطة الرسمية لتلفزيون العراق من بغداد وقد ظهر على الشاشة المطرب المعروف سعدون جابر يشجي بصوته العذب وهو ينشد: "ألي مضيع ذهب بسوك الذهب يلكاه، واللي مضيع وطن وين الوطن يلكاه؟"، لقد كان موقفًا مؤثرًا للغاية اهتزت له كل جوارحي وأنا أنصت ومضيفي يتطلع لي ليقرأ قسمات وجهي، وكأنها كانت رسالة خاصة موجهة شاء القدر أن يرسلها لي عبر الأثير، وتفاعلت بها واعتبرتها هي نداء من الوطن لكي أرجع له ولا أبقى في الضياع. وأقسم بكل ما هو مقدس عندي أن ذلك ما حدث فعلاً؛ وهو ليس مشهد درامي حشرته عن قصد ضمن رحلتي مع العذاب، فرب صدفة خير من ألف ميعاد وهذا ما تحقق بتلك الصدفة العجيبة والغريبة بذلك التوقيت.

ولم تمضِ سوى ليلتين؛ كنت أثنائها ضيفًا على ذلك البيت الكريم وأهله المحترمين الذين حسبتهم وكأنهم أهلي، حتى اكتملت ترتيبات عودتي للعراق مع بعض أفراد من الپيشمرگة العائدين إلى كوردستان، وكنت حينها جاهزًا بعد أن أتممت استعداداتي من خلال شراء بعض الملابس التي ستقيني من البرد خلال الرحلة التي سنبدأها من داخل مدينة مريوان مشيًا على الأقدام، لانغلاق الطريق بوجه السيارات العاملة ما بين مريوان وقرية سياناو على الحدود، بسبب كثافة الثلوج المتساقطة عليه بتلك الأيام.

وفعلاً جاءني بصباح اليوم الثالث لتواجدي بمريوان سبعة أفراد من الپيشمرگة إلى بيت مضيفي، وغادرت معهم مريوان بعد أن ودعت خال صديقي شريف وولده كاوه، وكان ذلك اليوم هو الأخير لي بإيران والأخير أيضًا من تلك السنة الميلادية ١٩٨٢، وبهذه الحالة فعبورنا للعراق سيكون بعد منتصف الليل، وهذا يعني أنني سارجع لوطني مع الساعات الأولى من العام الجديد الذي كنت متفائلاً بقدومه، وبذلك فإن البدء بتنفيذ المرحلة الثانية من خطتي بالعودة لأهلي قد بدأت بذلك الصباح، وسيكون لي متسع من الوقت خلال الرحلة لكي أضع خطتي الثالثة التي ستلي عبوري للحدود بأمن وسلام.

بعد أربع ساعات من المشي والجري المتواصل بسرعة، شعرت بالتعب الشديد وعدم قدرتي على المواصلة بالسير إن لم نأخذ قسطًا من الراحة لفترة وجيزة، وهذا شيء لم أعهده بقابلياتي البدنية السابقة، عندما كنت أسير بحزم أثناء جولاتي السابقة ضمن مجموعتي بجبال ووديان كوردستان، أو بتلك المسيرة التي مشيت بها على مدار أربعة وعشرين ساعة متواصلة من غير كلل ولا ملل ولا شعور بالتعب، من غير مأكل أو مشرب أثناء قدومي لإيران، ولمعرفة البعض من المجموعة بالظروف التي مررت بها وجعلتني هزيل البنية، فإنهم قد

استجابوا لحاجتي بالتوقف بغرض الاستراحة لأن هناك متسعًا من الوقت كان أمامنا حتى نصل للحدود، التي كانت متمثلة بسلسلة جبال سورين، مع علمي اليقيني ألا أحد منهم سيستجيب بالتوقف للراحة إذا ما عجزت عن المواصلة عندما نعبر الحدود ونصبح بتلك المنطقة الخطرة التي هي تحت سيطرة القوات الحكومية العراقية، ابتداءًا من جبل سورين وحتى بدايات المنطقة المحررة التي تسيطر عليها الأحزاب الكوردية العراقية، وهي منطقة منبسطة جرداء قدرت مسافتها بخمسة كيلومترات، وتسير بها بعض الدوريات العسكرية على الطريق العام الذي يصل مركز محافظة السليمانية بقضاء بنچوين، ولو حصل هذا فعندها لن يكون لدي مانع بتركهم لي بسبب جريهم السريع، لأنني قد خططت أن أنهي مسيرتي التي بدأتها معهم، لأمكث في الظلام حتى الصباح، ثم أسلم نفسي لأي قوة عسكرية عراقية تصادفني على الطريق العام، من غير أن أكترث لأية تبعات قد تنجم على تصرفي هذا مهما كانت العواقب قاسية، لأنني عندها سأكون قد أوفيت بعهدي الذي قطعته على نفسي وأبريت بذمتي تجاه ربي.

وباحتمال أن الأمور سارت على نحو آخر وبقي رفاقي ملازمين لي طيلة الرحلة؛ فإني قد فكرت بالخطة البديلة التي ستقتضي مني الاستمرار معهم حتى نصل إلى مقراتنا بقرية بيانة بمنطقة شهرباژير، وهناك سيكون لي شأن وليس أي شأن مع كل من ستسول له نفسه أن يحاول تبرير تخليه عني بفترة سجني بمريوان، وسأخبرهم بما حل بي بسنندج وطهران وما رأيته وسمعته في الرضائية من أعمال يندى لها جبين كل كوردي شريف، إضافة لما كان من أمر ذلك الجفاء الذي قوبلت به بمقر القيادة، الأمر الذي جعلني أتسول أجرة سفري إلى مريوان.

لقد كانت تلك الأفكار هي محور انشغالي بتفكري الدائم منذ أن غادرنا مريوان وحتى جلوسنا بتلك الاستراحة القصيرة أثناء الطريق، وحينها دار بيننا أول حوار لنا منذ أن مشيت معهم بذلك الصباح، فسألني أحدهم وكان قد تعرف علي سابقًا في بيت مضيفي كاك شريف بالفترة التي سبقت اعتقالي، قائلاً:

- كاك سرچل.. إن الذي يراك الآن ممن سبق لهم التعرف عليك، لا يستطيع أن التعرف عليك منذ أول وهلة، فلقد تغير شكلك كليًا بعد أن فقدت الكثير من وزنك وأطلت من شاربيك!

- هكذا هي لعبة الحياة يا أخي العزيز.

ثم عقب أحد رفاقه وكان شابًا يافعًا لا يتجاوز الثامنة عشر من عمره، قائلاً:

- كم من الوقت قضيت في السجن؟

- قضيت بالتحديد أكثر من شهرين ونصف بثلاثة سجون كانت بثلاثة أماكن.

فقال من فوره وهو يهز بحركة صبيانية إحدى يديه:

- إنها فترة قصيرة، ويبدو أنك لست متعودًا على الحياة القاسية في السجون.

- يا ليتك كنت معي لترى كم كانت فترة سجني قصيرة يا ابن أخي العزيز.

بعد تلك المحادثة السقيمة عاودنا المسير من جديد ولم نتوقف إلا ونحن قد أدركنا الحافات السفلى لجبل سورين، من جهته المطلة على إيران، بعد أن اجتزنا كل السهول المنبسطة على طول طريقنا، بعد أن تفادينا المرور بقرية سياناو من أجل استلام السلاح من المخفر الحدودي المتواجد هناك، وهذا يعني أننا سنعبر للعراق ونحن عزل من السلاح، وكان الوقت حينها قد تجاوز العصر وأصبح يميل إلى الغروب لأننا سلكنا طريقًا مختصرًا ومباشر إلى النقطة التي

سننفذ منها بجبل سورين لعبور الحدود، وهي نفس الثغرة التي عبرت منها أثناء قدومي لإيران.

وبالرغم من شكواي من الآلام التي مزقت جسدي جراء تلك المسيرة المتواصلة وسط الثلوج؛ لكنني كنت حريصًا ألا يعلم بها أحد ممن كنت معهم، لكي لا أستمع لما سمعته منهم أثناء الاستراحة السابقة، وبعد فترة التقطنا فيها أنفاسنا، بدأنا بأصعب مرحلة بتلك الرحلة؛ وهي تسلق ذلك الجبل الشاهق حتى بلغنا قمته بمنتصف الليل، ثم نزلناه وتسلقنا مباشرة الجبل الآخر من نفس سلسلة جبال سورين، الذي كان يطل من جهته الأخرى على العراق، وأثناء تسلقنا تصادف صعودنا مع وجود أحد المهربين الذي كان قد باع بضاعته بتلك المنطقة الصغيرة المحصورة ما بين الجبلين، وهو بطريق عودته لبيته من غير أن يشتري بضاعة إيرانية عادة ما يحملها على دابته، وكانت فرصة ثمينة لي من أجل أن أستأجر منه دابته لتحملني حتى نصل إلى أعلى قمة ذلك الجبل على أقل تقدير، فوافق الرجل بعد أن أعطيته عشرة دنانير عراقية، بشرط أن أنزل عن دابته عندما نفترق بمسارنا، وحينها ارتحت من ذلك العناء الذي بسببه خارت كل قواي، حتى وصلنا إلى سفح الجبل ونزلنا باتجاه العراق.

ومن ذلك المكان تبينت لنا كل الأقضية والنواحي العراقية بأضوائها المنبعثة، ومنها قضاء شاندري ونالبارس التي كانت تتمتع بخدمات شركة الكهرباء الوطنية، فبدت لي وكأنها تحتفل بليلة رأس السنة من غير أن يعلم أهلها، وحينها غمرني شعور لا يمكن أن تصفه أبلغ الكلمات، عندما شعرت بالسعادة والفرحة الغامرة التي جعلتني أشعر وكأنني بحلم جميل، لقد كان منظرًا بهيجًا لا يوازيه سوى ذلك الوصف الذي يردده رجال الدين عندما يصفون دخول المؤمن

إلى الفردوس في الحياة الآخرة، وهناك يقال لهم هذا هو منزلكم فهنيئًا لكم ما صبرتم من أجله.

هذا هو وصفي لذلك المشهد الذي عبَّر عن يقيني بأنني فعلاً أصبحت في العراق من جديد، وكان حلم أشبه بالمستحيل أثناء تواجدي بأقفاص الأسرى بطهران، وتحقق بفضل من ربي الذي نجاني عندما كنت قد فقدت كل أمل بنفسي، وصدق بوعده وأرجعني على نفس التسلسل الذي انتهيت به بالزنازين الإيرانية، وقد يقول قائل: إن وصفك هذا لا يتطابق مع دخول المؤمنين للجنة؟ وجوابي هو: كيف لا والعراق بكوردستانه وكل ربوعه هو جنة الله على الأرض؟ وهو لم يغب عن بالي بأصعب الظروف التي مررت بها، وكنت خلالها قد نسيت أهلي وأوشكت أن أنسى حتى اسمي، ولكني صبرت وكافحت وتحملت كل الصعاب بالكلمة الصادقة التي لم تفارق شفاهي، ناهيك على أنني لم أرتضِ ببيع مبادئي التي تربيت عليها، حتى جازاني ربي بدخول جنته على الأرض..

وبعد أن أخذ الانبهار مني كل وقته؛ تنبهت إلى أن خمسة من أفراد المجموعة التي كنت معها قد أسرعوا الخطى وتركونا، وبقيت مع من كان غير قادر أن يلحق بهم، وكانوا اثنين من نفس عمري آنذاك، حتى وصلنا إلى أسفل الجبل، وعندها طلب مني صاحب الدابة أن أنزل عنها لأن مساره سيتغير وما نحن ذاهبون به من مسير، فترجلت عن الدابة وسلمته إياها، وعندها كان لزومًا علينا أن نسرع الخطى نحن الثلاثة لاجتياز ذلك السهل المنبسط الذي قدرته بخمس كيلومترات، وحينها استشعرت بالخطر المحدق بنا لو أننا وقعنا بكمين لإحدى الدوريات العسكرية، فعندها مصيري سيكون حتمًا أسوأ من رفاقي الذين معي، لأنني كنت أحمل بجيبي كل الوثائق الإيرانية ومنها ورقة عدم التعرض التي أصدرتها من الجيش الإيراني بمحافظة أرومية، وهي بحد ذاتها ستكون

السبب لإدانتي بتهمة الخيانة العظمى كجاسوس يعمل لصالح إيران الملكية ونحن بأجواء الحرب!

عندها تبخرت من عقلي نشوة المحبة والحنين التي أسكرتني بطيبها منذ أن وطأت قدماي أرض العراق، فهممت بالجري وإسراع الخطى مع رفاقي الاثنين لكي نخرج سريعًا من ذلك السهل المنبسط، بعد أن تخليت عن خطتي بالتخلف عنهم والمكوث بالظلمة إلى أن يحل الصباح، لأعتمد خطتي البديلة بالاستمرار معهم، لأني لمست عمليًا أن الخطة الأولى قد تترتب عليها مخاطر كنت بغنى عنها، لأن النية السليمة والقلب الصافي عوامل لا تكفي للتعبير عن وطنيتي بمثل ذلك الموقف، الذي تصورت فيه نفسي سأكون متهمًا بالتجسس عندما يلقى علي القبض وبحوزتي وثائق إيرانية ستجعلني مدانًا بكل تأكيد..

فأسرعت بخطاي حتى سبقت زملائي وتقدمت عليهم بعد أن كنت متأخرًا عنهم طوال الطريق الذي بدأناه منذ الصباح، ونحن الآن في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل من اليوم الأول لعام ١٩٨٣، وبعد اجتيازنا للشارع العام الذي كان يوصل بنچوين بالسليمانية؛ لم يبقَ لنا سوى ساعة واحدة من المشي السريع حتى نصل لقرية صغيرة كانت هي مدخل الطريق إلى داخل المنطقة المحررة، التي كما أشرت أنها كانت خارج سيطرة الدولة وقطعاتها العسكرية المتواجدة بتلك المنطقة، وعندها اقترحت على رفيقاي أن نتجاوز تلك القرية ولا ندخلها لنكمل المسير ونتوغل بالمنطقة المحررة بأسرع وقت، ولكنهم لم يؤيدوني برأيي وأصروا على المرور بها كما هم متعودين أثناء الذهاب والإياب من وإلى إيران، فمضينا باتجاهها.

بمدخلها حصلت لنا مفاجأة كنت متحسبًا لها وكان لوقعها على نفسي وقع الصاعقة على رأسي، فلقد توجهت نحونا كشافات ضوئية قوية جدًا على حين

غرة أفقدتنا بصرنا ولم نعد نرى شيئاً من حولنا سوى رؤية واحدنا للآخر، وكأننا كنا بوضح النهار، ثم سمعنا صوت ينادي باللغة الكوردية يأمرنا بالتوقف، فتجمدنا بأماكننا وأدركنا أننا قد وقعنا بكمين كان منصوبًا لنا، وحينها انتابني شعور بالأسى وددت فيه لو أنني أتمكن من رفع يدي لأعض على أصابعي من شدة ندمي على قراري، الذي اعتمدته بعدم افتراقي عن زملائي من أجل المكوث بالظلام الذي كان عليه ذلك السهل الواسع من خلفنا إلى أن يحل الصباح، ناهيك عن نزولي عند رغبة رفاقي بالدخول لتلك القرية وهو أمر كنت متخوف منه.

وبينما نحن الثلاثة مشلولي الحركة والتفكير، جاءنا الإيعاز الثاني من مصدر الضوء الساطع بالتعريف عن أنفسنا، فسكت رفاقي لأنهم لا يعرفوا من هو المتكلم، هل هي مفرزة من الجيش العراقي بإسناد من بعض أفراد الجاش، وهي قوات كوردية موالية للدولة، أم هي مفرزة للپيشمرگة التي هي بين الحين والآخر كانت تقوم بدوريات خاطفة بتلك المنطقة، فخرجت من صمتي وتوكلت على الله وقلت:

- نحن پيشمرگة الحزب الديمقراطي.

فأطفأت الأنوار الكاشفة التي كانت هي السبب بكل هذا اللغط والارتباك، لأننا نعلم أن الپيشمرگة لا تتوفر لديهم هذه التقنية من الإنارة الكاشفة، باعتبارها من معدات القوات الحكومية، وأثناء ذلك تقدم إلينا بضعة أشخاص مسلحين رحبوا بنا وكانوا من ناوچة بنچوين التي يترأسها صديقي شريف كچل، وقالوا لنا:

- بإمكانكم المكوث للاستراحة لنصف ساعة فقط، لأننا سننسحب بعدها، وتواجدكم هنا سيشكل خطر على حياتكم.

فقلت ممازحًا:

- هل بقي من خطر آخر أكثر من أضويتكم التي عميت أبصارنا ونشفتم بها دمائنا؟!

وعندها دلنا أحدهم على إحدى البيوت التي كان أصحابها من الموالين لپيشمرگة الحزب الديمقراطي، ووجدنا بضيافة ذلك البيت اثنان من رفاقنا الذين كانوا قد سبقونا بالوصول، فلم نعاتبهم بتركهم لنا أثناء المسير، لأنه عرف طبيعي كان سائد ومتعارف عليه بمثل تلك الظروف، فجلسنا وأكلنا بعض الخبز واللبن وشربنا قدحًا من الشاي وانصرفنا على عجل لنكمل مسيرتنا من غير أن نقلق مجددًا لما قد ينتظرنا أثناء الطريق، لأننا ماضون إلى داخل المناطق المحررة. ومن أجل أن نطمئن أكثر فإننا قد استمرينا بالمشي لمدة ساعتين متواصلتين حتى توقفنا قبل طلوع الشمس بقليل، وحينها رمينا بأنفسنا على بقعة من الأرض التي كانت خالية من الثلوج التي كانت تغطي ذلك الطريق منذ أن وصلنا للعراق، لنرتاح بنومة اضطرارية قصيرة جدًا لأقل من ساعة، فنام زملائي الذين أصبح عددهم أربعة بمجرد أن لامست أجسادهم الأرض، وبقيت أنا مستيقظًا أشكر ربي وأسبح بحمده بعد أن أنجزت مرحلتين مهمتين من خططي، وبقيت منها مرحلة واحدة وأخيرة ستنتهي فور تمكني من دخولي لمدينة السليمانية لأسلم نفسي طوعيًا إلى السلطات الأمنية هناك..

بعد الانتهاء من التفكير بكل تلك الأمور حاولت أن أغمض عيني لأنام قليلاً، فباءت محاولتي بالفشل، لأنني لم أشبع من شم الرحيق العطر المنبعث من تراب تلك الأرض الزكية، وكنت أشبه بالعاشق الذي يضم حبيبته لصدره بعد فراق طويل، فهل يغمض للعاشق جفن وهو بهذه الحالة؟! الجواب بطبيعة حاله هو كلا، وهذا ما كنت أشعر به بعد أن أصبحت أقبل ذرات التراب التي كانت تلامس

شفتاي، قبلة من أجلي وأخرى لذلك الأسير البطل حمدي جاسم هزاع، وأخرى لصديقي الأسير حلمي، وأخرى وأخرى وأخرى لكل الطيبين من الذين التقيت بهم بأقفاص الأسرى العراقيين، حتى ارتويت وأيقنت بعدها أنني في يقظة من أمري ولست بحلم، وعندها طلت علينا شمس الحرية ونهضنا لنكمل السير، وكنا على غير عجلة من أمرنا، وقد توقفنا بكل القرى التي مررنا بها على الطريق إلى أن بتنا ليلتنا بإحداها عندما حل المساء علينا، وعاودنا المسير في الصباح الباكر إلى أن وصلنا لقرية بيانة بمنطقة شهرباژير بعصر ذلك اليوم، وكانت مقرات الحزب الديمقراطي بفرعيه الثالث والرابع لا زالت موجودة فيها.

وتوجهت من فوري إلى صديقي شريف، الذي طبعًا هو الآخر لم يعرفني عندما سلمت عليه وقال لي من أنت؟! وعندما قلت له أنا صديقك الملازم سرچل، لأنه يعرفني من خلال هذا الاسم؛ اندهش كثيرًا ورحب بي أطيب ترحيب، ثم اصطحبني إلى مقري الفرع الثالث والرابع لأحكي كل ما حصل معي في إيران إلى مسؤول الحزب هناك، وهو شخص طاعن في السن يدعى نادر هورامي، فذهبت معه إليه، وعندها أمر بإعداد طعام خاص لنا لأنه كان يعرفني من غير أن أجتمع به سابقًا، بسبب صيتي الذي انتشر داخل صفوف رفاقي البيشمرگة جراء التصدي لما حاول الپاسدار الإيراني إملاءه علي في مريوان، فحدثته باللغة العربية التي كان يجيدها بشكل مفصل، وبالفم المليان من غير أن أخفي عنه أية تفاصيل، لكل ما حصل معي بدءًا بأسباب اعتقالي بمريوان ثم بسنندج ثم بطهران، إلى أن تمَّ تحويلي لمقر القيادة بالرضائية على أثر براءتي من تلك التهمة الكيدية التي ألصقها بي الپاسدار بمريوان، وأنهيت قولي له بكلامي:

– بعد كل هذا الذي رأيته وسمعته بإيران، هل يحق لنا أن نسمي أنفسنا ثوار يا رفيقي المحترم كاك نادر؟!

فخجل الرجل من تلك التفاصيل المخزية لرفاقنا بإيران وتقدم لي بالاعتذار عما لقيته بمريوان لضعف إمكانيات المسؤولين هناك، كما أنه لم يتعجب من تصرفهم المخجل عندما تخلوا عني، ولكنه تعجب من تلك المعاملة غير الودية التي استقبلني بها مسؤولي مقر القيادة في الرضائية، وطلب مني عدم البوح بما رأيته أو سمعته من أعمال قذرة يقوم بها أفراد الحزب في الرضائية بتحالفهم مع الپاسدار الإيراني، باعتبارها أمور لا يعلم ولا يجب أن يعلم بها أحد من رفاقي الپيشمرگة بكوردستان العراق.. فقلت له:

– لن تكون هناك فرصة لأن أحكي ذلك لأحد، لأنني منذ هذه اللحظة سأعتبر نفسي مستقيلاً من الحزب الديمقراطي، وإذا بدر مني أي تقصير أثناء كل مسيرة انضمامي لكم فحاسبوني الآن حتى لو كان جزائي هو القتل، لأنني أريد أن أترككم وصفحتي بيضاء ناصعة..

فقال:

– معاذ الله، ولكن إلى أين ستذهب؟

فقال صاحبي شريف وهو رجل قاصر بتفكيره:

– سينتقل لينضم إلى الجلاليين بالتأكيد.

وقصده كان واضحًا أنني سأنتقل بانتمائي إلى حزب الاتحاد الوطني الذي يتزعمه جلال الطالباني. فقلت لهما:

– أنا عندما التحقت بحزبكم كان هدفي هو خدمة الناس من موقع المسؤولية، وإنني اليوم أجد نفسي عاجزًا على تقديم أي شيء، حتى لو كان جدًا بسيط لهؤلاء الناس بعد أن فشلت بتلك المهمة بسبب كوني غريبًا عن المنطقة، وأجهل الكثير مما يجب علي تعلمه بنواحي عديدة، ومنها تعلمي للغة الكوردية على أقل تقدير، وعليه فإن مكاني يجب أن يكون وسط الجماهير لأتلقى المساعدة والدعم

منكم ومن غيركم، واستنادًا لكل ذلك فإنني أستميحكم المعذرة بإعفائي من المسؤولية والعودة إلى قرية گورگه يير التي كنت قد التحقت بكم منها، لأعيش فيها بسلام، حالي حال كل إخواننا الذين يعيشون هناك، من غير أن أفكر بالانضمام ثانية إلى أي فصيل آخر بالثورة.

فعقب كاك نادر بقوله:

– أشكر لك صراحتك لأنك إنسان صادق بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وهذه الصفة مع الأسف غير موجودة عند أغلب أفراد حزبنا، فنحن نفاجأ بين الحين والآخر بهرب بعضهم دون سابق إنذار ومن غير أي سبب ليلتحقوا بقوات الجاش العميلة للحكومة بعد أن قضوا فترة طويلة من العمل بصفوفنا كثوار أصلاء، ناهيك عن انتقال الكثير منهم لأحزاب أخرى عندما ينفصلون عنا ويلتحقون بحزب الاتحاد الوطني على وجه التحديد وهم بكامل سلاحهم الذي جهزناهم به.

فقلت:

– طوال فترة بقائهم معكم لا تخلق منهم ثوارًا، لأن العقيدة هي من تنجب الثوار، وأنا عندما أجد نفسي أنني لن أرتقي لأكون وردة عطرة؛ فبالتأكيد سوف لن أكون شوكًا مؤذيًا، وعليه فنضالي للمرحلة القادمة من حياتي سيكون تأسيسي لعائلة كوردية يكون فيها أولادي أقدر مني بخدمة كوردستان وشعبها الكريم بعد أن أحرص على تعليمهم للغة الكوردية منذ أول يوم لولادتهم.

وعندها لم يجد الرجل عذرًا آخر يقنعني به لكي أستمر معهم بعد أن قدر صراحتي، ثم نزل عند رغبتي بقبوله لاستقالتي، ولكنه أبقى الباب مفتوحًا بيننا من خلال تزويدي بورقة معنونة إلى كافة الأحزاب، ومختومة بختم الحزب الديمقراطي من أجل عدم التعرض لي بأي مكان أتواجد فيه أثناء تجوالي بربوع كوردستان.

ثم قال لي:

– كاك سرچل هذه إجازة مفتوحة لك لتذهب أينما شئت من أجل أن ترتاح لفترة من الزمن بعد كل الذي لقيته من متاعب شاقة، وتذكر أن بابنا مفتوح لك متى وجدت نفسك قادرًا للعمل معنا من جديد.

استلمت تلك الورقة الموقعة من قبله ومختومة بختم الحزب، وتعجبت من كرمه وسخائه لي لأنه مثلاً لم يسألني هل كنت أملك بجيبي مبلغًا يكفي لأشتري علبة من الدخان كأبسط احتمال، وهذا لم يمنعني أن أشكره على تفهمه لدوافعي بالانفكاك عنهم. وانصرفت قاصدًا جامع قرية بيانة للمبيت هناك وللاستعداد ببدء رحلتي لقرية گورگه يير في الصباح الباكر، وبذلك أكون قد تخلصت منهم، وهم بدورهم قد تخلصوا مني بعد أن أصبحت عبئًا عليهم من أجل ألا أعمل على فضح أعمالهم في إيران من تلك التي اختزيت منها كشاهد عيان..

ومن أجل أن أوضح صورة موقفي الذي اعتمدته حينها حتى لا تبدو لمن تصله تفاصيل مذكراتي هذه أن هناك بعض التناقضات بتصرفاتي وقراراتي آنذاك، أذكر بأنني قد خلصت بعد تلك التجربة القاسية إلى أن المطالبة بحقوق شعبي الكوردي المسلوبة عبر أنظمة الحكم المتعاقبة على حكم العراق؛ هو كفاح مشروع ولكن بشرط ألا يكون على حساب خيانة العراق الذي هو الوطن الجامع لكل العراقيين والكورد منهم، مع إيماني بضرورة حق تقرير المصير لقيام دولة كوردستان الكبرى بعد توحيد كافة أجزائها، على نفس مبدأ ضرورة وحدة الأمة العربية كشعار يرفعه القوميون العرب، كما أن رفع السلاح هو حق من أجل الدفاع عن النفس، وليس من أجل تنفيذ أجندة خارجية من خلال الانقضاض لقتل جندي بسيط هو أصلاً منفي إلى كوردستان، ناهيك عن حرمة قتل أي رفيق كوردي في السلاح من بقية كل الأحزاب الكوردية سواء كانوا في العراق أو إيران أو تركيا.

هذا هو نهجي السابق والحالي لرؤيتي، ونهجي السياسي الكوردي الذي كنت ولازلت أرجو أن يحصل بين رفاق السلاح، ولا أظنه سيحصل لأن السياسيين من الكورد أو غيرهم يبحثوا دائمًا عن مصالحهم الشخصية والحزبية، ولا تغرني الشعارات البراقة التي طالما روجوا لها بكل زمان ومكان، ولا أعتقد أن تفسيري هذا يحتاج لشرح أوسع أو بيان أعمق يجعلني ملزمًا بشرحه أكثر...

وفي الصباح الذي أعقب ليلة مبيتي بجامع قرية بيانة؛ بدأت رحلتي إلى قريتي كوكيير التي كنت أسكنها أول قدومي لكوردستان، وهي تبعد مسافة يومًا كاملاً من المشي المتواصل على الأقدام، وعندها انزاح ذلك الهم الذي كان جاثمًا على صدري بعد أن أصبحت حرًا بامتلاك تسيير أموري بحرية تامة، وكان هدفي الأول هو اللقاء بصديقي محمد پيشمرگه وهو سياسي من حزب الاتحاد الوطني كان مقيمًا بصورة دائمة مع عائلته بقرية گورگه يير ، من أجل تدارس أمر كيفية عودتي إلى مدينة السليمانية.

وبذلك اليوم كنت قد طويت المرحلة الثانية من خطتي التي بدأت المرحلة الأولى منها في مدينة الرضائية بأقصى الشمال الإيراني، من أجل العودة لبيتي في بغداد، وقد تكللت حتى الآن بالنجاح، وبدأت بالمرحلة الثالثة والأخيرة منها التي ستنتهي بعد دخولي سالمًا لمركز مدينة السليمانية، وعندها توكلت على الله وبدأت رحلتي بمسيرة متباطئة، توقفت خلالها ببعض القرى الصغيرة والكبيرة على ذلك الطريق، حتى وصلت لقرية ماما خلان بوقت متأخر من عصر ذلك اليوم، والتجأت لمسجد القرية من أجل أن أقضي ليلتي فيه بعد أن قطعت من المسير نصف الطريق تقريبًا، وهناك دعاني بعض أهلها للعشاء معهم في بيتهم، وكانوا أناسًا بغاية البساطة واللطف والود والكرم وتلك هي عادة وطباع أهل تلك المنطقة من كوردستان، وحينها دار بيننا حديث ودي للغاية استفسروا خلاله عن سبب لكنتي الكوردية الضعيفة آنذاك؟ فأجبتهم ببعض الكلمات

باللهجة الباهدنانية المركبة على البارزانية التي تعلمتها من اللاجئين الكورد بالرضائية. فقالوا:

- أية لغة هذه التي تتكلم بها؟!

فقلت بلهجتي السورانية الركيكة:

- إنها اللغة الكوردية باللهجة الباهدنانية وأنا فرد منهم.

- إنك أفضل منا لأنك تعرف القليل من اللهجة السورانية، في الوقت الذي نحن نجهل بالكامل لهجتك البادنانية.

وفي الصباح الباكر تابعت مسيرتي من غير توقف على نفس خط سيري المتثاقل باتجاه قرية گورگه يير التي وصلتها ظهرًا، فتوجهت من فوري إلى مسجد القرية، وهناك تصادف وجودي لألتقي بذلك الرجل الطيب الكبير بالسن محمد الچته الذي كان له دور إنساني قدمه لي بأول فصول رحلتي هذه، عندما تبنى مشكورًا إيصاله لرسالة كتبتها لأقاربي في السليمانية، فسلمت عليه بشوق كبير وسألته عن أحواله وأحوال ابنه كاك نامق الذي هو أحد مسؤولي پيشمرگة حزب الاتحاد الوطني، وكان يسكن معه بنفس داره بتلك القرية الوديعة. وعندها سقطت الدموع من عينيه التي أتعبها الدهر وقال:

- لقد مات نامق، لقد غدروا به ومات مقتولاً.

وعندما انتهى من ترديد كلماته التي كانت قاسية جدًا على قلبي، شعرت وكأن سقف المسجد قد هوى وأطبق على رأسي، ليحبس أنفاسي لما كان لابنه كاك نامق من معزة خاصة ومنزلة عالية له بضميري، لأنه كان المثل الأعلى لي، والمثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى به كل شباب الكورد، لما كان عليه من شجاعة فائقة ونبل بالأخلاق وتفاني منقطع النظير في سبيل خدمة الآخرين من الذين يعرفهم أو من لم يسبق له التعرف عليهم.

وعند سماعي لمقولة والده أنهم غدروه، تبادر لذهني على الفور أن جماعته في المجموعة التي كان يترأسها هم من غدروا به لأنه كان يسير على الطريق الصحيح، الذي هو حتمًا لا يتوافق مع أهوائهم ومنافعهم الدنيئة وما أكثرها. فسألته:

- كيف حصل هذا؟!

- لقد ذهب لمدينة السليمانية متخفيًا من أجل زيارة زوجته وأولاده الصغار، الذين انتقلوا إلى هناك بأول بداية فصل الشتاء، وقد سرب أحد مساعديه ذلك الخبر إلى السلطات الحكومية من أجل أن يتخلص منه ويحتل مكانه لقيادة مجموعته التي كان يترأسها، وفي النقطة المتفق عليها أن يتسلل منها بالدخول لمدينة السليمانية كانت مفرزة عسكرية بانتظاره لكي تلقي القبض عليه، ولكنه أبى أن يستسلم وقاتلهم حتى قُتل، وعلى أثر ذلك الحادث أمسك رفاقه بمساعده ليحققوا معه لأنه الوحيد الذي كان يعلم بموعد مغادرته، وقد اعترف على الفور بأنه هو من أبلغ على ابني نامق..

عندها تساءلت بمرارة:

- حتى متى سيستمر هذا الغدر وتلك الخيانات بين الناس بهذه الأساليب الرخيصة؟ فمنذ أن قدمت من بغداد إلى هذه القرية وحتى هذه اللحظة، وأنا أسمع وأرى وأتعرض لمثل هذه الممارسات الدنيئة، التي بدأها قريبي الانتهازي الذي كنت أسكن معه بتلك القرية، ثم أرسلني بعيدًا جدًا دون أن يبالي بمصيري وما سأتعرض له من مخاطر لمصلحة دنيئة كانت تسكن بخاطره، ونهاية بمقتل كاك نامق غدرًا على نفس تلك الطريقة بحب الذات المريضة..

لقد كان وقع ذلك الخبر القاسي على نفسي مؤلمًا للغاية لأنني كنت أعيش أزمة عدم الثقة بالآخرين، وهذا ما جعلني أشعر بالإحباط التام الذي أثر سلبًا على

معنوياتي لتنهار كليًا، بعد أن تنفست الصعداء في اليومين المنصرمين على أثر خلاصي من تلك القيود والمخاطر، وكأن خبر مقتل كاك نامق هو الخاتمة التي سأنهي بها رحلتي التعيسة هذه.

وبعد مغادرة ذلك الرجل الطيب للمسجد وهو بصحبة حفيديه الاثنين الصغيرين اللذين كانا بعمر الخمسة والأربعة أعوام، جلست لأختلي بنفسي قليلاً بعد أن انقبض صدري، وودت لو أنني كنت أستطيع البكاء لكي أرثي صديقي كاك نامق في مماته، ولكني لم أتمكن حتى أن أخرج دمعة واحدة من عيني لأني قد أصبحت قاسيًا بطبعي بسبب تكرار مشاهداتي ومعايشتي لمظاهر الظلم والقسوة، بالظروف التي كانت تحيط بي من كل جانب، الأمر الذي جعلني عاجزًا عن التعبير بإنسانية مع هكذا حدث مؤلم للغاية.

وبتلك الساعة التي تملكني فيها الإحباط الشديد، قفزت لذهني فكرة مجنونة لا أجد حرجًا من ذكرها، وهي أن أتخلص من تلك الحياة التي فقدت فيها كل طموحاتي وآمالي، باعتبارها كانت خطوة للمخرج الوحيد الذي سيخلصني من دنس كل ما كان يحيط بي هناك وأتطهر كليًا، ولكن الذي أخرني وأوقف التنفيذ هي الوسيلة المنعدمة لدي لأنني كنت أعزل من السلاح، ولذلك قلت لنفسي: لماذا العجلة؟ فهناك احتمال كبير أن أنتهي من تلك الحياة وأغادرها نهائيًا غير مأسوف عليها عندما أسلم نفسي وأوفي بعهدي، لاعتقادي أن الأيام التي كنت أعيشها بعد نجاتي من زنازين الإيرانيين ما هي إلا أيام إضافية لعمر كان يتأرجح على حافة الموت، كاستحقاق يتحقق في الغالب بالزنازين الإيرانية التي كنت قابعًا فيها، ولم أنسَ أنني أيامها كنت دائم التفكير لو أن الإيرانيين أقدموا على قتلي فإن أمنيتي كانت لو أنهم تكرموا برمي جثتي بأي أرض عراقية على الحدود، وتلك أمنية كانت بوقتها أشبه بضرب من المستحيل، فما بالي وأنا الآن

حيًا أرزق أمشي على قدمي فوق التراب العراقي، وهو أمر يعلو على كل أمر كان مستحيلاً وقد تحقق بالفعل بمشيئة الله، وعليه قررت ترك ذلك الموضوع للذي جاء بي بعد أن أنجاني لكي أكمل مشواري حتى النهاية، وشفيعي هو حسن نيتي وترفعي عن أي مكسب مادي أو معنوي بكل ما ذهبت إليه.

مكثت بمسجد قرية بيانة وأنا على ذلك الحال المنكسر حتى دخل المسجد صديقي محمد پيشمرگة، فناديت عليه ولم يتعرف علي بالطبع إلا عندما اقترب مني أكثر، وعندها رحب بي بحرارة بالغة وأخذني معه لبيته، وهناك سألني عن سبب انقطاعي عنهم، فأخبرته بتفاصيل كل ما جرى معي خلال الأشهر الثلاثة الماضية. فقال بلهجة تحزبية ضيقة:

– تلك هي تصرفات حزب الملايتي على مرِّ الزمان!

وكان يقصد الحزب الديمقراطي، لأنهم سبب كل المصائب التي لحقت بالشعب الكوردي، فقلت بلهجة شمولية:

– أخي العزيز كاك محمد أنت رجل مثقف وفهمك وإدراكك أكبر من هذه التسميات المتداولة لدى عامة الناس: "جلالي – ملايتي"، لأن السوء موجود بكل مكان، وهو سبب فرقتنا وعدم توحد كلمتنا، ومثال ذلك فقبل قليل كنت قد التقيت بوالد كاك نامق رحمه الله وأخبرني عن فاجعته بفقدانه لابنه الذي قتل جراء وشاية رخيصة من قبل أحد مساعديه، وهو رفيق له وعضو بحزبكم الجلالي، وقبل هذا وذاك فأنت تذكر قريبي الذي هو عديلك، عندما خطط بخبث لإرسالي بعيدًا للأسباب التي تعرفها، في الوقت الذي كنت أنت لا تبعد عنا بهذه القرية سوى مسافة أمتار، وكان باستطاعتك تنظيمي بصفوف حزبكم لأبقى هنا تحت رعايتكم حتى يشتد عودي، كوني غريبًا وأجهل الكلام باللغة الكوردية، وأنت تعلم أنه لم يكن منتميًا لكم ولا لغيركم من الأحزاب، لأنه أناني وانتهازي بطبعه كما تعلم. والحديث عن الخيانة والخونة هو ما أردته أن يكون محورًا

لموضوع أرغب أن أفاتحك به وأطلب منك الإرشاد بحكم خبرتك وبحكم الصداقة والقرابة التي بيننا، ورجائي أن يبقى طي الكتمان حتى أرحل، فأنا قد سئمت كل المؤامرات بكافة أنواعها، ولم ولن أستطيع التكيف مع هذه الممارسات الرخيصة التي أترفع بطبعي عنها.

– ما هو الموضوع؟!

– لقد قررت أن أتخلى مكرهًا عما جئت من أجله لأرجع إلى بيتي، ليس لأنني قد أصبحت نادمًا على الفكرة التي ساقتني لكوردستان لأنضم للثورة وهو حق مشروع، بل لأنني وجدت نفسي أختلف كليًا بتفكيري ومبادئي مع كل ما هو سائد ومطبق على الأرض من سياسات باسم كوردستان، هذا لأن الخلل ليس بالفكرة بحد ذاتها وإنما بطريقة تنفيذها، وهذا ما لمسته عند من عملت معهم أو من لم أعمل معهم على حد سواء، وخلاصة ما أريد قوله إنني لم أجد ثورة كوردية بمعناها الحقيقي ولا ثوارًا يقاتلوا من أجل الحق الكوردي، وبودي أن ترشدني على الطريقة التي أتمكن من خلالها بتسليم نفسي إلى السلطات الأمنية بشكل لا يعرضني للمهانة والذل من قبل هذا الطرف أو ذاك، لأنني أريد أن أصل بشكل مباشر لمن هو مَعني باتخاذ القرار على قتلي أو إخلاء سبيلي..

بعد برهة من التفكر بالأمر قال صديقي كاك محمد:

– إن العفو الذي أصدرته الحكومة عن البيشمرگة وأنت منهم لأن لديك ما يثبت ذلك، هو مفتوح إلى أجل غير مسمى، ولكنه لا يشملك بالتأكيد لأنك كوردي من خارج منطقة ما يدعى بالحكم الذاتي لكوردستان العراق، وهذا يعني أنك بعد أن تسلم نفسك طوعيًا ستتعرض للسجن والتحقيق والمحاسبة كأي فرد خارج على القانون حسبما يدعون، هذا لأنك من وجهة نظرهم تعتبر عسكري هارب من الخدمة العسكرية بزمن الحرب، وعليه فإنه ليس هناك من أمر تستند عليه

ليشفع لك عندهم، خصوصًا وإنك كما أخبرتني لم تكن منتميًا إلى حزب البعث الحاكم أثناء عملك السابق بالجيش العراقي..

فقاطعته قائلاً:

– والمصيبة هي أنني كنت قد وقَّعت لهم على تعهد خطي ألا أنتمي إلى أي حزب آخر سواء كان معاديًا أو صديقًا لهم، وأجبروني على أن أدون بذلك التعهد أنني سأستحق عقوبة الإعدام إذا فعلت خلاف ما تعهدت به لهم..

– وهذا سبب آخر يجعل الموضوع أكثر تعقيدًا، ناهيك عن أنك تنوي بإصرار إخبارهم بكل ما حصل لك بأقفاص الأسرى العراقيين بطهران، والحرب مع إيران لازالت قائمة..

– إنه أمر طبيعي أن أخبرهم بما حصل معي بإيران، لأني على يقين أن لديهم عيون استخبارية بمريوان وبكل الأماكن التي تجولت بها بكوردستان، وسأستثني فقط ذكر الطريقة التي خرجت بها من السليمانية لأنها ستضر بأقاربي الذين ساعدوني مشكورين على هذا الأمر باعتباره فضل لن أنساه أبدًا، فأخبرني يا صديقي العزيز بما يتناسب وما نويت عليه..

– الحقيقة أنا لا أستطيع أن أرشدك على طريق قد يؤدي بحياتك وبالتالي أصبح أنا الملام على ذلك، ولكني أقترح عليك أن تكتب رسالة إلى بيت أقاربك بالسليمانية تخبرهم فيها عن بما جرى معك وتختمها بذكر قرارك بالعودة وتسليم نفسك لدوائر الاستخبارات العسكرية في السليمانية، واطلب منهم المشورة والنصح بهذا الموضوع علهم يرشدوك لطريقة تجنبك للأذى، وسنرسل هذه الرسالة مع امرأة جاءت من السليمانية لزيارة أقارب لها بقريتنا، وهي على معرفة وثيقة ببيت عمك كاك نجم الدين عارف أفندي، وهو من الشخصيات المحترمة من قبل الجميع في السليمانية..

- إن موضوع كتابة الرسالة هو أمر هين ولكني لا أرغب بأن أشرك أقاربي بقرار عودتي، بعد أن أثقلت عليهم كثيرًا عندما ساعدوني ببادئ الأمر، ولبوا رغبتي بالمجيء إلى قريتنا هذه، والحقيقة فأنا لم أعد قادرًا على هضم الأساليب الملتوية لعديلك الذي هو ابن عمي العزيز كاك نجم الدين بعد تجربتي السابقة معه..

- إنك ستكتب لوالده طالبًا مشورته وليس لابنه، وهو رجل ختيار وله تجارب في الحياة، وقد يستطيع أن يجد لك مخرجًا لا نعرفه ولم يأتِ على بالنا نحن..

- على الرغم من الإحراج الذي سأسببه لهم ولكني سأفعل كما تقول وأكتب الرسالة، ولكني غير متفاءل أنهم سيجيبوا عليها كما حصل في المرة السابقة عندما أرسلت لهم كاك محمد الچته طالبًا منهم إخباري بأحوال أهلي ببغداد، ورجع صاحبنا من غير جواب لما لذلك من تبعات قد تضر بهم، وأنت أعرف بقسوة السلطة في السليمانية وإيذائها لكل من يتعاون مع الپيشمرگة.

وعليه فقد قضيت ليلتي أكتب تلك الرسالة المطولة على ضوء فانوس المسجد، الذي كان هو بيتي بتلك الأيام القلائل من وجودي بقرية گورگه يير ، وفي الصباح سلمته الرسالة، وهو بدوره أوصلها لتلك المرأة الفاضلة التي كانت بضيافة إحدى بيوت القرية، وكنت قد ذكرت فيها ملاحظة مفادها أنني سوف أتوجه لمدينة السليمانية لأسلم نفسي للسلطات هناك باليوم السابع من بداية تلك السنة ١٩٨٣، وحتى ذلك الحين فأنا سأنتظر الجواب، وقد أخبرت صديقي كاك محمد أن يخبر تلك المرأة الفاضلة بضرورة إيصال الرسالة لأقاربي فور وصولها للسليمانية، ليكون عندهم المجال باحتمال أن يجيبني أقاربي قبل اليوم الذي حددته للذهاب لمدينة السليمانية.

وبعد انقضاء الفترة التي حددتها ليوم رجوعي لم أستلم أية إجابة من أقاربي على رسالتي لهم، فتوكلت على الله للذهاب من خلال سيارة الأجرة البيك أب التي تنطلق بكل يوم من قرية گورگه يير لتقل من يرغب بالذهاب إلى المدينة بغرض التسوق وقضاء الحاجيات الضرورية،

وفي اليوم الذي حددته ودعت صديقي محمد پيشمرگه على أمل اللقاء به مستقبلاً إن كان لي في الحياة بقية، وهو بدوره كان مندهشاً بعدم مبالآتي بعواقب إقدامي على تلك الخطوة التي سأخطوها دون ترتيبات مسبقة مع من يساعدني بذلك الأمر، كما هو الحال عند كل الپيشمرگة عندما يقرروا العودة لبيوتهم، وحينها أودعته حاجياتي التي كنت أحملها بجعبة على كتفي منذ أن سلكت طريق الپيشمرگة، وقد أرسلها لي لاحقًا عن طريق أقاربي، وبعضًا منها لازلت محتفظًا بها كذكرى من تلك الأيام.

وهذه هي عادتي حتى الآن بالاحتفاظ ببعض الحاجيات البسيطة التي كانت بحوزتي عند اجتيازي لمفصل مهم لا يتكرر في الحياة إلا مرة واحدة، ومثال ذلك فلقد احتفظت بقفازات ووشاح صوفي من تلك الأيام، وكذلك احتفاظي بمحرار كهربائي صغير من أيام الخدمة العسكرية كنت استخدمه لغلي الماء للحلاقة أو لتحضير قدح من الشاي، وكذلك احتفاظي ببدلة عتيقة كانت أختي العزيزة قد أعطتني إياها من أجل أن أتصدق بها لمن هو محتاج لها ولم أجد من هو أحق بها مني لضعف حالتي المعيشية آنذاك، وقد ارتديتها أثناء قدومي مع عائلتي لبريطانيا بيوم الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٢٠٠٠ بغرض اللجوء والاستقرار فيها، لكي أنقذ ما بقي من عائلتي بعد فقداني لولدي البكر نوروز قبل ستة أشهر من ذلك التاريخ، بعد أن نال منه المرض وتوفي جراء الحصار الظالم على العراقيين، عندما انعدم أثنائها الغذاء والدواء وهلك جراءه أكثر من مليون طفل عراقي...

صعدت لتلك السيارة المتوقفة بـــ گورگه يير وحشرت نفسي مع بقية الركاب بحوضها المغطى، ومضت بنا باتجاه مدينة السليمانية، وكنت قد وضعت بخطتي أن أنزل من السيارة عند أول نقطة تفتيش عسكرية نخضع فيها للتفتيش، وكنت حتى تلك اللحظة لازلت محتفظًا بكل الوثائق التي حصلت عليها منذ إطلاق سراحي في الرضائية وحتى يوم استقالتي من الحزب الديمقراطي، هذا لأني نويت أن أبرزها أثناء التحقيق من أجل أن أدعم بها أقوالي التي سأذكر فيها كل ما حدث معي خلال الستة أشهر الأخيرة، باستثناء كيفية خروجي من السليمانية بمعية أقاربي خشية الإساءة لهم وتعرضهم للضرر، لأني سأذكر لهم مضطرًا قصة مغايرة أخرى، وما عدا ذلك فالأمر يجب أن يكون جليًا وواضحًا لأني لم أعد أحتمل المكوث في السجون وما يرافقها من تحقيقات قد تكون مصحوبة بالمفاجآت التي سيواجهوني بها لمعلومات كانوا قد حصلوا عليها عن طريق أعوانهم ووكلائهم المنتشرين بكل قرية مررت بها، ومن غير أن أستبعد أن هناك مثلهم بكل فصيل من پيشمرگة كل الأحزاب الكوردية..

وأخيرًا وصلنا إلى السيطرة العسكرية التي كانت هي البوابة لمدينة السليمانية، وسمح القائمين عليها لسائق سيارتنا بالمضي قدمًا بعد أن أشاروا له بعدم التوقف بنقطة التفتيش، فمضينا حتى توقفت السيارة بإحدى الأسواق داخل المدينة، وهو أمر لم أكن متحسبًا له بخطتي، فترجلت لأنزل من السيارة أسوة ببقية الركاب لكي أعطي السائق أجرته بعد أن سألته بالكوردية:

- كم هي الأجرة من فضلك؟

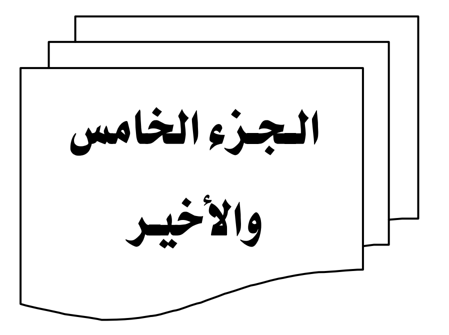
فصاح بأعلى صوته بالعربية وكأنه كان يستغيث بدوريات الشرطة وقوات الطوارئ الأمنية التي كانت دائمة التجوال بطرقات وأسواق السليمانية:

- الأجرة عشرة دنانير عيوني.



فأعطيته إياها على عجل وهممت مسرعًا أعبر الشارع وأشير لإحدى سيارت التاكسي التي توقفت لي، فصعدت إليها وقد أصابني هلع لم يسبق لي أن شعرت بمثله حتى بأقسى المراحل التي مررت بها بسبب ذلك التصرف الأرعن لسائق البيك أب، وقد ندمت على سؤاله، وكان يجب أن أنزل وأتوارى عن أنظاره دون أن أدفع له الأجرة لأن تصرفه الأهوج يعني وكأنه كان يريد أن يعرف الناس بأن هذا الشخص الذي يلبس زي البيشمرگة هو عربي فلا تتوهموا أنه كورديًا، وتلك بالطبع إشارة سيلتقطها على الفور رجال الأمن، الذين من محاسن الصدف لم يكن لهم تواجد بذلك المكان، وإلا فماذا كان يقصد من خلال صراخه وهو يجيبني على سؤالي له وهو يعلم علم اليقين أنني كنت پيشمرگة، وقبلها كنت هاربًا باعتباره من سكنة قرية گورگه يير ، إنها سخرية القدر، لأن كل الذي تعرضت له كان بسبب اعتقادي إني مناضل أسعى من أجل أن أرسم الابتسامة على شفتي هذا البائس التافه وأمثاله من الجبناء الذين جازوني خير جزاء عندما تبرأوا مني بمريوان..





التاريخ: ٧- ١- ١٩٨٣

المكان: محافظة السليمانية بكوردستان العراق

وأخيرًا وجدت نفسي بوسط مدينة السليمانية، ولكن الخطر كان محدقًا بي من كل اتجاه وأنا بالزي الكوردي للپيشمرگة، وكنت جالسًا بسيارة التاكسي، وقد طلبت من سائقها أن يقلني إلى فندق السلام بشارع بغداد، لأنني لم أشأ أن أطلب منه أن يأخذني لبناية دائرة الاستخبارات العسكرية مباشرة، التي هي أصلاً تقع مقابل فندق السلام الذي يبعد بخطوات عن بيت عمي كاك نجم الدين رحمه الله، الذي كان بابهم مباشرة على الشارع العام بمحلة عقاري، فأخذني سائق التاكسي على عجل ولم يتوقف إلي ونحن عند عتبة فندق السلام، فترجلت هناك بعد أن أعطيته أجرته، واستدرت لكي أعبر الشارع وهناك سأدخل مباشرة لغرفة استعلامات مديرية الاستخبارات العسكرية للفرقة الرابعة، وبأقل من ثانية تغير مساري ولم أعبر الشارع وكأن أحد قد سحبني من يدي ودفع بي صوب بيت عمي كاك نجم الدين، ولا أدري كيف تغير رأيي لأمر لم يكن بحساباتي منذ أن غادرت قرية گورگه يير بذلك الصباح.

وبعد أن أفقت من تلك المفاجأة وجدت نفسي متجهًا إلى بيتهم الذي كان على مرمى البصر، فارتأيت ألا أذهب لهم مباشرة، وإنما عن طريق حديقة بيتهم الخلفية التي كانت ملاصقة لبيت ابنه الذي سكنت معه ب گورگه يير ، خشية من عيون عناصر الاستخبارات التي توقعت أنها كانت تراقب ذلك المكان، وبذلك كان لازمًا علي أن أدخل بشارع فرعي يوصلني لفرع صغير آخر يؤدي إلى بيت قريبي، ومنه أذهب لبيت عمي عن طريق حديقة بيتهم الخلفية، وبذلك سأتوه عن تتبع عيون أية مراقبة إن وجدت هناك، كاحتراس أمني كان يجب علي أن أفعله، ليس خشية على حياتي وإنما لكي لا أجلب المشاكل لبيت عمي الذي كنت أريد الوصول له من أجل إخبارهم فقط أنني ذاهب لتسليم نفسي، ومن ثم أخرج منهم وأذهب لمديرية الاستخبارات..

لقد فكرت بكل ذلك بجزء من الثانية، وعلى أثرها دخلت إلى ذلك الشارع المتفرع من الشارع العام، ومنه دخلت لشارع آخر متفرع منه، ثم مشيت لمسافة قصيرة وصلت بعدها لبيت قريبي، فطرقت بابه الأمامي بعد أن تلفت خلفي بنظرة خاطفة وجدت فيها أن الشارع كان خاليًا بالتمام، فخرجت لي زوجته وفاجأتني بصراخها الذي تزامن مع هرولتها لبيت عمي من خلال فتحة بجدار حديقتهم الخلفية، المؤدية لحديقة بيت عمي كاك نجم الدين بعد أن تركتني واقفًا بالشارع، وحينها لم أكن أعرف سبب خوفها وهلعها، هل هي عرفتني وخشيت من أنني قد أكون ملاحقًا وبالتالي سيصيبها الأذى؟ أم أنها لم تتعرف علي واعتقدت أنني مجرد پيشمرگة هارب من مفرزة أمنية؟ سؤال لم أعرف أجابته حتى الآن لأنني لم أسألها هي أو غيرها من بقية أقاربي.

عندها أصابني الحرج الشديد، فتلفت حولي مرة ثانية فلم أجد أحد من الجيران قد انتبه لصراخها، فمددت يدي وفتحت الباب الخارجي لأدخل قبل أن يراني أحد، ثم توجهت لباب الدار الذي كان مفتوحًا، فدخلت للدار وبعد فترة قصيرة من الانتظار أرسل عمي رحمه الله أحد أولاده الصغار لكي يصطحبني إلى دارهم، فذهبت معه من خلال فتحة جدار الحديقة الخلفية، وهناك وجدت عمي رحمه الله بانتظاري، والدهشة كانت تمتلك جميع أفراد عائلته الكريمة باستثنائه لأنه رحب بي وضمني لصدره مرحبًا بي، فقلت له:

– عمي العزيز أنا متأسف جدًا لأني جئتكم من غير اتفاق مسبق بيننا، فأنا قبل دقائق كنت على وشك دخول استعلامات مديرية الاستخبارات لكي أسلم نفسي، ولكن عز علي فعل ذلك قبل أن أحيطكم علمًا به من أجل أن تخبروا أهلي لاحقًا لكي يتسنى لهم متابعتي، لأني حتمًا سأودع في سجونهم وهناك احتمال أنهم سيغيبوني لأجل غير مسمى، وبذلك لا أحد منكم أو من أهلي سيعرف ما سيكون عليه مصيري.

فقال رحمه الله:

- لا عليك، اجلس وأرتاح قليلاً، فأنا لن أسمح لك بتسليم نفسك حتى أرسل بطلب والدك لكي يأتي من بغداد، وهو من سيقرر ماذا ستكون الخطوة اللاحقة، فأنا لا أستطيع تحمل المسؤولية إذا ما غدروا بك بدائرة الاستخبارات.

- ولكنه إحراج لكم، لأن إيوائي عندكم تترتب عليه مسؤولية خطيرة ومخاطر جسيمة، أنت أعرف مني كيف ستكون إذا ما علم أحد بوجودي عندكم.

فقال رحمه الله بعد أن حسم الموضوع بعدم سماحه لي بخروجي من بيتهم، وكان ذو خلق راقي قل نظيره بين كل أقاربي في السليمانية:

- اشرح لي كيف أتيت للسليمانية؟ ولماذا لم تأتنا من باب بيتنا مباشرة؟

فحكيت له تفاصيل رحلتي للسليمانية من قرية گورگه يير وحتى وصولي لفندق السلام، وكيف تغير رأيي خلال اللحظة الأخيرة من قراري بعبور الشارع لكي أسلم نفسي لدائرة الاستخبارات، لأجد قدميَّ قادتني إليكم بغاية إعلامكم ثم أذهب لأسلم نفسي. فقال:

- حسنًا فعلت.

عندها اطمئن رحمه الله على سلامتي وسلامتهم بنفس الوقت، باعتباري لم أكن ملاحقًا من أحد وليس هناك من يعلم بوجودي عندهم، وهذا يعني أنه لم تكن هناك ضرورة بنقلي إلى مكان آخر أكون فيه بدرجة أمان أكثر من بقائي بينهم في بيتهم إلى أن يأتي والدي من بغداد، فانصعت لأمره لأن له في نفسي منزلة عظيمة من الاحترام والتقدير، وبالتالي لا ضير من التريث وهي فرصة لكي ألتقط فيها أنفاسي وأخذ قسطًا من الراحة بعد أن أنجزت المرحلة الثالثة والأخيرة من خطتي بالعودة للوطن بنجاح لم أتوقعه سيكون على ذلك الشكل، وبذلك كنت قد أوفيت بعهدي الذي قطعته على نفسي وأشهدت عليه ربي، وأنا الآن بصدد رمي كل أثقالي على الأقدار لتفعل بي ما تشاء بعد أن وصلت لوطني

وسجلت الانتصار ولم يعد يهمني أي تبعات لذلك كالموت أو الحياة، باستثناء احتمال تعرضي للإهانة وهو أمر كنت ولا زلت أفضل الموت على احتمال تعرضي له.

في مساء اليوم نفسه اتصل كاك نجم الدين رحمه الله هاتفيًا بوالدي في بغداد، وأخبره برغبته بملاقاته بأقرب وقت ممكن لأن هناك أخبار حسنة يود إطلاعه عليها بخصوص كاك سرچل، وكنت أنا المقصود بذلك، وقد فهم والدي ما هو المغزى من كلامه وجاء للسليمانية في اليوم التالي فأجلسه كاك نجم الدين بغرفة الضيوف ولم يخبره أنني كنت موجودًا عندهم لتكون مفاجأة لوالدي، وصعد كاك نجم الدين لمخبأي الذي كان بغرفة بالطابق العلوي من بيته، وأخبرني بوصول والدي، وطلب مني مقابلته على أني أحد رفاق ولده سرچل لأنه كان يخشى على والدي من الصدمة التي قد يتفاجأ بها وتضر بصحته، فنزلت إلى الطابق السفلي وسلمت على والدي، فلم يتعرف علي لأن ملامحي وملبسي قد تغير كليًا خصوصًا بتلك الشوارب الطويلة التي هي حصيلة السجون الإيرانية، ناهيك عن أن والدي لم يسبق له أن رآني مرتديًا للزي الكوردي بكل حياتي السابقة، فبادر والدي بالسؤال مستفسرًا عن أحوال ولده سرچل باللغة الكوردية وكانت هي المرة الأولى والأخيرة له وهو يكلمني بها، فضحكت لطرافة ذلك المشهد الدرامي، وعندها تعرف علي والدي ونهضت لكي أقبل يديه وأجلس بجواره، وسألته ممازحًا:

- كيف تعرفت علي؟!

فقال رحمه الله:

- لقد تعرفت عليك من طريقتك في الضحك.

وبعدها صمت ولم يسألني عن تلك الفترة التي قضيتها بعيدًا عنه لستة أشهر، واكتفى بالقول:

– حمدًا لله على رجوعك سالمًا...

وعندما طرح عليه كاك نجم الدين تفاصيل المأزق الذي كنت فيه، أجابه والدي:
– إنه مثل ولدك، فأشر عليه بما تراه مناسبًا بدلاً عني، لأني أجهل كيفية التصرف بهذه المواقف.

فقال عمي موجهًا كلامه لي:
– إن أول شيء يجب عليك اتباعه هو أن تقول إنك كنت مختطفًا وليس هاربًا، وثانيهما هو أنك لم تنتمِ لأي حزب معارض بمحض إرادتك وأنما كنت مرغمًا على ذلك، لأنه لم يكن لديك خيارًا آخر وأنت بين أيديهم، وثالثهما هو أن لا تذكر أية تفاصيل تخص فترة وجودك بإيران سواء كنت سجينًا أو طليقًا، لأن ذكر تلك التفاصيل أمر خطير بسبب الحرب مع إيران حتى لو كان قائله هو من المحسوبين على السلطة وأنت لست منهم ولا أحدهم.

بعد سماعي لتلك النصيحة القيمة؛ أدركت أن عمي رحمه الله يخشى علي من سوء العواقب من ناحية، إضافة لخشيته على ولده الذي كنت معه ب گورگه يير إذا ما انزلق لساني وذكرت أثناء التحقيق أني كنت منتميًا للحزب الديمقراطي بمحض إرادتي، باعتبار أن الضغوط ستجرني لكي أدلهم على الشخص الذي أرشدني إليهم، كوني غريبًا عن المنطقة وبالتالي يجب أن يزكيني شخص يعرفني ويعرفوه، وطبعًا كان لعمي الحق لأنه لم يكن لهم جميعًا أية مصلحة بموضوعي هذا، سوى مساعدتهم لي بدافع خشيتهم على حياتي من باب صلة الرحم التي تجمعني وإياهم باعتبار أن والدي رحمه الله وعمي كاك نجم الدين هم أولاد عم متحابين تربوا ونشأوا بصغرهم في بيت واحد، برعاية جدهم الحاج حسن أفندي لهم ولأبائهم، ومساعدتهم لي ببادئ الأمر كانت نزولاً عن رغبتي وإصراري بالوصول للمناطق التي هي خارج سيطرة الحكومة آنذاك.. فقلت:

- إن ادعائي بكيفية خروجي من السليمانية وحدي أمر صعب علي تنفيذه لأنه يحتاج إلى سرد تفاصيل دقيقة، وأنا لست جيدًا بسرد تفاصيل غير واقعية، وهذا يعني أنني لن أصمد على ترديده عندما سيطلب مني توضيحه طوال فترة التحقيقات التي ستجرى معي، ولذلك فأنا أعتقد أن إفادتي يجب أن أذكر فيها أني خرجت لتلك المناطق بمساعدة أشخاص كنت قد تعرفت عليهم أثناء تجوالي في أسواق البلدة آنذاك، مقابل ثمن معين وليست لي معرفة تامة بأسمائهم أو عناوين سكنهم، وسأمر على هذه التفاصيل سريعًا لأنتقل بإفادتي إلى تفاصيل واقعية وحقيقية هي أكثر أهمية لدى من سيحقق معي، وعندها سيكون موضوع خروجي من السليمانية أمر لا قيمة له لكي نتوقف عنده كثيرًا. أما بخصوص دخولي لقفص الأسرى بطهران وخروجي منه بأعجوبة؛ فهو أمر لن أتنازل عن ذكر تفاصيله لأنه أمانة ودين بعنقي باعتبارها تفاصيل تخص حياة الأسرى العراقيين ومعاناتهم اليومية القاسية، وقد كان لي النصيب القليل منها عندما تذوقت مرارتها، وقد عاهدت ربي أن أوصلها إذا ما كُتبت لي النجاة منها، والخروج لما وراء قضبان زنازينها، وذلك كان أمرًا مستحيلاً وقد تحقق بعونه تعالى، فهل أنقض عهدي بعد أن وصلت سالمًا؟! خصوصًا وأنا مقبل على فترة عصيبة الله وحده هو الذي سيستطيع إنقاذي منها ولا أحد سواه..

بعد أن أفرغت ما بجعبتي من آراء بكيفية الخلاص أثناء المرحلة القادمة؛ اقترح عمي كاك نجم الدين أن نعرض ذلك الموضوع على أحد معارفه من الذين يأمن جانبهم ويحظى بثقتهم، وهو رجل يدعى محمد علي رستم الذي كان رئيس لفصيل كوردي مسلح موالي للحكومة، وهي قوات معروفة لدى عامة الناس بالجاش، فاتصل به هاتفيًا ولم يجده في بيته لأنه كان قد ذهب بمهمة خارج السليمانية، وعندها ترك له رسالة عند أهل بيته بضرورة لقائه عند أول رجوعه إلى السليمانية.. وهنا سألت عمي رحمه الله:

– كيف لك أن تثق بشخص مثله؟!

– إن هؤلاء الجاش قد عملوا حسابًا للمستقبل إذا ما تخلت عنهم الحكومة، وهم بذلك لا يريدوا أن يخسروا العلاقات الطيبة لدى الشخصيات المعروفة عند الناس، وعليه تراهم لا يترددوا بتقديم بعض الخدمات، التي هي بنفس الوقت لا تؤثر على مصداقيتهم لدي دوائر الاستخبارات العسكرية التي يعملون معها، إضافة لذلك فهذا الشخص من عائلة صديقة لنا منذ القدم، من تلك الأيام التي كان فيها أبائنا وأجدادنا يملكون الأراضي الشاسعة بقرية كاني بردينيا التي كانوا ولا زالوا يسكنونها، وبذلك فهو وأهله لن يتنكروا لتلك العلاقة الحميمة التي جمعتنا وإياهم على مرَّ السنين...

تعجبت بدوري لذلك لأني لم أسمع من قبل بمثل هذا النهج لدى الكورد، هذا لأني كنت قد صنفتهم أنهم مع القضية الكوردية أو ضدها، ولا توجد حالة وسط بينهما، وهذا يعني أنني كنت واهمًا بتحليلي الذي بنيته لظاهر ما طفح من الأمور على السطح، وليس ببواطنها من خلال اللعب على الحبلين كما يقال، فهو وأمثاله متهمين بالعمالة وموصوفين بتسمية الجحوش كعنوان لهم من قبل الشعب الكوردي، ولكني عندما أنظر بإنصاف بعد اطلاعي على بواطن ولائهم لقوميتهم الكوردية حتى لو كان نهجهم هو اللعب على الحبلين، فإني اعتبرت ذلك الشخص المدعو محمد علي رستم أفضل من الذين يتستروا خلف الشعارات القومية البراقة، وهم في الحقيقة السكين التي كانت تذبح أهلها، وپيشمرگة (السروه) ممن التقيت بهم في الرضائية وهم خير مثال على ذلك..

هكذا مكثنا بانتظار محمد علي رستم من أجل التباحث معه بشأن موضوعي، وطال انتظارنا لفترة أسبوع أو أكثر بقليل، وحينها قرر والدي العودة لبغداد بعد أن تعهد له ابن عمه كاك نجم الدين بمتابعته للموضوع، وبعد ذلك بيومين

حصل اللقاء حينما جاءنا الرجل وأجلسه عمي بغرفة الضيوف من غير أن يفاتحه بموضوعي، ثم أدخلني عليه لكي يقدمني له، فنهض الرجل فزعًا بشكل ملفت للنظر أول ما وقعت عينيه علي وأنا بهيئتي التي كنت عليها، وكأنه قد وقع بكمين أو فخ قد نصب له بعناية، ولكن سرعان ما عادت إليه السكينة بعد أن سلمت عليه بلكنتي الكوردية الضعيفة، فعاد للجلوس بمكانه وهو مستغرب من ذلك المشهد، ثم بادر عمي بالقول بصوته الدافئ الحنون:

– هذا الشخص أحد أولاد ابن عمي، وهو لا يجيد اللغة الكوردية بسبب نشأته في بغداد،وقد انخرط بصفوف الحزب الديمقراطي بدافع قومي وحبه لكوردستان وأهلها، ولكنه لم يستطع التأقلم مع سياسات الوضع هناك، فعاد بعد أن تقدم باستقالته لهم، وهو يعتزم تسليم نفسه إلى السلطات الأمنية ليُشمل بالعفو الصادر عن الپيشمرگة، ونخشى عليه من الإهانة والضياع بغياهب السجون.

بعدها استرسل عمي رحمه الله بأسلوب حديثه المميز بالوقار وأخبره بكل تفاصيل ما حصل معي منذ البداية وحتى رجوعي إلى السليمانية، ثم طلب منه المساعدة والمشورة على حل تلك المعضلة، وماذا كان من المستحسن ذكره أو عدم ذكره أثناء التحقيق معي بعد أن أسلم نفسي طوعيًا لدائرة الاستخبارات في السليمانية.

فقال الرجل:

– إن سيناريو اختطافه أفضل باعتباره غريبًا على المنطقة، وهي إفادة مقبولة إلى حد ما، لأنه إذا ذكر أن هناك بعض الأشخاص الذين تعرف عليهم في السليمانية ساعدوه للخروج من المدينة؛ فذلك لن يكون واقعيًا، لأنه لا يوجد مثل هؤلاء الأشخاص الذين يثقون بشخص يتكلم العربية ويبغي رفع السلاح بوجه الحكومة، لأنهم سيخشون أنه قد يكون عنصرًا في الاستخبارات أو

بالأمن، ولا بأس من ذكر أنه قد انتمى للحزب الديمقراطي مرغمًا بعد أن وقع بأيديهم، لكي يتسنى له الهروب منهم والعودة لاحقًا، لأن للاستخبارات وكلاء معتمدين بصفوف كل الأحزاب، وأنا متأكد أنهم قد أبلغوا عن انتمائه للپيشمرگة وليس اختطافه طبعًا، هذا لأنهم يجهلون الكيفية التي انضم بها لصفوف الپيشمرگة.. وإنني أنصح باستبعاد ذكر أية تفاصيل تخص عبوره لإيران لأن الموضوع سيأخذ منحى آخر وتحقيقًا أطول، ولا أعتقد أن أحد وكلاء الاستخبارات قد أخبر عن عبوره، لأن الپيشمرگة على مدار الساعة يعبروا ويرجعوا من وإلى إيران، وبالتالي هو موضوع لا يستحق الإخبار عنه من قبل الوكلاء العاملين لدى الاستخبارات، وإذا ما سأله المحقق من باب الافتراض هل سبق له أن عبر وعاد من إيران، فيجب أن ينفي ذلك لأنه سؤال روتيني عام..

عند ذلك الحد انتهى عمر محمد علي رستم رؤيته لما يجب علي قوله أثناء التحقيق معي، ثم أضاف مقترحًا راغبًا على ما كان يبدو أن يخرج بمكسب من ذلك السيناريو الذي رسمه، وهو أن أخبر المحققين أنني كنت قد علمت بمخطط لاغتيال الپيشمرگة له، وقد جئت لإخباره بذلك من أجل تحذيره وإنقاذي لحياته، على أساس أن لي معرفة شخصية مسبقة به.. فقلت له:

– إن هذه الرواية ستعقِّد الموضوع أكثر لأنها بحاجة لتفاصيل دقيقة أنا بغنى عنها، ويكفيني ما سأختلقه مرغمًا لرواية اختطافي التي لا أعلم كيف سأتدبرها ناهيك على أن هذا سيؤشر لديهم أنني كنت پيشمرگة حقيقي ولست مرغمًا أتحين فرصة الهروب منهم كما سأذكر بإفادتي..

فقال مجيبًا:

– كما تشاء، وأنا سأكون معك أثناء سردك لتلك التفاصيل بإفادتك وسأساعدك على تخطيها، باعتبار أن الإفادة الأولى لك مهمة جدًا لأنك عليها ستبني أقوالك التي ستعيدها عندما سيطلب منك بأماكن أخرى لكي تحكي موضوعك..

– ولكن موضوع عبوري لإيران وما شاهدته هناك، أمر لا أستطيع التخلي عن ذكره، وأكاد أجزم أنني قد رجعت بسببه..

– هذا شأنك وأنا حذرتك أن هذا الموضوع سيجعل قضيتك حدثًا فوق الاعتيادي وبالتالي فإن النتائج لن تكون مضمونة، ناهيك عن العواقب التي ستكون غير معلومة..

– هذا هو قدري الذي لا مفر منه وأنا أتحمل مسؤولية ذلك..

عندها اتفقنا بشكل كامل على ما سأقوله وما يجب ألا أقوله بإفادتي التي سأدلي بها أثناء التحقيق بمديرية استخبارات الفرقة الرابعة في محافظة السليمانية، وطلب منا الرجل أن نمهله بضعة أيام ليأخذ وقته فيها من أجل الاتصال بالمسؤولين عن التحقيق، بغرض الاتفاق معهم على موعد لغرض إدلائي بإفادتي أمامهم، وشدد علي ألا أخرج إلى أي مكان لأنه سيخبرهم أنني موجود عنده وفي ضيفافته، وأنه لن يأخذني إليهم إلا بعد أن يحصل منهم على وعد بعدم الإساءة لي... فشكرناه وودعناه على أمل اللقاء به مجددًا من أجل الذهاب سويًا للإدلاء بإفادتي.

لم يمضِ سوى يومين حتى اتصل بنا هاتفيًا يخبرنا أنه سيأتي ليأخذني بمساء ذلك اليوم.. فتحضرت لذلك بعد أن حفظت تلك الرواية بخصوص اختطافي المزعوم، وما عداها كان أمر سهل باعتقادي لأني سأحكي كامل الحقيقة. وبذلك أكون قد تخليت مجبرًا ولو بجزء يسير من الكذب الأبيض، من إيماني العميق واعتقادي المطلق بمبدأ لم أتخلَ عنه طيلة حياتي، وهو أن النجاة في الصدق، وكان لسان حالي يسخر من القدر الذي جعلني رغمًا عني أستنجد بمن هو محسوب على خيانة القضية الكوردية، بعد أن كنت من أشد المدافعين عنها وفي سبيلها..



في مساء ذلك اليوم حضر محمد علي رستم وذهبت معه إلى مديرية استخبارت الفرقة الرابعة للفيلق الأول، وأنا لا زلت مرتديًا للزي الكوردي الخاص بمقاتلي الپيشمرگة، وهناك كان بانتظارنا ثلاثة من ضباط الاستخبارات برتب مختلفة تراوحت ما بين ملازم أول ورائد ومقدم، إضافة لشخص كان يرتدي بدلة مدنية ولم أتعرف على رتبته وقد علمت بعدها أنه كان مسؤول حزب البعث بتلك المديرية الاستخبارية، وقد دهشت كثيرًا عندما تكلم ضباط الاستخبارات الثلاثة مع صاحبي محمد علي رستم باللغة الكوردية، ومن ذلك علمت أنهم كانوا كوردًا باستثناء المسؤول الحزبي الذي كانوا يكلموه بالعربية، وتلك مفاجأة لم أكن أتوقعها جعلتني أراجع نفسي لأستنتج أنه ما كان لي أن أسلك ذلك الطريق الشائك المتشعب وأنا الغريب عن تلك المنطقة، والجاهل بلغة أهلها وسياساتهم، وعليه فقد كان لازمًا علي أن أعمل كل ما بوسعي لكي أنجو بنفسي من غير أن أتسبب بالإساءة إلى كل طرف من أطراف تلك اللعبة المقيتة لأعود لنفس نقطة البداية التي انطلقت منها بيتي في ببغداد..

عندما جلسنا طلبوا مني باللغة الكوردية إيضاح موقفي، فأجبتهم بكورديتي الضعيفة من أجل أن يصدقوا أنني غريب عن المنطقة ولا أجيد لغتهم، وهذا هو السبب الذي اختطفت من أجله بحسب الإفادة التي تلقنتها خلال اليومين الماضيين:

– أنا أفضل التكلم بالعربية لأنني بغدادي الولادة والنشأة، فمن أين تريدوني أن أبدأ؟

اندهشوا بدورهم لأن مظهري لم يكن يتناسب مع ما قلته بكورديتي الضعيفة ولا يتناسب أيضًا مع رجل بغدادي.. فقالوا بالعربية:

– ابدأ من اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى السليمانية..

فقلت بادئًا ببعض الحقائق:

– لقد كنت أزور السليمانية لمتابعة معاملتي بخصوص الأرض السكنية التي تقدمت بطلب الحصول عليها من دائرة الإسكان العسكري، عن طريق وحدتي باعتباري أحد المتطوعين في الجيش العراقي برتبة نائب ضابط، حتى حصلت عليها في العام الماضي، وهي تقع بالقرب من مصيف سرچنار السياحي بمنطقة تدعى آبلاخ ورقم القطعة هو كذا وكذا، وفي أخر إجازة دورية لي حصلت عليها من وحدتي العسكرية الكائنة بقاعدة الوليد الجوية التي هي بالقرب من الحدود الأردنية؛ جئت إلى السليمانية بعد أن قضيت من إجازتي بضعة أيام في بيتي الكائن في بغداد، لمراجعة دائرة بلدية السليمانية بغرض استخراج رخصة لبناء الأرض، وحينها رغبت كعادتي بكل مرة عندما أكون في السليمانية بالذهاب لمصيف سرچنار، وبقيت هناك حتى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم الذي لم أعد أتذكر تاريخه، سوى إنه كان بالأيام العشرة الأخيرة من الشهر السادس من العام المنصرم، وقبل رجوعي إلى مركز مدينة السليمانية تملكتني الرغبة أن أتمشى هناك لبعض الوقت..

عند هذه الجملة توقفت لأنني سأدخل بسرد تفاصيل رواية اختطافي المزعوم مستعينًا بما حفظته ذاكرتي لأحداث خطف كنت أطلعت على تفاصيلها وأسبابها، ومنها خطف البيشمرگة لمهندس باكستاني كان يعمل بقطاع الكهرباء، وكنت قد التقيته بالصدفة عندما كنت أسكن بقرية گورگه يير ، وعملت على ترجمة أقواله التي كان يدلي بها بالإنكليزية لمختطفيه من بيشمرگة الاتحاد الوطني الكوردستاني.. وتابعت بإفادتي وكل الحضور كانوا ينصتوا لي باهتمام، فقلت تفاصيل ستبدو لقارئ حكايتي هذه أنها حكاية أخرى بداخل حكايتي الحقيقة:

– وقد تمشيت حتى أصبحت وحدي، وعندها فاجأني رجلان مسلحان جردَّاني من مقتنياتي التي كنت أحملها بجيبي ومنها هويتي العسكرية ومحفظة نقودي،

ثم أمراني أن أذهب معهما وإلا فإنهما سيمطراني بوابل من نيران مسدساتهما، فانصعت لأمرهما لاعتقادي أن هناك سوء فهم أو اشتباه بشخص آخر أو أنهما كانا يريدان سلبي بغرض الاستحواذ على ما كنت أحمله بجيبي من مال، فمشيت معهما دون أن أسبب لهما الإرباك الذي من شأنه قد يجعلهما يقدمان على عمل متهور ضدي، بانتظار أن تسنح لي الفرصة لمحاورتهما بغرض تبيان موقفي إزاء ما كان يدور برأسيهما، باعتباري مواطن بسيط لا دخل لي بما كان يحصل من مشاكل في السليمانية أو ما شابه من ذلك، ولكن الفرصة لم تسنح لي لأنهما لم يتوقفا واستمرا باقتيادي إلى أن أصبحنا عند مشارف المدينة من جهة مصيف سرچنار، والوقت حينها كان قد بلغ فترة ما بعد الغروب بقليل، وعندها طلبت منهما أن نرتاح قليلاً ولكنهما رفضا ذلك وأمراني بمواصلة السير، وقد أسدل الليل علينا ستاره ولم أعد أدري أين كان موقعي ومكاني الذي كنت فيه، حتى وصلنا بعد ثلاث ساعات من المشي المتواصل إلى إحدى القرى وجلسنا لنستريح عند المرتفعات التي كانت تشرف على منازل تلك القرية، وقد أنزلاني إليها عند منتصف الليل، وهناك وجدنا مجموعة أخرى من جماعتهما مدججون بالسلاح المتوسط من بنادق الكلاشنكوف، فسلماني إليهم بعد أن دار بينهم حوار لم أفهمه حينها، ومضت بي تلك المجموعة المسلحة لنمشي مرة أخرى على الأقدام من غير أن يدور بيننا أي حوار، ولم أكن أعلم الوجهة التي يريدون نقلي إليها، مع يقيني أنني كنت قد أصبحت حتمًا خارج حدود مدينة السليمانية، وبذلك استسلمت للقدر ولم يعد يهمني سوى حالة الإنهاك والتعب التي كنت عليها، حتى وصلنا لقرية أخرى وسلموني لمجموعة ثالثة بعد حوار دار بينهم ولم أفهمه أيضًا، والمجموعة المسلحة الثالثة كانت تمتلك سيارة جيب، فأجلسوني وسطهم بحوضها الخلفي وانطلقوا بي حتى وصلنا بعد ساعة من الزمن لإحدى القرى، وحينها بدأت الشمس تتكشف، فنزلنا عند مسجد القرية، وعندها تيقنت أنني قد أصبحت خارج نفوذ الدولة

لأنهم كانوا قد اتخذوا من جامع القرية مقرًا أو ملاذًا لهم. حينها دار أول حوار بيني وبين مسؤولهم الذي كان يعرف التكلم بالعربية إلى درجة استطعت التفاهم من خلالها معه، وقلت له:

- هل لي أن أعرف ما الذي فعلته ضدكم لكي تقتادوني بمسيرة أهلكتني بعد أن أجبرتموني على المشي طوال فترة الليل؟!

فقال:

- لدينا معلومات تفيد أنك أحد عناصر الاستخبارات بالسليمانية.

- هذا غير صحيح على الإطلاق، وهويتي تشهد بذلك وهي موجودة بمحفظة النقود التي استولى عليها رفاقك بسرچنار..

ثم تابعت قائلاً لهم:

- إذا كان لديكم معلومات عني فهذا يعني أنكم كنتم تراقبونني عن بعد، فهل رأيتموني مثلاً أدخل إلى أية دائرة أمنية أو استخبارية بمدينة السليمانية عدا دائرة البلدية التي كنت أراجعها باستمرار من أجل استصدار أوراق بناء لقطعة الأرض التي أمتلكها؟! علمًا أن أولوياتها هي أيضًا موجودة بمحفظتي لبعض وصولات الدفع التي أديتها لصندوق بلدية السليمانية.

- إذًا أنت من الذين جاءت بهم الحكومة من أجل الاستيطان والتعريب؟

- هذا أيضًا غير صحيح لأني كورديٌ أبًا عن جد، كما أني قد حصلت على قطعة الأرض باعتباري موظفًا حكوميًا، ذلك لرغبتي بالسكن والاستقرار في السليمانية حبًا وكرامة وتقربًا لأهلها، ومنهم أقاربي الذين من كثرتهم لا أستطيع أن أحصيهم لك.

- إن كنت صادقًا فأذكر لي من أي عائلة أنت ومن هم آباؤك وأجدادك وأقاربك؟

- إن والدي اسم غير معروف في السليمانية لأنه خرج منها قبل ولادتي، وجدي هو الحاج علي أفندي الذي كان عضوًا بمحكمة السليمانية أيام الملكية،

كونه أحد الأعيان آنذاك، وأبوه هو الحاج حسن أفندي الذي كان قائمقام السليمانية التي كانت تابعة لولاية الموصل أيام العثمانيين، وهو مدفون حاليًا بمسجد قامشان بمركز مدينة السليمانية، وقد بناه عندما كان حيًا يرزق وتسلمته الأوقاف بعد وفاته، وأبوه هو محمد أغا الضابط الكوردي بالجيش العثماني وقد جاء من قرية نورس بكوردستان تركيا إلى السليمانية عند أول تأسيسها، وأحفاد هؤلاء هم الآن كثيرون جدًا في السليمانية..

– إذا كان كلامك هذا صحيحًا فهو تاريخ مشرف، ولكن لماذا أنت في الجيش وليس معنا لكي تخدم أرض أبائك وأجدادك؟!

– هذه وظيفتي، وأنا من خلالها لم أتسبب لكم بشيء من الأذى، لأن واجبي الذي أعمله بهذا المجال الفني بالقوة الجوية هو الدفاع عن سماء العراق من العدوان الخارجي ومنها سماء كوردستان، ولا تنسَ أن عظام القادة من مؤسسي الجيش العراقي كانوا من الكورد، وقد خرج منهم من هو طبيب أو مهندس أو معلم أو أستاذ جامعة وهذا يعني أنه ليس بالضرورة أن يحمل كل الشعب الكوردي السلاح أو يمتهنوا السياسة لكي يكونوا كوردًا نجباء..

وعندها استدار نحو رفاقه المسلحين الذين جاءوا بي وقال لهم باللغة الكوردية كلامًا فهمت من مجمله أنهم قد أحضروا الشخص غير المطلوب الذي كانوا قد جمعوا المعلومات عنه، ثم قال لي بعدها:

– سوف نتحرى عنك من خلال المعلومات التي عرفت نفسك بها، وسنرى ما سيكون من شأنك بعد التحري عنك من خلال تنظيماتنا داخل مدينة السليمانية، وحتى ذلك الحين ستبقى معنا وتصحبنا أينما نذهب، ولكن حذار أن تنفرد أو تتكلم مع أحد ممن حولنا، سواء من الأهالي أو من بقية الأحزاب.

– حسنًا سأفعل كما تريد..

عند هذا الحد انتهى الحوار بيني وبين ذلك المسؤول الكوردي بعد أن تأكدت أنه قد اقتنع بصحة المعلومات والأدلة التي وضعتها بين يديه، وهذا يعني أن حياتي أصبحت بأمان حتى إشعار آخر...

هنا أوقف كلامي المسؤول الحزبي لدائرة الاستخبارات العسكرية قائلاً:

- ماذا كان اسم هذا المسؤول الكوردي؟

نظرت إليه وقرأت بعينيه الريبة والشك بأقوالي، فقلت له:

- لم يكن وضعي يسمح أن أسأله عن اسمه!

فعقب بالقول:

- ألم تعرف إلى أي حزب كانت هذه الجماعة المسلحة تنتمي؟

فقلت على الفور لأني كنت أنتظر منه هكذا سؤال:

- لقد كانوا من حزب الاتحاد الوطني، ويسمون هناك بالجلاليين نسبة لزعيمهم جلال الطالباني..

لقد قلت هذا الجواب الفوري لأني كنت قد علمت من بعض أقاربي أثناء مكوثي عندهم بعد رجوعي للسليمانية بغرض تسليم نفسي، أن محطة الراديو التابعة لحزب الاتحاد الوطني كانت قد أذاعت بنشرتها الإخبارية خبر التحاقي بالثورة بالاسم والرتبة العسكرية أثناء الفترة التي كنت أسكن فيها بقرية گورگه يير ، وأكاد أجزم أن من أوصل تلك المعلومة التي لم تكن حقيقية لكي تذاع براديو حزب الاتحاد الوطني، هو صديقي محمد پيشمرگة السياسي بحزب الاتحاد الوطني، الذي كان يسكن معنا بقرية گورگه يير ، لأنني بحسن النية كنت قد كشفت له عن اسمي ورتبتي عندما سألني عنها ببداية إقامتي مع عديله الذي هو قريبي، لذلك فهو الشخص الوحيد من حزب الاتحاد الوطني الذي تعرف على اسمي وعنواني حينها، وبالطبع فإن دائرة الاستخبارات العسكرية كانت

تلتقط (ذلك البث الإذاعي وتدون كل ما كان يذاع على الهواء، وأعتقد أن سؤال المسؤول الحزبي للاستخبارات العسكرية عن اسم تلك الجماعة المسلحة كان لهذه الغاية...

وبعد تلك المقاطعة لكلامي طلب مني أحد ضباط الاستخبارات متابعة إفادتي، فاسترسلت قائلاً:

- وهكذا كنت مجبرًا على البقاء ضمن مجموعتهم المسلحة التي كانت تتنقل بين القرى وتبيت لياليها بمساجدها، من غير أن أتجرأ بالسؤال عن أي أمر كنت أجهله بخصوص كل ما كان يحيط بي من مظاهر، لأني كنت أخشى استبعادهم لي من مجموعتهم ليرسلوني إلى مكان آخر سأكون فيه مقيدًا بالحركة وبالتالي سوف تنعدم لدي أية فرصة للهروب منهم، لاعتقادي أنني من خلال استمرار وجودي معهم فذلك يعني أني سأكون قادرًا على معرفة موضوع واحد كان يشغل بالي؛ وهو ضرورة تعرفي على تضاريس ومسالك تلك المنطقة لكي أعرف مدى قربي أو بعدي عن مدينة السليمانية أو الأقضية المحيطة بها، وهذا ما سيؤهلني بأن أضع خطة لهروبي منهم في الزمان والمكان الملائمين، هذا من ناحيتي ومن ناحيتهم فإنهم قد أصبحوا مقلين بحذرهم واحتراسهم مني يومًا بعد يوم، الأمر الذي جعلني أشعر أن تصرفهم هذا كان نهجًا مدروسًا بغاية تأهيلي بالانضمام لهم بعد أن تأكدوا بأني بريء من تلك الغاية التي جعلتهم يختطفوني ببادئ الأمر، ومن أجل أن لا يجلب شكلي الانتباه من قبل سكان القرى التي كنا نمر بها أو من قبل المسلحين من بقية الأحزاب، فإنهم ألبسوني الزي الكوردي منذ اليوم الأول لاختطافي، ومكثت على هذا المنوال لفترة أسبوع أو أكثر لاحظت من خلاله أنهم يتوجسون الحيطة والحذر من جهة واحدة بعينها أثناء حراساتهم الليلية، فتوهمت ببادى الأمر أن خشيتهم كانت من الهجوم الذي قد يشنه الجيش العراقي عليهم، حتى تبين لي لاحقًا أن ذلك

التصرف الحذر كان خشية من المجاميع المسلحة للحزب الديمقراطي الذي هم بحالة عداء معه أثناء تلك الفترة لأنهم قد تصالحوا معه بفترة لاحقة، وبأسلوب لا يبعث على الشك استطعت أن أعرف مدى أو قرب ابتعاد الربايا العسكرية للجيش العراقي عنهم بعد أن تيقنت أننا كنا بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية، وعندها قررت الهروب منهم لأتجه نحو تلك الربايا العسكرية التي علمت أنها كانت تبعد مسافة ثلاث ساعات من المشي المتواصل بطريق لا تستطيع السيارات أن تسلكه، وجعلت توقيت هروبي منهم خلال الفترة التي تسبق وقت صلاة الفجر بقليل، لأنهم كانوا ببعض الأحيان يخلدوا للنوم عند تلك الفترة، وهكذا هربت منهم باتجاه الربايا العسكرية وأنا أجري بكل ما أوتيت به من قوة لكي أصلها بوقت أقصر، حتى انقضت ساعتان من الجري المتواصل، وأنا لم أزل بنفس تلك المنطقة ولم أصل لأية علامة تشير بأنني قد أصبحت بمأمن أو قريب من الربايا، وأثنائها أشرقت الشمس وأصبحت مكشوفًا للقاصي والداني بتلك المنطقة المفتوحة، فتوقفت عن الجري وأخذت أسير بخطى معتدلة من غير أن أحيد عن الطريق الحجري الذي اعتقدت أنه سيوصلني لما كنت أبتغيه، وأثنائها حصلت مفاجأة غير متوقعة وهي أني قد وجدت نفسي أمام مجموعة كبيرة من المسلحين وهم يسيروا باتجاهي بالرتل المنفرد، فقررت ألا أتوقف أو أهرول مسرعًا باتجاه آخر، فاستمريت بسيري بشكل اعتيادي كي لا أثير حفيظتهم، حالي حال أي شخص قروي يتجول بتلك المنطقة، ولدى وصولي لمقدمة طلائع ذلك الرتل المنفرد من المسلحين؛ لاحظت أحدهم وهو يعلق على صدره صورة داخل ميدالية للملا مصطفى البارزاني، فعرفت على الفور أنهم من الحزب الديمقراطي الذين كان جماعة الاتحاد الوطني يحترسوا منهم أثناء حراساتهم الليلية، وأثناء ذلك سألني أحدهم وأنا أمر بجانبهم سؤالاً لم أفهم معناه، وحتى لو فهمته فبأي لغة كنت سأجيبه وهو أمر لم أكن متحسبًا

له أن يصادفني عندما قررت الهروب من جماعة الاتحاد الوطني، وعلى الفور خطرت على بالي فكرة طارئة من شأنها أن تجنبني ما قد يأتي على بال تلك المجموعة المسلحة للحزب الديمقراطي باعتباري شخصًا عربيًا يتجول بمهمة استطلاع عسكرية، فقلت له باللغة العربية أنا لا أفهم ما تقول ولكني أسالك أن ترشدني إلى جماعة البارزاني، وقبل إتمامي لتلك الجملة قفز الجميع ليحيطوا بي من كل جانب، وقال لي أحدهم بالعربية:

– من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

فقلت:

– أنا كوردي مثلكم وقد هربت من جماعة الاتحاد الوطني التي اعتقلتني أثناء دخولي لهذه المنطقة قبل أسبوع من أجل الالتحاق بالبارزانيين..

– ولماذا جئت للبارزانيين بالذات؟

– لأننا في بغداد ليس لنا علم أو معرفة بالجماعات المسلحة الأخرى والبارزانيين باعتقادنا هم حماة كوردستان الأصليين..

– كيف عرفت أننا نتواجد بهذه المنطقة؟

– لقد علمت ذلك من نفس الجماعة التي كنت محتجزًا لديها، لأنهم كانوا أثناء حراساتهم الليلية يخشون هجومكم المباغت عليهم من هذا الاتجاه الذي نقف عليه الآن..

وبعد تلك اللحظات الحرجة هدأت نفسي بعد أن وجدتهم قد تقبلوا الموضوع ظاهريًا على أقل تقدير، وأخذوا بطرح السؤال تلو الآخر عن اسمي وعملي وأصلي وسكني، وقد أجبت على كل أسئلتهم بنفس الإجابات التي ذكرتها لجماعة الاتحاد الوطني أثر أختطافهم لي من سرچنار، مع تشديدي برغبتي للالتحاق بهم.. وعندها قال أحدهم بعربيته الضعيفة، وكان يحمل جهازًا لاسلكيًا محمولاً على ظهره:

- لقد سمعت اسمك يذاع على موجة بثهم في الراديو قبل أيام باعتبارك قد التحقت بالثورة..

وبعد تلك الحوارات لم أتأكد بمدى قناعتهم بها, عاودوا المسير بعد أن أوكلوا واحد من عناصرهم الذي كان يجيد اللغة العربية على ملازمتي أثناء سيرهم.. ومرت الأيام وأنا أتنقل معهم من قرية لأخرى، وكنت خلالها قد تعمدت بنهجي أن أقوي علاقتي بتلك المجموعة المسلحة التي تراوح عدد أفرادها على الثلاثين شخصًا، وبنفس الوقت كنت أعمل أيضًا على تعلم بعض المفردات الضرورية من اللغة الكوردية من أجل أن أكون قادرًا على التفاهم مع من لا يعرف منهم التكلم بالعربية، حتى مضى على وجودي بينهم قرابة الثلاثة أسابيع من التجوال بتلك المنطقة، ثم حدث بعدها أمر مهم كان وقعه على نفسي بالغ الأسى، وذلك عندما تهيأت تلك المجموعة بالدخول إلى المناطق التي كانت خارج نفوذهم، على أثر الاتفاقية التي عقدوها مع حزب الاتحاد الوطني من أجل أن لا يتعرض أحدهم للآخر خلال جولاتهم المسلحة بتلك المنطقة التي هي خارج سيطرة الدولة، فخشيت أن تفتضح حكاية هروبي من جماعة الاتحاد الوطني بغاية الالتحاق بهم عاجلاً أو أجلاً إذا ما تلاقينا أثناء جولاتنا بتلك المجموعة التي اختطفتني من السليمانية، وقد صدقت مخاوفي وحدث ما كنت أخشاه بعد أيام عندما لمحني أحد من جماعة الاتحاد الوطني بإحدى القرى, وعلى أثرها أرسلوا شخصًا ليخبر البارزانيين ما كان من أمر اختطافي وهروبي منهم، وعلى أثرها خضعت للاستجواب وواجهوني بهذا الأمر، فقلت لهم: إن أمر هروبي منهم والالتحاق بكم لم يرق لهم فاختلقوا هذه الكذبة للإيقاع بي.

فقالوا:

- نحن لا نخفي عنك أننا قد استفسرنا بطريقتنا الخاصة عن المعلومات التي زودتنا بها عن نفسك وقد اتضح أنك فعلاً كورديًا وتسكن في بغداد، كما أنك

ليست لديك أية صلة بالجهات الاستخبارية بالسليمانية، وهذا ما يهمنا، أما بالنسبة لما قاله عنك جماعة الاتحاد الوطني فهو بتقديرنا نوع من الكذب والخداع لأننا نعرف أساليبهم، وبعد هذه الحادثة استمرت علاقتي بالبارزانيين على ما كانت عليه وأكثر، وعاهدت نفسي على التريث أثناء أية فكرة مستقبلية مستعجلة للهروب منهم بعد تجربة هروبي الفاشلة من جماعة الاتحاد الوطني، وعليه فقد قضيت معهم فترة أخرى لأكثر من شهر كنت خلالها حريصًا على أن أكسب ودهم لأجعلهم ينسوا ما كان من أمري، وقد نجحت بذلك لأنهم جعلوني أحمل السلاح أسوة بباقي المجموعة...

وعند إتمامي ذكر جملتي الأخيرة بحضرة ضباط الاستخبارات، على أنهم جعلوني أحمل السلاح، أكون قد أنهيت سرد حكاية اختطافي المزعوم التي لازلت أتقزز كلما تذكرتها وقد اضطررت لتدوينها لكي يعلم قارئ سطوري أن التحقيق مع الاستخبارات العسكرية العراقية لم يكن بالأمر الهين كما كان مع الاستخبارات العسكرية الإيرانية.. وعند ذلك الحد انتقلت بإفادتي بسرد التفاصيل الحقيقة التي عشتها فعلاً بعلاقتي مع الحزب الديمقراطي باعتباري أحد مقاتليه كپيشمرگة مغلوب على أمره، مع استبعادي بذكر أسماء أو تفاصيل علاقتي التي أستطيع أن أصفها بالحميمة مع صديقي كاك شريف كچل، والودية مع كاك قادر قادر، والمحترمة مع كاك نادر هورامي، الذين كانوا من قادة الحزب الديمقراطي بتلك المنطقة من كوردستان، مع استبعادي أيضًا ذكر أسماء ومواقع القرى التي كانت تتواجد فيها مقراتهم، وبالذات مقري الفرع الثالث والرابع لحزبهم بقرية بيانة، لأنني لم أرتضِ لنفسي أن أكون شوكًا بطريقهم ودليلاً عليهم من أجل تصفيتهم بعد أن بذلت كل جهدي أن أكون وردة عطرة بمسيرة الثورة التي وضعت عليها الكثير من علامات الاستفهام بضميري من خلال نهجها المتبع بتلك الفترة التي كنت مشاركًا فيها...

تابعت أقوالي التي دونها ضباط الاستخبارات العسكرية العراقية بإفادتي أمامهم، بعد أن ذكرت لهم كيف تمَّ اختياري من قبل الحزب الديمقراطي بأكمال مشواري معهم بالمجال السياسي وليس من خلال تشكيلاتهم المسلحة ضمن منطقة محافظة السليمانية، وذلك من خلال نقلي للمكتب السياسي بالمقر الرئيسي لحزبهم الذي لا أحد كان يعلم بمكانه، وعلى أثرها تمَّ تجريدي من السلاح الذي كان عبئًا علي، وأرسلوني مع عدد من أفرادهم الذين اعتقدتهم سيوصلوني إلى المكتب السياسي، من غير علم مسبق أنهم سيأخذوني إلى قضاء مريوان الإيراني، حتى عبروا بي الحدود الدولية وأصبحت أمام الأمر الواقع، وهناك سلموني إلى مكتب الحزب الديمقراطي من غير أن تسنح لي فرصة الهروب منهم أثناء ذلك الطريق الطويل كما كنت أتمنى، وفي مقرهم بمريوان تصادف وصولي مع تواجد بعض الأفراد من حرس خميني الذين يسموا هناك بالحرس الثوري الإيراني، الذين سرعان ما انتبهوا من عدم إمكانيتي التحدث باللغة الكوردية، الأمر الذي استدعاهم أن يحققوا معي...

وعند هذا المفصل المهم من إفادتي لضباط الاستخبارات العراقيين إلى ذلك المنحى، اعتدلوا بجلوسهم وهم متشوقين لسماع بقية إفادتي بعد أن أوشكوا كما كنت أظن أن إفادتي كادت تقترب من نهايتها، وقد كنت حريصًا أن أنقل لهم كامل نص ذلك الحوار على النحو الذي حدث بالفعل بيني وبين الپاسدار صادق وجماعته أثناء جلستنا في بيت صديقي كاك شريف، ثم ذكرت لهم كيف انتهى ذلك التحقيق معي باعتقالي ولم تمضِ سوى ساعتين منذ وصولي لذلك المقر، وكيف أخذتني الاستخبارات العسكرية الإيرانية (الاطلاعات) منهم، لتحقق معي في مريوان، ثم تحولني لسنندج ليحقق معي هناك مدير استخباراتهم المدعو سرهنك (عقيد) توكان، ليحولني بدوره إلى أقفاص الأسرى العراقيين بطهران، بمعسكر يدعى دوزبان مركز الذي يتواجد به المقر العام لدائرة الانضباط

العسكري الإيراني، وكيف كنت بكل تلك المراحل الصعبة مصرًا على أنني أنتمي للحزب الديمقراطي لكوردستان العراق وجئت إلى إيران بقصد الالتحاق بالمكتب السياسي على أثر صدور أمر نقلي له، وبذات الوقت كنت صامدًا بإنكاري للتهمة الكيدية التي وجهها لي حرس خميني بمريوان على أنني جاسوس أعمل لصالح الاستخبارات العسكرية العراقية.

وعند وصولي لتلك المرحلة من إفادتي تكلمت بإسهاب وشرح وافي بنقل ما شاهدته واطلعت عليه من معاملة قاسية وظالمة للإيرانيين بحق الأسرى العراقيين هناك، مع تبيان مواقف الأسرى التي انقسمت ما بين من هو وطني وآخر خائن وأكثرية صامتة متفرجة ومستسلمة لذلك الواقع المرير بعد أن غُلبت على أمرها، وقد سميت تلك الوقائع بمسمياتها وفاءًا مني لمن كان شريفًا وبطلاً، وانتقامًا من الذين باعوا وطنهم بثمن بخس بعد أن تنكر أحدهم لماضيه وشرفه عندما كان يشار له بالبنان كونه كان مسؤولاً بحزب البعث، باعتباره الأكثر وطنية من غيره المستقلين الذين لم ينتظموا بحزب البعث وأنا واحد منهم..

وعندما وجدت ضباط الاستخبارات لم يستحسنوا كلامي الذي سار بهذا الاتجاه، انفعلت بشكل لا إرادي ورفعت يدي لأخطب فيهم بصوت عالٍ:

- هناك في أقفاص الأسرى العراقيين ضاعت جميع المقاييس التي كنا نتعامل بها كعراقيين من أجل أن نعرف من هو الوطني فينا ومن هو الخائن منا؟ وهناك أيضًا برزت معادن الرجال على حقيقتها بذلك المحك والامتحان العسير حتى بات واضحًا من كان فيهم قد شرب من ثدي أمه حليبًا طاهرًا، ومن منهم كان قد شرب من ثدي الذئاب اللئيمة حليبًا فاسدًا...

وبعد انتهائي من شرحي الوافي لتفاصيل الحياة اليومية للأسير العراقي بإيران شعرت أني قد أزحت أمانة ثقيلة كانت معلقة على أكتافي، وهي رسالة مهمة كان ينبغي علي أن أوصلها، ولم يتبقَ لي من إفادتي سوى تكملة ما كان من أمري مع الإيرانيين بطهران والوسيلة التي عدت من خلالها للعراق، فذكرت لهم كيف تمَّ ترحيلي إلى محافظة أرومية ثم تسليمي إلى المقر الرئيسي للحزب الديمقراطي، وما دار معي هناك، ثم انتقلت بإفادتي لأذكر علاقة المودة التي عملتها مع ذلك الضابط الإيراني الشاب الذي كان يعمل بدائرة الانضباط العسكري الإيراني بمدينة الرضائية بقصد الحصول منه لورقة عدم التعرض وفيها صورتي للوصول لقضاء مريوان على الحدود العراقية، ولم أنسَ ذكر كيف حصلت على الكتاب الحزبي من مسؤول اللاجئين الكورد في الرضائية من أجل إبرازه لنظيره بمكتب حزبهم بمريوان، وكيف وصلت لمريوان عبر اجتياز العديد من المدن الإيرانية، والمخاطر التي كانت تحيط بي بكل لحظة على طول ذلك الطريق الطويل وأنا حر طليق، وكيف اتجهت لمكتب الحزب الديمقراطي أول وصولي لمريوان الذي اعتقلت به ببادئ الأمر، فتوقفت للحظة ثم قلت لهم ما نصه: وعندما دخلت عليهم لم يتعرف علي أحد من القائمين على إدارة ذلك المكتب، حتى ذكرتهم بواقعة اعتقالي بمكتبهم، فتعجبوا كثيرًا لأنهم اعتقدوا أنني قد رُميت للجحيم أو إلى أقفاص الأسرى العراقيين الذي لا يرجع كل من يدخله، وذلك ما اعترف به أحدهم عندما ذكر لي أن زميلاً لهم كان يعمل معهم بإدارة مكتبهم عندما ألقى الإيرانيين القبض عليه قبل أكثر من عام ومنذ ذلك التاريخ لم يروا بعدها له أثرًا.

وعندها أبرزت لهم الكتاب الحزبي باعتباره كان أمرًا من القيادة وعليهم تنفيذه من أجل تسهيل أمري لعبور الحدود لكي التحق بنفس جماعتي في كوردستان العراق، فاهتموا بأمري وطلبوا مني التريث ريثما يجدوا لي من يرافقني من

جماعتهم لعبور الحدود، وهذا ما لم يرق لي لأن ذلك يعني أني سأرجع فعلاً لنفس المجموعة التي كنت معها إذا ما عبرت الحدود بصحبة ذلك النفر من المقاتلين المسلحين، ومن أجل التملص من تلك الصحبة المفترضة أبديت عدم رغبتي بالمكوث مجددًا بإيران بعد كل الذي حصل معي فيها، وطلبت منهم الإسراع بتأمين عبوري للحدود، فأخبروني بوجود شخصين من المهربين المتعاونين معهم ولهم صلة وثيقة بهم، وأنهم سوف يعبروا في صباح اليوم التالي، وبالتالي فإن بإمكانهم أن يرسلوني معهم، شريطة أن أتدبر أمري بعد عبورنا للحدود لأنهم سينفصلوا عني ويذهبوا إلى قريتهم القريبة من الحدود، وهذا ما كنت أسعى له لأنها فرصة مثالية طالمًا تمنيتها من أجل الهروب والرجوع للسليمانية، مؤكدًا بذات الوقت بأني قادرًا على تدبر أمري بعد انفصالهم عني لأني أعرف طريقي جيدًا.

وفي صباح اليوم التالي انطلقت مع اثنين من أولئك المهربين من مركز مدينة مريوان نحو الحدود التي عبرناها ليلاً، ثم افترقوا عني عند الشارع العام المؤدي لقضاء بنچوين، فمكثت هناك حتى الصباح، وقد احتفضت بكل ما حصلت عليه من أوراق عدم التعرض وكان أخرها ذلك الذي تزودت به من مقر الحزب الديمقراطي بمريوان، وعندما حل الصباح توقفت لي إحدى سيارات البيك أب القادمة من بنچوين والمتجهة لمركز محافظة السليمانية، وكان حوضها مملوءًا بركابها القرويون الذين أفسحوا لي المجال لأن أجلس بإحدى الزوايا، وعندها قررت النزول بأول سيطرة عسكرية نتوقف عندها خلال الطريق، ولكن ذلك لم يحصل لأن أفراد السيطرة العسكرية لم يستوقفونا بسبب رداءة الطقس حينها، وتابعت السيارة سيرها حتى دخلت إلى وسط المدينة، ومن هناك استقليت سيارة تاكسي من أجل الذهاب إلى بيت كاك محمد علي رستم بغرض إرشادي إلى الجهة التي يجب أن أدلي بأقوالي أمامها، وها أنا

الآن بين أياديكم، وقد قلت لكم كل الذي لدي من أجل الحقيقة وليس لتبرئة ساحتي، لأنني وصلت لوطني العراق وأنا سالم وهذه وحدها كانت أعظم أمنية لدي، خصوصًا عندما كنت أقبع بقفص الأسرى العراقيين بطهران، وقد تحققت بعون من الله وبالباقي لم يعد يهمني سواء صدقتم أم لم تصدقوا، وتذكروا أنني لم أكن مجبرًا بذكر ما حصل معي بإيران، وقد ذكرتها لأنها الجزء المهم من كل ما حصل معي منذ ستة أشهر مضت...

عند إتمامي الإدلاء بإفادتي المعدلة بحسب ما كانت تقتضيه تأرجح رقبتي التي كانت بوضع مبهم غير مستقر ما بين حياة جديدة أو موت زئام، باعتبار أن تلك الإفادة المنقحة والمدروسة بعناية كانت هي المفصل المهم الأكثر قلقًا من كل التحقيقات التي خضعت لها عندما كنت نزيل الزنازين بإيران، ولا أدري هل كان أولئك الضباط سيسمحوا لي بالجلوس وأنا أدلي بإفادتي كما حدث معي من غير إضافة أو حذف فيها لو أنني ذهبت إليهم مباشرة بأول دخولي للسليمانية لأسلم لهم نفسي كپيشمرگة وليس كمختطف.

على أية حال انتهى الموضوع على الشكل الذي رسمه لي أقاربي والخير بما اختاره الله، ولكي أنهي كل الموضوع طرحت بين أيدي ضباط الاستخبارات العسكرية العراقية ثلاث مستمسكات، اثنين منها حصلت عليها بالرضائية والثالثة أثناء تقديمي لاستقالتي لكاك نادر هورامي، ولكني أدعيت أنني قد حصلت عليها عندما كنت بمريوان، من أجل أن أدعم بها أقوالي لكي أتخلص منها بعد ذلك الأرق والهلع الذي سببته لي وأنا أحملها بجيبي منذ أن دخلت للسليمانية، ولا أدري ما الذي كان سيترتب علي لو أنني قد أُمسكت من قبل السلطات الأمنية وتلك المستمسكات بحوزتي، الجواب واضح لأني حينها كنت سأتهم بالتجسس لصالح إيران ضد بلدي العراق، وحينها لن تنفع ولا تتشفع لي أية حكاية أو رواية أقولها سواء كانت حقيقة أو ملفقة...

وبعد أن تفحص ضباط مديرية استخبارات الفرقة الرابعة لتلك الأوراق خاطبني أحدهم قائلاً:

– هل تعلم أنك كنت محظوظًا لأن تنجو من كل تلك المهالك التي تعرضت لها بإيران؟ وهي لا تقاس مثلاً لو أنك هربت من الجماعة التي اختطفتك لأنه ليس بالأمر الصعب جدًا، باعتباره حدث عادي يحصل ببعض الأحيان عندما يختطفوا أحدًا من السليمانية وبعدها بفترة يستطيع الخلاص منهم أو هم يطلقوا سراحه، في الوقت الذي لم نرَ أو نسمع بأحد قدر له أن يرجع من أقفاص الأسرى العراقيين بإيران، ليعود ويكلمنا عنها كما فعلت أنت.. فنظرت إليهم وقد بدت على ملامحهم الوضوح بتعاطفهم معي، باستثناء ذلك المسؤول الحزبي الذي لم يرفع عينيه عني المتشككة طوال فترة إدلائي بإفادتي.. فقلت لهم صادقًا بكل كلمة تفوهت بها لأنها خرجت من قلبي مباشرة:

– إن صراحتي في البوح بما قلته عن مشاهداتي بإيران هي نتيجة اعتقادي أن ذلك هو واجب علي بعد أن اختارني القدر رغمًا عني لأكون شاهد عيان لتلك الجرائم المنكرة التي يرتكبها الفرس بحق أسرانا هناك، وأنا لا أبالي بمن لن يصدقها (وكنت أقصد بذلك الكلام الرد على النظرات الخبيثة التي كان ذلك المسؤول الحزبي يرمقني بها) لأنه بالتأكيد ومهما كان شأنه فإنه لن يكون قادرًا على إرجاعي لتلك الزنازين البغيضة للإيرانيين بأقفاص الأسرى العراقيين، وما عدا هذا فالموضوع برمته لم يعد يهمني إلى أين ستنتهي نتائجه بعد أن وصلت سالمًا لوطني، وأرجو أن تسجلوا من فضلكم هذه الملاحظة بمحضر أقوالي التي دونت بإفادتي، كما أرجو ألا يساء فهم كلماتي هذه على أنها تحدي لكل من يطلع عليها، لأنها ببساطة شديدة هي عودة مواطن عراقي غيور رمت به الأقدار حيث لا يشتهي، فأبى أن ينزلق بمستنقع الخيانة على الرغم من كل المصاعب والضغوط التي واجهته، حتى بات أكثر صلابة وقاومها

وحيدًا بتلك الغربة، ولم يكن يمانع أن يتحالف مع الشيطان بعينه من أجل أن يعود ليعيش وسط أهله وأحبته من العراقيين، وأنا أقولها بصراحة تامة أنني بسبب الذي أطلعت عليه بإيران، وشاهدتها بأم عيني تقرع بطبول الحرب بكل زقاق وشارع ومدينة لتجيش الجيوش وتحتل العراق، فإنني أجد اليوم نفسي متمسكًا أكثر من أي وقت مضى بهذا الوطن العراقي، راجيًا ألا يزايد علي أحد من الذين سيعنيهم أمري وتقريرهم لمصيري، ومن ناحية أخرى بخصوص مشاهداتي البسيطة لما عايشته بأطراف السليمانية بتلك المناطق التي هي خارج سلطة الدولة؛ وانتشار المظاهر المسلحة فيها، فذلك باعتقادي موضوع آخر، لأنهم أولاً وأخيرًا عراقيون لهم وجهة نظر، مهما اختلفتم معهم فيها، لأنها بكل الأحوال مشاكل آنية غير مبنية على الحقد والبغض والكراهية، وهي مسألة بالإمكان تسويتها عبر الحوارات الجادة لأنهم شركاء في هذا الوطن الواحد، وهذا الأمر لن يكون جديد، فقد سبق أن حدث مرات عديدة، وبهذا فلا يمكن مقارنتهم بالفرس المتغطرسين والمتخندقين بالعنصرية الصفراء الذين يبغوا استباحة دمنا وعرضنا ووطننا سواءًا كنا عربًا أو كوردًا...

عند هذا الحد انتهى الحوار مع ضباط الاستخبارات الذين طلبوا من صاحبي محمد علي رستم أن يأخذني معه إلى بيته، ليرسلني لهم في الصباح من أجل تدوين أقوالي التي سمعوها مني بذلك المساء، مع رجائهم بتغييري للزي الكوردي الذي كنت أرتديه، فودعناهم واتجهنا بسيارته إلى بيت عمي كاك نجم الدين من أجل أن أقضي ليلتي عندهم وينصرف هو لبيته، وقبل أن أودعه اعترف لي أنه كان على خطأ عندما اقترح عدم ذكر الأحداث التي حصلت معي بإيران لأنه لم يكن يعلم بمدى أهمية تلك المعلومات التي ذكرتها عن أحوال الأسرى العراقيين بطهران..

وفي الصباح وعند بداية الدوام الرسمي، ارتديت ملابسي المدنية التي كنت قد تركتها في بيت عمي كاك نجم الدين بالعام الماضي، وقد وجدتها واسعة جدًا على مقاسي الجديد بسبب الهزال وخسارتي لحوالي العشرين كيلوجرام من وزني، وتوجهت وحدي إلى استعلامات دائرة الاستخبارات العسكرية، وهناك كان بانتظاري ذلك المسؤول الحزبي الذي أوكلت له مهمة تدوين إفادتي كما حكيتها لهم بالأمس ليكون هو المحقق المسؤول عن هذه القضية، فبدأنا بالتدوين من أول الحكاية وحتى نهايتها، وكان محققي الجديد يحذف من إفادتي ما يراه غير مهم، ويختصر الأخرى باعتبارها تفاصيل مطولة بالرغم من أهميتها أثناء إملاءه للكاتب الذي جلس إلى جوارنا حتى انتهينا من ذلك مع انتهاء الدوام الرسمي، وأصبحت لدينا أضبارة يحتاج كل من يرغب بالاطلاع عليها لساعتين من القراءة المتواصلة، وعندها سألته ما عسى أن تكون الخطوة التالية، قال لي:

- سوف أقدم إفادتك إلى مدير الاستخبارات الذي حتمًا سيحولك لوحدتك العسكرية بعد أن يرسل نسخًا منها إلى مديرية الاستخبارات الجوية ومديرية الاستخبارات العسكرية العامة، وباستطاعتك الآن العودة لبيت مضيفك محمد علي رستم، لتعود لنا غدًا صباحًا، فودعته على أمل اللقاء به في الصباح بعد أن وجدته قد غيَّر من أسلوبه المتشكك الاستفزازي معي الذي عاملني به بالأمس وأصبح متعاونًا ظاهريًا أو هكذا كان يبدو...

عند خروجي من دائرة الاستخبارات وجدت أن الوقت كان مبكرًا بالعودة لبيت عمي رحمه الله ونحن بوقت الظهيرة، فانتهزت الفرصة وتوجهت لزيارة قبر جدي الأكبر الحاج حسن أفندي بجامع قاميشان بوسط البلدة، ثم ذهبت بعدها لزيارة عمتي الحاجة التي تفاجأت بوجودي وانتابها بعض الذعر لأنها لم تكن تعلم برجوعي للسليمانية معتقدة أنني قد جئتها متخفيًا من أعين السلطات، ثم

توجهت بعد زيارة عمتي رحمها إلى بيت ابنها البكر الذي لم يكن له علم بأي شيء عني، وبعد كل هذا رجعت لبيت عمي رحمه الله بوقت الغروب، فوجدتهم كلهم بانتظاري لأن صاحبنا محمد علي رستم كان قد كلمهم تليفونيًا لعدة مرات لأتحضر للذهاب معه لدائرة الاستخبارات التي كانت قد طلبت منه إرجاعي لهم بناء على أمر مدير الاستخبارات الذي اطلع على إفادتي وأمر باحتجازي لديهم حتى يتم ترحيلي لوحدتي العسكرية، مخفورًا بصحبة حارس عن طريق دائرة الانضباط العسكري، وهذا يعني بالتأكيد أن حارسي العراقي سيضع القيد بيدي من جديد..

اتصلنا على الفور بمحمد علي رستم الذي حضر على عجل وأخذني إليهم، وهناك أودعوني بغرفة الحرس ثم أغلقوها علي وطلبوا مني أن أناديهم إذا ما احتجت إلى أية مساعدة، وهذا التصرف المنحاز لجانبي كان من أجل خاطر صاحبي الذي أخذني إليهم، لأنه من المفترض بالأحوال الطبيعية إيداعي بزنزانة سجنهم، فتقبلت الموضوع على أنه لا يعدو سوى تدابير أمنية كان المقصود منها خشيتهم على سلامتي من حدوث مفاجآت غير متوقعة لأني كنت بذمتهم من الناحية الرسمية..

وفي الصباح ناديت على الحارس من أجل أن أغتسل، فأخرجني أحد الحراس وسألني عن حاجتي، فقلت له:

- أنا جائع وبودي إرسال من يشتري لي الإفطار من أحد المطاعم قبالة مديريتكم.

فأخذني لاستعلامات المديرية وكان فيها اثنان من المراجعين اللذين جلسا سويًا بإحدى أركانها، وكانا شابين يرتديان الزي الكوردي، فأجلسني خفر الاستعلامات وذهب ليطلب من حرس البوابة تأمين حارس كي يصطحبني إلى

إحدى المطاعم القريبة قبالتهم بجوار فندق السلام، وبعد أن اختلى المرجعان بي بغرفة الاستعلامات، باغتني أحدهم وسألني باللغة الكوردية:

- كاك سرچل كيف حالك؟

عرفت على الفور أنها مكيدة مدبرة من ذلك المسؤول الحزبي للإيقاع بي، فأجبته على الفور بنبرة غاضبة:

- هل تعرف من أكون؟!

فلم ينطق بكلمة واكتفى بإشارته بيده صوب منطقة شهرباژير وكأنه كان يريد القول إنه يعرفني هناك أثناء تواجدي لما وراء جبل كويژه عندما كنت پيشمرگة، فأجبته بحزم:

- انظر يا هذا.. أنا كنت مختطفًا بتلك المنطقة التي تشير لها بيدك، والأفضل لك ألا تعرفني لأني بحاجة لبعض الشهود كي أثبت ذلك..

وعندها طأطأ برأسه أرضًا وكأنه قد تلقى لكمة على فمه، وانتهى الموضوع عند ذلك الحد وعاد بعدها خفر الاستعلامات بأحد الحراس من أجل مرافقتي إلى إحدى المطاعم القريبة، بعد أن أفسح المجال الكافي لذلك المراجع الذي تعمد أن يكلمني بغيابه، وعند رجوعي لدائرة الاستخبارات بعد أن تناولت إفطاري لم أجد أحد منهم جالسًا بغرفة الاستعلامات فتيقنت أن مهمتهم قد انتهت باعتبارهم وكلاء للاستخبارات، وقد تمَّ استدعائهم خصيصًا من أجل معاينتي إن كنت نفس الشخص الذي أخبروا عنه عندما كنت أتجول بطليعة المجموعة القتالية للحزب الديمقراطي وأنا بكامل سلاحي، وقد كنت محقًا باستنتاجي هذا لأنه لم يكن لأحد من كل أهل السليمانية بتلك الفترة أن يتجرأ ليسلم على أحد الموقوفين أثناء تواجده بأية دائرة أمنية، حتى لو كان ذلك الموقوف هو أخيه، ومن هذا يتضح السبب الذي استدعيت من أجله بالأمس من قبل دائرة الاستخبارت، لأنه حتمًا كان بقصد عرضي على نفر من وكلائهم للتأكد من أمر لم أفهمه ولا زلت أجهل

سببه حتى الآن، هذا لأنني كنت قد اعترفت لهم بكل شيء باستثناء كيفية خروجي من السليمانية والطريقة التي التحقت من خلالها بالمجاميع المسلحة للحزب الديمقراطي كپيشمرگة، وهذا الأمر يعجز عن كشفه جميع وكلائهم مهما كان عددهم لكي يثبتوا العكس وكما حصل فعلاً، فما بالكم بتلك التمثيلية الرخيصة والهزلية التي اعتمدوها لكي يعرفوا حقيقة أمري..

على أية حال فصدري كان واسعًا لهضم هكذا سلوكيات استخبارية هزيلة، وقد تناسيت ذلك الموضوع لأنه لن يقدم أو يؤخر بمجريات الأمور بشيء، مؤكدًا بنفس الوقت أهمية اعتماد مبدأ كنت ولا زلت متمسكًا به؛ وهو أن النجاة في الصدق، لأنه السلاح الوحيد الذي لن يعرضني للإحراج بكل الحالات الصعبة التي قد أتعرض لها..

ومرَّ ذلك النهار بسلام حتى جاء المساء وأنا لم أزل محتجزًا لديهم من غير أن أخضع لتحقيق ثاني، فناديت على الحارس لأطلب منه إبلاغ ضابط الخفر برغبتي في مواجهته، فطلب مني الانتظار ريثما يخبره بذلك، وعاد بعدها ليأخذني إليه، فوجدت أن ضابط الخفر هو نفس ذلك المسؤول الحزبي الذي طالما أرقني بشكوكه ودسائسه الرخيصة على الرغم من إخفائه المتعمد لها لكي لا تظهر بالعلن، لحسابات كنت أجهلها أيضًا، فقلت له بعد أن سلمت عليه أني أريد مكالمة صاحبهم كاك محمد علي رستم بالهاتف، فأجابني أنه لا مانع لديه من ذلك، فسألته أن يزودني برقم هاتف بيته، حينها أدعى أنه لا يعرف رقم هاتفه، فطرأت على بالي فكرة الاتصال ببيت عمي كاك نجم الدين، فوجدت نفسي قد نسيت رقم هاتف بيتهم، وعندها اضطررت أن أتصل بهاتف بيت عمتي الحاجة لأني كنت أتذكر رقم هاتفها من أجل أن تتصل هي بدورها ببيت ابن عمها كاك نجم الدين لأنهم على معرفة برقم هاتف صديقهم محمد علي

رستم الذي كنت أريد منه أن يتوسط لي ليطلب من رفاقه بمديرية الاستخبارات أن يعجلوا بإرسالي لوحدتي العسكرية... لهذا زودت ضابط الخفر برقم هاتف عمتي عندما طلبه مني واتصل بها وسلم عليها باللغة الكوردية التي يبدو أنه كان يجيدها، ثم ناولني سماعة الهاتف لأكلمها، وبدأت قولي لها باللغة العربية إنني موجود بدائرة الاستخبارات وأنا بأحسن حال، فقاطعتني وهي تردد بخوف وهلع الدعاء تلو الآخر ضد أولئك الذي اختطفوني، وهي تعلم جيدًا أن هذا الأمر كان مجرد فبركة ادعيتها وهو لم يحصل معي فعلاً، من غير أن تعطيني المجال لأن أكمل حديثي لاعتقادها أن دائرة الاستخبارات كانت تتصنت على تلك المكالمة، حتى نفذ صبري وقاطعتها قائلاً:

– نعم يا عمتي العزيزة لعنة الله على كل من تسبب لي بالأذى ولكن اسمعيني من فضلك..

فسكتت لبرهة، وقلت لها ما نويت أن أطلبه منها بخصوص ضرورة الاتصال ببيت ابن عمها كاك نجم الدين، لكي يرسلوا لي كاك محمد علي رستم لحاجتي له بخصوص موضوع شخصي.. وعند انتهاء المكالمة علق ذلك المسؤول الحزبي بابتسامة خبيثة صفراء على شاكلة المحققين الفرس الذين تبسموا لي أثناء تحقيقاتهم معي بإيران، قائلاً: يظهر أن عمتك تجيد اللغة العربية أيضًا؟ فلم أعلق على ما قاله بشيء وانصرفت لأرجع لغرفة احتجازي بعد أن شكرته على مضض.

وعند الصباح صدر كتاب ترحيلي لوحدتي العسكرية مخفورًا عن طريق دائرة الانضباط العسكري في السليمانية، التي استلمتني منهم وأودعتني السجن، الذي كان لا يقل قذارة عن أقفاص الأسرى العراقيين بطهران، فوجدت لي مطرحًا خاليًا من أرضه التي كانت أشبه ما تكون بأرض مرافق صحية بحي

شعبي، وعندها رميت بنفسي لأستلقي هروبًا من الهموم، التي كانت قد أثقلت على صدري من جديد، وسط ذلك الزحام الشديد للمساجين الذين هم عادة ما يسألوا أي نزيل جديد سؤال مفاده: ما الذي فعلته؟ ماهي تهمتك؟ فابتسمت ساخرًا من هذه الدنيا وتقلباتها العجيبة، واحترت بماذا أجيبهم لكي أشبع فضولهم، لأنه لم تعد لي رغبة بالكلام بعد سردي الطويل لفترة أربع ساعات متواصلة من الكلام لوقائع مؤلمة تخللها بعض ما يسمى بالكذب الأبيض أثناء الإفادة التي صرحت بها لضباط دائرة الاستخبارات العسكرية في السليمانية..

وأستطيع القول إني أثناء دخولي لهذا السجن كنت قد بدأت أول خطواتي برحلة أخرى من العذاب المركز بهذه المرة، وكأن كل تلك العذابات التي عشتها بإيران لم تكن كافية من أجل أن أتعلم الدرس الذي لم ولن أتعلمه حتى الآن، وهو الذي يدعوني بتغليب مصالحي الشخصية والعمل على أساسها بأي مصلحة سواء كانت وطنية أم قومية أو إنسانية، وهو الأمر الذي كنت ولا زلت أرفض ممارسته بشدة طوال حياتي وحتى الآن، لأن الرقيب الذي ما انفك يلازمني متربعًا بداخل ضميري وهو الحاضر على الدوام بشكل يقظ يتصدى بالمرصاد لكل شاردة وواردة بتفاصيل حياتي، وبتلك اللحظة بالذات سألت نفسي إن كنت قد ندمت على رجوعي للعراق لأنال هذا الجزاء، فجاءني الرد سريعًا بكل ثقة: هيهات أن أندم على أمر كان مقضيًا. وكان جواب ضميري مبنيًا بكل يقين أن ربي لن يتخلى عني بعد أن أوفيت له بعهدي وأنجزت ما كان يجب أن يفعله كل رجل يحترم نفسه ويوفي بكلمته.

وبعد قضائي ليلتين بذلك السجن الزريبة من غير مأكل أو مشرب، وهو أمر لم يكن جديدًا علي وقد تعودت عليه، نودي باسمي لأخرج ويستلمني مأمور من أحد جنودهم بغرض تسفيري إلى دائرة الانضباط العسكري بمحافظة كركوك،

وعندها وضعت القيود بمعصمي يداي من قبل ذلك الجندي الذي سيصطحبني، وكان من سكان محافظتي بغداد وكان شخص ودود للغاية كلمني بكل لطف واقتادني وكأننا كنا على معرفة مسبقة، الأمر الذي شجعني بعد أن وجدته متعاطفًا معي من غير أن يعرف أي شيئًا عني، سوى أنني من سكان نفس محافظته، فطلبت منه ونحن نتمشى بطرقات مدينة السليمانية بذلك الصباح الباكر، أن يسمح لي لنعرج على بيت أقاربي الذي كان على طريقنا من أجل إخبارهم بخروجي من السليمانية لكي يخبروا أهلي في بغداد عن تسفيري لكركوك، فوافق الرجل على الفور واتجهنا إلى بيت عمي كاك نجم الدين لكي أوصل لهم رسالتي هذه عند باب بيتهم ثم نمضي لكركوك، فاستقبلونا هناك بكل رحابة بسبب قلقهم الذي تزايد خلال اليومين الماضيين نتيجة انقطاع أخباري عنهم، وأصروا على دخولنا لبيتهم ليقدموا لنا طعام الإفطار.

بعد جلوسنا بصالة الضيوف سألتهم عن السبب الذي جعل صديقهم محمد علي رستم يتخلى عني ولا يأتي لزيارتي بعد أن طلبت ذلك من عمتي تليفونيًا عندما كنت محتجزًا بدائرة الاستخبارات، من أجل أن توصل رسالتي له من خلال الاتصال بكم لأني نسيت رقم هاتف بيتكم، ولذلك كنت مجبرًا بتكليفها بهذا الأمر، فقالوا بدهشة: لم تتصل بنا عمتك على الإطلاق بخصوص أي موضوع، فتعجبت لذلك لأنها لو اتصلت بهم فبالتأكيد لن يكون هناك من يتنصت على مكالمتها لهم كما كانت تخشى ذلك عندما اتصلت بها، وبالتالي لم يكن هناك ضرر قد يلحق بها وهي ختيارة نساء السليمانية.

بعد تناولنا السريع لطعام الإفطار غادرناهم متوجهين إلى كراج النقليات لغرض السفر إلى محافظة كركوك بعد أن طلبت منهم بإلحاح الاتصال بأهلي تليفونيًا من أجل إخبارهم أني قد تمَّ ترحيلي إلى كركوك، وما حصل مع عمتي قد حصل معهم أيضًا ولم يتصلوا بأهلي في بغداد، وأنا أعذرهم لأن سلطة الدولة كان لها

بطش شديد لا يرحم كل من كان يخفي عنها أية معلومات أمنية، وأغلب الناس كانوا يتحاشون الوقوع به خشية الأذى، باستثنائي لأني رميت نفسي به عن سابق إصرار، وذلك عندما لم أستمع لكل النصائح التي قدمت لي أن أتحاشى ذكر ما حصل معي بإيران، وأصريت على ذكره عن عمد وسابق إصرار بعد أن تعهدت بتقبل أية نتائج قد تسفر عن ذلك الإصرار..

وصلنا إلى كركوك ظهرًا وكالعادة تمَّ استلامي من قبل إدارة دائرة الانضباط العسكري هناك، وودعني ذلك الجندي الذي اصطحبني من السليمانية لكركوك وعاملني أثنائها بكل ود واحترام على طول الطريق لما كان له من أخلاق راقية، وعندها أودعني سجاني الجديد الذي كان برتبة نائب عريف وهو شخص مشاكس بشكل ملفت للنظر، بزنزانة السجن الخاصة بالتسفيرات بشكل مهين، بعد أن تجاهل متعمدًا أنني كنت برتبة نائب ضابط، وذلك أمر كان يتوجب عليه مراعاته باعتباري كنت أعلى منه بالرتبة وعدد سنين الخدمة بالجيش العراقي، وأثنائها خرجت بشكل لا إرادي عن صبري الذي عاهدت نفسي على توخيه، حتى وصلت لدرجة من الغضب كنت فيها على وشك تسديد لكمة أكسر بها أسنانه، لولا تدخل مراقب السجن الذي كان بمثل رتبتي من أجل تهدئة روعي بعد أن اعتذر مني على تصرف ذلك السجان الأرعن، وكالعادة وجدت تلك الزنزانة لا تختلف عن سابقتها بالقذارة، فاخترت لي مجلسًا بإحدى الفسحات الخالية من المساجين الذين كانوا قد افترشوا أرض الزنزانة، التي اسود لونها بسبب تراكم الأوساخ عليها، وكالعادة سألني المساجين بأول جلوسي: ما الذي فعلته؟ ما هي تهمتك؟ فترجيتهم قائلاً: دعوني وشأني من فضلكم، وانشغلوا بما أنتم فيه عسى الله أن يفرج عنا همومنا جميعًا، فتركوني لشأني ورجعت مرة أخرى لأخلد لذاتي المكتوية بنيران صلابتي وعنادي الذي لم أعرف حينها إلى أين سيوصلني..



في اليوم التالي أخرجوني من الزنزانة ووضعوا القيود بيديّ، واستلمني منهم مأموري الجديد فتصورت أنه سيأخذني لبغداد، ولكني تفاجأت أن وجهتنا كانت إلى مديرية استخبارت الفيلق الأول التي كانت مختصة بأمن المنطقة الشمالية للمحافظات، التي هي ضمن منطقة الحكم الذاتي لكوردستان العراق، كما أنها كانت تعتبر المرجعية العليا لاستخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية، وعندها انتابني القلق وخشيت من أنني قد أخضع للتحقيق عندهم بعد تلك الدسائس التي عملها ضدي ذلك المسؤول الحزبي في السليمانية، باحتمال حصوله على معلومات جديدة مدعومة بالشهود من بعض وكلائهم وأعوانهم، من أجل أن يبطل مزاعمي التي ذكرتها بإفادتي الأولية، ومنها أقوالي بخصوص اختطافي المزعوم، وعند وصولنا إليهم سلمهم المأمور الذي كان يصطحبني كتابًا رسميًا، وهذا يعني أنني قد انتقلت لأصبح ضمن مسؤوليتهم، فمكثنا ننتظر بغرفة الاستعلامات، وجلس الجندي المأمور على كرسي كان شاغر هناك، وجلست أنا على الأرض والقيود بيدي لأني لم أجد أي مكان أجلس عليه، وقد تملكني حينها القلق الذي أرهق فكري وأنا أقلب الأمور على كل أوجهها لكي أتحضر لأية مفاجأة غير متوقعة.

بعد فترة انتظار عصيبة دامت لساعة من الزمن؛ خرج علينا أحد منتسبي تلك الدائرة الاستخبارية ليسأل عني بالاسم، فأشار الجندي المأمور بيده إلي قائلاً هذا هو، من غير أن يحزر السبب وراء ذلك السؤال، فتقدم مني ذلك الشخص ليصافحني ويهنئني بسلامة الوصول للوطن، فشكرته قائلاً:

– بارك الله والعراق بك وبأمثالك.

– لقد جئتك بشكل خاص بعد أن اطلعت على أوراقك من أجل أن أرى ذلك البطل الذي انتصر لوطنه ولم يهب المصاعب، فهل تأمرني بشيء أقضيه لك؟

- بودي أن أعلم متى سأكون قادرًا للقاء أهلي؟

- أعتقد أن ذلك سيكون يسيرًا عندما تصل لدائرة الانضباط العسكري بمقرها العام ببغداد، لأنك حتمًا ستمكث هناك ليومين أو ثلاث قبل أن تسفر إلى وحدتك العسكرية..

بعدها التفت للجندي المأمور الذي لم يجد تفسير لما شاهدته عيناه وسمعته أذانه، قائلاً له:

- لماذا أجلست هذا البطل على الأرض؟

فتلعثم المأمور ولم يعرف بماذا يجيبه بعد أن أصابه الذهول من تلك المعاملة الحسنة لي، وقبل أن يغادرنا ذلك الرجل الاستخباري الشهم شدد على مأموري أن يحسنوا معاملتي ويؤمنوا تسفري لبغداد بأقرب وقت ممكن..

بعد قليل جاءنا من يسلمنا كتابًا رسميًا، فاستلمه مأموري واصطحبني لكي نعود من حيث جئنا دون أن يتجرأ ويسألني أثناء الطريق كما هي عادتهم عن موضوعي، واكتفى أن يعاملني بشكل حسن ومرضي، وعندها أطمئن بالي أن أوراقي التحقيقية كانت سليمة ولم تطرأ عليها أية مستجدات من شأنها أن تضر بي، وتلك إشارة كنت أحتاجها من أجل الثبات على أقوالي بإفادتي الأولى، باحتمال مواجهة أية أساليب تحقيقية ضاغطة تنتظرني بالتحقيقات القادمة إن حصلت، بعد أن أصبح مؤكدًا أنني سأذهب لوحدتي العسكرية وليس لأي جهة استخبارية أخرى من شأنها أن تحقق معي من جديد، وقد كنت واهمًا جدًا بهذا الاستنتاج، وذلك ما كشفته لي الأيام القادمة..

في اليوم التالي من وجودي بدائرة انضباط كركوك؛ تمَّ تسفيري بحافلة كبيرة مع حشد كبير من الجنود الذين تمَّ إلقاء القبض عليهم على أثر هروبهم من الخدمة العسكرية الإلزامية، إلى أمرية الانضباط العسكري بمقرها العام في

بغداد، وقد كان موقعها بتلك الفترة قريبًا من محل سكناي بمنطقة بغداد الجديدة، وعند وصولنا إليها أودعونا جميعًا بقاعة سجن كانت مليئة بالمساجين بمختلف أنواعهم، ولم أجد هناك حتى مكانًا صغيرًا من أجل أن أجلس فيه، لأن الجميع كان واقفًا بعد أن ضاقت بهم تلك القاعة الكبيرة، وشاءت الصدفة أن أقف إلى جانب أحد الشباب اليافعين، الذي تعرفت عليه وعلمت منه أنه قد قبض عليه لأنه لم يكن يحمل أية أوراق تثبت أنه كان دون السن القانوني الذي بموجبه يخضع للخدمة العسكرية الإلزامية، كما علمت أيضًا أنه يسكن بنفس منطقة سكناي، وأن أخاه سيأتي إليه ببطاقة الهوية الشخصية بظرف ساعة من الزمن، وعندها سيطلق سراحه في الحال بكل تأكيد، فكانت فرصة ثمينة لي وترجيته بعد أن عرفته بنفسي طالبًا منه أن يتصل هاتفيًا بأهلي بعد أن زودته برقم هاتفهم الذي بالكاد تذكرته نتيجة الهول الذي مررت به، ليخبرهم بمكاني لأنهم على أحر من الجمر بانتظار وصولي لبغداد، فلم يمانع ووعدني أنه سيفعل ذلك بأول وصوله لبيته..

وقد تمَّ فعلاً إطلاق سراحه بعد قليل، ومكثت بمكاني واقفًا وسط ذلك الجمع الحاشد من الناس الذين سرعان ما أعياهم الإرهاق والتعب وانطرحوا أرضًا بعضهم فوق بعض وكأنهم قتلى، وكنت المستيقظ الوحيد بينهم بعد أن دخلنا بفترة الليل، وأثنائها فتحت باب الزنزانة ودخل منها شخص كان يرتدي البزة العسكرية الخاصة بمنتسبي الانضباط العسكري، وأخذ يتطلع لوجوه المساجين ولم ينتبه لوجودي لأني كنت بعيدًا عنه لكبر حجم تلك القاعة، وقد عرفته على الفور لأنه كان صديقي الحميم منذ أيام الطفولة، وهو الوحيد الذي كان يعرف بأمر هروبي دونًا عن باقي أصدقائي، وقد ودعته في الليلة التي سبقت رحيلي عن بغداد، وقد تمَّ استدعائه للخدمة العسكرية الإلزامية وعمل ضمن دائرة الانضباط العسكري، وعندها تيقنت أن ذلك الفتى اليافع قد أوفى بعهده لي

واتصل بأهلي ليخبرهم بمكاني، ومن المؤكد أنهم قد استنجدوا بصديقي الحميم الذي لا يبعد بيته عن بيتنا سوى عشرات الأمتار، لعلمهم أنه الوحيد القادر أن يصلني بذلك الوقت المتأخر من الليل، وبذلك كان ذلك الصديق الحميم هو أخر من ودعني عندما غادرت، وأول من استقبلني عندما عدت لبغداد.

والحقيقة أنني استعرضت كل تلك الأفكار بجزء من الثانية، وأنا أرى صديقي يبحث عني بين الركام البشري النائم على أرضية تلك القاعة الكبيرة وهو يتفحص وجوه تلك الأجساد، من غير أن يخطر على باله أنني كنت ذلك الشخص الذي يشق طريقه بصعوبة ليدنو منه، على الرغم من معرفته الوثيقة لي، لأن شكلي كان قد تغير كليًا جراء النحافة الشديدة وتلك الشوارب الطويلة، حتى ناديته بصوت منخفض من أجل أن أراعي عدم إزعاج تلك الجموع المنهكة، فالتفت إلي ليعانقني ويخرج بي مسرعًا من قبر الأحياء الذي كنت فيه، وهناك وجدت أخي الأكبر رحمه الله بزيه العسكري بانتظاري بخارج تلك الزنزانة، وقد تعجب هو الآخر من الحال الذي كنت عليه.

وبعدها جلسنا نحن الثلاثة بالخارج لأحكي لهم على انفراد ما دار معي باستخبارات السليمانية وما قلته بإفادتي هناك، وعندها نبهني صديقي الحميم أن أمتنع عن ذكر تلك الأمور لأي شخص أصادفه من منتسبي تلك الدائرة العسكرية، من أجل أن يتسنى له من غير أن يُحرج أن يكون هو مأموري الذي سيرافقني إلى وحدتي البعيدة عند الحدود الأردنية، وذلك يعني أني سأكون قادرًا على زيارة أهلي في بيتنا، من غير أن توضع القيود الإجبارية بمعصمي طول الفترة التي ستعقب خروجنا من تلك الدائرة وحتى وصولنا لوحدتي العسكرية بصحبة مأموري الجديد الذي هو بنفس الوقت كان صديقي الحميم..

بعد ذلك الاجتماع الخاص الذي جمعني بأخي الأكبر لؤي النورسي، استسمحني صديقي الحميم أن يأخذني إلى إحدى الزنزانات المخصصة لعقوبة المخالفين من منتسبي أمرية الانضباط العسكري، وهناك أوصى من بداخلها من مساجين كان يعرفهم بأن يعاملوني بشكل حسن باعتباري ابن خالته، وقد كانت تلك الزنزانة بالقياس لما سبقها من زنازين كنت قد دخلتها في الأيام القليلة الماضية، تعتبر دار استراحة وليست مكانًا لقضاء عقوبة، ولم يتركني صديقي الحميم حتى آمن لي المأكل والمشرب والأغطية النظيفة، وذهب بعدها على أمل أن يراجعني بين الحين والآخر، متوعدًا أن يبذل قصارى جهده من أجل أن يكون هو مأموري الذي سيرافقني حتى وحدتي العسكرية..

بعد يومين تمَّ له ما وعدني به واصطحبني لنخرج من ذلك المكان، فذهبنا سويًا لبيتي وتركني عند أهلي ليذهب هو لبيته أيضًا، على أن نلتقي بعد ساعتين من الزمن أتمكن خلالها من إبلاغ أهلي بما جرى معي، ومن بعدها أغتسل وأغير ملابسي التي سكنها القمل بخلال أيام، ثم لنبدأ رحلتنا الطويلة إلى وحدتي العسكرية التي تبعد مسافة أربعمائة كيلومتر عن بغداد، وتستغرق عشرة ساعات من السفر باتجاه الغرب مرورًا بمحافظة الأنبار عندما نبدأ بقضاء الفلوجة ثم بمدينة الرمادي ثم بقضاء الرطبة ثم إلى قاعدة الوليد الجوية القريبة من الحدود الأردنية..

وقد كانت فرحتي لا توصف عند دخولي لبيتي من جديد، ولم ينغصها سوى هاجسي بالخشية لما كان ينتظرني من متاعب، لأني كنت واثقًا أن هذا الأمر لن ينتهي بهذه البساطة، لأن كل المؤشرات كانت توحي أني سأدفع الثمن غاليًا، وتمنيت حينها لو أن السلطات الأمنية المعنية بموضوعي تمهلني بعض الوقت، ولو لفترة بسيطة من الزمن أسترد من خلالها عافيتي وأستجمع بها أنفاسي،

لأبدأ بعدها أي مشوار وتحت أي سقف زمني يحددونه للتحقيق معي، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يناله..

وأثناء وجودي ببيتي استغرب أهلي ما آلت إليه أحوالي بسبب اعتقادهم أني عند ذهابي مع محمد علي رستم لتقديم إفادتي طوعيًا سينتهي الأمر عند ذلك الحد، وسأكون بعدها طليقًا لكي أذهب بنفسي وألتحق بوحدتي العسكرية بعد أن أمر بهم ببغداد، وذلك ما كانوا ينتظروه كل يوم على أمل أنني سأطرق بابهم بأية لحظة من انتظارهم لي، وعندها استغربت لما سمعته منهم وسألتهم إن كان بيت عمي في السليمانية قد اتصلوا بهم ليخبروهم بأمر ترحيلي مخفورًا من السليمانية لكركوك، فأجابوا بالنفي لأن ذلك لم يحصل ولم يكلمهم أي شخص من كل أقاربنا في السليمانية، فتعجبت للمرة الثانية بعد أن فعلتها عمتي عندما لم تتصل للإخبار عن مكاني عندما كنت بدائرة الاستخبارات في السليمانية، ولكن عندما يُعرف السبب يزول العجب، فالاثنين وعلى الرغم من قرابتي الحميمة لهم امتنعوا عن الكلام بموضوعي هاتفيًا على الرغم من تعاطفهم الشديد معي، لخشيتهم من سياسات سلطة الدولة التي كانت تطلق العنان لأجهزتها الأمنية بعد أن خولتها كامل الصلاحيات أن تقمع مواطنيها وتبحث بخفايا أمورهم الحياتية البسيطة بحثًا عن أية معلومة قد تجعلهم يمسكوا بأي خيط قد يوصلهم لكشف أية توجهات مخالفة لهم أو معترضة إياهم أو مستاءة منهم أو متأمرة عليهم، وبالتالي فإنها تتهم مطلقي تلك التوجهات بشتى التهم، ومن ثم تعاقبهم بكل قسوة بعد أن تذيقهم أمر العذابات، ليموت بعضهم وليسجن الآخرين ويطلق سراح من بقي منهم، لينقل تجربته لأهله وللمقربين منه من أجل ألا يحذو حذوه، وبالتالي كان يجب عليهم تكميم أفواههم بعد أن يطلقوا العنان لأكفهم للتصفيف على مدار السنة لسبب أو بدونه من أجل ألا تشك السلطة بوطنيتهم وولائهم لها، باعتباره كان مقياسًا مضمون النتائج.

والحقيقة أن السلطة كانت واهمة من خلال اعتمادها لذلك النهج وما حدث عند الاحتلال الأمريكي خير برهان، لأن كل أولئك الصفاقة قد صفقوا بكل حرارة مرة أخرى للحاكم المدني الأمريكي المدعو بول بريمر، ولكل من تلاه ليحكم العراق بالنيابة عن أمريكا وإيران.. تلك كانت الصورة آنذاك وهو أمر يؤسفني أن أعترف به بهذا الظرف العصيب من تاريخ العراق بسبب الاحتلال الأمريكي وما أسفر عنه، باحتمال أن يكون جزء من أولئك الذين عملوا على كتم أنفاس الناس بذلك الوقت قد قاتلوا وقاوموا الاحتلال الأمريكي وأذنابه الآن.

ولذلك أجد نفسي محرجًا بسرد تلك الوقائع التي سآتي على ذكرها تفصيليًا بمرحلة لاحقة من رحلتي هذه، ذلك لأني كنت قد تعهدت بمقدمتي أن أكون أمينًا وموضوعيًا باستعراضي لمجريات الأمور من حولي أينما كنت متواجدًا على طول رحلتي مع العذاب، ومن أجل ذلك ولكي أكون منصفًا لا بد لي أن أذكر أيضًا أن تلك الأجهزة الأمنية للسلطة لم تكن تتعرض أو تعمل على قمع أي مواطن ليس له رأي أو توجه بأي شأن سياسي مخالف لهم، باعتباره يعمل على التأييد الدائم والمطلق لحزب البعث الحاكم، من خلال إطلاق العنان لكفيه بالتصفيق والهتاف وحتى إلقاء الأشعار بمناسبة أو بدون مناسبة، ناهيك عن الأهازيج في المناسبات الوطنية، ولا يفوتني أن أذكر أن أولئك هم من أوصلوا العراق إلى الهاوية التي هي فيها الآن، لأن رأس الدولة كان يستحسن ويصدق مطلقي تلك الهتافات الجوفاء التي كانت تتعهد أن تفديه بأرواحهم ودمائهم، وأخذ يناطح الدول الاستعمارية العظمى عندما تعرض لمصالحها أثناء غزوه للكويت، معتمدًا على تأييد أولئك المنافقين الذين أبدو الحماسة بالتصفيق له، في الوقت الذي وجد المتعقلين منا أنفسهم مذهولين من تلك المغامرة غير المحسوبة العواقب، خشية منهم على مستقبل العراق، وعندما حانت الساعة التي حاصره فيها المحتلين انفضوا من حوله وأصبح مكشوفًا ووحيدًا ووقع بيد

الأمريكان، ومن ثم اغتيل على يد أذنابهم بعد مسرحية محاكمة بائسة، لتطهره من ذنوبه التي اقترفها وأخطائه التي أوقعنا فيها، ويغادرنا ليصبح بذمة التاريخ الذي سيحكم عليه بالسلب أو بالإيجاب شئنا أم أبينا.

وباعتقادي الشخصي أن التاريخ سيكتب عنه بعد مئة عام مثلاً سطرين لا أكثر، وذلك أنه قد قاوم وتصدى للغزو الأمريكي لبلاده حتى ألقي القبض عليه وأعدم على يد الحكومة العميلة التي عينوها بديلاً عنهم، من غير أن يذكر باقي التفاصيل التي عشناها وعرفناها عن طريقة حكمه للعراق لأنها ستسقط مع تقادم الزمن ليبقى فقط العنوان الرئيسي لذلك الحدث الذي انتهت به حياته كعنوان بارز له، وذلك ما قرأناه من خلال اطلاعنا على تاريخ باقي الأمم السابقة...

ورجوعًا لموضوعنا بعد أن ذهبنا بعيدًا، وغصنا بعمق بوصفنا وموقفنا لتلك المرحلة غير البعيدة من تاريخ العراق، فإنني قد انتهزت فترة تواجدي القصير في بيتي، فاستحممت وحلقت تلك الشوارب الطويلة التي جعلتني أبدو وكأنني شخص آخر لكل من كان يعرفني، وبذلك رجعت لشكلي الطبيعي، وكذلك ارتديت من الملابس الشتوية ما كان يناسب المناخ البارد، وكنا بنهاية الشهر الأول من عام ١٩٨٣، حتى جاء صديقي الذي هو مأموري الجديد لننطلق بطريقنا الطويل، وقد أصر أخي لؤي رحمه الله على مرافقتنا، فذهبنا سويًا وكنت على طول الطريق أحكي لهم ما شاهدته بإيران وعشته بقفص الأسرى العراقيين بطهران بالتحديد، وكان أخي منصتًا بشغف لكل كلمة قلتها بخصوص فترة تواجدي مع الأسرى هناك، من أجل أن يشحذ طاقاته لقتال الفرس أصحاب مشروع تصدير ثورتهم للعراق، وذلك ما توعد به لأنه حينها كان من مقاتلي صنف الدروع في القاطع الأوسط للعمليات العسكرية الذي كان يتواجد على خط جبهة القتال على الحدود، قبالة مدينة العمارة بمحافظة مسيان، وبالتالي كان

يهمه أن يعرف ماذا يحصل للجندي العراقي عدما يقع أسيرًا بيد الإيرانيين وحتى وصوله إلى قفص تسفيرات الأسرى بمعسكر دوزبان مركز الذي كنت متواجدًا فيه، هذا إن كتب لذلك الجندي الأسير النجاة ليصل طهران وهو حي يرزق..

أما صاحبي وصديقي الحميم فلم يبدُ عليه أنه كان مهتمًا لذلك الحديث، فغيرت حديثي عن إيران واستعرضت وإياه ذكرياتنا الجميلة التي عشناها سويًا على مدى شهر كامل أثناء سفرتنا السياحية إلى كل من تركيا وبلغاريا وهنكاريا بعام ١٩٧٨، عندما حصلت على إجازة سنوية أقضيها خارج العراق لغرض الراحة والاستجمام عن طريق وحدتي العسكرية، التي لم تمانع ورفعت طلبي للجهات المعنية بذلك، لأن سفر العسكريين من المتطوعين كان قد سمح به بتلك السنة لكل من يرغب بالسفر خارج العراق بهذه الغاية وقد أغلق بعدها بعامين، من غير مراعاة أن يكون صاحب الطلب بعثيًا أو مستقلاً، بعكس الدورات الفنية التي كانت تبعث إلى الدول الاشتراكية حينها، ويراعى فيها أن يكون المنتسب الفني منتظمًا بصفوف حزب البعث الحاكم كشرط أساسي لأي مرشح تتوفر فيه الشروط الفنية والمهنية التي كنت أتمتع بها، بل كنت متفوقًا بها على كل أقراني الذين بعثوا بتلك الدورات التدريبة المهنية للأجهزة الميكانيكية الحديثة، التي تعاقدت على شرائها القوة الجوية العراقية، وعليه فقد خيروني لمرات عديدة ما بين أن أنضم لحزب البعث لأكون ضمن تلك البعثات، أو أبقى مستقلاً وبالتالي سأستبعد منها حتمًا، ولأني لم أقبل على نفسي أن أباع أو أشترى كأي سلعة رخيصة فقد بقيت مستقلاً، وكنت سعيدًا بذلك ولم أشعر بالغبن والإقصاء...

بعد أن كسرنا الملل بجلوسنا من خلال تلك الأحاديث على مدى ذلك الطريق الطويل بالصحراء، وصلنا إلى مشارف قاعدة الوليد الجوية حيث تكمن وحدتي

التي كانت تدعى بالجناح الفني، فنزلنا عند بوابة استعلامات القاعدة التي تبعد مسافة خمسة كيلومترات عن تواجد مختلف وحداتها المختلفة الواجبات، وجدنا عناصر أمن القاعدة بانتظارنا من أجل وصولي الذي كانوا يتوقعونه بكل يوم، من أجل إرسالي إلى ضابط أمن القاعدة الذي كان قد شدد عليهم بتعليماته لهم بضرورة مواجهتي فور وصولي للقاعدة، ومن ذلك علمت وتأكدت أن نسخة من إفادتي التي أدليت بها في السليمانية قد وصلت إليهم بريديًا عن طريق مديرية الاستخبارات الجوية ببغداد، فذهبت لمواجهته بصحبة صديقي المأمور وعدد من أفراد أمن القاعدة، بعد أن منعوا أخي المرحوم لؤي أن يأتي معنا إلى داخل القاعدة، باعتباره شخصًا مدنيًا ولا يجوز له دخول القاعدة، وعندما أبرز لهم هويته العسكرية وافقوا على دخوله معنا.

عند وصولنا إلى مكتب ضابط استخبارات القاعدة، طلب الحديث مع أخي لؤي ليستفسر منه عن موضوعي وتلك طريقة استخبارية ذكية كانت بغرض الحصول منه على معلومة قد تفيدهم عندما تتناقض وما قلته بإفادتي، ومن ناحية أخي لؤي فإنه تحمس بالدخول لضابط الاستخبارات لاعتقاده أن أمري منوطًا بما سيقرره ذلك الضابط بحقي، وأن باستطاعته استمالة رأيه لصالحي، وقد كان واهمًا لأن الأمر كان أكبر من ذلك بكثير، وذلك ما استنتجته من حديث ضابط الأمن لي عندما دخلت إليه، وقد عرفته على الفور لأنه كان أحد المهندسين الفاشلين الذي أمتهن الأمور الأمنية وتخلى عن شهادته الهندسية، وعندها قال لي باستهزاء:

– لو أن كل فرد من هذه القاعدة عاد إلينا بعد هروبه بتأليف قصة خيالية كهذه، لكنا قد خسرناهم جميعًا وتوقفنا عن العمل، فهل أنت واعي لما قلته بهذه الإفادة؟! وهل أنت فعلاً بكامل قواك العقلية لتصرح بمثل هذه الأقوال الخطيرة؟!

فلم أجبه على الفور لأنه قد فاجأني بقوله إنها قصة خيالية، مع تشكيكه بقدراتي العقلية حتى بات واضحًا أن الموضوع كان أكبر من أن يتحمله عقله، لأنه دخيل على مهنة الأمن والاستخبارات إلى درجة قادته أن يذهب باعتقاده إلى أني قد أدخلت نفسي بورطة ستجعله يخسرني كمنتسب، وتلك إشارة أني ذاهب بمشوار صعب لن أستطيع الخلاص منه وأرجع لوظيفتي مرة أخرى.. فقلت له كلامًا قاسيًا تخليت من خلاله عن الانضباط الذي يتوجب علي مراعاته بالظروف الاعتيادية للحياة العسكرية:

- أول شيء أريد قوله لك هو إنك واهم عندما تعتقد أني كنت هاربًا، ثم مع احترامي الشديد لرأيك فإن عدم تصديقك لأقوالي المدونة بإفادتي لا يعني بالضرورة أنها غير واقعية ولم تحدث فعلاً، لأنها خارج نطاق اختصاصك فهي أكبر بكثير من تلك الأمور الأمنية التي تزاولها بعملك اليومي كضابط أمن للقاعدة. (وكنت أقصد بذلك أمور المشاغبات التي تحدث بين منتسبي القاعدة، من قيل وقال وما إلى ذلك من أقاويل تافهة يرفعها له وكلاء الأمن على شكل تقارير حزبية بغرض الوشاية الكاذبة، وكان لي منها النصيب الكثير لما رفع عن لساني في السابق)، وتابعت:

- وللأمانة أقول لك إنني غير مهتم بمن سيصدق أو لا يصدق أقوالي هذه لاعتقادي أن وصولي للعراق كان نصرًا لي، لأني سأوصل الرسالة التي تحكي معاناة أسرانا العراقيين بإيران، وهذا وحده أمر يهمني كثيرًا..

فقاطعني بغباء شديد قائلاً:

- أعطني الرسالة التي تريد توصيلها لكي أطلع عليها!

وبقوله لتلك العبارة لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك، وقلت له:

- إنها مدونة أمامك بإفادتي التي تعتبرها خيالية، وهي مدعومة بمستمسكات حصلت عليها، مكنتني من الرجوع للعراق.. ويبدو أن استخبارات السليمانية لم

ترفق صورة منها لمنظومة الأمن بوحدتي العسكرية، وأفترض أن مرجعيته مديرية الاستخبارات الجوية ليس لديها صورة من تلك المستمسكات أيضًا، ومن المؤكد أنها قد أرسلت لمديرية الاستخبارات العسكرية العامة في بغداد مع النسخة الأصلية من إفادتي..

فقال بخجل من أجل أن يغير وجهة حديثنا بعد أن فشل أن ينال من عزيمتي، وكأني متهم بسيط مثلت أمامه نتيجة وشاية من مغرض رخيص بداخل القاعدة:
- ولكنك تأخرت كثيرًا بالوصول إلينا، وبكل يوم تصلني برقية تلو الأخرى من مديرية الاستخبارات الجوية التي تريدك أن تمثل أمامها بأسرع وقت..

- أنت تعلم أن الأمر لم يكن بيدي لأني جئتكم مخفورًا..

- سأتحفظ عليك حتى صباح الغد وأنا مضطر لإيداعك في سجن القاعدة، وأرجو منك أن تلزم الصمت ولا تخبر أحد هناك بهذا الموضوع خلال هذه الليلة.

وبذلك بات واضحًا أنه سيحولني إلى مرجعيته الاستخبارية بصباح الغد، فقلت له:

- لك ذلك، وأنا متشوق لمناقشة هذا الموضوع مع أية جهة تحقيقية مختصة عندما أمثل أمامها..

عند هذا الحد انتهت تلك المقابلة وخرجت والرجل ينظر لي بأسى وكأني ذاهب إلى حتفي، وبالخارج لم أجد أخي المرحوم لؤي ولا صديقي الحميم، لأن أفراد الأمن كانوا قد اصطحبوهم أثناء رجوعهم لاستعلامات القاعدة، وقد علمت لاحقًا من أخي لؤي عما دار بينه وبين ذلك الضابط من حوار، فعندما دخل عليه أخي ببادئ الأمر وجد نفسه أمام كم هائل من الأسئلة عن موضوعي، وهذا خلافًا للسبب الذي دخل من أجله بغرض استمالة ذلك الضابط نحونا كما توهم،

وعندها لم يصرح له بشيء مدعيًا أنه لم يكن بصحبتي أثناء رحلتي مع العذاب، وقرر أن ينسحب ويتركه لي لأني أولى وأقدر على مناقشة تلك التفاصيل لأني عشتها وهي تخصني وحدي، فقال له بكلمة مختصرة:

- إن أخي في الخارج وتستطيع أن تسأله لأنني لم أكن معه أسيرًا بطهران..

وعليه دخلت إلى سجن القاعدة بتلك الليلة، والطريف في الأمر أنني وجدت هناك البعض من الذين كنت أعمل معهم ومنهم صديق لي يدعى حسين رشيد، وكانت علاقتي به تمتد منذ فترة سابقة بقاعدة الرشيد الجوية ببغداد، فرحبوا بي وأجلسوني وسطهم وهم متعجبين من الهزال الذي كنت عليه وهم يعرفون أني كنت رياضي مفتول العضلات، وسألوني السؤال الأزلي المعتاد بكل السجون:

- ماذا فعلت؟ وماهي تهمتك؟

- اعذروني من البوح بأي شيء وستعلموا ذلك في الوقت المناسب عندما أعود لكم بعد التحقيق الذي سأدخله غدًا ببغداد.

كان جوابي لهم غير مرضي ولم يشبع فضولهم، فألحوا علي أن أخبرهم فقط بنوع التهمة الموجهة لي وهم سيستنتجوا الباقي، فقلت:

- أقسم أنني غير متهم حتى الآن بأية تهمة..

فاحتاروا أكثر وزاد إلحاحهم علي أكثر بحكم زمالة العمل التي كانت تجمعني وإياهم.. فقلت:

- حسنًا سأذكر لكم الجهة التي قدمت منها، فهل هذا يكفي وتكفوا عني من غير أن تطالبوني بالتفاصيل؟

- نعم نعدك أننا سنكتفي..

- أنا كنت نزيل زنزانة الأسرى العراقيين في طهران، وقد تمكنت من الخروج والعودة للعراق..

ولأنهم يعرفون أني جاد بأي كلام أقوله؛ فقد أصابتهم نوبة من الذهول، لما لكلمة "كنت في إيران" من رهبة على نفوسهم، فسكتوا تلقائيًا من غير أن يطالبوني بتفاصيل كيفية عودتي للعراق، لأن الناس بتلك الفترة بسبب خشيتهم من سلطة النظام أوصلت البعض منهم إلى تمزيق الصور التي كانوا قد التقطوها أثناء سفرتهم السياحية لإيران أيام الشاه ولم يعد يتكلم عن تلك السفرة لكي لا يحتسب على الإيرانيين..

وبعد قضائي لتلك الليلة بسجن قاعدة الوليد الجوية المسماة بـ (H3)؛ استلمني في الصباح مأموري الجديد الذي كان من أفراد أمن القاعدة، وغادرنا القاعدة متوجهين لبغداد بغرض تسليمي لمديرية الاستخبارات الجوية الكائنة بقيادة القوة الجوية بتلك الفترة، بعد أن وضعت القيود بيدي مرة أخرى، وقد وصلناها مساءً واستلمني خفر المديرية بعد أن فتشني جيدًا وكنت معصوب العينين، فسرق من جيبي بكل صلافة ولاعة السجائر التي أعطاني إياها مأموري السابق صديقي الحميم أثناء رحلتنا لوحدتي، وهذا الأمر على الرغم من تفاهته لكنه أثر بنفسي كثيرًا لأنه لم يحصل معي عندما كنت أتنقل بين السجون الإيرانية، وما كان يرافقها من تفتيش لأغراضي، والسبب الذي جعل هذا الموضوع يؤذيني نفسيًا على ذلك الشكل المؤثر هو أنه قد حصل معي من قبل أبناء بلدي بدائرة كانت مختصة بأمن مركزي للقوة الجوية العراقية وبمقر قيادتها ببغداد، في الوقت الذي ترفع فيه الأعداء عن القيام بنفس ذلك التصرف الرخيص.

ولم يقتصر الأمر على تلك المرة فقط لأنه تكرر معي لاحقًا من قبل أجهزة استخبارية كانت تعتبر نفسها أمينة على توفير الأمن لكل العراق، عندما تخاصم اثنين من عناصرها وأنا معصوب العينين على من هو الأولى بالاستحواذ على حذائي قبل دخولي لزنزانة سجنهم..



بعد تلك المهزلة دخلت إلى سجن مديرية الاستخبارات الجوية ولم أجد هناك سوى شخص واحد كان نائمًا، وخلدت بدوري لنوم عميق بسبب مشقة السفر، بعد أن توعدت ذلك العنصر الأمني الذي سرق ولاعتي أنني سأشتكيه غدًا لدى مدير الدائرة، فأجابني مستهزءًا أن الأولى بي أن أتحضر لما سينتظرني من عذاب في اليوم التالي، وعند بداية الدوام الرسمي أيقظني الحراس وقيدوني بعد أن أغمضوا عيني، ثم اقتادوني إلى إحدى الغرف التي علمت بحدسي على الفور أني بحضرة مدير الاستخبارات الجوية مع حشد من ضباطه، وطبعًا كل هؤلاء ليسوا من أصحاب الاختصاص بأمور الاستخبارات، فقال لي أحدهم وكان المدير بعينه على ما كنت أعتقد بعد أن تهامس مع البعض من أعوانه:

- هل أنت فعلاً تستطيع الكلام باللغة الإنكليزية؟

اندهشت في البداية لهذا السؤال، لكني سرعان ما استنتجت أنه قد أطلع بإفادتي على الفقرة التي ذكرت فيها محادثتي بالإنكليزية مع العقيد توكان مدير استخبارات سنندج الإيرانية، فقلت له:

- سجلي عندكم يؤشر أني كنت مترجمًا وفنيًا بنفس الوقت قبل أربعة سنوات مضت، عندما كنت أعمل مع الشركة الفرنسية التي شيدت بعض الأبنية الجاهزة بنفس مبنى هذه القيادة، وهذه الأبنية الجاهزة لا تزال موجودة ولا تبعد عنا سوى عشرات الأمتار..

- حسنًا.. ترجم لي عبارة: "أنا أرغب بالذهاب للأسواق"..

فترجمتها على نحو آخر وقلت له بالإنكليزية:

- إن حارسكم الذي استلمني بالليلة الماضية قد سرق ولاعتي وعيب عليه أن يفعل هذا.

فلم يعلق على كلامي الذي قلته له باللغة الإنكليزية باحتمال أنه لم يفهم من الإنكليزية سوى ماذا يتوجب على أحدنا قوله عندما يرغب بالذهاب للتسوق...

فتحول لسؤال آخر كان أكثر غرابة من سابقه عندما قال:

- هل لك أصدقاء من مدينة تكريت كانوا يعملون معك بالوحدات التي خدمت فيها؟

فعلمت على الفور أنه كان قد قرأ بإفادتي التي ذكرت فيها أني قد علمت من أحد الأسرى الذي كان حبيس الزنازين الانفرادية بمعسكر دوزبان مركز، أنه كان نزيل بزنزانة انفرادية كانت مجاورة لزنزانة ضابط تكريتي يدعى النقيب حسين هيلان، فأجبته بقولي:

- كلا لا يوجد لي أصدقاء من مدينة تكريت يعملون معي بوحدتي ولا بكل الأجنحة الأخرى لقاعدة الوليد الجوية التي تخلوا منهم، لكي يخبرني أن النقيب حسين هيلان قد وقع بالأسر الإيراني...

وطبعًا أنا أشرت بعبارة أن المكان الذي أعمل به كان يخلو منهم بإشارة إلى أن من يسكن بتكريت لا يتواجد بالخدمة بذلك المنفى البعيد وسط الصحراء.. وعندها نفذ صبره لأنه لا يعلم من أين يسألني ليتأكد أن أقوالي بإفادتي هي معلومات حقيقة وقد حدثت فعلاً، وتلك إشارة تدل على عدم مهنيته كرجل استخبارات، ناهيك على أنه لم يكن يملك تلك المستمسكات الإيرانية بين يديه لكي توضح له أن الموضوع حقيقي وليس مجرد ادعاء، وعليه فإنه أخذ يدفعني لكي نخرج من صلب الموضوع، ويجعلني أصرح بأمور من شأنها أن تزيد من الطين بلة، وقال:

- لنفترض أنك فعلاً كنت في إيران، فهل تصديت للشتائم التي يطلقها الفرس على رئيسنا القائد صدام حسين؟

قلت له على الفور:

- لم يكن وضعي يسمح لي بالتصدي لهم آنذاك، لأن شغلي الشاغل كان هو السعي للكيفية التي تمكنني بالرجوع لوطني العراق، وعندها سأتصدى لهم من

موقعي كمقاتل في جيشنا العراقي، وكنت حتمًا سأفعل ما تفترضه وأتصدى لهم حتى لو قيدوني بأغلظ السلاسل لو أنني كنت قد فقدت الأمل بالنجاة منهم كما كان يفعل الأسير البطل حمدي جاسم هزاع والآخرون من إخوتي الأسرى الأبطال..

فقال بخبث:

- هذا يعني أنك امتنعت عن التصدي لهم؟

- وهل كنت أنت ستتصدى لهم لو كنت بمكاني بتلك المحنة العسيرة؟!

- اخرس..

فقلت بعصبية:

- على الأقل أنا لم أكن أكيل الشتائم تجاه وطني وجيشي وكل قادته كما كان يفعل أولئك الخونة على مختلف درجاتهم الحزبية ورتبهم العسكرية ومواقعهم الأمنية التي كانوا يشغلوها قبل الأسر، والتفاصيل موجودة بإفادتي ولك أن تتطلع عليها، فلا داعي للمزايدة رجاءً..

فقال بلهجة المسؤول الواثق من نفسه بعد أن تبين عجزه على مواجهة أقوالي:

- يظهر أنك لا تعرف مع من تتكلم؟!

- أنا لا يهمني مع من أتكلم ما دمت أقول الحق الذي نذرت حياتي رخيصة في سبيله، والأولى بك أن تحرص على سمعة هذه الدائرة وتحاسب خفر المديرية الذي استلمني بالأمس وسرق ولاعتي من غير حياء أو خجل، وقد ذكرت لك ذلك باللغة الإنكليزية ولم تعلق عليه بشيء وكأنه أمر عادي، ثم كيف لي أن أعرف من أنتم وقد عصبتم عيني وقيدتم يدي بهذا الشكل المهين وأنا محسوب عليكم بانتمائي للقوة الجوية، في الوقت الذي عاملني ضباط استخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية بكل احترام عندما أجلسوني أثناء الإدلاء بإفادتي

وسمحوا لي بعدها أن أخرج من دائرتهم وأتجول في الأسواق طليقًا ثم أعود لهم في اليوم التالي..

قلت ذلك الكلام لأني كنت أعلم بيقين أن لا هذا الرجل ولا غيره من الضباط الذين شعرت بوجودهم بتلك الغرفة وهم يتهامسون بينهم؛ قادرين على مس شعرة من رأسي، لأنهم لم يكونوا سوى الواسطة التي أمر بها لتجعلني أمثل لدى المحققين من صنف الاستخبارات لجهة كانت أعلى منهم..

بذلك انتهت تلك المقابلة السقيمة مع ضباط مديرية الاستخبارات الجوية كما توقعت، ليخرجوني بعدها ويفكوا العصبة عن عيني ويرموا بي بداخل سيارة جيب عسكرية توجهت بنا مباشرة إلى مديرية الاستخبارات العسكرية في الشعبة الرابعة التي كانت مختصة بشؤون الكورد ببنايتها الكائنة بداخل مبنى وزارة الدفاع ببغداد.

وبعد مسيرة بشوارع بغداد التي وجدتها مفعمة بالحياة؛ وصلنا لوزارة الدفاع واستلمتني الشعبة الرابعة للاستخبارات العسكرية العامة، وتم إيداعي بإحدى الزنازين بعد أن أزيلت القيود من يدي، وكالعادة عند دخولي إلى أية زنزانة جديدة مكتظة بنزلائها، فإني أبحث فيها عن مكان خالي لأجلس فيه، وبعد جلوسي سألني من كان على يميني ويساري السؤال المعهود: ماذا فعلت؟ ما هي التهمة الموجهة لك؟ فأجبت هذه المرة أنني لم أفعل شيئًا ولم توجه لي أية تهمة حتى الآن.

ولأنهم سجناء غير اعتياديين فإن جوابي هذا لم يرضهم فقال لي أحدهم:
- كيف لم تفعل شيئًا وشكلك يوحي أنك قد دخلت لعدة سجون قبل أن تأتي إلينا، أو على الأقل أنهم لم يجلبوك من بيتك مباشرة وتدخل علينا بهذه الزنزانة، أليس كذلك؟

والغريب بذلك اللقاء الذي كان بالإمكان أن يكون اعتياديًا كسابقاته لولا تواجد مراقب تلك الزنزانة (الأرشد) الذي كان إيراني الجنسية، وكان من سكان الأحواز ذات الأصول العربية، وهو مقيم بصورة دائمية بتلك الزنزانة من أجل الترجمة لمن يؤتى به للتحقيق من أولئك الأسرى الإيرانيين الموجودين في العراق، وباعتباره كان مراقبًا لتلك الزنزانة وهمزة الوصل بين السجناء والحراس في الخارج، فإنه تدخل قائلاً:

– لماذا يا أخي لا تقول لنا ما هي قضيتك؟ فقد نستطيع مساعدتك بالمشورة لكي نخفف عنك.

وبعد أن علمت أنه كان جنديًا إيرانيًا بالرغم من أصوله العربستانية، لم أستطع التكتم أكثر على موضوعي، لأني أردته أن يعلم ماذا كان الجنود الإيرانيين يفعلوا بالأسرى العراقيين لديهم وبعضهم كان عربي مثله، فقلت لهم:

– انصتوا جيدًا سأحكي لكم من أين جئت، وماذا كانت تفاصيل الحياة اليومية لذلك المكان الذي كنت فيه، ولكني أرجو ألا تضغطوا علي أن أخبركم كيف خرجت منه لأني حتى الآن لم أخضع للتحقيق وبالتالي لا أعلم إن كان بالإمكان التصريح به أم لا.

فقالوا بفضول:

– لقد شوقتنا كثيرًا فأخبرنا مباشرة ولا تتردد.

– لماذا أتردد؟ ولكني أجزم ألا أحد منكم لديه أية فكرة عن ذلك المكان باستثناء أخونا الجندي الإيراني العربستاني الذي أعتقد بأنه يعرفه أكثر مني، أنه باختصار شديد معسكر دوزبان مركز الذي تتواجد به دائرة الانضباط العسكري الإيراني بمقرها العام، وهي مختصة بإدارة شؤون الأسرى العراقيين على امتداد رقعة إيران، وكان لي الشرف بأن أكون أحد أولئك العراقيين بقفص الأسرى للتسفيرات بداخل ذلك المعسكر..

بعدها أسترسلت بذكر تلك الوقائع التي تخص الأسرى العراقيين الواحدة تلو الأخرى، ولم أستثنِ أي واقعة كنت قد شاهدتها أو سمعت بها هناك، والحقيقة فإنها كانت فرصة من أجل كسب بعض الصداقات، إضافة إلى أنني كنت متيقنًا أن كل واحد من أولئك الذين استمعوا لي سيخبر مائة شخص على الأقل، وتلك هي رسالتي بفضح تلك الأعمال الوحشية للفرس التي لم يكن أحد من العراقيين بتلك الفترة لديه أدنى فكرة بما كان يدور بإيران، وبنفس الوقت فقد كانت فرصة لي من خلال ذلك السرد لأن أتمرن على الأولوية من أين أبدأ بكلامي وبماذا أنتهي على ما سأقوله أثناء التحقيقات التي كانت تنتظرني، وبين هذا وذاك فهي أيضًا فسحة من الوقت الذي سأهرب من خلاله من ذلك الواقع المرير بتلك الزنزانة، وأنا أتطلع لتلك الجروح والكدمات التي كانت واضحة على وجوه وأجساد البعض منهم بسبب التعذيب أثناء التحقيق معهم بتلك الشعبة الاستخبارية..

في الصباح لم يرسل المحققون بطلبي كما توقعت، واستدعي البعض منهم على التوالي للتحقيق ورجعوا لنا وهم يبكوا كالأطفال من شدة التعذيب الذي تعرضوا له. حتى حل علينا المساء وتم إفساح المجال للمساجين بفرصة واحدة لهم خلال كل أربعة وعشرين ساعة، من خلال الخروج بصف واحد لقضاء حاجتهم، فرأيت تصرفًا عجيبًا لم يسبق لي أن اطلعت أو سمعت بمثله، فكان أحد الحراس بعد خروج المساجين يأخذ بالعد من رقم واحد وحتى رقم عشرة، وبعدها يقف عند باب الزنزانة المفتوحة ليضرب بعصاه الغليظة على رأس كل سجين يرجع للزنزانة بعد إتمامه لذلك العد، باعتباره قد تأخر عن الوقت المخصص للخروج إلى دورة المياه ثم الرجوع للزنزانة، وجدت أن ذلك التصرف فيه إهانة ينبغي علي تجنبها من خلال امتناعي جزئيًا عن وجبة الطعام الوحيدة التي تقدم لنا مرة كل يوم، وكانت تقتصر على ما يعادل حجم قدح من الأرز لكل سجين،

وبأكثر الأحيان يكون الطعام عبارة عن شوربة لا تصلح أن تأكلها الحيوانات، وكان ذلك الأسير الإيراني مستثنى من حصته بذلك النوع من الطعام لأنه يزود بثلاث وجبات من الطعام الجيد الذي يزوده به مطعم الضباط بتلك الشعبة الاستخبارية، وهذا يعني أنني لن أكون مضطرًا لخروجي من الزنزانة، وبالتالي لن أتعرض لتلك الإهانة المبرمجة بغاية الانتقاص من معنويات المساجين هناك.

وبقيت بذلك السجن حتى مضى على وجودي فيه حدود العشرة أيام قاسية جدًا، وفي كل يوم كنت أشاهد مائة حدث مؤلم على النفس ولا أعلم متى سيصلني الدور بالتحقيق، وقد أصبح مؤكدًا أن التعذيب الجسدي سيتخلله أسوة بكل من كان هناك من باقي المساجين، وعلى الرغم من ذلك النظام اليومي الذي كان متشددًا وصارمًا إلى تلك الدرجة التي لا تطاق؛ لكني تحملته لأنه جاء نتيجة عنادي وإصراري على الوفاء بعهدي الذي قطعته على نفسي بالعودة للوطن والإخبار عن كل ما عشته بإيران، وهو أمر لم أمنِ نفسي أنني سألقى معاملة حسنة عند وصولي، وكان كل همي بتلك الأيام العصيبة محصورًا أن أسلم من أية إهانة مقصودة أو غير مقصودة قد تأتيني من سجين أرعن أو سجان لئيم بتلك الزنزانة، لأنها حتمًا ستكون من أيادي عراقية وذلك ما قد يجعلني بلحظة من التذمر أندم على ما أقدمت عليه عندما سلمت نفسي طوعيًا.

وخلال تلك الفترة حدثت أمامي ثلاثة حوادث منفصلة، أقساها على نفسي كانت الأولى منها، فعندما حان وقت خروج المساجين للمرافق الصحية بتوقيتهم المعتاد بعصر كل يوم، صادف أن تأخر أحد المساجين ورجع للزنزانة بفارق قليل على من سبقه من باقي المساجين، وعلى أثرها انتظره الحارس عند باب السجن ولدى عودته رفسه الحارس بركلة قوية من قدمه سددها لقلبه مباشرة، فسقط المسكين أرضًا من غير حراك وكان شابًا بريعان صباه، وعندها لم يهتم ذلك الحارس المجرم ونادى على المساجين لكي يسحبوه لداخل الزنزانة، ثم

أغلق الباب علينا وكأن شيئًا لم يحدث، فالتف حوله جميع المساجين من أجل إسعافه ومنهم ذلك الأسير الإيراني، ولكن دون جدوى لأنه كان قد فارق الحياة، وعندها نادى ذلك الإيراني على الحارس من أجل إخباره بنتيجة ما حصل، وكان هو الوحيد الذي مسموحًا له بأن يطرق الباب من الداخل، ففتح الحارس الباب غير مبالي لنتيجة فعلته الجبانة، وقال ارموه خارجًا، فأخرجه المساجين وبقي معه ذلك الجندي الإيراني الذي وافانا بعدها بتفاصيل ما حدث بالخارج، وبدورنا مكثنا خلف ذلك الباب من أجل أن نعرف كيف سيتصرف ذلك الحارس بهذا الشأن، فعلمنا أنهم قد أرسلوا بطلب الإسعاف العسكري، وبعد أن حضر الطبيب الذي أكد وفاته سمعنا رئيس الحراس يقول استدلوا من السجل على عنوانه وأرسلوه لأهله.

وذلك ما كان شائعًا بتلك الأيام عندما يستلم بعض الناس أبًا أو ابنًا أو أخًا قبض عليه للتحقيق ثم يرجع لهم جثة هامدة وقد كتب على جثمانه عبارة (خائن).. وإضافة لهذا يجبر أهله بالتوقيع على تعهد خطي ألا يقيموا له مجلسًا للفاتحة من أجل تقبل العزاء لفقيدهم، وقد علمت من ذلك الجندي الإيراني أن لذلك الشاب المتوفي أخًا كان معه في الأيام الأولى لدخولهم السجن بنفس زنزانتنا، وقد فُصل عنه ووضعوه بالزنزانة المجاورة بعد أن علموا أنهم أخوة، وطبعًا هذا الأخ بالزنزانة المجاورة لم يكن يعلم بموت شقيقه الذي توفي على بُعد خطوات منه، وإذا كان قد علم بوقت لاحق فلكم أن تتصوروا مدى حزنه وعذابه يومها..

أما الحادثة الثانية فقد كانت لرجل إيراني مدني كان قد لجأ للعراق، وقد ذكرتني تلك الحادثة بنفسي عندما كنت بسجون إيران، وإن كان ما تعرض له هو أقسى بكثير من ذلك الذي حصل معي بإيران وإن اختلفت الأسباب، ومفاد ذلك الحدث هو دخول رجل إيراني من القومية الفارسية بالملابس المدنية علينا بزنزانتنا،

ولم يمكث بيننا سوى ساعة من الزمن حتى نودي عليه للتحقيق، فذهب بصحبة ذلك الجندي العربستاني من أجل ترجمة أقواله، وبتلك الساعة التي قضاها بيننا علمنا موضوعه بالكامل، وملخصه أن ذلك الرجل الفارسي كان قد ضاقت به الحياة عندما كان بإيران وقرر أن يلجأ للعراق بعد أن سمع أن الحكومة العراقية ترعى الإيرانيين من مجاهدي خلق، وتصور أن بإمكانه الانضمام إليهم من خلال مجيئه للعراق، فسافر أول الأمر للكويت، ومن هناك توجه لنقطة التفتيش العراقية على الحدود مع الكويت وسلم نفسه إلى المسؤولين عند السيطرة الأولى لنقطة الحدود بصفوان، فأرسلوه على الفور إلى الاستخبارات العسكرية العامة ببغداد بعد أن اتهموه أنه كان يحاول التسلل من ذلك المنفذ الحدودي، وهو أمر لا يُصدق لما لذلك المنفذ من سيطرات تفتيش متعاقبة ومتشددة بنفس الوقت ولا يمكن تجاوزها كلها إلا من كان يحمل جوازًا للسفر نافذ المفعول..

وعند عودته من التحقيق بعد ساعتين من الزمن رجع محمولاً لأنه لم يعد يقوى على المشي برجليه التي تورمت، وكذلك يديه بعد أن تمزقت كل ثيابه وكأنه قد حبس مع مجموعة من الوحوش الكاسرة بقفص واحد، أو أنه قد تعرض للضرب من قبل جوقة لقطاعي الطرق، لأنهم اتهموه أنه قد اتجه للعراق بنية معادية، ويبدو أن محققيه قد أرادوا من خلال تعذيبه بتلك الطريقة الهمجية أن يتعرفوا على ماذا كانت نيته وما هي تفاصيلها، وعلى الرغم من ذلك التعذيب القاسي فإنهم لم يحصلوا منه على اعتراف يتطابق وما اتهموه به، لأنه ببساطة شديدة لم يكن لديه شيئاً آخر يقوله لهم غير الحقيقة، منوهًا إلى أن ذلك الأسلوب البشع الذي عذبوه به، هو للأسف أسلوب لم يمارسه المحققين الإيرانين معي عندما كنت بين أيديهم متهم بالتجسس لصالح العراق، ذلك لأن الإيرانيين يتصرفوا بدهاء من أجل الكسب المتواصل لعملاء جدد،

مستفيدين من الصيت الذائع بقسوة حكامنا علينا، وبالتالي فلا أحد من العراقيين الذين وقعوا بأيديهم سيرجع للعراق ويسلم نفسه بعد أن يطلقوا سراحه كما فعلت أنا وهي حالة كانت نادرة الحدوث، لأنه بتلك الأثناء سيضطر أن يسلك دروب العمالة ليخدم بني فارس، هذا لأنه لم يذق منهم طعم القسوة المفرطة من خلال التعذيب الجسدي الذي كان مقتصرًا فقط على الأسرى العراقيين حصرًا باستثناء التوابين منهم، ولهذا فإن سياسة الدهاء الفارسي كانت سياسة ناجحة وهو أسلوب غير معمول به من قبل مسؤولينا العراقيين الذين يمارسوا الأرهاب ضد مواطنيهم لاعتقادهم واهمين أن ذلك الأسلوب الدموي سيؤدي بهم ألا يعاودوا الكرة مرة أخرى بما أقدموا عليه من مخالفات كانت بأغلبها بريئة الطابع.. قضى ذلك الشاب الإيراني تلك الليلة بيننا وهو يئن من آلامه ويبكي جروحه، وأخرجوه بصباح اليوم التالي ولم يرجعوه إلينا بعدها..

أما ثالث حادثة فكانت لشخص كان يجلس بجواري بتلك الزنزانة، وكان متهمًا أنه قد تفوه بعبارات شتم بها حزب البعث أثناء مشاجرته مع أحد أبناء محلته – وكان مسؤول بحزب البعث بدرجة رفيق– من أجل قضية عائلية خاصة تتعلق بعرضه وشرفه، والنتيجة كانت تأديبه على نفس الطريقة التي عذبوا بها ذلك الشاب الإيراني، باسثناء أنهم قد أبقوا عليه محبوسًا حتى إشعار آخر..

تلك كانت أبرز الأحداث التي اطلعت عليها بتلك الفترة القصيرة من وجودي بتلك الزنزانة، حتى جاء دوري لأمثل للتحقيق، وعندها علق أحد المساجين الذي لم أتقرب له، وكان من أولئك الذين قد تبثت عليه التهمة بانتسابه لحزب الدعوة الإسلامية، الذي كانت مقراته بإيران تشارك بالعلن بالجهد العسكري الإيراني ضد القوات العراقية المرابضة على الحدود من جهة جنوب العراق في منطقة الأهوار تحديدًا، فقال لي حينها أثناء خروجي للتحقيق:

- وأخيرًا ستذهب لتتلقى نتيجة سوء أعمالك.

وسوء الأعمال بنظر ذلك الدعوجي هو هروبي من إيران وعدم خيانة العراق. فذهبت متوكلاً على الله الذي كان قد نجاني بأول الأمر، وقد عقدت العزم ألا أجادل أثناء التحقيق كما فعلت بوحدتي العسكرية وفي مديرية الاستخبارات الجوية، وسأكتفي بالإجابة فقط على ما أسأل عنه، متوخيًا الحرص أن لا أجر إلى مواضيع ثانوية، لأقتصر بكلامي بالحديث عن موضوعي فقط من غير التشكي لما كنت عليه من حال سيء، والحقيقة فأنا بطبعي لا أضمن لساني إذا ما ركبني التعصب وبالتالي سأنفعل وأخسر كل حقوقي، وهذا أمر لا سيطرة لي عليه، لأنه خارج نطاق تحكمي بإرادتي متى يجب أن أهدأ ومتى يجب أن أتعصب، وهذا هو عيبي الوحيد الذي لم أتمكن أن أقومه على مدى العمر كله حتى أصبح الصفة البارزة لي، هذا لأني أتصرف على سجيتي ولا أجيد المراوغة، خصوصًا أثناء ندوات الحوار السياسي عندما يستفزني أحدهم، ولا يعيبني عندما أقر بهذا لأني أمتلك شجاعة الاعتراف به، وليس فينا من هو كامل وخالي من العيوب..

وكعادتهم عصبوا عيوني قبل الدخول لغرفة التحقيق بعد أن أوثقوا يداي برباط محكم من خلف ظهري، وأدخلوني إلى غرفة التحقيق وقد استنفرت كل حواسي، فبادر المحقق كلامه بصوته الأجش قائلاً لي:

- احكِ لنا موضوعك من البداية وحتى النهاية.

بدأت بالسرد منذ حادثة اختطافي المزعوم وقد مررت عليها سريعًا من غير أن أجعل المحقق ينتبه لذلك، إلى أن وصلت بالسرد لتفاصيل اعتقالي بمريوان، مرورًا بكل ما حدث لي بإيران وحتى إطلاق سراحي في الرضائية ثم خروجي من إيران، وقد تمهلت حينها بكلامي لما كان لتلك التفاصيل من أهمية، لأعاود

مرة أخرى توخي السرعة بالسرد أثناء حديثي عن كيفية وصولي إلى مديرية استخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية، من غير أن أشدد على أن محمد علي رستم كان برفقتي حينها، لخشيتي أنهم قد يسألوه عني ويكشف لهم زيف بداية أقوالي بما يخص موضوع اختطافي الذي تدبرنا تلفيقه سويًا، وعند تلك النقطة كنت قد أكملت إعادتي لإفادتي الأولى، وتوقفت عن الكلام بانتظار أي سؤال قد يسأله المحقق، الذي بدوره لم يقاطع كلامي على مدى ما يقارب الثلاث ساعات من السرد المتواصل.. وبعد دقيقتين من الصمت قال لي المحقق:

- وماذا بعدها؟

فقلت متبسمًا:

- الباقي أنتم تعرفونه..

- أنت هنا منذ عشرة أيام فأين كنت قبلها؟

ففهمت معنى سؤاله الأول وقلت:

- كنت أحسبكم تعلمون؟! لقد كنت بدوائر الانضباط العسكري التي تولت مهمة تسفيري مخفورًا من السليمانية، مرورًا بكركوك، ثم لبغداد، ثم لوحدتي العسكرية على الحدود الأردنية، ثم رجوعًا إلى الاستخبارات الجوية ببغداد، وهي التي حولتني إليكم..

عندها تحدث المحقق همسًا مع آخرين لم أشعر بوجودهم أثناء الإدلاء بإفادتي لأنهم لم يتكلموا طيلة تلك الفترة، وقد تلقفت جملة من حديثهم الخافت جدًا الذي بالكاد كان يسمع، وفهمت منه أنهم كانوا مستغربين من تصرف الاستخبارات في السليمانية وكركوك عندما أرسلوني لوحدتي العسكرية مخفورًا عن طريق الانضباط العسكري، وهذا معناه أنهم قد خرجوا عن السياق المعهود بعملهم الاستخباري الذي كان يستوجب منهم أن يرسلوني بشكل مباشر لهذه الدائرة كما فعلت مديرية الاستخبارات الجوية.. فعاود المحقق يسألني:

– هل صادف أن التقيت بأي شخص تعرفه خلال فترة تسفيرك إلى وحدتك؟!

عندها عرفت لماذا كانوا مستائين من تسفيري عن طريق الانضباط العسكري، السبب واضح، وهو نيتهم بتغييبي عندهم لأطول فترة ممكنة ما دمت لم أرَ أحدًا أعرفه ويعرفني، وبالتالي يخبر أهلي عني وأنا الغائب عنهم لسبعة شهور تقريبًا.. فأجبته بالقول:

– نعم لقد التقيت بأخي الأكبر وباقي أهلي الذين زاروني أثناء تواجدي بالمقر العام للانضباط العسكري ببغداد، وهو كما تعلمون أمر متاح لكل شخص موقوف هناك، وقد سافر معي أخي أثناء الطريق لوحدتي وهناك واجه ضابط استخبارات القاعدة، ثم تركني ورجع إلى بغداد من أجل أن يلتحق بوحدته المقاتلة بقاطع العمارة وهو من منتسبي صنف الدروع.

فقال ساخرًا:

– إذا كان أخوك مقاتلاً فلماذا أنت لم تقاتل مثله؟

وهذا معناه لماذا أنت بطريق الخيانة.

فقلت بأدب من أجل ألا أستفزه وكأني لم أفهم مقصده:

– كل واحد منا يقاتل من خلال الفرصة التي أتيحت له، فهو يقتال الأعداء من دبابته ضمن تشكيل وحدته المدرعة، وأنا قاتلت نفس العدو بالكلمة الصادقة ومن خلال إيماني بوطني، عندما كنت بين أيديهم وحيدًا بداخل عمق أراضيهم..

وعندها لم يعقب المحقق على كلامي الذي قلته له وطلب من أحد الأشخاص بنفس الغرفة ألا يدون الكلام الذي قلناه بخارج إفادتي، وبعدها قال:

– نكتفي اليوم بهذا القدر.

وعندما جاء الحراس ليصطحبوني للخارج وأنا مغمض العينين قال لهم:

– على مهلكم معه.

من ذلك كله استنتجت أن ذلك المحققق قد تقبل ما ذكرته بإفادتي، وقد سجلت بحدسي إنه لم يكن وحده بالغرفة، فهناك من كان يستمع ولا يتكلم، إضافة لشخص كان قريبًا مني يوجه الضوء على وجهي، وبالتأكيد كان مستعدًا لتعذيبي عندما يستلم الإشارة بذلك، كما أدركت مدى حجم المساعدة التي قدمها لي محمد علي رستم باستمالة ود ضباط الاستخبارات في السليمانية إلى جانبي لأنهم أتاحوا لي الفرصة أن ألتقي بأهلي قبل الخضوع للتحقيق الحقيقي ببغداد، باحتمال إخفائي بدهاليز سجونهم عندما يتوصلوا لمرحلة تستوجب اتخاذ القرار بإطلاق سراحي، لأنهم لم يجدوا الشجاعة بأنفسهم بإطلاق سراحي، باعتباري كنت قادم من إيران والحرب لا زالت دائرة برحاها..

بعد ذلك التحقيق رجعت إلى زنزانتي، ودهش كل من كان فيها لأني رجعت لهم وأنا أمشي على قدمي ولم يلحق بي أي أذى، بالرغم من أن قضيتي كانت تعتبر كبيرة جدًا إذا ما قيست بباقي التهم والدعاوي العادية التي وصمت بباقي السجناء، وقد صارحوني القول إنني عندما ذهبت للتحقيق فإنهم اعتقدوا أني هالك لا محالة..

في مساء اليوم التالي نادى الحراس باسمي لكي أتحضر للخروج، فظن الجميع أنه سيطلق سراحي، باستثنائي لأني سجلت بذاكرتي أخر مقولة تفوه بها المحقق: "تكتفي اليوم بهذا القدر". وذلك يعني أنه ستكون لهم جولات تحقيقية قادمة معي، فخرجت من الزنزانة، وكبلني الحراس ثم وضعوني بحوض سيارة بيك أب، كان حوضها الخلفي على شكل غرفة حديدية محكمة وصغيرة ومن غير منفذ، ومضوا بي بعد أن وضعوا العصبة على عيني من غير أن أتجرأ على سؤالهم، أو هم قالوا إلى أين نحن ذاهبون، ولكني من خلال تعقب الطريق بعقلي، علمت أننا ماضون باتجاه حي الأعظمية، ثم شعرت بعبورنا لجسر الأئمة

وبعده مباشرة انعطفنا لندخل مكان توقفنا عند استعلاماته، فتيقنت أننا في الشعبة الخامسة لمديرية الاستخبارات العسكرية العامة بالكاظمية، وما أدراكم ما هي الشعبة الخامسة التي كان صيتها قد ذاع بين العراقيين كأكبر جهاز قمعي، وهناك استلمني حراسها الخفر بعد أن أنزلوني بشكل مهين ومرعب من تلك العلبة الحديدية المغلقة لسيارة البيك أب، التي عادة ما كان يطلق عليها بين المساجين سيارة توزيع الشكولاتة على المحلات التجارية، وأخذ اثنين منهم يدوران بي جرًا وأنا معصوب العيون ومكبل اليدين بممرات ذلك المكان الموحش وهما يتجادلان على من هو فيهم الأحق بالاستحواذ على حذائي، وقد حُسم الأمر عندما سألوني عن قياس قدمي الذي كان يناسب مقاس قدم أحدهم.

ثم سحبوني ووقفنا بباب إحدى الزنازين، وبعد أن فتحوا بابها رفعوا العصبة السوداء عن عيني، وفكوا القيد من يدي ثم أمروني أن أخلع لهم حذائي، لأدخل حافيًا إلى تلك الزنزانة، وقد شددوا علي ألا أرفع رأسي كي لا أراى ملامحهم، فهممت بالدخول إلى تلك الزنزانة التي كان بابها مفتوح للخارج، فرأيت حشدًا متراصًا من الناس واقفين بتلك المساحة التي تبلغ ثلاثة أمتار مربعة، ورؤوسهم التي بالكاد كانت ترى كانت مطأطأة إلى الأرض، ولم يبقَ في الزنزانة مجالاً شاغرًا لكي أدخل وأقف عليه، فدفعهم الحراس بشدة إلى الداخل وكأنهم قطع من الخرق البالية ولسنا من البشر، وأثنائها حصل بعض المجال عند عتبة باب الزنزانة، فدفعوني لأقف عليه ثم أغلقوا الباب علينا وانصرفوا، ثم تمددت تلك الكتلة البشرية لتأخذ وضعها الطبيعي بعد أن كبسها الحراس، وكنا بتلك الحالة أشبه ما نكون بقطع من سمك الساردين المضغوط بداخل علبة صغيرة، وعندها وجدت نفسي ملتصقًا بالباب من خلفي وذلك التكدس البشري المضغوط من أمامي وإلى جوانبي بحالة من الصمت المطبق؛ شعرت بضيق شديد بنفسي وتنفسي وأنا ملتحم بذلك الجمع البشري، الذي صعب علي حساب

عددهم بسبب التصاق بعضهم ببعض بغياب أية نافذة تأتينا بالهواء الذي نحتاجه للتنفس عدا سحابة هواء صغيرة كانت بأعلى جدار الزنزانة المطل على الخارج، وقد اندهشت أن لا أحد من المساجين قد سألني حتى لو كان همسًا بأذني ذلك السؤال المعهود: ماذا فعلت؟ ما هي تهمتك؟ هذا لأنهم كانوا بحالة مقاومة لأجواء الاحتضار التي كانت مخيمة على ذلك المكان إضافة إلى كونهم ممنوعين عن الكلام بينهم، ومن يطرق باب الزنزانة لأي سبب كان كحدوث حالة طارئة مثلاً كي يأتينا الحراس الذين هم متواجدين بصورة دائمة على مدار الساعة خلف أبواب تلك الزنزانات المتراصة أحدها بجانب الأخرى، بذلك الممر الذي سحبني الحراس به قبل أن يدخلوني لتلك الزنزانة، لكي يتخذوا الإجراء اللازم، لكنهم على العكس سيضربوننا بالعصي على رؤوسنا.

ولو قارنت ذلك المكان بالموت لكان الموت أرحم منه بكثير، وعندها تبادر لذهني أني هالك لا محالة إذا ما بقيت بذلك المكان، الذي كان المساجين يتناوبوا على الاستلقاء أرضًا بينما يفسح الآخرين المجال لهم من خلال فتح أرجلهم لساعة من الزمن لكل من يأتيه الدور، بعد أن تبين لي لاحقًا أن عددهم كان يناهز ٢٠ سجينًا، ولا مجال لتخطي ذلك الدور باستثناء فقدان أحد المساجين لوعيه من غير أن يستطيع أحد منهم مد يد المساعدة له، لعدم إمكانية الانحناء إلى الأسفل، لأنهم ملتصقين بعضهم ببعض، حتى تراءى لي أن تعبير كلمة ازدحام التي عادة ما تطلق على الاختناقات المرورية والتواجد الكثيف للناس أثناء التسوق بأيام العطل والمناسبات؛ هي كلمة بغير محلها بالقياس إلى الازدحام الذي كانت لي وقفة معه بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى متجسد بوقوفي وأنا حافي القدمين، حتى وصلت لقناعة لو أن قدماي قد عجزت عن حملي فإنني سوف لن أترنح وأسقط لأنني كنت ممسوكًا من كل الاتجاهات.

بقيت على تلك الحالة حتى مساء اليوم التالي، عندما فتح الباب ورمى الحراس فوق رؤوسنا وجبة الغذاء الوحيدة لذلك اليوم وكانت صمونة من الفرن العسكري لكل واحد منا، وبتلك الدقائق المعدودة تسنى لي أن أتحرك من مكاني قليلاً بعد أن تسمرت فيه على مدى الأربع والعشرين ساعة الماضية، وبعدها حان دوري لكي أستريح قليلاً وأستلقي تحت أرجل ذلك التكدس البشري، وذلك يستوجب عليهم فتح أرجلهم عن بعضها قليلاً لكي لا يدعسوا على رأس من هو مستلقي بينها وتلك معاناة إضافية أخرى لكل من يقف بوضع كهذا لأنه سيبذل جهده على أن يوازن وقوفه وهو يعاني من آلام رجليه التي أعياها التعب والإرهاق. وعندها تنازلت عن ذلك الحق لمن كان يتبعني في الدور من أجل ألا أخسر مكاني الذي وفر لي مسندًا لظهري على باب الزنزانة، وبالتالي سيتغير مكاني وسأضطر بعدها بفسح المجال لكل من يستلقي بين أرجلي، فأثرت أن لا أستلقي بين أرجلهم ولا يستلقي أحد منهم بين أرجلي، لأني لم أصل لدرجة فقدان الأمل ولا للحظة واحدة بأن الله عز وجل سوف يتخلى عني ولن ينجيني بهذه المرة، وحاشى لله أن يخلف وعده من خلال نصرة الصادقين الأوفياء، وعليه فإنني لم أتوقف عن ترديدي سرًا مع نفسي خلال تلك الفترة القاسية، عبارة: الله موجود. الله موجود. الله موجود.

ولأن النفس البشرية هي كما يقال أمارة بالسوء؛ فقد سولت لي نفسي بجزء من الثانية أن أقارن بين حالي البائس بسجني هذا وأنا بوطني وبين سجني الذي قضيته في إيران، فأثرت أن أشوى بنار أهلي على أن أحظى بأي معاملة أفضل من التي أنا فيها، عندما كنت قابعًا بسجون بإيران، وبنظرة تفحصت فيها عيون أغلب من كانوا حولي، ترآى لي – والله أعلم – أنهم قد كفروا بالعراق وطنًا وبالعراقيين شعبًا وبكل المقدسات الوطنية، وعندها تملكتني الرغبة أن أسال نفسي إن كانت قد ندمت أو لازالت متمسكة بصواب قرارها بالعودة

للوطن، فجاءني الرد من نفسي بدمعة ساخنة سقطت من عيوني المكحلة بسخام جدران تلك الزنزانة الكافرة، وسمعت هاتفًا من داخل ضميري يقول لي: وهل للعاشق من حيلة سوى أن يلبي دعوة المعشوق؟ والمعشوق هنا هو العراق الذي هو دائمًا فاتحًا أذرعه لكل أبنائه وهو ليس ملكًا صرف لأي حاكم يحكمه لأنه أبًا لكل العراقيين حكامًا ومحكومين..

عندها اقشعر بدني لأني شعرت أنني كنت بحضرة العراق باعتباري كنت ولا زلت عاشقًا له ولكل الخيرين من أبناءه البررة، مهما كانت قومياتهم أو أديانهم، وأن الذي كنت فيه هو لا يعدو سوى ضريبة أدفعها لمن كان يحول بيني وبينه، ولكن بالصبر ستزول كل تلك العقبات والله مع الصابرين. وعند ذلك شكرت ربي عندما هداني إلى السبيل الذي جعلني أعمل بنصيحة من طلب مني أن أتكتم على موضوع انضمامي الطوعي لقوات البيشمرگة لأدعي أنني كنت مختطف بأول الأمر ثم التحقت بهم لاحقًا من أجل تخليص نفسي، لأني لو لم أعمل بتلك النصيحة أو كنت قد ذهبت لتسليم نفسي من غير أن أمر ببيت عمي كاك نجم الدين رحمه الله وطيب ثراه، فالله وحده كان سيعلم بمصيري حينها، أو على الأقل عندها لن أستطيع التفوه بكلمة واحدة أعبر من خلالها بكل صدق عن ولائي للوطن أثناء المواجهات التي تحصل من قبل المزايدين المنافقين الذين لا هم لهم سوى تسقيط من هو سواهم.

واستمر ذلك الحال وبقيت صامدًا بالإكراه ليومين آخرين من غير أن يغمض لي جفن خلالها على مدى وقوفي لتلك الأيام الثلاثة، في الوقت الذي كان أكثر السجناء من حولي يناموا وهم وقوفًا من غير أن يهوى أحدهم إلى الأرض بفعل الضغوط التي على جسده من كل جانب، وكأنها بمثابة كماشة أو يد جبارة تمسك به، وقد تمنيت حينها لو أن كل عناصر الشعبة الخامسة للاستخبارات

العسكرية العامة يجتمعوا علي كلهم ليذيقوني مر العذاب ولكن بشرط أن يصاحب ذلك التعذيب طلبهم مني أن أشتم العراق، لأهتف بأعلى صوتي يحيا العراق، فيزدادوا بضربي ثم يطلبوا مني أن أندم على قراري بالرجوع للعراق، فأجيبهم فداك روحي يا عراق، ثم يزدادوا بإيذائي أكثر ليطلبوا مني أن أذكر إيران بخير، فأشتم إيران وكل الفرس الذين عاشوا عليها على مدى التاريخ..

لقد كنت أعلم علم اليقين أن تركي المتعمد بتلك الزنزانة على ذلك الحال المرثي؛ كان من أجل كسر معنوياتي قبل أن أمثل لتحقيق ثاني، ولكني لم أنكسر وكنت أمني نفسي بالفرج القريب بعون من الله، حتى نودي علي بمساء اليوم الرابع كما أتذكر لأخرج للتحقيق، وكنت قد علمت من بعض السجناء القريبين مني عندما أخبروني همسًا أن من يغادر تلك الزنزانة إلى التحقيق فإنه سيلقى واحدة من ثلاثة، الأولى تثبيت التهمة عليه زورًا أو عن حق، والثانية تبرئة ساحته، وبكلا الحالتين فإنه لن يرجع لهذه الزنزانة بانتظار تحقيق آخر، لأنه سيحول إلى مكان آخر من أجل انتظار دوره بما سيُقرر بحقه من نتيجة، أما الثالثة فإنه يموت خلال التحقيق، بسبب ما يرافقه من عذاب قاسي وشديد.. وفي كل الأحوال فإن من يخرج من تلك الزنزانة لن يرجع إليها، باستثناء بعض الحالات التي تستوجب تحقيقًا آخر..

خرجت للتحقيق متوكلاً على الله وقد وجدت أن ذلك التوقيت كأنه رحمة قد حلت علي، لأني من خلالها تمكنت أن أمشي على أرجلي من جديد بالرغم من قصر المسافة بين الزنزانة وغرفة المحقق، بعد أن أوشكت أن أفقد إحساسي بهما نتيجة الألم في بادئ الأمر، ثم تحول للخدر، حتى أوشكت على أن أشعر بعدم وجودها بفعل التدافع الذي جعلني أبدو وكأني كنت معلقًا في الهواء. على أية حال أدخلوني إلى غرفة التحقيق بعد أن عصبوا عيني وكبلوني من يداي إلى

الخلف أثناء خروجي من الزنزانة، وحينها بدت علي علامات التعب والإرهاق بشكل واضح من خلال طريقة مشيتي على الأقل، وحينها كنت قد قررت أن أغير استراتيجيتي خلال التحقيق على غير الطريقة التي اتبعتها خلال المرة السابقة، حينما تجنبت وقتها الخوض بأي أمور جانبية من التي لم أدونها بإفادتي الأصلية، لأدخلهم هذه المرة بأمور هي أكبر من حجم كل من سيحقق معي، على طريقة المثل البغدادي الحكوك يرادلها حلوك، وهذا معناه أن الحقوق تنتزع من خلال أفواه تنطق ببلاغة الطرح، وعلى أية حال فلم يعد لدي شيئًا أخسره، لأني لم أعد أخشى المطر بعد أن أصابني البلل، وبالنتيجة فإني سأنال واحدة من تلك الثلاث احتمالات التي همس بها أحد السجناء بأذني، لكي لا أرجع إلى نفس مكاني وأقف فيه حتى أجل غير مسمى، بانتظار تحقيق ثالث لا أعلم متى سيكون.

وعندها خاطبني المحقق بنفس ذلك الصوت الجهوري الخالي من الرحمة، وهذا يؤكد أن المحقق لم يتغير، وهو نفسه الذي حقق معي بالمرة السابقة، ولكنه هو الذي توهم واعتقد أنني قد أتغير لأصبح منكسر الجناح، فقال لي بلهجة هجومية:

- قل لي الحقيقة وإلا سلخت جلدك عن جسدك.

تمهلت للحظة وأجبته بعدها ساخرًا:

- لم أكن أعلم بأنكم على هذه الدرجة من الاقتدار لكي تصلوا إلى هذه المواقع الأمنية العليا في الدولة العراقية بعد أن اعتقدت أني قد تخلصت منكم إلى الأبد.

فقال مستغربًا:

- من هم هؤلاء الذين تعتقد أنك قد تخلصت منهم للأبد؟!

فقلت بثقة تامة:

- أثناء الجولة الماضية عندما كنتُ قابعًا بسجون أسيادكم الفرس بطهران، كان لي تصرف من نوع آخر لكي أنجو وأرجع لوطني العراق، واليوم سيكون لي تصرف آخر معكم ولن تستطيعوا أن تمسوا شعرة من رأسي وأنا في بغداد وأعلى ما بخيلكم اركبوه، بعد أن انتصرت عليكم في إيران وعدت لوطني..

فقال باستهزاء:

- هل أنت مجنون لتتصور أننا عملاء لإيران؟!

فقلت بثقة:

- نعم، تهديدك لي بسلخ جلدي يؤكد ذلك، ومع احترامي لك فحتى لو كنت برتبة عالية وتشغل منصبًا أمنيًا رفيعا، فهناك في إيران تكشفت لي حقائق أن من كان هو أعلى منك بالرتبة والمنصب قد خان العراق وأصبح صبيًا بيد الفرس الأنجاس، وأجزم أنك على إطلاع تام بهذا الموضوع. من ناحية أخرى فالمنطق يقول إن من له مصلحة بإذلالي وسلخ جلدي وأنا لم أفعل شيئًا يتعارض مع أي نهج وطني يؤمن به كل عراقي شريف، سوى هروبي من إيران لأرجع لوطني؟! فإن كان هذا ذنبًا لا يغتفر ويجب عليَّ بأن أدفع ثمنه فبإمكانك إحالتي إلى المحاكم المختصة لتنظر بشأني وينتهي الموضوع.

- الوثائق التي جئت بها من إيران تشير إلى أنك كنت تعمل مع المخربين (البيشمرگة) عن جَد، ولم تكن مرغمًا أو مضطرًا كما ادعيت بإفادتك، كما أن شكلك لا يوحي أنك قد تعرضت للتعذيب عندهم فما قولك بهذا؟

- إذن أنت تنظر لي على أني كنت مخرب (بيشمرگة) بحق وحقيقة، وتلك إشارة كان قد أعتقد بها وصدقها محقق الاستخبارات الإيرانية وهذا ما جعله يحجم بالإقدام على تعذيبي كما كانوا يفعلوا كل ساعة مع إخوتي الأسرى العراقيين، ولولا هذا لكنت الآن قابعًا بإحدى أقفاص الأسرى العراقيين بإيران..

فقال بسخرية:

– ولو حصل هذا لكان حالك هو حال أي أسير عراقي بإيران ولكنا قد تخلصنا من الورطة التي سببها جنابك لنا برجوعك هذا...

فقلت بحزم:

– أولاً العراق وطني، ولي فيه ما لك ولكل عراقي، وأنا أتفهم الإحراج الذي أنت فيه لأنك لم تجد أي سبب يدينني وبالتالي ستقع عليك مسؤولية التوقيع بإطلاق سراحي وهذا ما لا تريد فعله لأنه على ما يبدو أن لك شكوك بموضوعي هذا، ثانيًا موضوع رجوعي مهم لأني نقلت لكم الصورة التي لا تعرفوها عن أحوال الأسرى العراقيين ومعاناتهم بإيران، وتمنيك أني لو كنت قد استمريت لأبقى كأسير بإيران فهذا معناه أن تلك المعلومات عن إخوتي الأسرى التي وضعتها بين أيديكم هي ليست بذات قيمة عندك..

– على ذكر الأسرى العراقيين، اذكر لنا حكاية ذلك الضابط التكريتي الأسير الذي اسمه النقيب حسين هيلان.

أخبرته ما توفر لي أن أعرفه عنه وعن معاناته بالأقفاص الانفرادية بمعسكر دوزبان مركز. مع استهجاني الشديد بغضه الطرف عن أحوال باقي الأسرى، ومنهم الأسير البطل حمدي جاسم هزاع الذي عذبه الفرس أمام ناظرينا بنفس القفص الذي كنت فيه بطهران. لأن صاحبنا هذا الذي كان يحقق معي كان يتكلم بلهجة أهلنا العراقيين من سكنة تكريت، ويبدو أنه لا يهتم بأحوال غيرهم من الأسرى الذين دونت أسمائهم بإفادتي. فقال:

– حسنًا احكِ لنا موضوعك من البداية وحتى النهاية.

– لقد شرحت لك ذلك مفصلاً في المرة السابقة عندما كنا في الشعبة الرابعة بوزارة الدفاع..

فقال متعجبًا:

- كيف علمت أني هو نفس الشخص الذي حقق معك في المرة السابقة وأنت معصوب العينين؟!

فقلت متبسمًا:

- لقد رأيتك ببصيرتي وليس ببصري..

فقال بهزل:

- حسنًا، هل تستطيع أن تخمن كيف هو شكلي؟!

فقلت بثقة:

- إنك عربي ذو سحنة سمراء، متوسط القامة، مملوء الجثة...

وقبل أن أكمل خرجت ضحكة عفوية من شخص آخر كان يجلس بناحية أخرى من الغرفة، فأيقنت بأني قد أصبت بالصدفة بذلك التخمين. فقال المحقق:
- كل الذي تكلمنا به هو خارج محضر التحقيق، الآن أطلب منك أن تحكي موضوعك بالتفصيل الممل كما فعلت في المرة السابقة.

فذكرت له نفس الوقائع التي دونتها في السليمانية وكررتها في استخبارت الشعبة الرابعة من غير أن أنقص أو أزيد بشيء، ولكن من غير تلك الحماسة التي كنت عليها أثناء التحقيق السابق بسبب التكرار الممل، وبسبب الرائحة الزكية للشاي العراقي المعطر بالهيل الذي كان ينبعث من أقداحهم وضرب برأسي المدمن على تناوله، وأفقدني تركيزي بشكل لا إرادي أثناء حديثي.. وبعد أن أتممت تكرار إفادتي طلب مني المحقق التوقيع على ما أكدته بإفادتي التي استمرت أكثر من ثلاث ساعات متواصلة من غير مقاطعة، فوقعت وعيني معصوبة ولم أهتم على ماذا وقعت، ليقيني أن التحقيق السابق والحالي كان يُسجل صوتي وبالتالي لا يمكن لهم أن يحرفوا أقوالي، بدليل أنهم كانوا

يتحاشوا ظهور أصواتهم خلال التسجيل، وبعدها نادى ذلك المحقق على الحراس من أجل أن يأخذوني قائلاً لهم: خذوه إلى مكان يكون مرتاحًا فيه وأحسنوا من معاملته.. وهذا يعني أنه كان يعلم بتفاصيل ذلك المكان السيء الذي وقفت فيه بشكل متواصل على مدى الأيام الأربعة والغاية كانت معروفة الأسباب.

اصطحبي أحد الحراس وكان لطيفًا معي حتى وصلنا لباب إحدى الزنازين، وأنا متشكك من مقولة ذلك المحقق، إن كان فعلاً قد أوصاهم خيرًا بي أم إنه كان كلامًا عابرًا كما فعل معي في المرة السابقة لأنتهي بمكان أتعس من سابقه سأتحسر حينها على شم نسمة من الهواء، سؤال إجابته ستأتيني بعد قليل، ولكن ثمة سؤال آخر كان يطرح نفسه وجعلني متحير أكثر، فهل ذلك المحقق تعاطف معي وتفهم دوافعي؟ أم أنه كان يخشى أن يمسني بسوء، وهو أمر سيعرضه للمحاسبة نتيجة اعتقاده أن موضوعي هذا قد يطرح على جهات أمنية عليا، من شأنها أن تستدعيني وتتعاطف معي، وبالتالي سيؤذونه عندما يروا أثار تعذيبه لي، هذا إذا لم أكن أنا المشتكي عليه.

رجحت الاحتمال الثاني لأن المحقق كان يبدو من أولئك المتعطشين للدماء، ولو أني دخلت عليه بقضية تافهة نتيجة وشاية من مخبر سري ليست ذات أبعاد وطنية، لكان قد سلخ جلدي بسياطه قبل أن يعلقني بسقف غرفته..

بعد أن فتح الحارس باب تلك الزنزانة؛ فك القيد من يدي وأزال العصبة السوداء عن عيني، ثم أدخلني لأجد نفسي بقاعة مستطيلة كبيرة، وقد استلقى المساجين على بطانيات فرشت بذات اليمين والشمال من تلك القاعة، فتنفست الصعداء وحمدت الله كثيرًا على أنه رحم بحالي بتلك المحنة القاسية، فاخترت لنفسي مكانًا شاغرًا للجلوس ورميت بنفسي إليه لأتمدد على طولي، وكأني

كنت في حلم من تلك الأحلام الجميلة التي تتراءى لنا فيها الأشياء التي نتمناها ولا نحظى بها، وكالعادة كما بكل السجون لا بد من طرح نفس السؤال عن قضيتي وسبب سجني؟ فقلت لهم إن موضوعي يتعلق بمسألة مشاجرة بسيطة وسيطلق سراحي قريبًا جدًا، وذلك من أجل تجنب العداء الذي قد يناصبني به من دخل هناك بسبب انتمائه لحزب الدعوة الموالي لإيران التي هربت منها.. فسألني أحدهم:

- كيف اتفق أنهم لم يضربوك أثناء التحقيق؟!

- ألم أقل لكم إنها مسألة تافهة بسيطة..

وهنا تبين لي أن كل من كان موجودًا بتلك القاعة كان قد تعرض للتعذيب الجسدي، وبدوري سألتهم:

- ماذا عنكم، هل أنتم هنا لتقضوا محكومية بالسجن أم ماذا؟

فقال أحدهم:

- نحن الآن في المحطة الأخيرة لنا بهذا المعتقل، لأن من يخرج من هذا الباب فإنه حتمًا سيذهب لخارج المعتقل، باستثناء الحالات التي تستدعي المثول أمام القاضي لتثبت الأقوال التي انتهت عليها التحقيقات، ولكن السؤال هو إلى أين يذهبوا عندما يصبحوا خارج المعتقل؟ فذلك أمر يقرره القاضي..

- ومن ينكر الأقوال التي يريده القاضي أن يوقع عليها؟ فماذا سيكون شأنه؟

فقال أحدهم:

- يرجعه القاضي لنفس المحقق الذي تولى التحقيق معه، ولا حاجة لأن نذكر ماذا سيصاحب إعادة التحقيق، ثم يرجع لنفس القاضي ليؤكد أقواله التي أنكرها في المرة السابقة، ونصيحتنا لك ألا تنكر أقوالك عندما يستدعيك القاضي..

- أين يجلس القاضي؟ هل في المحكمة أم إنه يتواجد هنا بهذا المعتقل؟

رد أحدهم قائلاً:

- إن القاضي هو أحد منتسبي هذه الدائرة.

مكثت بتلك الزنزانة الكبيرة من غير حدوث أي مشاكل تذكر، باستثناء معاناتي من تفشي القمل الذي كانت لسعاته على نحو شرس، وهكذا تأقلمت مع ذلك الوضع، وقد علمت من المساجين أن من يوقع على إفادته ينتهي عندها التحقيق معه، وأنا كنت قد وقعت عند انتهاء التحقيق الأخير معي من غير أن أعرف على ماذا وقعت، واستنادًا لما قاله لي بعض السجناء الذين مضى عليهم فترة طويلة بتلك الزنزانة، فمن المفروض أن يبعث القاضي بطلبي من أجل المصادقة على أقوالي، لكي يتمكن من بيده قرار إطلاق سراحي أن يستند على ما سيقوله القاضي بحقي، وهذا الأمر كان مستبعد من وجهة نظري لأن حالتي كانت خاصة جدًا، كما أنني لم أتهم رسميًا بأية تهمة واضحة وصريحة، إذا ما استثنيت تلك التعليقات النارية التي تفوه بها المحقق بأخر تحقيق لي معه، وبالتالي ماذا سيُعرض على القاضي إذا ما مثلت أمامه؟ هذا ما ستكشفه لي الأيام القادمة.

وحتى ذلك الحين لم أجد أمامي من شغل شاغل أقضي به وقتي سوى الاطلاع، من خلال الإنصات على ما كان السجناء يبوحون به طوعيًا بعضهم لبعض، بخصوص التهم التي كانت قد وجهت لهم من قبل من حققوا معهم، فوجدتهم على نوعين أو من مجموعتين، الأولى منهم كانت دعاوى عادية مثل تهمة التستر أو التهجم أو التذمر أو حيازة السلاح الناري بدون رخصة أو التسلل عبر الحدود وغيرها من تهم الوشايات الرخيصة بما قيل وقال. أما الثانية منها فهي التهم الخطيرة التي تتعلق بأمن الدولة من خلال الانتماء للأحزاب المعادية للدولة والمحظورة رسميًا مثل حزب الدعوة الموالي لإيران، والحزب الشيوعي العراقي، وكل الأحزاب الكوردية بكافة مسمياتها، لأنها تعتبر من وجهة نظر السلطة متأمرة، لأنها تعمل على قلب نظام الحكم آنذاك.

وكان كل المتهمين بجميع أشكالهم قد تمَّ إلقاء القبض عليهم، ولم يكن بينهم أحد سلم نفسه طواعية باستثنائي عندما دخلت السجن بمحض إرادتي وعن سابق إصرار، ولا يتوهم أحد أنني كنت أتوقع أن تفرش السجادة الحمراء لي عندما أصل للعراق وببغداد على وجه التحديد. كما أن البعض من أولئك السجناء قد تمَّ إلقاء القبض عليهم بالمصادفة وليس جراء متابعة استخبارية له، ومثال ذلك تلك الدعوة القضائية التي كانت مشهورة بذلك المعتقل واتهم فيها أكثر من خمسون شخصًا بتهم مختلفة لكل واحد فيهم، والغريب في أمرهم أن أحدهم لم يكن يعرف سوى واحد أو اثنين من باقي المتهمين بتلك الدعوة، حتى التقوا بهذه القاعة أو بمثيلتها التي كانت مجاورة لها، بعد فترة قضوها بالتحقيق والسجن بتلك الزنازين الصغيرة وقوفًا، بعد أن وقعوا على أقوالهم، وعندها عرف كل واحد فيهم تسلسله ودوره بتلك القضية.

وملخص حكايتهم كانت كالآتي: كان هناك شخص مراقب من قبل الأجهزة الأمنية بسبب أن والديه كانا قد سافرا إلى بلغاريا هروبًا من احتمال القبض عليهم، لأنهما من الأعضاء القياديين في الحزب الشيوعي الذي ساءت علاقته مع الدولة بعد أن جمعتهم لفترة قصيرة بما كانت تسمى بالجبهة الوطنية، ولم يتمكنا من اصطحاب ولدهما الوحيد معهما، لأنه كان يقضي الخدمة العسكرية الإلزامية التي تمنعه من السفر لخارج العراق بصورة رسمية، وعندما تمَّ إلقاء القبض على ولدهما واجهوه ببعض الأنشطة الاجتماعية الاعتيادية من خلال تحركاته ومن التقى به على طول فترة مراقبته قبل الاعتقال، ومنها أنه كان قد التقى بصديق له كان يسكن بحي الزعفرانية، وقد تمشى معه لمسافة ثم أنضم لهما شخص ثالث أثناء الطريق، ولهذا سأله المحقق بعد اعتقاله عن طبيعة العلاقة التي جمعته مع أولئك الشابين، فقال لهم:

- إنني أعرف الشخص الأول منذ أيام الدراسة حتى افترقنا ليذهب هو ويدرس في الجامعة، وذهبت أنا للخدمة العسكرية الإلزامية بسبب عدم استمراري في الدراسة لظروف عائلية خاصة..

وعندها سألوه عن الشخص الثاني الذي انضم لهم أثناء الطريق، وما طبيعة علاقته بذلك الشخص، فقال لهم:

- أنا لا أعرفه، ولم يسبق لي أن التقيت به من قبل لأنه كان صديقًا لصاحبي الذي كان يتمشى وإياي.

فسأله المحقق عن المواضيع التي كانوا يتكلمون بها أثناء سيرهم، فقال له:

- لقد تكلمنا عن أشياء اعتيادية تتعلق بالحياة العامة والدراسة وما هو متوفر أو مفقود من الفواكه والخضر في الأسواق..

وعلى أثر تقديم صاحبنا هذا لإفادته، أغاروا ليلاً على بيت صديقه الأول وجلبوه بشكل مهين أمام مرآى ومسمع أهله وكل جيرانه، ليودعوه فور وصوله بتلك الزنزانات الضيقة ليستوي ويختمر من خلال الوقوف لعدة أيام، وحينها سيكون جاهزًا للتحقيق معه، وتلك هي طريقتهم لكل من يؤتى به للشعبة الخامسة السيئة الصيت، كما أنهم لا يستثنون من هذا التقليد الإجرامي كل من كان يحول لهم أو هم يقبضوا عليه وذلك ما فعلوه معي أيضًا، من أجل أن ينهكوه وينالوا من كبريائه قبل أن يخضع للاستجواب الأول، لكي يستجيب فورًا ويصبح أكثر تعاونًا ليعترف لهم بما فعله وما لم يفعله خشية إرجاعه إلى نفس الزنزانة ليقف على أرجله لأيام أخرى.

وعندما استدعوه للتحقيق سألوه عن علاقته بذلك الشخص الذي سافر والديه لبلغاريا عندما انكشف أمرهم أنهم كانوا أعضاء بارزين بالحزب الشيوعي، فأخبرهم أنه يعرفه منذ أيام الدراسة المتوسطة، وإنه يجهل النشاط السياسي

المحظور لوالديه، ولو كان يعلم بهذا لكان قد كتب تقريرًا إلى مسؤوله في التنظيمات الطلابية لحزب البعث. فسألوه عن الشخص الآخر الذي انضم لهم أثناء سيرهم بالطريق، فأخبرهم أنه جار له بنفس محلته، فسألوه عن نوع الحديث الذي شاركهم به ذلك الجار، فأخبرهم أنه كان حديثًا عاديًا يتعلق بفقدان الطماطم والبرتقال من الأسواق.

وعندها أرسلوا مفارزهم على الفور لتقبض على جاره هذا ثم وجهوا له تهمة التذمر، بعد أن نال قسطًا من التعذيب ولم يحصلوا منه على أية معلومة أخرى ذات أهمية لكي يمسكوا من خلالها برأس خيط آخر الله أعلم إلى أين سيقودهم. أما صاحبنا طالب الجامعة فإنهم قد أكملوا مشوار التحقيق معه وعلقوه من يديه التي كبلت إلى خلف ظهره، وقالوا له ما دمت نزيلاً لدينا يجب عليك إخبارنا عن كل صغيرة وكبيرة تحصل في الجامعة التي تدرس فيها؟ فلم يستطع أن يقول لهم إنه لا يعرف شيئًا عن كل ما يحصل بالجامعة، لأنه لو فعل ذلك فسيبقى معلقًا بسقف غرفة التحقيق، وتلك معاناة صعبة للغاية، ولا يستطيع أحد على الإطلاق أن يقاوم آلامها، وإذا حاول أن يعاندهم فإنه سيخسر كلتا يداه، لأنها ببساطة سوف تتمزق وتنخلع عن أكتافه. فقال لهم بعد ثوان من تعليقه:
- أنزلوني وأنا سأخبركم بكل شاردة وواردة تحصل بالجامعة ولكم أن تختاروا ما ترغبون بانتقائه وأيًا منها سيفيدكم.

وأخذ المسكين يحدثهم عن كل ما كان يراه أو يسمعه كل يوم عندما يذهب صباحًا إلى الجامعة وحتى مغادرته إياها في المساء. وعندها استوقفوا كلامه لكي يوضح ما ورد بكلامه عن مجاميع الطلبة التي تلتقي في فناء الجامعة بعد وقبل الحصص الدراسية، فأخبرهم أنه لم يكن يلتقي بهم، لكنه كان يعرف أن تلك المجاميع كانت من نوعين، الأولى منها كانت تتحدث عن الدين الإسلامي وتعاليمه، والثانية كانت بمعزل عن الأولى تتحدث عن الحياة العصرية ومباهجها.

فسألوه عن أسماء من كانوا يتحدثون بالأمور الدينية، فزودهم بأسماء أولئك الطلاب. ثم سألوه إن كان قد بلغ مسؤوله الحزبي بذلك الأمر، فقال لهم إنه لم يسمع منهم ما كان يستوجب الإخبار عنه. فاعتبروه مقصرًا بهذا وألصقوا به تهمة التستر، ووقع على أقواله وانصرفوا لغيره من خلال إرسال مفارزهم لتلتقط أولئك الطلبة الذين زودهم صاحبنا المسكين بأسمائهم لكي يحققوا معهم على نفس الطريقة منذ أول وصولهم ولحين مثولهم للتحقيق.

وأثناء التحقيق معهم كل على انفراد؛ فرزوا واحد منهم ليصبوا جام غضبهم عليه، لأنه كان المتحدث البارز بتلك المواعظ الدينية بداخل الحرم الجامعي، فركزوا التحقيق عليه وصرفوا الباقين ليأخذوا دورهم بالانتظار بإحدى القاعتين الكبيرتين التي كنت أنا نزيل واحدة منهما، بعد أن قدم كل واحد منهم ما يعرفه من معلومات تخص جارًا أو قريبًا أو زميلاً أو حتى أخًا له.

ومن خلال التحقيق مع ذلك الطالب المتدين علموا أنه قد تتلمذ الدين عندما كان يستمع إلى الإرشادات والمواعظ الدينية من رجل من نفس محلته، كان يتواجد بالجامع القريب من بيت ذلك الطالب، فاعتقلوا ذلك الواعظ وكان موظفًا بمصلحة السكك الحديدية، وبعد أن علقوه من يديه بسقف الغرفة استغفلوه من خلال الادعاء أنهم قد كشفوا عناصر كل الخلية التنظيمية التي ينتمي إليها، وقد اعترفوا كلهم أنه كان العقل المدبر لكل فعاليات حزب الدعوة! فانهار ذلك الدعوجي صاحب المواعظ فور سماعه لذلك الخبر الملفق واعترف لهم بكل نشاطه بذلك الحزب المحظور لأنه موالي لإيران بزمن الحرب معها، وبدوره كشف لهم عن كل أسماء التنظيم.

وعلى الفور قبضوا عليهم كلهم واعترفوا بانتمائهم لحزب الدعوة، وبدورهم أيضًا كشفوا عن أسماء أخرى، حتى أصبح عدد جميع من ألقي القبض عليه

بتلك الدعوة أكثر من خمسين شخصًا، تمَّ إحالة من كان متهمًا بتهمة التستر أو التذمر أو التهجم إلى المحاكم الخاصة ليعاقبوا، ويحكم بالإعدام شنقًا من اعترف منهم بانتمائه لحزب الدعوة، وتأجل تنفيذ حكم الإعدام للبعض منهم، بغرض الحاجة لهم كشهود ضد متهمين آخرين سيلقى القبض عليهم حال توفر معلومات عن مكان تواجدهم بعد أن فروا من مناطق سكناهم، ومن هؤلاء الذين قد أرجئ تنفيذ حكم الإعدام بهم، كان الشخص الجالس بجواري بنفس تلك القاعة التي كنت حبيسًا فيها، والمهزلة الكبرى أنه كان معينًا كمسؤول عني وعن باقي المساجين بصفته مراقبًا للقاعة..

أما صاحبنا الذي كان تسلسله في تلك القضية هو الرقم واحد فإنه قد عُذب تعليقًا من يديه المربوطتين خلف ظهره لفترة طويلة، حتى فقد إحساسه بوجودهما لتصبحا بعدها متدليتين من غير حركة وكأنهما خرقة بالية، لأن المحققين أرادوا أن يحصلوا منه على اعتراف أنه كان سائرًا على خطى والديه اللذان هربا إلى بلغاريا، ولم يعترف لهم بشيء لأنه ببساطة شديدة لم يكن منخرطًا مثلهما بتنظيمات الحزب الشيوعي العراقي.

ومن هذه الحكاية وغيرها من الحكاوي المختلفة الأنواع؛ استدليت أن أجهزة الأمن لم تكن على درجة من المهنية بجمع المعلومات عن من هو مشتبه به، لكي تتأكد أنه قد قام بعمل معادي بالضد منهم ثم تقبض عليه لتواجهه بالأدلة التي جمعت عنه، هذا لأنها اختصرت المسافة وانتهجت طريقة الصيد في الماء العكر وأخذت تعذب كل من يرد اسمه بتحقيقاتها العشوائية المتخبطة، من أجل أن تكتشف ما كانت عاجزة عن كشفه من خلال التحري وجمع المعلومات البينية، غير آبهين بمصلحة هذا المواطن العراقي البسيط، وما سيلحق من ضرر بسمعة الأبرياء منهم عندما يخرجوا من ذلك المعتقل، ليرجعوا يعيشوا

بسلام وسط مجتمعهم الذي سينبذهم من خلال عدم التعامل معهم مجددًا، تملقًا للسلطة وخشية من بطشها الذي لم يكن له حدود، وبذلك سيصبح كل هؤلاء الأبرياء مرضى نفسيين بعد تحطم مستقبلهم الدراسي والمهني وحتى الاجتماعي، بسبب تلك الممارسات التي لا يقبلها ولا يقر بها أي عراقي منصف وشريف..

وكنت طيلة تلك الفترة التي اختلطت بها بباقي المساجين متكتمًا على موضوعي، حتى دخل علينا بمساء إحدى الليالي شخص باللباس العسكري، من غير حمله لأية رتبة عسكرية، وكان الوحيد الذي رأيت ملامح وجهه بوضوع بذلك المعتقل، لأننا كنا ممنوعين من رفع رؤوسنا عندما يكلمنا أي شخص من الحراس الذين يدخلوا علينا بين الحين والآخر بغرض تفقد المكان، وعندها صف المساجين بطابور وأخذ بسؤال كل واحد منا عن ما اقترفه من جرم وما نوع الحكم عليه، حتى وصل إلي وسألني نفس السؤال؟ فأجبته أني لم توجه لي أية تهمة حتى الآن. فسألني عن الذنب الذي اقترفته؟ فأجبته أني لم أفعل أي شيء يخالف القوانين. فضاق ذرعًا وسألني عن الموضوع الذي من أجله دخلت لهذا المعتقل؟ فقلت باستحياء وأنا أنظر لمن حولي عله يفهم مقصدي وقلت له إن بإمكانه الاطلاع على ملف قضيتي ليعرف كل التفاصيل. فقال بصرامة إنه يريد أن يعرف التفاصيل مني مباشرة، فلم أجد مفرًا إلا أن أقول له إن سبب وجودي للتحقيق بذلك المعتقل كوني هربت من أقفاص الأسرى العراقيين بطهران، فقال باستهجان وهو يشير برأسه إلى الشباك العالي بتلك الزنزانة إن كان باستطاعتي الهروب منه، فسكت ولم أجبه بشيء لأن أوضح جواب لمثل هكذا سؤال سخيف يجب أن يكون بعدم الجواب، وبذلك عرفت أن هذا الشخص التافه هو مجرد متطفل يسعى لقضاء بعض الوقت من خلال استعراض مصائب الناس ليستمتع بها، وهو ليس مسؤول كما أوحى لنا

بتصرفه هذا، لأنه ليس إلا رئيس للحراس أو ما شابه ذلك من تلك المهن الحقيرة التي يمارسها هو وأمثاله من الصيع عند تعذيبهم لكل من يقع بين أيديهم، وعند ذلك تركني لشأني وانصرف عني ليسأل من هو بعدي في ذلك الطابور الذي اصطففنا به، حتى انتهى بسؤال الجميع وخرج بعدها.

عندها انهالت علي أسئلة المساجين من كل جانب من أجل أن يعرفوا حقيقة أمري، باعتبارها كانت الحالة الوحيدة التي لم يسبق أن مرَّت عليهم من قبل، فاكتفيت أن أحكي لهم عن مشاهداتي للسجون الإيرانية وأقفاص الأسرى العراقيين من غير أن أجيبهم على كيفية خلاصي من تلك السجون، وكيفية عودتي للعراق باعتباره سرًا كنت قد منعت من البوح به إلى أن ينتهي التحقيق بموضوعي، فشكك البعض بمجريات ما حكيته لهم وصدق آخرون كل كلمة قلتها. وكان أول من صدق بحدوث ذلك هو مراقب القاعة، لأنه كان من حزب الدعوة الموالي لإيران، وبالتالي تصديقه لي جعله يناصبني العداء بكل صغيرة وكبيرة، باعتباره أقدم سجين ومراقبًا من أجل الإشراف على تنظيف القاعة ودفع كل من ينادى باسمه من قبل الحراس إلى خارج الزنزانة، وقد اشتكى علي عند الحراس لمرات عديدة بحجة امتناعي للمشاركة بالتنظيف، ولم يجد له منهم أذانًا صاغية لأنهم - كما كان يبدو - على معرفة بدوافعه للانتقام مني ومن بعض المساجين الآخرين من خلال الكاميرات المزروعة بتلك القاعة بغرض مراقبتنا على مدار الساعة..

ومرت الأيام وأنا صابر بتحملي للجوع بسبب سوء التغذية، وبتحملي القسري للسعات القمل الذي انتشر بكل أنحاء جسدي، واعتاش على دمي حتى أصبح هو همي الوحيد بذلك الانتظار الطويل وقد أوشكنا حينها أن ندخل بفصل الصيف وأنا لا زلت مرتديًا للملابس الشتوية، فقد دخلت لذلك المعتقل بمنتصف الشهر

الأول من تلك السنة ١٩٨٣، وأثنائها وزع الحراس علينا بعض الدشاديش البيضاء كصدقة بمناسبة حلول الذكرى السنوية لتأسيس حزب البعث في السابع من نيسان، فلم أحصل على واحدة تناسب مقاس طولي ورضيت مضطرًا أن أرتدي واحدة كانت قصيرة، من أجل أن أرمي بملابسي الشتوية التي عشعش وتكاثر فيها القمل.

وفي تلك الأيام من شهر نيسان أخذ الحراس ينادوني بين الحين والآخر من أجل أن يسألوني من خلال فتحة بباب الزنزانة عن تاريخ دخولي إلى ذلك المعتقل، وتلك حجة واهية لأن ذلك السؤال قد تكرر لعدة مرات، وبذلك أصبح واضحًا لي أن الاهتمام بقضيتي التي أصبحت راكدة هو نتيجة شيء كنت أجهله قد استجد لتحريك القضية بعد أن أهملوني متعمدين طيلة الأشهر الثلاثة الماضية، وقد صدق حدسي بذلك ولكني حينها لم أعلم بتفاصيله إلا بعد خروجي من ذلك المعتقل، وعلى أثر ذلك الاهتمام نودي بأحد الأيام القريبة اللاحقة باسمي من أجل أن أخرج، فخرجت وكالعادة قيدت يداي وعصبت عيني وأدخلوني إلى إحدى الغرف الخاصة بالتحقيق، وهناك تمَّ رفع القيد من يدي، وسمعت صوتًا مهذبًا عطوفًا شعرت بانتمائي له كعراقي، قال لي:

– نحن لجنة قضائية جئنا للنظر بقضيتك من أجل اتخاذ القرار بشأنها، احكِ لنا من فضلك قصتك من البداية وحتى النهاية.

شعرت براحة كبيرة عند سماعي لذلك الكلام المهذب وأخذت أقص عليهم نفس الكلام الذي ذكرته أثناء التحقيقين السابقين، من غير أن أتشنج، حتى وصولي إلى تلك الفقرة التي كانت تتعلق بحديثي مع مدير الاستخبارات الإيرانية المدعو سرهنك (عقيد) توكان باللغة الإنكليزية وما جد بشأنها من تطور بالأحداث لغير صالحي عندما كنت في سنندج. فقاطعني أحدهم ليقول لي كلامًا هو أقرب للعتاب من المحاسبة:

– ما كان لك أن تفعل هذا لأنك بذلك أوقعت نفسك بورطة كبيرة كنت بغنى عنها.

فقلت له:

– إنكم لم ترسلوني بمهمة استخبارية أو عسكرية لإيران كما اتهمني الإيرانيين لكي أفعل كذا ولا يجب علي أن أفعل كذا، وإذا كان قد حصل هذا فعلاً وإنكم دربتوني على كيفية التصرف عند الوقوع بمثل هذا الموقف، وهذا بالطبع ما لم يحصل بيننا، ولذلك فإني قد تصرفت حينها على سجيتي البسيطة التي قادتني ألا أتحسب لعواقب تلك الهفوة التي دفعت ثمنها غاليًا فيما بعد..

فقال أحدهم الآخر:

– ولكنك شكلك لا يبدو عليه أنك كنت قد عانيت من كل تلك المصاعب التي ذكرتها!

– بإمكانك أن تطلع على شكلي الذي كنت عليه من خلال صورتي المرفقة بسجل أضبارتي بوحدتي العسكرية، لتقارن الفرق بشكلي الحالي وما كنت عليه سابقًا، لتعرف حجم المصاعب التي واجهتها بإيران.

ثم قال لي أحدهم:

– إنك محق بما تقول، ولك أن تستمر بالحديث لتكمل لنا باقي الموضوع.

فأستمريت حتى أكملت حديثي وتوقفت عن الكلام بانتظار أي سؤال قد يوجه لي، فقال رئيسهم الذي كلمني ببادئ الأمر أول دخولي عليهم:

– هل تريد أن تقول شيئًا آخر خارج قولك بإفادتك؟

– نعم، أطلب منكم السماح لي بالاشتراك معكم بالتحليل والاستنتاج لموضوع أعتقد انه يحول دون وصولكم إلى اتخاذ قرارًا من شأنه أن يطلق سراحي، فهل تسمحوا لي بإبداء ملاحظاتي؟

فقال رئيسهم:

- نسمعك تفضل قل ما تشاء..

- أنا أؤمن أن عقلية الإنسان العراقي راجحة وتبحث في المنطق على عكس عقلية الإيراني المتخلفة والمتشبعة بالخرافات بكل نهج يتبعوه، وعليه فإن حضراتكم كمحققين قضائيين عراقيين تختلفون حتمًا عن تلك العقلية الفارسية الخرفة التي تعاملت معي في إيران، والمنطق هنا يقول إن ما قد يطرأ على بالكم أن إيران قد تكون هي من جندتني وبعثت بي إلى العراق هو أمر بعيد عن الواقع ولا يتقبله المنطق، لأن ذلك لو كان فعلاً قد حصل والعياذ بالله فإنهم كانوا سيرسلوني للعراق متسللاً بمساعدة أعوانهم الخونة من العراقيين وأنتم تعرفوهم جيدًا، لأذهب لوحدتي التي هي بعيدة عن مسرح العمليات العسكرية بجبهات القتال مع إيران، عند صدور أول عفو يصدر عن الهاربين من الجيش العراقي، لأن وحدتي بالتأكيد قد قيدتني بسجلاتها أنني هارب من الجيش ولست أسيرًا لدى إيران، ولهذا فإنه ليس من المنطقي أن يدفعوا بي لأذهب إلى استخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية لأصرح لهم عن تلك الوقائع التي ذكرتها لكم قبل قليل، ولم تكونوا أنتم أو وحدتي أو حتى أهلي على علم بها حتى رجعت وقلتها لكم بنفسي، ثم تحدث هذه الضجة الكبيرة وأعتقل على مدى الشهور الأربعة الماضية على ذمة التحقيق، والخلاصة أن إيران الملالية صاحبة الخرافات والشعوذة عندما تريد أن تجندني أنا أو غيري فإنها لن تسلك هذا المسار الذي أوصلني بين أيديكم الآن...

فقال رئيسهم بلطف:

- كيف عرفت أن هذا الأمر قد يطرأ على بالنا ونحن حتى الآن لم نوجه لك التهمة بذلك؟!

قلت متبسمًا من أجل تلطيف جو تلك المحادثة إن لم أقل المكاشفة الصريحة معهم:

- ألم توجه لي تهمة التجسس لصالحكم عندما كنت في إيران؟!

وتلك إشارة أردت بها أن أقول لهم بكلام مبطن أني قد خبرت كل هذه الأساليب من خلال تعاملي مع ما يفكر به المحقق عادة في قضية كهذه، وأن أعمل على حل تلك العقدة التي ربطت برؤوسهم من خلال تصورهم أن إيران قد جندتني لصالحها كعميل رخيص ضد مصلحة أبناء وطني..

وعند تلك النقطة انتهت المقابلة بعد أن شددوا بكل صدق على من تولى إعادتي لزنزانتي أن يعاملوني بلطف ويلبوا احتياجاتي، وعندها وجدت أنه من غير المناسب أن أشتكي من حالي السيء لما عانيته من جوع وقذارة، فأثرت أن أحترم نفسي وأمضي عائدًا لزنزانة سجني، وهناك استرديت أنفاسي وتيقنت أن أيام وجودي بذلك المعتقل اللعين قد باتت معدودة، بل هي قريبة بعونه تعالى، وفعلاً نودي اسمي في صباح إحدى الأيام للخروج مع جمع من المساجين، فعرفت على الفور أني سأخرج من ذلك المعتقل وليس لغرض التحقيق أو ما شابه، ذلك لأنني لم أطلب للخروج وحدي، ولأن التحقيقات عادة ما تكون أثناء فترة المساء أو بوقت متأخر من الليل.

وعندها خرجت مع تلك المجموعة من غير أن يعصب الحراس عيوني أو يقيدوا يداي، واكتفوا بتحذيرنا بوجوب النظر إلى الأرض لكي لا نرى تفاصيل ذلك المكان المريع وملامح حراسه الدمويين، فاقتادونا وكنا خمسة مساجين إلى مخزن تراكمت به الأحذية القديمة والرثة لكل مساجين ذلك المعتقل من أجل أن ينتقي كل واحد منا زوجًا من الأحذية، وبطبيعة الحال لم أجد حذائي لأنه قد سرق من قبل الحراس أول وصولي لهم، وأصبح لازمًا أن أنتقي أي حذاء آخر،

فلم أجد سوى كومة من الأحذية العسكرية التي عادة ما تستعمل عند التدريبات وتدعى بالعامية البسطال ويلقب نكاية بغاية الهزل من قبل بعض الجنود أنه أبو طلال، فأجبرني الحراس أن ألبس إحدى تلك الأحذية العسكرية، ففعلت ذلك على الفور قبل أن يرجعوا بكلامهم ويعيدوني إلى الزنزانة لأبقى فيها لأيام أخرى، وبعدها اقتادونا إلى خارج تلك البناية ليرموا كل واحد منا بسيارة مغلقة لأنه على ما كان يبدو أن كل واحد منا كانت له جهة مغايرة عن الباقين.

صعدت إلى إحداها وانطلقت بي من غير أن أعرف أو أستدل إلى أين كانت وجهتنا، لأنني لم أستطع أن أرى شيئًا خلال مسيرتنا بشوارع مدينة بغداد على الرغم من عدم وجود العصبة السوداء على عيني وأنا بداخل ذلك الصندوق الحديدي المحكم بسيارة البيك أب، حتى توقفوا وأنزلوني، فعلمت أننا في أمرية الانضباط العسكري بمقرها العام، فاستلمني مأمور السجن هناك وقادني إلى زنزانة التسفيرات التي بالكاد وصلتها لأنني أصبت بالعمى المؤقت بسبب عدم رؤيتي أو تعرضي للشمس طيلة الأربعة أشهر الماضية، ولدى دخولي إلى تلك الزنزانة التي كنت قد دخلتها عندما تمَّ تسفيري إليها قادمًا من كركوك، ضحك جميع المساجين هناك وهم يتطلعوا لي بسبب ارتدائي ذلك الحذاء العسكري الذي يعلوه دشداشتي البيضاء القصيرة، بذقني الطويل الذي لم يتسنَ لي حلاقتها طوال فترة سجني ببغداد، حتى بات شكلي مطابقًا بالتمام لأولئك الجنود الإيرانيين الذين كان أحدهم يرمي بنفسه على الألغام بساحات الحرب، وعندما وقعوا بالأسر رأيناهم من على شاشات التلفاز وهم يرتدون الكفن الأبيض القصير مع الحذاء العسكري بلحاهم الطويلة، وحينها لم يكن ينقصني سوى أن أحمل البندقية لكي أبدو مثلهم بالكمال والتمام.

وأثنائها عملت بكل جهد من أجل الاتصال بصديقي الحميم الذي ساعدني في المرة السابقة من تواجدي بنفس تلك الزنزانة، ولكن من غير جدوى، فعملت على أن أجد أحدًا من المساجين الذين قد يطلق سراحهم قريبًا من أجل تزويده برقم هاتف أهلي لكي يتصل بهم ويخبرهم بمكاني، ثم يأتوا لمواجهتي ويجلبوا لي ما كنت أحتاجه من ملابس أرتديها، فلم أوفق أيضًا لأن جميعهم كانوا مثلي بانتظار تسفيرهم لوحداتهم، وبين هذا المسعى وذلك الجهد جاء دوري لأن أسفر إلى وحدتي مخفورًا بصحبة مأمور من تلك الأمرية، فخرجت من سجن المقر العام لأمرية الانضباط العسكري وأنا مكبل اليدين وعلى تلك الهيئة المخزية، واتجه بي مأموري الجديد مباشرة إلى كراج النقل بمنطقة علاوي الحلة ببغداد من أجل أن نستقل الحافلة المتجهة إلى محافظة الأنبار، فترجيته أن نمر ببيتي القريب من دائرة الانضباط من أجل أن أرتدي ملابسي ثم ننطلق بمشوار سفرنا، بحجة أني قد أصبحت بتلك الدشداشة القصيرة والجزمة العسكرية وذقني الطويل أشبه بأولئك الأسرى الإيرانيين، فأبى أن نمر ببيت أهلي باعتبار أن الملابس متوفرة على طول طريق سفرنا إلى وحدتي بقاعدة الوليد الجوية القريبة من قضاء الرطبة الحدودي، فاستسلمت لذلك الأمر الواقع عندما وجدت أن مأموري لم يكن متعاونًا معي، ممنيًا نفسي أنني على أقل تقدير سأتمكن من شراء نعلاً من البلاستك الرخيص لكي أرمي بتلك الجزمة العسكرية فور وصولنا إلى كراج النقليات، ولكن القدر على ما كان يبدو قد رسم لي بختام رحلتي هذه أن أكون مسخرة بل مضحكة لكل من كان ينظر لتلك الهيئة المخزية.

وعند وصولنا لكراج النقل مضى بي مأموري مباشرة لإحدى الحافلات المتجهة لمحافظة الأنبار، من غير أن يمنحني الفرصة التي وعدني بها لكي أشتري نعلاً من تلك الأكشاك المنتشرة بذلك المكان، وأنا وسط دهشة واستغراب كل من كان

متواجدًا بذلك الكراج الذي وصلناه من خلال سيارة تاكسي أجرتها لتذهب بنا مباشرة لكراج النقل، فأجلسني مأموري بتلك الحافلة الصغيرة وكان سائقها يسعى للحصول على مسافرين آخرين، وتراصف بجواره مأموري عند باب الحافلة وهو يدخن سيكارته حتى يحين موعد انطلاقنا الوشيك باكتمال عدد المسافرين، وعندها لاحظت جمهرة من بعض سائقي الحافلات المجاورة، وهم يتهامسون مع مأموري وهم ينظروا نحوي باستغراب شديد، وعلى أثرها رشقني بعضهم ببعض الألفاظ النابية، وبعضهم الآخر تمادى أكثر وبصق علي من النافذة المفتوحة للسيارة بإشارة لسخطهم علي، ومن الشباك الآخر مد آخرون أياديهم من أجل أن يضربوني، فأصابني الذهول ليس من المفاجأة غير المتوقعة، وإنما لأني قد تعرضت لمثل تلك الإهانات عندما كنت بكراج النقل الإيراني بطهران أثناء تسفيري لمحافظة أرومية وكنت مكبلاً وضربني الجمهور الإيراني كوني أسيرًا عراقيًا، وعندما استفقت من ذلك الذهول غضبت بشدة لتلك الأفعال الرعناء ورديت على إهانتهم لي بنفس الكلمات البذيئة التي وصفوني بها، وبنفس الوقت حاولت الإمساك بتلك الأيادي التي امتدت لتحاول ضربي، وعندها قال أحدهم: انظروا أنه يتكلم العربية مثلنا، فأصبح واضحًا لي أن مأموري السفيه كان قد أجابهم عندما استفسروا منه من أكون، وبدوره أخبرهم من باب الهزل خلال تهامسه معهم أني أسير إيراني مسفر إلى أقفاص الأسرى الإيرانيين بمدينة الرمادي، وأثنائها لم أتمالك نفسي فصببت جام غضبي على ذلك المأمور التافه على ما ألحقه بي من سوء بعد أن شبهته بأبناء الشوارع، مذكرًا إياه أن الزمن العاهر هو الذي جعل الجندي البسيط أن يقتادني مكبلاً وأنا النائب الضابط ليجعل مني مسخرة أمام الخلق، ولم يشف غليلي إلا عندما بصقت بوجهه جراء فعلته السخيفة، وقد هددته بأني سأشتكيه عند وصولنا لوحدتي العسكرية لينال جزاءه جراء فعلته النكراء.

وأثنائها اعتذر مني كل من شارك بتلك الجمهرة الغوغائية بعد أن تيقنوا أني عراقيًا ولست أسيرًا إيرانيًا، وتوجهوا باللوم لذلك الجندي السخيف الذي لم يكن يتصور أن مزاحه سيعرضني لتلك المهانة، من غير أن يخطر على باله قطعًا أني قد تعرضت لنفس ذلك الموقف بطهران قبل عدة أشهر ولنفس السبب ولكن كأسير عراقي. وبدوري أستطيع أن أجزم بشكل يقين أن ولا أي أسير عراقي أو إيراني قد تعرضا لنفس ما تعرضت له من إهانة بكلا المكانين: كراج النقل العام بمنطقة علاوي الحلة ببغداد وكراج السفريات بميدان أزادي بطهران...

بعد تلك الواقعة التي كدرتني كثيرًا انطلقنا إلى مدينة الرمادي بمحافظة الأنبار وهناك تسنى لي أن أشتري نعلاً يناسب تلك الدشداشة القصيرة ليصبح شكلي مقبولاً على الأقل، ومن هناك أكملنا مشوارنا حتى قضاء الرطبة ثم لقاعدة الوليد الجوية التي تبعد عنه أكثر من ساعتين وقد وصلناها مساءً، فسلمني ذلك الجندي المأمور السخيف لاستعلامات القاعدة، وبعدها أودعني ضابط خفر القاعدة بسجن القاعدة، إلى أن يُعرض ما جاء بكتاب الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية على من هو معني بموضوعي في صباح اليوم التالي، وقضيت ليلتي بسجن القاعدة، وهناك التقيت بنفس المساجين الذين كنت قد التقيت بهم قبل خضوعي للتحقيق في بغداد، فتعجبوا وهم يرونني مرة أخرى، لأنهم وجدوا أن قضيتي ليس من ورائها أية حرية أو إطلاق لسراح.

ولا زلت أذكر بكل طيب وممنونية أحدهم الذي جمعتني وإياه بوقت سابق ظروف عمل بمكان واحد، واسمه حسين رشيد الذي استقبلني بحرارة وهو يحمد الله ويشكره على سلامتي، ولم يدعني أدخل للزنزانة إلا وغلى لي الماء الحار لأستحم به ثم جهزني بالملابس الداخلية الجديدة، ولم يكتفِ بذلك فقط بل غسل لي دشداشتي التي كانت مملوءة بالقمل، وأصر على أن يساعدني

بالاستحمام، ومع رفضي لذلك لكنه أصر على خدمتي، وأعتقد أن له غرض آخر لم يفصح عنه وهو أنه أراد أن يتأكد بنفسه أن كنت قد عذبت جسديًا أم لا، وهذا ما نقله لباقي السجناء الذين تعجبوا من أن شخصًا عاد من طهران ولم تعذبه الشعبة الخامسة التي كانت تستخدم التعذيب لأبسط القضايا.

بعد أن تنظفت من القمل وقذاراته؛ نمت ليلتي مرتاح البال بعد أن قصصت على الموجودين ما دار معي بإيجاز أثناء التحقيق ببغداد.. وفي صباح اليوم التالي عرض كتاب الاستخبارت العامة على ضابط أمن القاعدة، وبموجبه خرجت من السجن بصحبة أحد عناصر أمن القاعدة، ليسلمني لوحدتي الجناح الفني للقاعدة، وهناك تمَّ إطلاق سراحي، وقد تسنى لي أن أطلع على كتاب الاستخبارات العامة التي أمرت بإطلاق سراحي إذا لم أكن مطلوبًا لقضية أخرى لشمولي بقرار مجلس قيادة الثورة الذي كان ينص بالعفو عن الهاربين من الخدمة العسكرية لمن كانوا بخارج العراق، ولدي تدقيقي لذلك الكتاب تبين لي أن قرار العفو قد صدر خلال الفترة التي كنت فيها على ذمة التحقيق، وإن نسخة من ذلك الكتاب قد أرسلت إلى جهة أعلى من الاستخبارات العسكرية العامة لغرض الاطلاع، ولم أتمكن من معرفة تلك الجهة العليا لأنهم كانوا قد وضعوا شريط أسود لاصق من أجل ألا يعرف أحد من هي تلك الجهة، وعليه فإن شمولي بذلك القرار يعني أني سأستمر بالخدمة العسكرية ولن أسرح أو أحال على التقاعد بسبب قضيتي الكبيرة وغير المسبوقة.

وذلك ما كنت أرغب به وأتمناه بتلك الفترة، على الرغم من أني كنت واثقًا بأنهم شملوني بذلك العفو الذي هو بحقيقته لا ينطبق على من كان بأية نية في إيران، هذا لأنهم عجزوا عن إيجاد مخرج لهم من تلك القضية التي أحرجتهم بوقائعها من جهة، ومن أجل أن لا أسرح من الخدمة العسكرية لأكون تحت

أعين رقابتهم من جهة أخرى، وعلى أية حال فذلك الموضوع لم يشغل بالي كثيرًا حينها بعد أن نلت حريتي من جديد، وأجلت البحث بتفاصيل تلك النتيجة إلى أن تستقر أحوالي لتكون لي جولات أخرى معهم بالتوقيت الزمني الذي سأجده مناسبًا.

ولدى عرضي على آمر الجناح الفني الذي تعاطف كثيرًا معي لأن له معرفة وثيقة بي، ومنحني إجازة لمدة عشرة أيام لأعود منها وأستلم كتاب نقلي إلى وحدتي الجديدة بمعسكر الرشيد ببغداد، استنادًا لتنفيذ الأمر الذي كان قد صدر أثناء الفترة التي كنت فيها بإيران بموجب النظام المعمول به بتلك الفترة، على تبادل منتسبي تلك القاعدة النائية على الحدود الأردنية مع زملاء لهم ببقية القواعد الجوية المنتشرة بكل العراق، باستثناء منطقة كوردستان عند إتمام منتسبي القاعدة لعامين من الخدمة فيها..

وعندها انطلقت حرًا غير مقيد تحملني رياح الشوق لأهلي وكل أصدقائي وجيراني في بغداد، التي وصلتها مساءً لأهل بيتي الذي اشتقت إليه كثيرًا بعد أن فارقته لأحد عشر شهر من العذابات المليئة بالحوادث المثيرة والخطيرة بنفس الوقت، ولا زلت أذكر أن والدي رحمه الذي قال لي أول دخولي عليهم جملة واحدة فقط من غير أن يسألني أين وكيف قضيت فترة اعتقالي، لأنه بطبعه كان قليل الكلام: أحمد الله على رجوعك سالمًا إلينا.. وعندها تملكتني الرغبة أن أسأل نفسي للمرة الأخيرة بختام تلك الرحلة إن كنت قد ندمت على تلك الخطوة التي بدأتها من عتبة ذلك البيت في العام الماضي، لأدور بفلك الدنيا ومخاطرها ثم أعود لنفس نقطة البداية ببيتي وبأحضان أهلي؟، فوجدت نفسي غير نادم على اتخاذي لذلك القرار، الذي من خلاله وبسببه حصلت على تلك التجربة التي جعلتني غنيًا بالمعرفة لتلك الآفاق الواسعة التي لم تكن تخطر

على بالي حتى في أحلامي، والأهم من كل ذلك فإني رجعت سالمًا ببدني ويقظًا بضميري وعاشقًا لوطني أكثر من أي وقت مضى من عمري..

وفي ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى بيتي ببغداد عرفت سر الاهتمام الذي سرع من قضيتي خلال المرحلة الأخيرة من اعتقالي ليتم اتخاذ القرار بإطلاق سراحي، وملخصه هو ما أخبرتني به والدتي رحمها الله، أنها مع أخي لؤي كانوا قد واجهوا الرئيس العراقي صدام حسين الذي استمع لشكواهم بعدم معرفتهم لمصيري بعد أن سلمت نفسي طوعيًا للسلطات الأمنية على أثر عودتي للعراق، وقد ذكروا له الخطوط العريضة لموضوعي، وطالبوه بمعرفة ماذا سيكون مصيري جراء ذلك، وبدوره سألهم إن كنت قد تعرضت للتعذيب أثناء التحقيق معي، فأجابوه أنهم لا يعلموا أي شيء عني منذ أن فارقتهم بدائرة الانضباط العسكري وذهبت للتحقيق، وأنهم يخشون علي من تغيبي بسجون الاستخبارات من غير تحقيق. فوعدهم أني سأنال تحقيقًا نزيهًا ولا مجال لأي جهة أمنية أن تخفيني بغياهب سجونها، لأن مكتبه سيتابع مجرى التحقيق معي من خلال المطالبة بنتيجة ما ستسفر عنه تلك التحقيقات، من غير أن يعدهم أنه سيعمل على إطلاق سراحي إذا ما ثبتت إدانتي خلال التحقيق الذي سيأخذ مجراه الطبيعي من غير أن يتدخل بحسم نتائجه لصالحي..

ولدى إطلاعي لتفاصيل تلك المقابلة التي حصلت من قبل والدتي وأخي لؤي رحمهما الله مع الرئيس صدام حسين، افترضت أنه كان قد أرسل بطلب نتيجة التحقيق معي، وليس إصداره أمرًا بإطلاق سراحي، وذلك ما جعل قضيتي تتحرك بعد أن أهملوني عمدًا لكي يستطلعوا هل أن هناك أية جهة عليا قد علمت بموضوعي أم أنني أصبحت من المنسيين، وهذا الاستنتاج يفسر سؤالهم المستمر لي أثناء التحقيق: هل كنت قد التقيت بأي شخصًا يعرفني وأعرفه قبل

وصولي لهم؟ وكنت بكل مرة أؤكد لهم أن أهلي يعلموا بخبر رجوعي للعراق، وبالنتيجة فإن مثولي الأخير أمام تلك اللجنة القضائية لم يأتِ بحسب السياق المعمول به هناك كنتيجة طبيعية، ولكن بسبب الموقف الحرج الذي وجدوا أنفسهم به أمام مطالبة ديوان رئاسة الجمهورية بإعلامهم عن نتيجة التحقيق معي، وهذا ما كان واضحًا بكتاب الاستخبارات العامة التي على سبيل المثال لم تعلم مديرية الاستخبارات الجوية التي حولتني لهم لأنها تحت أمرتهم، وأرسلت نسخة إلى جهة لم تشأ أن يعرف كل من يطلع على ذلك الكتاب الرسمي أنها ديوان الرئاسة لإطلاعهم على نتيجة التحقيق الذي انتهى بإطلاق سراحي.

من هذا كله أصبح واضحًا أنه لولا مراجعة أهلي لديوان الرئاسة لكنت قد قبعت بتلك الزنازين إلى ما شاء الله، ولكنت بعدها سأنال العذاب الذي لا يتحمله أي إنسان من استنطاقي لأقول ما تشتهي أنفسهم المريضة أن تسمع، وبذلك فإني كنت مدينًا بحياتي لأهلي بالدرجة الأولى ثم للرئيس صدام حسين لأنه لم يهمل موضوعي، وإن كان لم يتدخل بشكل مباشر ليطلق سراحي ويخلصني من الأيادي الآثمة لأولئك السفاحين، وأنا الذي خرجت على نظام حكمه من خلال رفع السلاح ضده بتلك الفترة عندما اعتبرته عدوي الأول، لأتحول بعدها وأشد على يديه وهو يطرق بيد من حديد على تلك الرؤوس الفارسية العفنة بإيران من خلال عدوانها الغاشم على العراق، حتى بات شخصه هو العائق الرئيسي بإفشال مشروع تصدير ثورتهم الحمقاء للعراق، وهي بحقيقتها مخطط عدواني توسعي قومي شوفيني، سكن بعقولهم المريضة التي كانت تحلم بتحقيقها على أرض العراق، ومع شديد الأسف تمكنوا لاحقًا من تنفيذها بالكامل من خلال التخادم مع الاحتلال الأمريكي للعراق..

وعليه فإني خلصت لنتيجة تبلورت جراء كل ما اطلعت عليه من خيانات رخيصة أثناء مسيرتي برحلة عذابي، ناهيك على النهج العدواني للفرس بدق طبول الحرب على وطني العراق من خلال ما اطلعت عليه في إيران، وما ترتب علي بعدها من دين خلص رقبتي من هلاك يسبقه بالتأكيد عذاب شديد من قبل جلاوزة الشعبة الخامسة لو كنت قد بقيت بين أيديهم، وعليه فإن صورة الرئيس صدام حسين أصبحت مقبولة عندي، وأنا الذي رفعت السلاح بوجه نظام حكمه من خلال انخراطي بسلك البيشمرگة الكوردية، على الرغم من الممارسات التعسفية التي مارسها نظام حكمه بقمع حرية مواطنيه، وباعتقادي أن الجزء الأكبر منها كان خارج نطاق سيطرته عليها، ومنها تلك التي طالتني بالشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية، وهذا لا يعفيه من المسؤولية بمحاسبة كل من كان يعمل بالخفاء على استعباد الناس وإيذائهم عن عمد.

ولكني بفترة لاحقة سحبت تأييدي له ولسياساته على أثر الضربة الكيمياوية التي وجهت لأهلنا العراقيين في حلبچة، سواء بقرار مباشر منه أو من قبل من كان محسوبًا على نظام حكمه، نتيجة لتواجد الجيش الإيراني الذي اجتاز الحدود العراقية بمساعدة رخيصة من حزب الاتحاد الوطني الكوردستاني الذي كان ولا زال يتزعمه جلال الطالباني، وقد قتل بتلك الواقعة التي كانت سُبة بجبين الإنسانية آلاف من العراقيين الكورد الأبرياء.

ثم عمل لاحقًا على تهجير عشرات الآلاف من القرويين الكورد عن قراهم الوديعة بعملية عسكرية سيئة الصيت سميت بالأنفال، ولم يكتفِ بذلك الحد، فأقدم على احتلال الكويت، وجراح العراقيين من حربهم الدفاعية ضد إيران لم تلتئم بعد، بتوقيت غير مدروس مبني على الانفعالات العصبية التي جاءت نتيجة استدراجه من قبل حكام الكويت، وهو سبب لم يكن مقنعًا لإدخال العراق بتلك

الدوامة التي لا زال العراقيون يدفعون ثمنها غاليًا، ليكون هو المتسبب الرئيسي بهلاك رجالنا وتجويع أطفالنا جراء تلك الخطوة التي قدم فيها كبريائه الشخصي على مصلحة العراق ومستقبل مواطنيه، بالوقت الذي كنا نراه قد انصرف هو وعائلته وكل من كان يحيط به لأن ينعموا بالعيش الرغيد بقصورهم الفارهة خلال سنوات الحصار الجائر على الشعب العراقي بعد أن قامروا بحياتنا وصحة ومستقبل أولادنا الذين هلك أكثر من مليون طفل منهم نتيجة فقدان الدواء، وكان ابني البكر "توروز" واحد من أولئك المغدورين بمقصلة الحصار الدولي على العراقيين وليس على من كان يحكمهم.

وبعد كل ذلك الدمار الذي ألحقه بنا وبما شيده وبناه على مدى فترة حكمه الطويل، لم أجد أمامي من مخرج إلا التمني أن يزاح من السلطة، ولكن ليس على النحو الذي أزيح به من قبل المحتل الأمريكي في بداية غزوه للعراق، لأني تمنيت له أن يقضي نحبه على فراشه وهو بعيد عن الأضواء، ليصبح بعدها اسمًا منسيًا، لا أن يقاتل الأمريكان ويقاوم غزوهم ثم يقبضوا عليه بعد أن حطموا هيكل الدولة وكل مؤسساتها، ثم يصفى جسديًا على يد الأراذل من عملاء الاحتلالين؛ الأمريكي الغاشم والإيراني اللئيم.

وعندها كانت له وقفة الرجال التي لا تهاب حبل المشنقة لينال المجد والمنزلة الرفيعة التي لم أتمناها كخاتمة لحياته، ولكنه رغمًا عني وعن كل خصومه دخل التاريخ من أوسع أبوابه، وهذا ما جعلني أتعاطف معه وأحترمه من جديد نتيجة تلك الوقفة الشجاعة والموقف البطولي الذي اعتمده بأن لا يترك العراق ويهرب كالخفافيش لخارجه، ليبقى داخل الوطن يواجه مصيره ويقاوم المحتلين ومن جاء معهم على ظهور دباباتهم..

وعودة لموضوع إطلاق سراحي فإني بعد أن وجدت نفسي حرًا طليقًا، ظهرت لي حينها تبعات وانعكاسات لتلك المرحلة التي مررت بها برحلتي مع العذاب، على المستوى الاجتماعي والعسكري بحياتي الجديدة، ففي الجانب الاجتماعي ترتب علي أن أخسر أغلب صداقاتي لمن علم واطلع أني كنت في إيران، ومنهم من كان صديقًا لي منذ أيام الصبا والطفولة، باستثناء صديقي الحميم الذي كان يعمل بدائرة الانضباط العسكري، وهو الذي كان يعرف كل التفاصيل الحقيقية لموضوعي، وبفترة لاحقة التبس عليه الأمر لأنه قد نسى أيًا من الأمرين كان هو فعلاً قد حدث معي بتلك الرحلة، ولكنه استمر معي بصداقته على الرغم من التحذيرات والضغوط التي كانت تمارس عليه من قبل أهله، خشية عليه من تبعات تلك الصداقة الحميمة، باعتباري بحسب ظنهم كنت تحت المراقبة الدائمة من قبل الأجهزة الأمنية، وهو أمر عاري من الصحة لأن المراقبة التي كنت أشعر بها كانت بداخل وحدتي العسكرية بشكل لم يكن ملحوظًا لغيري، باعتباري كنت كأي عسكري أقضي معظم وقتي بالعمل بها وذلك أمر لم أكن متضايقًا منه ما داموا لا يتعرضوا لي بالسوء..

وأيضًا كان لدي صديق آخر بقي متمسكًا بصداقته لي، وكان صاحب محل خياطة نسائية، وكنت ألتقي به كل يوم تقريبًا وقد كان على إطلاع بأمر أولئك الأصدقاء الذين نفروا مني، وللأمانة أقول إنني كنت بقرارة نفسي قد أعطيت العذر لمن كان يتهرب من لقائي، ولكني ببعض الأحيان كنت أتضايق نفسيًا لبعض الممارسات غير العقلانية لهم، ومثال ذلك أنه قد صادف بإحدى المرات عندما كنت أتمشى بمنطقة سكناي وصادف مروري ببعض الأصدقاء الذين لم ألتق بهم منذ فترة طويلة واشتقت للقائهم، فتوجهت نحوهم بوقفتهم تلك لكي أسلم عليهم وأتفقد أحوالهم، وإذا بهم ينفروا هاربين بشكل عشوائي إلى ذات اليمين وذات الشمال بمجرد أن رأوني قادمًا نحوهم، وكأني كنت مصابًا بمرض معدي والعياذ بالله، لأجد نفسي حينها وحيدًا بذلك المكان، باستثناء صديقي صاحب

محل الخياطة الذي لاحظ ذلك الأمر وفتح لي باب محله من أجل أن يضيفني، مرحبًا بي بحرارة بالغة بعد أن رأى ما كان من أمر أصدقاء الأمس معي، وكأنه بذلك التصرف النبيل كان يتحدى من كانوا يزعمون أني تحت المراقبة المشددة، وبذات الوقت مجددًا لعنوان الصداقة بيننا، ولأني بطبعي وفي لكل صديق صدوق فلقد صارحته بفترة لاحقة بحقيقة أمري، فما كان منه إلا أن تمسك بي أكثر من سابق عهد الصداقة التي كانت تجمعني وإياه..

وقد يطرأ سؤال على بال القارئ الكريم الذي يطلع على سطوري هذه، لماذا كنت مصرًا على ملاقاة أولئك الأصدقاء الذين تنكروا لي؟! فأقول إنه لم يكن بوسعي أن أعيش وحيدًا بدنياي لأنهم كانوا كل دنياي، على أثر خشيتي من تأسيس أية علاقة جديدة مع أصدقاء آخرين لا علم لي بخلفيات حياتهم وخفايا أسرارهم بعد ذلك الكم الهائل من المشاكل التي اطلعت عليها بسجن الشعبة الخامسة للاستخبارات، عندما أتهم بعض الأبرياء منهم بتهم التستر والتذمر والتهجم جراء عدم تحسبهم لتلك الصداقات الجديدة التي أقاموها مع بعض الناس..

واستمر حالي على ذلك النحو المخجل مع أصدقاء الأمس إلى فترة طويلة حتى تأكد لدى كل الذين نفروا من لقائي أني لست كما صورت لهم عقولهم الجبانة، وأصبح شكهم يأخذ أبعادًا معاكسة لما سبقه من شك، ليتصوروا بهذه المرة أني كنت عنصرًا للاستخبارات أو ما شابه ذلك بسبب استمراري بالخدمة العسكرية وعدم تعرضي للاعتقال والأذى من جديد، وهم لا يعلموا أن قرار استمراري بالخدمة العسكرية كان حتمًا من أجل ألا أغيب عن ناظر من أطلق سراحي. ولكني أثنائها كنت قد استغنيت عن تلك الصداقات الكرتونية الهزيلة لأني تزوجت وكونت لي عائلتي الجديدة بعد ثلاثة أعوام من تاريخ إطلاق سراحي وانصرفت لرعاية أسرتي التي بنيت أساسًا لها.

وعلى ذكر العلاقات الاجتماعية وما حصل معي في بغداد، فهو أمر لم ينسحب على علاقتي بأقاربي بمحافظة السليمانية بكوردستان العراق، على الرغم من أن ولا واحد منهم سواء كانوا أبناء عمة أو الآخرين من أبناء عمومتي قد اتصل بأهلي ليسأل عن مصيري عندما كنت معتقل لفترة أربعة شهور من سجني بدائرة الاستخبارات، ومع ذلك فإني قد عاودت التواصل معهم، وهم بدورهم قد فتحوا بيوتهم لي حبًا ومودة واحترام، حتى أكرمني أحد أولاد عمتي بتزويجي من ابنته الوحيدة والتي أنجبت لي ولدي البكر نوروز، الذي ملأ حياتي بهجة وسرورًا وأنساني وجوده كل العذابات التي عشتها حتى اختطفه الموت وهو بعمر الثالثة عشر ربيعًا، ورحل من بين أحضاني ليذهب لخالقه وهو نقي ناصع، لأعيش من بعده والحسرة تعتصر قلبي على ذلك الفراق القسري والأبدي الذي لا زالت جمرته متقدة بكبدي، ثم أنجبت لي بعده ولدًا آخر أسميته ميران ثم ابنة أسميناها ناز، وفي مهجرنا ببريطانيا رزقنا بابنة أخرى أسميناها مينا..

ورجوعًا لتبعات عودتي للعراق بجانبها المدني لم يبق إلا أن أذكر أن أخي لؤي النورسي رحمه الله كان في الفترة التي تلت خروجي قد استبسل في القتال الدائر على جبهات القتال حينها ونال نوطًا للشجاعة، وكان حافزه بالتصدي للعدوان الفارسي الغاشم هو أنه كان قد وضع نصب عينه تلك الصورة التي نقلتها له عن مشاهداتي بأقفاص الأسرى العراقيين بإيران، وبقي مرابضًا على خط النار بتلك الحرب حتى انتهائها بالنصر بعام ١٩٨٨، وبعد انتهاء الحرب بعدة سنين أحيل إلى التقاعد، ومارس مهن عديدة من أجل لقمة العيش وضنكه بأيام الحصار على العراق، ثم سافر رحمه الله مع كل أفراد عائلته إلى ليبيا وتوفى هناك ودفن بمدينة سبها بوسط الصحراء الليبية.

أما بالنسبة للانعكاسات التي ترتبت على حياتي بجانبها العسكري لما بعد إطلاق سراحي، فإني كنت قد باشرت العمل بوحدتي العسكرية الجديدة التي كانت معملاً للمعدات الأرضية للقوة الجوية بمعسكر الرشيد بالقرب من سكني ببغداد، وقد سبقتني تفاصيل حكايتي إليها قبل أن أباشر العمل فيها وهو أمر لم أجد فيه أي حرج، وجعلت نفسي منذ بداية التحاقي بتلك الوحدة أن أصب كل جهدي بعملي الميكانيكي الفني، الذي كنت مختصًا به ومتفوقًا فيه على غيري من المختصين بنفس تلك المهنة.

من جهة أخرى فقد كنت من خلال عملي بتلك الوحدة العسكرية فاشلاً بالناحية الإدارية، لأني لم أكن صارمًا بمحاسبة المقصرين على النحو المطلوب مني عسكريًا لمن هم تحت إمرتي من الجنود وضباط الصف الذين هم من نفس مهنتي خشية تسببي عن غير عمد بظلم أحدهم، وأنا بطبعي أصبحت أبغض كل ظالم متجبر، حتى أنني كنت قد غيرت دعائي لربي الذي كنت أدعوه على مدى الفترة المنصرمة من حياتي أن يجعلني مظلومًا ولا أكون ظالمًا، فغيرت دعائي لأدعوه سبحانه وتعالى أن يجنبني الظلم بكل أشكاله ليجعلني لا مظلومًا ولا ظالمًا لأن الكيل قد طفح بي ولم أعد أتحمل الظلم والظلمة.

وبعد أن استقرت أحوالي بتلك الوحدة، ومرت سنين على إطلاق سراحي بدأت أكتب العرائض الواحدة تلو الأخرى إلى مديرية الاستخبارت الجوية من أجل تصحيح تلك الفقرة التي تتعلق بالعفو عن الهاربين لمن كانوا بخارج العراق وتم شمولي بها، باعتباري لم أهرب كما ثبت بإفاداتي التي ذكرتها بكل التحقيقات التي أجريت معي، وكذلك لأني لم أكن بدولة أخرى كما أشار لها قرار العفو، لأن سكوتي وعدم مطالبتي بتصحيح ذلك الوضع معناه قبولي بذلك القرار أني فعلاً كنت هاربًا إلى إيران، وهو أمر يعني أن السكوت لن يصب

بصالحي، وفي سبيله كنت قد دفعت الثمن غاليًا أثناء تلك التحقيقات السقيمة وما ترتب عليها من معاناة صعبة عندما كنت معتقلاً بالشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية العامة.

ولأني لم أتلقَ أية إجابة على كل العرائض التي وجهتها للاستخبارات الجوية؛ توجهت بعدها بكتابة طلب لقيادة القوة الجوية طلبت فيها السماح لي بمواجهة قائد القوة الجوية، بعد أن ذكرت له الأسباب الموجبة لذلك الطلب، فجاءني الرد عن طريق وحدتي بالموافقة على مقابلة معاون قائد القوة الجوية للأمور الإدارية، كنا حينها بعام ١٩٨٥، فذهبت لمقابلته وكان رجلاً طيبًا بخلقه، وأخبرته بموضوعي على نفس النحو الذي ذكرته أثناء التحقيقات معي، وقد أنصت لي باهتمام ولم يقاطعني إلا عندما جاء ذكر الپاسدار الإيراني بسياق كلامي، وقال لي:

– بعام ١٩٧٢ لم يكن بإيران لا پاسدار ولا ثورة إسلامية، فكيف تفسر ذلك؟

فقلت مؤكدًا:

– لقد كنت بإيران بعام ١٩٨٢ وليس قبلها بعشرة أعوام.

وعندها صدم الرجل من تلك الأقوال التي لم يتقبلها عقله، فأكدت له أن هذه الأقوال مبنية على الوقائع، ولا يستطيع أحد أن يبتدع كل تلك المشاهدات التي عشتها وعايشتها بإيران لو لم يكن قد خضع للتحقيق في الشعبة الخامسة التي أفرجت عني لصدق أقوالي، ومحاضر التحقيق موجودة لديهم تثبت ذلك وبإمكانك التحري عنها، ولأني وجدته ينصت لي باهتمام تشجعت وقلت له كلامًا بغاية الجرأة:

– إني من هذه البناية التي يتواجد فيها مكتب السيد قائد القوة الجوية الذي هو على بعد خطوات منا، أصرح لك بكامل قواي العقلية أنني كنت قبل ثلاثة أعوام

بعاصمة العدو الإيراني طهران، والقادم منها يكون واحدًا من اثنين: أما أن يكون خائنًا للوطن وأهله ويجب أن يلقى مصيره الذي يستحقه، أو أن يكون مواطنًا صالحًا فيعاد له اعتباره، ولا أطلب من وراء ذلك جزاءًا أو شكرًا من أي أحد. علمًا أنه ليس هناك حالة وسط بين تلك الحالتين، وأنا أطلب من سيادتك أن تتحقق لتعرف أيهما كان موقعي من تلك الحالتين، علمًا أني مقدر لخطورة ما أقوله إلى درجة تجعلني أجزم ألا أحد بهذه الأيام يستطيع أن يقص لأقرب الناس له أنه أثناء ضغوطات أحلامه قد ذهب لإيران والحرب لازالت قائمة بين العراق وإيران، فما بالكم وأنا قد تواجدت بها عن جد وحقيقة وذقت فيها من مُر العذاب الذي لا زال يعيشه إخوتي الأسرى بكل لحظة هناك.

عندها أدرك الرجل مدى جدية كلامي ووعدني أنه سيتابع الموضوع بنفسه، فانصرفت عائدًا لوحدتي لأتابع بعدها بفترة من الزمن مدى جدية الوعد الذي قطعه على نفسه، فعلمت من بعض العاملين بمكتبه أنه قد أرسل كتابًا شديد اللهجة إلى مديرية الاستخبارات الجوية يطلب منهم الاستيضاح عن ما ذكرته له بعريضتي التي قدمتها له وما قلته له أثناء مقابلتي له، وهو أمر لن تستطيع الاستخبارات الجوية أن تهمله كما أهملت كل مراسلاتي معهم عندما لم يجيبوني عليها.

انتظرت لفترة أخرى ثم راجعت بعض العاملين بمكتبه ممن كانوا متعاطفين معي، لأجد أن الاستخبارات الجوية لم تتجرأ كما توقعت لتفاتح الاستخبارات العسكرية العامة التي حققت بقضيتي، لكي تجيب على طلب معاون قائد القوة الجوية، وبدلاً من ذلك فاتحوا استخبارات الفرقة الرابعة في السليمانية للاستيضاح عن موضوعي، فأجابتهم استخبارت الفرقة الرابعة أني كنت مختطفاً من قبل المخربين (البيشمرگة)، والتحقت بهم حال تمكني الهروب منهم،

واستنادًا لتلك الإجابة أرسلت الاستخبارت الجوية نسخة من كتاب استخبارت السليمانية الذي وصلها بناءًا على استفسارها عني، إلى مكتب معاون قائد القوة الجوية الذي كنت قد قابلته ووعدني بمتابعة موضوعي، وبدوره فقد فاتح معاون القائد دائرة الشؤون القانونية بقيادة القوة الجوية، يطلب منهم الموقف القانوني من تلك القضية بعد أن أرفق كتاب استخبارات الفرقة الرابعة الذي وضح بعض الجوانب المهمة من تلك التي ثبتوها بسجلات تحقيقهم معي.

عندها تيقنت أن مطالبتي قد جاءت بنتيجة وما علي سوى الانتظار، وفعلاً جاءني الرد بعد فترة قصيرة إلى وحدتي بكتاب مرسل من قبل مديرية الشؤون القانونية للقوة الجوية، وقد أرسلت تلك المديرية نسخة من نفس ذلك الكتاب إلى معاون قائد القوة الجوية للأمور الأدارية، وكالآتي: لدى تدقيق أوراق نائب ضابط هشام النورسي تبين أنه ليس هاربًا، وقد اختطف من قبل المخربين (البيشمرگة) وقد استطاع الهروب منهم والالتحاق باستخبارات الفرقة الرابعة للفيلق الأول، واستنادًا لما ورد بأعلاه يرد اعتباره حفظًا لحقوقه..

ولدى اطلاعي على محتوى ذلك الكتاب الذي لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى موضوع تواجدي ثم رجوعي من إيران، بعد أن دخلت وخرجت من قفص الأسرى العراقيين بطهران، اكتفيت بذلك بعد أن اقتنعت بما جاء فيه من فقرات قانونية لكي أستمر بالعيش بسلام، وعليه فقد شطبت وحدتي من كنيتي العسكرية المثبتة لديهم، تلك الفقرة التي كانت تذكر أنني كنت هاربًا، واستنادًا لذلك فقد تمَّ صرف ما استحقيته من رواتب لكل تلك الفترة التي دامت بحدود الأحد عشر شهرًا، وكأنها كانت الثمن المادي والمعنوي لكل ما مررت به برحلتي مع العذاب.

وبعد رد الاعتبار الذي حصلت عليه أصبحت قادرًا أن أرفع رأسي أثناء مجادلتي لأي مسؤول بعثي يفاتحني بضرورة الانضمام لصفوف حزبه، وقد تحقق ذلك عندما كلمني أحدهم من برجه العالي ليفاتحني بلهجة الآمر بذلك الموضوع، فقلت له:

– لماذا علي أن أنتمي لحزب البعث وأنا غير مقصر بواجبي العسكري من خلال مهنتي الفنية التي أمارسها بكل جد وتفاني وإخلاص؟! أرجوك أخبرني أين تكمن الضرورة!

– من أجل أن تكون محصنًا بأفكارك ضد أي اتجاه معادي للوطن.

فقلت متبسمًا:

– أنا كنت بوسط تلك الأجواء المعادية التي تتكلم عنها، وفي طهران عاصمة العدو الفارسي على وجه التحديد، ولم يستطع أحد منهم وأنا بين أياديهم أن يعبث بعقلي ويغير أفكاري، على الرغم من كوني مستقلاً بانتمائي، لأني وطنيًا بتوجهاتي وعقيدتي العراقية، فهل كنت أنت ستصمد لو كنت مكاني بقفص الأسرى العراقيين بطهران؟!

فسكت ولم يعرف بماذا يجيب، وكأني قد لطمته على رأسه بنعل أبو القاسم الطنبوري، وبذلك تخلصت منه ومن شره كما يقال بمثل هذه المواقف. هذا ما كان من ناحية الضغوط التي كانت تمارس علي من قبل أعضاء منظومة حزب البعث بوحدتي العسكرية، وقد انتهت معي بشكل قطعي لفترة لاحقة وحتى تاريخ إحالتي للتقاعد بعام ١٩٩١ على أثر انتهاء الحرب بالكويت، وعليه فإنني كنت المستقل الوحيد الذي بقي خارج تنظيم حزب البعث بوحدتي العسكرية بعد أن استسلم كل منتسبيها نتيجة الضغوط التي كانت تمارس عليهم، من خلال التهديد بنقلهم إلى وحدات نائية بعيدة عن مناطق سكناهم، وذلك أمر لم يكن تطبيقه علي ممكنًا لأني كنت الوحيد بتلك الوحدة الذي يجيد العمل بإتقان

بمهنته الفنية، وهذا يعني أنه لم يكن بمقدورهم الاستغناء عن خدماتي لعدم توفر البديل الذي بإمكانه أن يشغل مكاني.

وبالرغم من ذلك؛ لم أهنأ بالطمأنينة لأن جبهة أخرى كانت مبطنة بنوايا مشبوهة قد ناصبتني العداء من المنافقين ذوي التعامل بوجهين، الوجه الأول لهم هو العلني المعلن أنهم بعثيون مخلصون ومواظبين بكتابة التقارير الحزبية ضد كل من هب ودب تعبيرًا منهم على إخلاصهم لحزب البعث الحاكم آنذاك، بينما الوجه الثاني لهم مبطن ولم يشعر بوجوده سواي لأني كنت مستهدفًا من قبلهم، ولأني كنت قد رأيت مثل تلك الوجوه المنافقة بقفص الأسرى العراقيين بطهران عندما وجدتها على حقيقتها بعد أن زالت كل أقنعتهم، وتبين لي أن ولائهم الطائفي قد طغى على نفوسهم المريضة ليكون البديل الحقيقي لولائهم السابق الذي كانوا يدعوه عندما كانوا في العراق، باعتبارهم عراقيين مخلصين للوطن وأهله.

هذا أيضًا ما ظهر على السطح بفترة لاحقة عندما جاء المحتل الأمريكي للعراق وارتموا تحت بسطاله متنكرين لكل عنوان وطني كانوا يتبجحون به. وبالتالي فإن تلك الجبهة المنافقة قد تبنت على عاتقها محاربتي بشتى الوسائل الدنيئة انتقامًا مني لأني كنت أنتهز أية فرصة حديث لأوضح مدى خسة ونذالة الفرس ناهيك عن ذكري لتفاصيل الخزعبلات والخرافات التي اطلعت عليها بإيران، وكان ذلك العداء المبطن هو على نفس طريقة عداء ذلك السجين الدعوجي الذي كان يناصبني العداء في الشعبة الخامسة، بصفته أقدم سجين، والكل هناك كان يعلم أنه من المحكومين بالإعدام، وبالتالي يتحاشون لسانه المشاغب.

وعليه فقد كانت تلك الجهة المبطنة النوايا تنتهز أية فرصة للإيقاع بي، وكانوا ثلة من العاملين تحت إمرتي، ويسندهم بذلك آمر القسم الذي كنت أديره ويدعى النقيب قاسم بادي هاون، وكلهم كانوا من سكان محافظات الفرات الأوسط

بكربلاء والنجف وبابل، حتى تمكنوا بعد عدة محاولات خبيثة من الإيقاع بي، عندما حاسبت أحدهم بسبب إهماله لواجبه الذي كلفته به، وأجابني باستهتار أن النقيب قاسم قد منحه إجازة لعدة أيام، وكان المفروض بذلك النقيب بحسب سياق العمل أن يستشيرني على الأقل قبل منحه الإجازة لأني مطالب من قبله ومن آمر الوحدة بالإنتاج المحدد بخطة عملنا، وبسبب حرصي على استمرار الإنتاج بالشكل المطلوب، ثارت ثائرتي وشتمت النقيب قاسم ومن أعطاه تلك الرتبة، وعليه وصل الخبر أسرع من البرق لذلك النقيب الذي بدوره اتجه فورًا لآمر الوحدة ليشتكيني عنده باعتباري قد شتمته وشتمت من منحه رتبة نقيب، وقد فسرها أني قد شتمت الرئيس صدام حسين، باعتبار أن ذلك النقيب قد أصبح ضابطًا بموجب مرسوم جمهوري، ومن أجل أن يثبت علي تلك التهمة التي أخذت أبعاد أكبر من حجمها، جاء بتلك الثلة الطائفية كشهود عيان ضدي، وعندها لم يتمكن آمر الوحدة أن يتكتم على تلك الشكوى بالرغم من احترامه لي وتقديره لعملي الدؤوب كعنصر كفء وعسكري منضبط، فأودعني السجن مرغمًا وأمر بتشكيل لجنة تحقيقية من أجل إحالة الموضوع للجهات المختصة.

وتلك الجهة كانت محكمة الثورة بالتأكيد التي كانت تحكم بمثل هذه الدعاوي التي تمس شخص رئيس الجمهورية بعقوبة الإعدام، وهذا ما ذكره آمر الوحدة لذلك النقيب، أنه إذا أصر بشكواه فهذا يعني أنه سيقتلني بشكل غير مباشر، ويبدو أن هذا ما كان هو وزمرته يتمنوه لي، فسلمت أمري لله لأني لم أجد مخرجًا من تلك المؤامرة التي حيكت ضدي بإتقان، ولم أكن لأصدق أن تلك الثلة الطائفية الخبيثة كانت ستقدم على مثل تلك الفعلة، وأكثر شيئًا توقعته منهم بغرض إيذائي هو كتابتهم لتقارير وشاية حزبية ليست لها أية قيمة، ولكن أن يلفوا حبل المشنقة على عنقي بأسم الوطن وحرصًا على رئيسه فذلك أبعد مما تصورته أن يحدث معي منهم.

من ناحية أخرى؛ فلو أنني كنت منتميًا لقبيلة أو عشيرة عربية معروفة لما كانوا قد فعلوها أصلاً، لما سيكون لفعلهم الجبان هذا من تبعات ستطال حياتهم بعد تسببهم بموتي، ولكن أن أكون من أصول كوردية فذلك يعني أن ظهري كان مكشوفًا ودمي مهدورًا، من غير أن ينتقم منهم أحدًا لفعلتهم الجبانة..
فبقيت قابعًا بسجن الوحدة وكنت حينها قد تزوجت حديثًا، وابني نوروز لم يكن قد تجاوز بعمره سنة واحدة، وأثنائها كان أخي لؤي رحمه الله قد جاء من جبهة القتال بإجازة دورية، ولدى سماعه بخبر سجني جاء لوحدتي بكامل سلاحه الشخصي وهو يحمل على صدره نوط الشجاعة الذي ناله نتيجة استبساله بإحدى المعارك بجبهات القتال ضد أمة الفرس اللعينة، ودخل مباشرة على ذلك النقيب من غير أن يذهب لآمر الوحدة، فقلب كل الموازين لأنه هدده بالعلن وبصراحة تامة أنه لن يجعله يهنأ بالحياة إذا ما أصر بشكواه ضدي وتسبب بقتلي، ثم تركه مذهولاً وانصرف من غير أن يجادله أو يستعطفه أو ما إلى ذلك من حديث عاطفي يجب أن يقال بمثل تلك الحالة، فما كان من ذلك النقيب الطائفي الذي وضع إيران نصب أعينه وأراد الانتقام مني من خلال تقديمي قربانًا لها باعتبارها الوطن الأم، والحاضنة لمذهبه الذي جعله يعلو على كل المسميات الوطنية، وللأسف الشديد هذا ما أصبح سائدًا بالعلن الآن لأمثاله في العراق، ممن جاءوا من إيران بعد أن ركبوا على الدبابة الأمريكية لينصبوا أوصياء على العراق الذي تبرأ منهم منذ زمن بعيد.

فما كان من أمر ذلك النقيب سوى أن يذهب إلى آمر الوحدة ليسحب شكواه ضدي نتيجة هلعه وجبنه، بعد أن عرف أني لست كما صورت له ثلته الطائفية أني كورديًا من غير أصول قبلية قد تثأر لدمي، بعد أن تيقن أن لدي أخًا لا يتوانى أن ينتقم منهم شر انتقام إذا ما أصروا على تسببهم بقتلي بتلك الطريقة الملتوية الدنيئة.

فانتهت تلك الأزمة بسلام بعد أن تابوا جميعهم من تكرار تلك الفعلة الجبانة على أثر تسلط الأضواء بما كان بنيتهم، وأصبحت سيرتهم بذلك الفعل الدنيء على كل لسان، وبفترة لاحقة بعام ١٩٩١م اختفى بعض منهم بعد أن تخلفوا عن الخدمة العسكرية لاشتراكهم بصفحة الغدر والخيانة بمناطق سكناهم في كربلاء والنجف وبابل، التي عاثوا هم ومن على شاكلتهم فسادًا وتدميرًا وانتهاك للحرمات بإسناد مباشر من الپاسدار الإيراني بتلك الصفحة الخيانية بامتياز عالي، وقد أصبح يطلق عليها بأيامنا هذه الانتفاضة الشعبانية المباركة! ولا أعلم بماذا كانت مباركة تلك الصفحة الدموية، وهي التي بدأت فور انتهاء العمليات العسكرية التي بدأت بالكويت من قبل قوات التحالف الدولي، وسُحق خلالها الجيش العراقي بعد أبى الرئيس العراقي حينها أن يسحبه من الكويت على أثر غزوه لها لعناده غير المبرر بوجه كل الدعوات الدولية التي ناشدته بذلك قبل بدء الحرب هناك..

وهناك أمر بغاية الأهمية كان قد حصل بعد إطلاق سراحي بثلاثة أعوام، مفاده أن توجيهًا قد صدر من وزارة الدفاع يحتم على كل فرد من منتسبي الوحدات الثابتة من كل الصنوف التي لم يتسنَ لها أن تشارك بصورة فعلية بالقتال الدائر بساحات المعارك، أن يقضي فترة معايشة أمدها ثلاثون يومًا بإحدى تشكيلات الجيش العراقي على طول جبهة القتال، فنظمت وحدتي قوائم بأسماء منتسبيها بعد أن وزعتهم على عشر وجبات، لترسلهم إلى قاطع العمليات القتالية التي كانت قريبة من محافظة البصرة، فعملت كل جهدي لأن أكون بطليعة تلك الوجبات، وقد تمكنت بسهولة أن أكون ضمن الوجبة الأولى، في الوقت الذي كان فيه الآخرون من زملائي يسعوا لأن يكونوا ضمن الوجبة العاشرة والأخيرة من تلك الوجبات، اعتقادًا منهم أن الدفع بتلك الوجبات لجبهات القتال لن يستمر إلى أن يأتيهم الدور بالمشاركة.

وفعلاً تمَّ ذلك وألغي العمل بذلك القرار عندما وصل الدور لوجبتهم العاشرة التي كانت تحوي حصرًا أسماء أصحاب الواسطات والنفوذ الحزبي والمادي والمعنوي، بحجة أن تلك المعايشة قد تسببت بخسارة القوة الجوية لبعض الطواقم الفنية العاملة بخط الطيران للأسراب الجوية، الأمر الذي تسبب بنقص ملحوظ في الملاك وذلك بالطبع انعكس سلبًا على آلية العمل المقتدر بفحص وتصليح الطائرات الحربية للقوة الجوية..

ذهبنا كوجبة أولى إلى قاطع العمليات في مدينة البصرة وكنا بحدود الثلاثين شخص بمختلف الرتب العسكرية، وسلمنا كتاب نقلنا لمقر الفيلق، الذي بدوره أرسلنا لمقرات الفرق ثم إلى مقرات الألوية ثم إلى مقرات الكتائب، حتى وصلنا إلى السواتر الأمامية من جبهة القتال حيث ترابض بعض التشكيلات العسكرية بمنطقة تدعى مجنون، وفيها أبار للنفط لم تكن مستثمرة، وكنا خمسة أفراد لأن عددنا كان يتناقص بكل مرحلة كنا نمر بها، ابتداءًا من مقر الفيلق وحتى الساتر الأمامي للجبهة بسبب أن معظم أفراد وجبتنا كانوا يحملوا رسائل واسطة لضباط بتلك التشكيلات التي مررنا بها؛ من أجل أن يستبقوهم بمقراتهم ولا يرسلوهم معنا لخط النار، وبذلك يعتبروا مشاركين بتلك الحرب من غير أن يتعرضوا للخطر.

وفي تلك المنطقة التي وصلناها للتو علمنا أن مقاتليها الأبطال كانوا قبل يومين قد صدوا هجومًا كبيرًا للإيرانيين عليهم، فتوزعنا على فصائل تلك الكتيبة ورابضنا بخنادقها من أجل أن نتحاشى القصف المدفعي علينا من قبل العدو الفارسي الذي كان مستمرًا على مدار الساعة.

وكان نصيبي بذلك التوزيع أن أكون بملجأ يضم خمسة مقاتلين لأكون سادسهم، بعد أن تزودت بكامل السلاح والعتاد الذي كان متوفرًا بكثرة، ولأن الوقت كان يمر بطيئًا بتلك الخنادق والأجواء المشتعلة بالنار بعد أن توقف الهجوم والقتال

المباشر على الكتيبة البطلة، فلم أجد ضيرًا أن أنقل لأولئك الأبطال ما سيترتب على أحدهم لو وقع بالأسر الإيراني من المهانة، التي اطلعت على تفاصيلها بالكامل، وهو حديث لم أجد له أذانًا صاغية من قبل أفراد وحدتي أو أصدقائي الذين نفروا مني، ثم طلبت منهم مساعدتي لكي أتمكن من الوصول للساتر الأمامي من كتيبتهم من أجل أن أرى بعيني فعاليات العدو الفارسي وجهًا لوجه، فأخبروني أنهم سيستبدلوا قريبًا الفصيل الذي كان بمواجهة العدو بفصيلنا الذي كان على الخط الثاني للقتال، وما علي سوى الانتظار ليومين آخرين.

وقد تمَّ لي ذلك بعد أن تقدمنا لنصبح بأعلى السدة الترابية بمواجهة الأعداء، وكان الفاصل بيننا وبين الإيرانيين بحيرة مائية طبيعية، فوقفت هناك بتلك اللحظة التاريخية من حياتي لكي أتأمل ذلك المشهد الذي جعلني أتصور ماذا يكمن خلف تلك القطعات الإيرانية، حتى وصلت بخيالي لطهران مستندًا بذلك على ما حدثني به بعض الأسرى العراقيين ببداية وقوعهم بالأسر، وبتلك اللحظات أمسكت بالمنظار المكبر، فرأيت الجنود الإيرانيين بالناحية الأخرى من تلك البحيرة بوضوح وكأنهم أمامي، وعندها سألت جنود ذلك الفصيل المقاتل عن السبب الذي يمنعهم من إطلاق النار عليهم وهم على مرمى بنادقنا القناصة، فأخبروني أنهم لو فعلوا ذلك وبدأوا بإطلاق النار فسيجيب الإيرانيون عليه بالمثل، وبذلك قد نتكبد بعض الخسائر، وعليه فإننا نوفر جهدنا إلى الوقت الذي يقرر به العدو الإيراني إطلاقه للنار علينا وعندئذ لن تسكت بنادقنا عن الإطلاق لتذيقهم الموت الزئام بعد أن تُزلزل الأرض من تحت أقدامهم.

وعلى الرغم من ذلك فقد قال لي أحدهم وكان يحمل بندقية قناصة: إني أرى من خلال منظار بندقيتي بعض الجنود الإيرانيين وقد أصبحوا بمرمى الهدف، فخذها لتقتل منهم ما شئت لكي تثأر لكل الأذى الذي لحقك منهم، فأخذت البندقية القناصة وكنت أجيد استعمالها، لأني تدربت على مثلها أثناء الفترة

القصيرة التي كنت فيها پيشمرگة، فنظرت بمنظارها حتى أصبح ثلاثة من الجنود الإيرانيين بمدى مرماها، ولكني لم أستطع الضغط على زنادها لأني لم أجد الرغبة بقتلهم بدم بارد ولأنه ليس من الشجاعة بشيء، في الوقت الذي كنت متشوقًا لأن أقاتل كل إيراني تسول له نفسه أثناء هجومهم الذي كنا نترقبه بكل لحظة، ولكن القتل من أجل الرغبة بالقتل فقط ليس من الرجولة، ناهيك أنه لم يكن واجبًا للدفاع عن حدود الوطن، إضافة لذلك فإن من كان ضمن تسديد بندقيتي قد يكون مجبرًا على التواجد بتلك البقعة من أرضه، أو قد يكون أحد أبناء ذلك الرجل الإيراني الصالح الذي أطعمني وكساني بإحدى الاستراحات على طريق تسفيري من طهران للرضائية، فهل من المروءة أن يجازى الإحسان بالحقد والكراهية.

وأثناء تفكري بتلك الخواطر التي منعتني من الضغط على زناد البندقية القناصة، سألني صاحبها عن السبب الذي يمنعني من إطلاق النار على أولئك الجنود الإيرانيين، الذين كانوا أهدافًا سهلة من أجل قتلهم، فقلت:

- بصراحة إن هذا الفعل ليس من الشجاعة ولا من شيم الرجال.

- هذا ما نفعله نحن أيضًا على الدوام، ولكني خرجت عن هذا السياق وأعطيتك بندقيتي لأني اعتقدت أنك ترغب بقتل نفر منهم انتقامًا لما فعلوه بك وبحق إخواننا الأسرى هناك.

فقلت ممازحًا من أجل أن أغير ذلك الموضوع الذي كشف لي عن جانب إنساني بشخصيتي:

- الحقيقة أنني عندما نظرت إليهم من خلال منظار هذه البندقية القناصة لم أرَ أحد من أولئك الإيرانيين الذين آذوني لكي أنتقم منه وأقتله شر قتلة.

وبقينا مرابضين على ذلك الساتر الترابي لأيام، كنا نتراشق ببعض الأحيان بكل وسائل الدفاع المتاحة بأيدينا لكي نرد على النار التي يطلقها علينا الإيرانيين، وانسحبنا من الساتر الأمامي لنُستبدل بفصيل آخر دون أية حوادث تذكر، لأن التراشق بنيران المدفعية والهاونات من كلا الطرفين كان منصبًا على الخطوط الثانية والثالثة للقوات المرابطة على جانبي جبهة القتال من الطرفين الإيراني والعراقي، حتى أمضيت شهرًا كاملاً مع أولئك الأبطال من غير أن يحصل هجوم جديد على تلك الكتيبة البطلة، وبهذا انتهت فترة معايشتي لهم بعد أن كسبت صداقات كثيرة مع أولئك الرجال الذين لم يعرفوا معنى للكسل أو الملل وهم مرابطين على حدود العراق، من أجل الدفاع عن الوطن ضد تلك الهجمة الفارسية اللعينة.

ولا يفوتني أن أذكر قبل أن أختم حديثي عن تجربة معايشتي للحرب ضمن قاطع مجنون للعمليات العسكرية؛ أن أحد المقاتلين هناك كان قد ذكر لي أثناء وصفه لتفاصيل المعركة التي دارت في الفترة التي سبقت التحاقي بهم، بأن القيادة العسكرية كانت قد زجت بتلك المعركة مجموعة من المقاتلين الكورد بمن يسموا حينها بأفواج الدفاع الوطني الكوردية، التي يطلق عليها تسمية الجاش من قبل الكورد بشكل عام، فتقدمت تلك القوة المسلحة وهم بزيهم الكوردي لتسترجع أحد الرواقم الذي احتلته إيران بتلك المعركة، وكان ضمن مساحة صغيرة مكشوفة من الأرض التي تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب، فقاتلوا بكل بسالة واستطاعوا أن يسترجعوا ذلك الراقم الذي حرروه بفترة زمن قياسية، ورابضوا به بانتظار أن يسلموه لأي تشكيل عسكري عراقي، وأثنائها تعرضوا لوابل النيران الكثيفة من المدفعية العراقية الثقيلة عن طريق الخطأ، باعتبار أن ذلك الراقم كان محتلاً من قبل العدو الإيراني ولم يكن لديهم علم بتواجد أولئك المقاتلين الكورد الذين حرروا تلك الأرض العراقية، ولدى وصول

القطعات العسكرية لذلك الراقم العراقي وجدوا ألا أحد من أولئك المقاتلين الكورد قد بقي على قيد الحياة، لأنهم قتلوا على أخرهم، وبذلك أصبحوا شهداء في سبيل العراق بعد أن كانوا مرتزقة لكل من يدفع لهم نقودًا أكثر.

وفي مفارقة أخرى قل ما تحدث بزمن الحرب بين أي بلدين، فإنه قد تسنى لي عن طريق أحد أبناء خالتي، وكان ضابطًا بإحدى المعسكرات التي تتواجد فيها أقفاص الأسرى الإيرانيين في محافظة صلاح الدين بالقرب من مدينة تكريت، بأن أواجه أولئك الأسرى الإيرانيين وجهًا لوجه وأحدث بعضهم بلغتهم الفارسية ثم أطلع على أحوالهم عن كثب بذلك المعسكر، وقد حدث ذلك عندما اصطحبني ابن خالتي وكان برتبة نقيب ويشغل منصب مساعدًا لأمر إحدى تلك الأقفاص، وذلك بناءًا على رغبتي بالإطلاع على أحوالهم ومقارنة ذلك بالحال المزري الذي رأيته بقفص الأسرى العراقيين بمعسكر دوژبان مركز بطهران.

وقبل وصولنا لذلك المعسكر الذي قصدناه من بغداد إلى تكريت، كنت أتفكر بالحال الذي سأجد عليه الأسرى الإيرانيين، وأثناء ذلك الطريق كنت قد رسمت لهم صورة غاية في الإذلال إن لم تكن أسوء من الحال الذي كان عليه أسرانا في إيران، مستندًا بذلك على مقارنتي كيف كان حالي بالسجون الإيرانية، وكيف استُقبلت في بغداد عندما دخلت زنازين الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية، ولذلك توقعت أن أرى الأسرى الإيرانيين محشورين بزنازين تكون بأفضل حالاتها أشبه بزنازين سجن أبو غريب، وبأسوء حالاتها تكون على نفس الإذلال الذي كان عليه أسرانا العراقيين بإيران.

لكني عندما وصلت اكتشفت أن حالهم كان مخالفًا تمامًا لكل التوقعات التي تخيلتها عن حالهم، لأني وجدتهم قد شغلوا قاعات كبيرة ونظيفة، وهي بالأصل كانت مخصصة لإقامة الجنود العراقيين من تلك الوحدات التي انتقلت لجبهات

القتال، وكانت تحيط بتلك القاعات المفتوحة أبوابها ليل نهار مساحة شاسعة من الأرض المفتوحة تصلح لأن تكون ملعبًا لكرة القدم، ثم السياج العالي الذي حوط ذلك المكان بالأسلاك الشائكة من خلال ثلاثة خطوط محكمة، الواحد تلو الآخر لمسافة ٥٠ مترًا عرضًا، ويلتف حول تلك القاعات وكل المساحة الشاغرة من الأرض، وبذلك كان من المضمون ألا أحد من الأسرى الإيرانيين له الحظ بتجاوز ذلك السياج الشوكي المحكم بإتقان، ولم يكن بذلك السياج من ثغرة سوى الممر الوحيد للدخول والخروج منهم وإليهم، وتتواجد فيه سيطرتين عسكريتين، الأولى منها كانت غير مسلحة بالجانب الذي يتواجد به الأسرى الإيرانيين، والثانية منها كانت مسلحة في الجانب الذي دخلنا منه بسيارة الجيب العسكرية، مرورًا بذلك الممر الضيق الذي يحيط به السياج العالي للأسلاك الشائكة، ناهيك عن خط الهاتف الذي كان يربط بين السيطرتين.

حتى وصلنا بعد ٥٠ مترًا إلى السيطرة العسكرية الثانية، ثم دخلنا لذلك الفضاء المفتوح الذي كان بالكامل مسخرًا ليعيش به الأسرى الإيرانيين بكل حرية، ومن غير مراقبة، ولهم أن يتجولوا به متى ما شائوا من غير أن يمنعهم أحد. وعندها اصطحبني ابن خالتي بجولته التفقدية للاطلاع على أحوالهم وما قد ينقصهم ليوفره لهم، فوجدت أن قسمًا منهم كانوا يلعبوا كرة القدم والقسم الآخر منهم كانوا منشغلين بلعبة رفع الأثقال وقسمًا آخر منهم كانوا بداخل القاعات يستلقوا على أسرة نومهم، والبعض الآخر كانوا جالسين على سطح تلك القاعات، ناهيك على أن البعض الآخر منهم كانوا من الجنود العربستانيين الذين يربون الدجاج والحمام لحساب ابن خالتي الذي كان يهوى تربية الدواجن بكافة أنواعها وأشكالها.

ولدى دخولنا إلى إحدى قاعاتهم وجدتها على درجة عالية من النظافة، وقد تراصت على جوانبها أسرة نوم الأسرى الإيرانيين، وأبوابها مفتوحة على مصراعيها لمن يدخل إليها أو يخرج منها، وبين قاعة وأخرى تواجدت الحمامات والمرافق الصحية النظيفة، وفي أخر جولتنا انتهينا بالمطبخ الذي كان بعض من الأسرى الإيرانيين قد تكفلوا بطبخ الطعام لكافة زملائهم الأسرى ولباقي منتسبي تلك الوحدة من الجنود والضباط.

ولدى مقارنتي لأحوال الأسرى بالجانبين العراقي والإيراني خلصت لنتيجة مفادها ألا مجال للمقارنة بينهم وبين أسرانا الذين كانوا يتحسرون على أشعة الشمس لكي تطالهم وهم قابعين تحت الحراب بأماكنهم التي لا مجال للحركة بداخلها، في الوقت الذي وجدت فيه أن الأسرى الإيرانيين كان لهم مطلق الحرية بالحركة كيف ما يشاؤون، ناهيك عن امتلاكهم لإدارة شؤونهم بأنفسهم، وباعتقادي أنهم لو قدر لهم أن يكونوا محتجزين بداخل سجون بلدهم لما كانوا سيحظوا بمثل تلك الخدمات المتنوعة التي اطلعت عليها شخصيًا. وبرأيي الشخصي أن الأسير، أي أسير من أي جيش في العالم يبقى ذليلاً وهو بعيد عن وطنه، مهما كان نوع الخدمات المقدمة له سلبًا أو إيجابًا، لأن الحنين للوطن هو شعور فطري لكل من رضع من ثدي أمه حليبًا طاهرًا.

وبعد تلك الجولة التفقدية طلبت من ابن خالتي أن يجمع الأسرى الإيرانيين لكي أكلمهم، فنادى على أرشدهم (مراقبهم) وكان عربستانيًا، لكي يجمع زملائه الأسرى في الفناء الخارجي القريب من تلك القاعات، بغرض الاستماع لشكاويهم. فنادى بهم مراقبهم فتجمعوا وقوفًا بطابور عسكري منظم وهم ينظروا لي باستغراب لأني كنت مرتديًا الزي العسكري الخاص بالقوة الجوية بلونه الأزرق، وهو أمر لم يكن مألوفًا لديهم بذلك القفص، وعندها همس لي

ابن خالتي أن أحدثهم بما أشاء، فوجهت لهم باللغة الفارسية الإيعاز بالجلوس (بشن) فجلسوا، ثم الإيعاز الثاني بالنهوض (بلانشو) فنهضوا جميعًا، ثم سألتهم عن نوع المعاملة التي يتلقوها من الحراس، فأجابوني أنها جيدة، وأضاف على قولهم هذا مراقبهم العربستاني الذي أكد أن الحراس لا يدخلوا عليهم، وهم متواجدون على الدوام عند نقاط التفتيش على البوابة الداخلية والخارجية، ثم توجهت بسؤال عدد منهم عن اسم المدن الإيرانية التي كانوا يقيمون فيها، فأخبرني كل واحد من أولئك الذي وجهت لهم سؤالي باسم مدينته، ولم يكن بينهم من كان يسكن بطهران، لكي أساله عن معسكر دوزبان مركز الذي كنت حبيسًا فيه، فاكتفيت بذلك القدر من الأسئلة، وعندها سألهم ابن خالتي عن طريق المترجم العربستاني إن كان لدى أحدهم شكوى، فلم يرفع أحد منهم يده لكي يتقدم بأي شكوى، فغادرناهم وأنا مستغرب بدرجة أكبر من اندهاشهم جراء حديثي معهم بلغتهم الفارسية، ومن تلك المفارقة التي جعلتني مرة بداخل أقفاص أسرانا العراقيين بطهران، ومرة أخرى بداخل قفص أسراهم في العراق، وشتان ما بين الحالين اللذين كنت عليهما بكل واحد منهما.



الخاتمة

عند هذا الحد تكون رحلتي مع العذاب بتلك الفترة قد انتهت كل فصولها بعد أن تحدثت عن جميع مفاصلها بشرح مفصل وافي، لأستمر بعدها بالعيش بسلام بظل أسرتي الجديدة التي بنيتها وكنت سعيدًا بوجودها، حتى انتهاء حربنا الدفاعية بعام ١٩٨٨ التي أفشلت بصمودها المشروع الفارسي بالتوسع على حساب العراق، ثم أستمر بالخدمة العسكرية حتى دخلنا بحرب أخرى في الكويت بعام ١٩٩٠ودفعنا كعراقيين جرائها الثمن الباهظ الذي لازالت عواقبه قائمة حتى يومنا هذا.

وبعد أن استتبت الأحوال على أثر انتهاء العمليات العسكرية لجيوش الحلفاء بعام ١٩٩١، بعد أن خسر العراق الحرب وتم سحق الجيش العراقي المتواجد حينها في الكويت، ناهيك عن الدمار الكامل للقوة الجوية، الأمر الذي ترتب عليه تقليص الملاك الكبير لمنتسبي القوة الجوية لأنه لم يعد هناك من حاجة لذلك العدد الهائل من الفنيين بصنف الهندسة الجوية، وعليه كان القرار بنقل من كانت عليه بعض العلامات الأمنية إلى باقي الصنوف في الجيش العراقي، وبطبيعة الحال كان اسمي بتلك القوائم التي شملت كل من كانت له صلة قرابة بأحد الذين اشتركوا بصفحة الغدر والخيانة، أو من كان مستقلاً مثلي، أو من كان مشاكسًا.. إلخ من العلامات التي ثبتت علينا نتيجة التقارير الحزبية الرخيصة التي كانت توشي بنا.

ولكن الصدفة حصلت لتقلب تلك الموازين، لأن تلك القوائم عندما رفعت بأسمائنا كان منصب وزير الدفاع قد تغير ليستلم الوزارة حسين كامل صهر الرئيس صدام حسين الذي استفسر عن تلك القوائم، وجاءته الإجابة أنها لمن كانت عليه علامات أمنية، بمعنى أنها علامات مشبوهة، فأصدر أمرًا بتسريحنا مُعلِقًا على ذلك أن هؤلاء عندما لم يصلحوا للخدمة في القوة الجوية فإنهم حتمًا لا يصلحون للخدمة بالصنوف الأخرى للجيش العراقي، فتم تسريح من كانت

خدمته عدة سنوات، وتم إحالة كل من تعدت خدمته ٢٠ عامًا إلى التقاعد، وعندها أحلت إلى التقاعد لأن خدمتي كانت ٢٢ عامًا براتب هزيل، فقد قيمته بعد أشهر بسبب الغلاء الذي شمل كل نواحي الحياة، وكنت قد بلغت من العمر حينها الثامنة والثلاثون عامًا، لأجد نفسي بعدها قد دخلت برحلة أخرى لنوع آخر من العذابات من أجل أن أكافح في سبيل الحصول على لقمة العيش بمواجهة الغلاء الفاحش، الذي كان يتصاعد كل يوم إن لم يكن كل ساعة لجميع المستلزمات الضرورية للعيش باستقامة وشرف.

وعندها اضطررت أن أعمل بأية مهنة توفر لي ولعائلتي قوت يومنا على الأقل، ذلك لأني على مدى خدمتي العسكرية لم أوفر أي مبلغ لمثل تلك الأيام العصيبة من الحصار الظالم علينا في العراق، في الوقت الذي كان ولدي البكر نوروز وهو قرة عيني وبهجتي بحياتي قد بدأ يعاني من آلالام بسبب فشل كليتيه عندما كنا بعام ١٩٩٥ وقد نال من العذاب الذي صبر عليه ما لم يتحمله الرجال حتى توفي بعام ٢٠٠٠، عندما أجريت له عملية جراحية بعد حصولنا على كلية من أحد أهل المروءة والشهامة الذي تبرع بإحدى كليتيه لكي نزرعها بجسد ولدي وقرة عيني، وتوفي عن عمر يناهز الثالثة عشر ربيعًا حسبتها مرَّت كالبرق من حبي واعتزازي به وكأنها ثلاثة عشر يومًا.

وعلى أثرها اسودت الدنيا بعيني وتألمت بعمق لذلك المصاب الجلل، ولم أعد أتحمل فكرة أن أخسر أي فرد آخر من أسرتي الصغيرة بعد أن بدأت الناس تتساقط كالفراشات بسبب الأمراض المتعددة التي لم نكن نعرفها قبل تلك الفترة، بغياب الغذاء والدواء الذي كان نتيجة الحصار الجائر الذي أقره ونفذه ضدنا كعراقيين المجتمع الدولي، الذي يدعي التحضر والدفاع عن حقوق الإنسان، بداية من عام ١٩٩١ وحتى احتلال الأمريكان للعراق بعام ٢٠٠٣، كشعب مغلوب على أمره، بينما بقي نظام حكمنا آنذاك يتمتع بكل وسائل العيش

المترف، وقد ذهب ضحية ذلك الحصار البربري بتلك الفترة أكثر من مليون طفل عراقي.

وعلى أثر انتشار أخبار تلك الكارثة الإنسانية في العراق بتلك الفترة سأل أحد الصحفيين الغربيين وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت:

- هل استحق مليون طفل عراقي الموت بسبب حصاركم للعراق ومنعكم من دخول الغذاء والدواء لهم؟!

فأجابت تلك العجوز الشمطاء بكل صلف يخلو من أي ضمير إنساني:

- نعم.. إنهم يستحقون!

في الوقت الذي تتبجح أمريكا بإعلامها كذبًا ونفاقًا أنها راعية لحقوق الإنسان والحيوان وكل المخلوقات!!

ولذلك قررت عام ٢٠٠٠ أن أخرج بعائلتي إلى أي مكان بخارج العراق هروبًا من شبح الموت الذي كان يحوم ليقتطف أرواح الأطفال الأبرياء، وكان ابني البكر نوروز هو أحد الضحايا عندما توقفت كليتيه ومات وهو بعمر الثالثة عشر ربيعًا، لكي أنقذ ما بقي لي من أولاد، ولأني لم أكن أملك سوى قوت يومي فقد تبرع لنا بعض الأقارب ممن كانوا قد خرجوا لأوربا منذ زمن بعيد بمبلغ يمكننا بالوصول لبريطانيا، عن طريق الهجرة غير الشرعية، وتلك حكاية أخرى تستحق أن أكتب عنها كتاب آخر لما تبعها من أمور حصلت لنا ولغيرنا من المهاجرين قبل وبعد استقرارنا في بريطانيا. وسأذكر بإيجاز الخطوط العريضة منها كتنبيه لكل من ينوي الهجرة مع أطفاله بشكل خاص، لأن التأثير قد يكون أقل ضررًا لو كان أولاده قد تعدوا سن البلوغ.. فخرجت من العراق ودموعي الساخنة لم تفارق عيوني، كانت على فراق ولدي الحبيب نوروز ولفراقي للعراق وكل أحبتي فيه، ولأتحسر لاحقًا بحرقة على العراق الذي احتله

الأمريكان بعد ثلاثة أعوام من خروجي القسري منه، وتلك حكاية لازالت تبعات فصولها الدموية قائمة حتى هذه الساعة وإلى ما سيشاء الله.

استمرينا بالعيش مغتربين عن وطننا، وكان كل همي هو أن أحافظ على أولادي الصغار من المجتمع البريطاني وتقاليده الغريبة عنا، وتُكتسب من خلال الحياة اليومية في المدارس، ولكن الموج كان أعلى مني، فتغير حال كل أفراد أسرتي الواحد تلو الآخر، وبقيت الوحيد فيهم الذي رفض التأقلم مع تلك الأجواء السائدة في الغرب بعد أن تنكر لي كبيرهم ونفر مني صغيرهم، وبفترة لاحقة بنهاية عام ٢٠١٢ كنت قد خسرتهم كلهم بعد أن أخذتهم بريطانيا مني وابتعدوا عما ربيتهم عليه من وطنية عراقية، وجذور كوردية وتربية شرقية، الأمر الذي جعلني أشعر أنني قد أصبحت غريبًا في بيتي، وحتى الغربة ببيتي خسرتها أيضًا لأن شريكة حياتي كانت قد قررت الانفصال عني من غير أية مشكلة عائلية تذكر، محتمية بالقانون البريطاني الذي يلزمني بالخروج من بيتي أيضًا بعد أن تقدم بي العمر، ولم تعد من حاجة لي بحياتها الأوروبية الجديدة، بعد أن كبر أولادها وأصبحت أنا حجر عثرة بطريق مستقبلهم الذي ينشدوه، بتفسخهم الاجتماعي الذي تدعمه قوانين الغرب كحرية شخصية لأي فرد، فوافقت فورًا ولبيت طلبها ولم أجادل لمعرفة الأسباب وخرجت من بيتي ومضيت لحال سبيلي وشكيت جحودهم وتنكرهم لي لله، وهو أمر جعلني أدفع الثمن باهظًا لأنه تسبب بخسارتي لأولادي، لأنهم تنكروا لي أيضًا بعد أن زرعت أمهم من جهة والغرب من جهة أخرى بقلوبهم القسوة والبغضاء.

وتلك أمور كنا نجهلها عن الغرب كعراقيين، لأننا شعب غير مهاجر ولم يسبق لي بكل حياتي عندما كنت في العراق أنني قد سمعت أن عراقيًا عاش بالغرب وخسر كل أهل بيته، الذين نزعت الرحمة والوفاء والغيرة من قلوبهم ولم

يعودوا يعرفون عبارة العيب، التي تخلو من أدبيات المجتمعات الغربية، وبذلك فهم أو غيرهم من المغتربين الذين على شاكلتهم لن يتعرضوا للتوبيخ أو الاستهجان من قبل الذين يعيشوا بمحيط معيشتهم من الإنكليز، لأن الكثير منهم لا يعرف اسم أبيه، مكتفيًا بحمل لقب أمه، وأن كان له أبٌ فهو قد تنكر له قبل بلوغه لسن السادسة عشر من عمره، وهو أمر أصبح شائعًا كسلوكٍ مخزي للكورد والعرب وباقي الجاليات في الغرب أيضًا لأنه سلوك أصبح يتكرر كل يوم مع إحدى تلك العوائل المقيمة هناك حتى أصبح أمرًا اعتياديًا وسائدًا مع شديد الأسف...

وبذلك فأنا أرى أن من واجبي الإنساني أن أنصح كل العوائل التي تبتغي الهجرة والإقامة الدائمة بأوربا أو أمريكا أن يضعوا بحسبانهم أنهم لو أقاموا هناك فإنهم بالنتيجة سيخسروا أولادهم، لأنه من الاستحالة عليهم بتلك الأجواء الاجتماعية المتفسخة أن يحافظوا على تماسك عوائلهم، على غرار ما هو حاصل في مجتمعاتنا الشرقية.

وتلك حقيقة درستها بعناية كل الحكومات الغربية التي منحت عوائلنا الشرقية الإقامة الدائمة ببلدانهم، لأنهم يعلموا علم اليقين أن أولادنا الصغار سيكونوا أولادهم وعلى نفس شاكلتهم بنهاية المطاف، ونصيحتي هذه هي ليست بسبب ما حصل معي في بريطانيا كموضوع شخصي، بل هو تحذير وتنبيه لما سيلاقيه المهاجر الذي يحلم أن يعيش أولاده الصغار بمجتمع غربي، يكون الصغار من أولادنا هم اللقمة السائغة للسلوك المجتمعي الغربي باحتمال أن يبقى الكبار منهم بحصانة من ذلك السلوك الطارئ، وقد يسأل سائل: هل أجعل أولادي يموتون أمامي بظروف حياتي التي أعيشها بوطني الذي يحترق يوميًا والناس تموت فيه بالجملة وأرفض أية فرصة لو توفرت لي ولأطفالي للمعيشة بالغرب؟!

فأقول له ما يخالجني بنفسي هو أنني لو كنت أعرف مسبقًا قبل أن أهاجر للغرب طلبًا للنجاة أنني سأخسر عائلتي على هذا النمط المخزي لكان قراري أن أبقى بوطني حتى لو ماتوا كلهم الواحد تلو الآخر أمام ناظري، لأني حينها سأبكيهم بحرقة قلب بقية عمري كما أفعل الآن وأنا أبكي ولدي الحبيب نوروز الذي استشهد في العراق كلما تذكرت سيرته العطرة..

من أجل ذلك كان قراري بالرجوع للأصول التي خرجت منها إلى العراق بكوردستانه وكل شبر فيه، لأني سئمت الغربة وسقم العيش فيها من جهة، ولأنني لم يبقَ لي من واجب أؤديه أو هدف أبغي وصوله سوى انتظاري للموت على فراشها، وأنا ومن هم على شاكلتي من العسكر لا نموت إلا كالمحاربين ونحن وقوفًا كشجرة النخيل حينما تموت ويبقى جذعها واقفًا بشموخ، بعد إخراجي من بيتي الذي لم أعد ربه وتركته لأولادي على أقل تقدير، وإن تنكروا لي بعد أن أصبح الكبير منهم قادر على الاعتماد على نفسه ورعايته للباقين، ليكملوا مشوار حياتهم على الشكل الذي هم يرغبون به.

ومن باب الإنصاف فأنا أشهد أن الخاطئ منا كان أنا بكل تأكيد، لأني أنا الذي ذهبت بهم لبريطانيا التي أخذتهم مني، وليس هم الذين أخذوني إليها وحصل ما حصل لهم ولغيرهم من المغتربين، ويا ليتني لم أفعلها، ولكن الندم لم يعد ينفع لأن قادم أيامي ليس بنفس عدد السنين التي قضيتها من عمري بحلوها ومرها، ولا علم لي على أي شكل ستكون حياتي القادمة لأني سأبدئها مرة ثانية من الصفر، من غير كلل أو ملل، وقد تجاوزت ٦٠ عامًا، لأعيشها من جديد بعطاء لا ينفذ في العراق الذي غبت عنه بتلك الفترة أثنتى عشر عامًا، وأطمح ليكون لي مكانًا أعيش فيه، ووظيفة أسترزق منها معاشًا يكفيني، حتى لو كان على الكفاف..

هكذا كانت الفكرة وسافرت من بريطانيا الى كوردستان بهجرة معاكسة وأول شيء تبادر لذهني هو اللقاء برفاق الأمس من مسؤولي الحزب الديمقراطي لكوردستان العراق، من غير دعوة أو ترتيبات مسبقة، باعتباري كنت أحد مقاتليهم كپيشمرگة بصفوف حزبهم بعام ١٩٨٢ بأيام شبابي، وهم الآن إحدى الأحزاب الكوردية المتنفذة بحكومة أقليم كوردستان، واعتقد الكثير من الذين يعرفوني بلندن والعديد من أبناء عمومتي بمحافظة السليمانية؛ أن سفري لكوردستان للقائي بهم هو بمثابة الانتحار، باحتمال أنني قد ألقي حتفي هناك كعقوبة لي نتيجة نشري لفضائحهم، التي أعلنتها على الملأ بكل صدق وجرأة وصراحة لمشاهداتي التي دونتها بكتابي هذا، وحكيتها بالصوت والصورة على الهواء مباشرة من لندن بخمسة حلقات متسلسلة من خلال قناة المستقلة الفضائية بعام ٢٠٠٧ ببرنامج "تاريخ الأمم"، كحقيقة كنت قد عشتها بنفسي وشاهد عيان عليها. وقد تابع تلك الندوات على الهواء مباشرة ملايين المشاهدين الكرام بالعديد من الدول العربية، ومن كوردستان أيضًا تابعها الكثير من جماهير شعبي الكوردي، وقد تلقيت من العديد منهم رسائل دعم وتأييد عبر البريد الإلكتروني بتلك الفترة لما نشرته من وقائع..

وهناك في كوردستان منعني أقاربي أن أتوجه لزيارة رفاقي القدماء من مسؤولي الحزب الديمقراطي بمحافظة السليمانية وأعلمهم بوجودي بكوردستان فأخذت بنصيحتهم ببادئ الأمر، وسعيت لكي أجد لي عملاً مناسبًا أعتاش منه بكوردستان لكي لا اضطر بالرجوع لبريطانيا، ولكني على مدى أربعة أشهر من البحث لم أوفق بالحصول على فرصة عمل حتى لو كان بسيطًا وقررت أن ألتجئ للعمل العسكري بسلك البيشمرگة للحزب الديمقراطي كعضو سابق بصفوفهم، فأبى أولاد عمومتي أن أذهب لهم وحدي خشية علي منهم، وتدبروا مشكورين ترتيب زيارة خاصة لأحد المسؤولين أتحفظ من ذكر اسمه، وهو يعمل

بالمكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكوردستاني بمحافظة السليمانية الذي تخلت قيادته الميدانية عني بعام ١٩٨٢، إن لم أقل إنها باعتني بثمن بخس لإيران عندما كنت أحد مقاتلي حزبها كپيشمرگة.

وأثناء ذلك اللقاء الودي ببناية المكتب السياسي بينت رغبتي بالتطوع من خلال العودة للعمل من جديد بصفوف الحزب الديمقراطي لكوردستان العراق، من أجل تحقيق مستقبل أفضل لكوردستان وشعبها بشكل خاص وللعراق بشكل عام، وكانت حقيقة رغبتي للعمل معهم ليست من أجل الانتفاع الشخصي لا سمح الله خلال المشاركة بالفساد والإجرام الذي يمارسوه على شعبي الكوردي وبقية العراقيين، وأنما بغاية الإصلاح لمستقبل أفضل، وبتعبير أصح نويت أن أكون الشوكة بأفواه حيتان الفساد والإجرام هناك، حتى لو كلفني ذلك خسارتي لحياتي التي أصبحت عبئًا ثقيلاً على نفسي وعشت عمرًا أطول مما كنت أتمناه.

وبدوره رحب بي ذلك المسؤول الحزبي بحفاوة بالغة وأشاد بتاريخي، مع العلم أني لم أتعرف عليه كقيادي سابق بالحزب الديمقراطي، ولكنه على ما كان يبدو قد تعرف علي عن طريق ابن عمي الذي كان معي بتلك الجلسة الودية، أو من خلال نشري لفضائحهم القديمة على الهواء مباشرة من لندن، وأثناء النقاش معه قال لي إني لم أقل عن حزبهم سوى الحقيقة، باعتباره كان بندقية مأجورة، أو كطلائع مسلحة متقدمة في كوردستان العراق بالنيابة عن الجيش الإيراني بتلك الفترة، والحرب كانت دائرة برحاها بين العراق وإيران، كنهج كانوا مجبرين على ممارسته خلال فترة الثمانينيات من القرن المنصرم وما قبلها، ثم أضاف وعرض علي طباعة ونشر كتابي هذا على نفقة حزبهم، بشرط أن أسمح لهم بالتصرف بمحتواه كما تقتضي مصلحة حزبهم، ليحولوا مجرى الأحداث فيه كما تشتهي أنفسهم التواقة للتزييف، وختم قوله إنه لو قبلت بعرضه فإنه سيجعل مني بطلاً قوميًا للكورد من خلال الدعاية للكتاب، فقاطعته قائلاً:

- أرجوك.. أنا وما يحتويه كتابي من حقائق لسنا للبيع بأي ثمن كان، وكتابي بما يحتويه هو أمانة تاريخية قد لا تنشر بزماننا هذا ولكنها حتمًا ستنشر بوقت لاحق حتى لو عملت معكم وبصفوف حزبكم.

وبذلك انتهى الحوار بذلك الموضوع، وانتقل ذلك الرجل الودود الذي تبدو عليه البساطة ليذكر لي مدى صعوبة العمل بالحزب الديمقراطي من جديد، لأنه أمر ليس باليسير كونه لا يتماشى مع مبادئي وأخلاقي كرجل مستقيم، وحينها وبحسب زعمه سأتقاطع بنهجي كرجل محسوب على الثوار ومصالح شخصيات الفساد بحزبهم.

وقد صدق بذلك وهو أمر أعرفه قبل أن أذهب لكوردستان، وكنت أعلم أيضًا أن جميع الأحزاب الكوردية هناك تقودها بعض العائلات المتنفذة، إضافة لامتلاكها السلطة لقيادة كوردستان والاستحواذ على خيراتها بعد أن تحولوا من بندقية مأجورة بثمانينيات القرن المنصرم كانت تقبض أجور عمالتها بالتومان الإيراني وأحيانًا بالليرة التركية كما تقتضي الحاجة، الى مافيات دولية منظمة تمتلك وتهيمن على خزينة إقليم بميزانية ومقدرات دولة غنية لديها آبار نفطية ومدخولات عديدة أخرى، لتوزع بينهم ويسخروا عوائدها المالية لمشاريعهم الشخصية لكي يجنوا ثمارها لهم ولعوائلهم، ويرموا بالفتات لنفر محدود من الذين يصفقوا ويهتفوا لهم بمناسبة أو بدونها، ليبقى باقي الشعب يعاني من العوز وقلة الحيلة بالمعيشة، ناهيك عن قطع المرتبات الشهرية بين الحين والآخر ولعدة أشهر لمن هو موظف حكومي حتى لو كان منتسبًا لأحد أحزابهم، بحجة أن الحكومة المركزية في بغداد -وهي أتعس وأفسد بكثير منهم- قد قطعت إرسال مرتباتهم... بينما هم مستمرون باستخراج النفط من حقول كوردستان وتسويقه وقبض وارداته والاستحواذ عليها، لهم ولشركائهم من

بقية الأحزاب الكوردية الحليفة لهم، ولم يسلم من الفقر والعوز حتى عوائل رفاقهم القدماء الذين قضوا نحبهم أيام المعارضة، لتأتي هذه الزمر الفاسدة وتستلم السلطة على مبدأ أن الثورات يخطط لها الحكماء ويفجرها الثوار وسيتولي عليها ويجني ثمارها الجبناء، وكأن شعب كوردستان حاشاه عقيم لم ينجب من الشرفاء سواهم لكي يبقى ويستمر هؤلاء الفاسدون بالقيادات العليا لكل الأحزاب الكوردية إلا ما ندر منهم من الشرفاء على مدى ٥٠ عامًا مضت من تاريخ كوردستان، ويحرم على غيرهم من الرجال بتاريخهم المشرف وأياديهم النظيفة ليقودوا الشعب الكوردي الى بر الأمان..

وكنت أعلم أيضًا أن تلك الحيتان الفاسدة لا تتوانى عن تصفية كل من يقف أو يتصدى لهم، حتى لو كان من أقاربهم أو معارفهم أو أصدقائهم، ومع كل ذلك؛ وأنا هنا لا أدعي الشجاعة لأني كنت على علم ودراية بأصول اللعبة التي يلعبها أولئك الفاسدون والمجرمون من خلال قرائتي لأفكارهم عن بعد، فهم بالرغم من جبروتهم وبطشهم لشعبهم، إن تحرك أحد بالضد منهم، حتى ولو بكتابة مقال صحفي.

وهم بنفس الوقت جبناء بحضرة أسيادهم من القادة الأمريكان والأوربيون، ولأني كنت ولا زلت أحمل الجنسية البريطانية التي دفعت ثمنهًا باهظًا كما ورد بأعلاه، "وأنا والله لا أتباهى بها، ويشرفني لو أن أصغر دولة عربية كانت قد أحتضنتني ومنحتني الإقامة كحد أدنى، ولكن ذلك لم يحدث لي ولغيري من العراقيين ورحبت بي بريطانيا"، ولذلك فهم لن يستطيعوا أن يفعلوا ضدي أي شيء مادمت نظيف اليد وبريء من أي فساد أو إجرام بكل حياتي، وكل ذلك بسبب جبنهم، ليس مني ولشخصي المتواضع، ولكن لخشيتهم من الذي منحني جنسيته وأصدر لي جواز السفر البريطاني الذي أحمله... وتلك حالة تسجل لهم

وليس عليهم لأن نظام الحكم الجديد في بغداد بمليشياته الطائفية الشرسة التي تعدت الخمسون ميليشيا مسلحة، تمول وتدعم من قبل إيران، وهي لا تتوانى عن تصفية معارضيها حتى لو حملوا جنسية الأمريكان الذين جاءوا بهم من أزقة طهران وحواري دمشق، وهذا هو ديدن أي احتلال عندما يأتي بأراذل القوم لينصبهم كحكام يرعوا مصالح المحتل بالدرجة الأولى، ولا بأس أن يسرقوا ويقتلوا أبناء الشعب تحت غطاء المحتل الذي يوفر لهم الحماية المحلية والدولية على غرار حكومة فيشي التي نصبها الاحتلال الألماني بفرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية من الخونة الفرنسيين، ولم يعترف بها المجتمع الدولي حينها..

هذا ما كان من أمر مضيفي وهو تارة يرحب بي وتارة أخرى يعرض علي صفقة نشر كتابي بما يناسبهم، وتارة أخرى ينصحني، ولو كنت قد جئته من بغداد كمواطن عراقي أتعبته الحرب الطائفية هناك لما استقبلني على الإطلاق واحتمال أنه قد يغيبني بسجونهم لو جادلته بأي موضوع سياسي يخص تجاوزاتهم وسرقاتهم العلنية.. فاستأنفت الحوار معه لأخبره أني لا أنوي العمل بالسياسة التي هي من وجهة نظري قذرة، ولا يتلائم معها سوى من كان منافقًا أو كذابًا وله عدة أوجه يلعب بها ما يشاء بالوقت المناسب لمصالحه، وأنا لست كذلك على الطلاق، وبينت له أنني أرغب بالعمل العسكري من خلال وزارة البيشمرگة لمحاربة الإرهاب وليس لقمع أهلي الكورد أو أي عراقي آخر، فأجابني بابتسامة تريد أن تنهي ذلك الحوار بعد أن تبين لي أنه مسئول غير فاعل، وأدعى أن الفساد قد طال كل مفاصل الدوائر الرسمية للإقليم، وحتى الجانب العسكري المتمثل بوزارة البيشمرگة.

الحقيقة أنني تعجبت كثيرًا من صراحته معي، على الرغم من أنه لم ينبهني سوى عن فساد مستشري ولكن من غير تفاصيل، وأنا طبعًا لم أكن محتاجًا

لتلك التفاصيل، لأن القاصي والداني من الكورد أو غيرهم يعلم بها وبتفاصيلها المقرفة، وهي ليست سرًا من الأسرار الخفية للأمن القومي الكوردي، حتى أصبح أمرًا لا يستحي منه كل الفاسدين والمجرمين المتسترين خلف تلك الشعارات الكوردية القومية الرنانة، التي من خلالها يستغفلوا الشعب الكوردي المتعاطف مع حقه القومي المسلوب، كشعب لا توجد له خريطة رسمية بأي بقعة في العالم وصولاً لمأربهم النفعية الدنيئة، ولكن فئة الشباب من الجيل الجديد والمتجدد وعوا وعرفوا حقيقتهم ولم يعد أحدهم يصدق شعاراتهم الزائفة والرنانة، بعد أن عرتهم السلطة وانكشفت حقيقتهم، وقد صبروا عليهم دهرًا، وهم اليوم يتصدوا لكل العناوين البائسة التي سرقتهم ونكلت بهم لعقود من الزمن ولا بد أن يأتي اليوم الذي سينظف أولئك الشباب الأبطال التاريخ الكوردي من كل الشوائب التي علقت به بغفلة من الزمن طالت لعقود طويلة.

ولأنني كنت مصرًا بمطلبي الذي من أجله ذهبت لكوردستان؛ بدا لي ذلك الرفيق أنه فعلاً عاجز عن مساعدتي كما كنت أتمنى، واقترح أن أكتب طلبًا بهذا المعنى لرئيس الأقليم السيد مسعود البارزاني مصحوبًا بتزكية يكتبها لي قائدي الميداني الذي كنت أعمل بأمرته ويدعى قادر قادر، وهو شخص معروف بكل كوردستان كرجل نظيف اليد وسمعته الطيبة وشجاعته الفائقة التي أنا أول من يشهد له بها قبل غيري، ولأني كنت محظوظًا فإن الرجل كان على قيد الحياة حيًا يرزق، وقد آثر أن يبتعد عن الأضواء وبريق المسؤولية ونفاق السياسيين، بعد أن تبوأ عدة مناصب عالية كقيادي بارز وذهب ليترأس مؤسسة تدعى أيلول مقرها بقضاء شقلاوة السياحي القريب من محافظة أربيل عاصمة الإقليم، وهي مؤسسة تخدم مصالح القدماء من مقاتلي البيشمركَة من الحزب الديمقراطي، لأن الرفيق قادر قادر يعتبر أرشيف حي للحزب الديمقراطي الكوردستاني لما له من ذاكرة حديدية قوية جدًا بمعرفته لكل أفراد البيشمركَة على مدى عدة أجيال

ولخمسين عامًا من عمله العسكري كقائد ميداني بفترة نضاله... ذهبت له بموقع عمله بمصيف شقلاوة والتقيت به على الرغم من انشغاله مع العديد من المراجعين الذين غص مكتبه المتواضع بهم، وقد جعله أقرب للمضيفة من كونه دائرة رسمية، فعرفته بنفسي فتبسم الرجل لأنه عرفني قبل أن أنهي قولي له من أكون، وكأن الاثنان والثلاثون عامًا التي افترقنا بها عن بعضنا كانت عنده وكأنها اثنان وثلاثون يومًا، فأجلسني لجواره وبعد الترحيب والمجاملة وقضاء حاجة العديد من المراجعين؛ اصطحبني لغرفة أخرى لنتكلم على انفراد بعيدًا عن ازدحام المراجعين بغرفة مكتبه.

بعد الترحاب وكرم ضيافته بخلقه الراقي سألني عن حاجتي، فأخبرته ما بنيتي، وكنت قد حررت طلبًا موجه لرئيس الإقليم السيد مسعود البارزاني سلمته له وطلبت مساعدته بهذا الموضوع، مبينًا له رغبتي بالعطاء وليس الطمع لجني بعض المكاسب كما أصبح سائدًا بعد أن تركت بريطانيا ومفاتنها قربانًا لكوردستان وأهلها الكرام، باستثناء رغبة شخصية واحدة هي أن أتمكن من نقل بناتي الاثنتين وهن بسن الصبا لتعيشا بكوردستان ومجتمعها، من خلال حصولي على عمل مجزي يتيح لي ذلك، فابتسم الرجل وقال:

– هل تريد أن تعرفني بنفسك وأنا أعرفك جيدًا أكثر من معرفتك لنفسك!

هنا اقتربت منه وسألته بصوت منخفض:

– لماذا يا رفيقي وأنت مثلي الأعلى بالنضال لم تنصروني عندما وقعت بقبضة الحرس الثوري بإيران بعام ٨٢ أثناء مهمة حزبية كنت أنت الذي رشحتني لها؟!

رد علي بهدوء وكأنه يعاتبني:

– وهل كان بإمكان أكبر مسؤول فينا أن يتحدى الحرس الثوري الإيراني وهم بعقر دارهم كما فعلت أنت؟!

وأثناء ذلك ومن غير أن أكلفه كتب تزكيته لي بقصاصة ورقية عنونها لرجل يدعى (ووريا ناجي بيك)، ودون فيها أنني كنت أحد أفراد مجموعة ناوچة ماوت التي كان هو رئيسًا لها بتلك الفترة، وأنني كنت منضبطًا وكفئًا خلال تلك الفترة، ودون فيها اسمي الحركي (ملازم سرچل) واسمي الحقيقي هشام (ابن فلان ابن فلان) النورسي، ثم استدعى أحد معاونيه بتلك المؤسسة لكي يرافقني بسيارة خاصة، وسلمه طلبي المصحوب بتزكيته لتسليمها لاستعلامات ديوان رئاسة الإقليم المسمى بمكتب (السروك)، على أنه موضوع يخصه، ومرسل من قبله إليهم، فودعته بعد أن شكرته.

انطلقنا لبناية السروك أو ديوان رئاسة الإقليم الكائنة بنفس مدينة شقلاوة السياحية، وهناك اندهشت من تصرفات أفراد دائرة الاستعلامات بديوان الرئاسة، وهم يتبختروا بسلاحهم الشخصي ذهابًا وإيابًا من غير سبب، وكأنهم صبية يستعرضوا قوتهم وزيهم العسكري الذي كان شبيه بزي وسلوك التعالي للحرس الجمهوري في بغداد قبل الاحتلال الأمريكي للعراق، وأكاد أقول إن الكفر كان أهون لديهم من أن يسألهم أي مراجع باستعلامات دائرتهم، لأن ردهم سيكون عنيفًا جدًا، وكأن المراجعين يستجدونهم.

وهذا ما حدث فعلاً مع أحد المراجعين من كبار السن وبسطاء الناس أثناء سؤاله لهم عن سبب تأخيره بالانتظار، فعنفوه بكلام قاسي يخلو من كل أدب واحترام، فجلست لأرى ما سيكون من أمري بعد أن انصرف من أرسله معي رئيسي السابق قادر قادر، وببداية الأمر تصورت أن ذلك المسؤول المسمى "ووريا ناجي بيك" الذي كتب له رفيقي قادر قادر تزكيته لي قد يستدعيني لكي يسمع مني، ولكن المشهد المقرف هناك بسوء معاملتهم مع المواطنين قد أوحى لي بما لا يقبل الشك أن طلبي لرئيس الإقليم سيرمى حتمًا بسلة المهملات.

وبعد انتظار ثلاث ساعات متعبة؛ خرج لي أحد صبيانهم وأبلغني أن بإمكاني الانصراف، وأنهم سيستدعوني في حالة قبول طلبي من قبل الرئيس مسعود البارزاني، فسألته كيف ستستدعوني وأنتم لا تعرفون عنوان سكني، فنظر لي وكأن الشرار كاد يتطاير من عينيه الوقحة، وقال لي بلهجة الأمر من غير مراعاته لسني أو لكوني رفيق سابق وقديم بحزبهم، أعطني رقم تليفونك، فذكرت له رقمي بكوردستان والآخر في بريطانيا، وانصرفت عنهم عائدًا للسليمانية وأنا متعجب من طريقة وأسلوب عمل هذه الجهة التي تعتبر أعلى مكتب قيادة بتسلسل دوائرهم الرسمية بإقليم كوردستان، لأنهم لازالوا يتعاملوا بعقلية وسلوك المليشيات أو عصابات قطاع الطرق، وأول ما قفز لذهني حينها أن هذا المستوى الهابط جدًا لقيادة إقليم؛ سوف لن يتطور أبدًا ليرتقي ويصبح دولة بيوم من الأيام كاستحقاق مشروع للشعب الكوردي، الذي ظلمه التاريخ منذ اتفاقية ساسكس بيكو إبان الحرب العالمية الأولى وما قبلها وبعدها..

وبعد انتظاري الميؤس منه لشهرين آخرين، قضيتها بفنادق محافظة السليمانية على حسابي الخاص الذي بدأ ينفد؛ طفح بي الكيل وذهبت مرة أخرى لمسؤولي قادر قادر بمقره الكائن بمؤسسة أيلول بمصيف شقلاوة السياحي واشتكيت له بصوت عالي من هذا الإهمال المتعمد لطلبي، وكأني أستجديهم وأنا المتفضل عليهم بمد يدي النظيفة للعون والمساعدة، ولم أخفِ عنه أني قد صرفت كل المبلغ الذي جلبته معي من بريطانيا للمعيشة، ولم أعد قادرًا على تدبر مصروفي اليومي وأنا أنتظر أمرًا يبدو وكأنه ضرب من الخيال، ولو أنني قد أُبلغتُ برفض طلبي بوقت مبكر لكنت قد رجعت لبريطانيا على الفور من غير أن أعاتب أو أجادل أحد.

خفف الرجل من ثورة غضبي واتصل تليفونيًا بالمكتب السياسي للحزب الديمقراطي في السليمانية وهي نفس الجهة التي زرت أحد مسؤوليها ببادئ

الأمر وتخلص مني، لأنه كان على معرفة أن مناشدة رئيس الإقليم من قبل أي مواطن وكأنها الحديث مع حائط أصم، لأن من المعروف أن رئيس الإقليم لا يسمع ولا يقابل أي مواطن من أبناء شعبه لأي سبب كان ولا أعلم لماذا! وهو بنفس الوقت يقابل بحفاوة بالغة الوفود الأوروبية والأمريكية وكل الأجانب على وجه التحديد، ويتفرغ قليلاً لمقابلة البعض من شركائه السياسيين من الأحزاب الكوردية الأخرى فقط.

وبعد تكليف رفيقي قادر قادر هاتفيًا لمسؤولي المكتب السياسي في السليمانية أن يتقبلوني للعمل معهم ريثما يُستجاب لطلبي من قبل رئيس الأقليم، فلم يعتذروا له من تلبية طلبه، بل طلبوا منه وثيقة تزكية لي ليتخذوا اللازم بتعييني لديهم، فحدد رفيقي قادر قادر موعدًا لي معهم وأنهى المكالمة، ثم كتب تزكية جديدة لي يخاطب بها اثنين من رفاقه، الأول يدعى عز الدين، والآخر يدعى فريدون، ووضعها بظرف وعنونها للمكتب السياسي في محافظة السليمانية وسلمني إياه، فشكرته وودعته وأبى إلا أن يوصلني بنفسه من مكتبه وحتى الباب الخارجي لاستعلامات مؤسسته، ولم يتسن لي أن ألتقي به مرة أخرى، ولو قدر له أن يقرأ كتابي هذا فإنني أرسل له من هنا وباسم كل الأحرار المزيد من التحايا والاحترام لشخصه الوقور، وهو يستحق ذلك كرجل محترم ونظيف اليد، وقل ما وجد رجل مثله بين كل المسؤولين الكبار بكافة الأحزاب الكوردية.

وبعد يومين وبالموعد المحدد؛ ذهبت الى مقر المكتب السياسي في السليمانية، وسلمت رسالة رفيقي قادر قادر لموظف الاستعلامات لكي يوصلها للمسؤولين بالداخل، وقد حددهم قادر قادر برسالته، وهم الرفيق فريدون والرفيق عز الدين، وجلست بانتظار لقائهم لي لفترة طويلة، ولا أنكر أنني بتلك المرة كنت

متفائلاً بعض الشيء، ولكنهم بدلاً من أن يستقبلوني لمناقشة نوع العمل الذي يلائمني بمكتبهم السياسي؛ أرسلوا لي ظرف بريدي يحتوي على كتاب رسمي بإحالتي إلى التقاعد معنون الى وزارة البيشمرگة بمحافظة أربيل عاصمة إقليم كوردستان مستندين بذلك على تزكية مسؤولي السابق قادر قادر باعتباري كنت مقاتل سابق بصفوف البيشمرگة بالفرع الرابع للحزب الديمقراطي الكوردستاني، وتلك كانت حيلة أخرى للتخلص مني، لأن من المتعارف عنه أن معاملة تقاعد أي بيشمرگة من كافة الأحزاب لا يمكن لها أن تتحقق من غير وساطات تدفع خلالها الكثير من الأموال الطائلة، أو عن طريق وساطة مسؤول كبير بذلك الحزب يتابعها وينجزها لأحد أقربائه أو معارفه مثلاً، وما عدا ذلك تُهمل بقية المعاملات، وعند متابعتها من أصحابها يكون الجواب لديهم جاهزًا أن المعاملة لم تنجز بعد، حتى لو مرَّت عدة سنين من تاريخ تقديمها.

ناهيك عن أن العديد من الانتهازيين الذين لم يعملوا ولا ليوم واحد بسابق عهدهم بقوات البيشمرگة، استحصلوا على مرتب مجزي كبيشمرگة متقاعد بعد أن حصلوا على التزكية من قبل أحد القياديين، وأحدهم كان هو ابن عمي الذي يسكن حاليًا بمحافظة السليمانية، وقد شرحت سلوكه ببداية كتابي هذا ووصفته بالانتهازي عندما كنت أتشارك السكن معه بقرية گورگه بير التي كانت ضمن ما تسمى آنذاك بالمنطقة المحررة من سلطة الدولة العراقية، وافترقنا لأذهب أنا وأنضم لمجاميع البيشمرگة وتبدأ رحلة عذاباتي، وذهب هو لبيته على أثر إعفاء الدولة لكل الكورد الهاربين من الخدمة العسكرية وتسريحهم على الفور، وقد علمت بفترة لاحقة أن ذلك التقاعد مشروط بأن يكون المتقاعد مستمرًا بولائه لذلك الحزب الذي منحه التزكية وعلى مدى الحياة، وبحالة مخالفته لذلك الشرط يتوقف مرتبه التقاعدي على الفور وكأنه رشوة وليس مبلغًا مجزيًا

لخداماته السابقة كمقاتل كان يتعرض للموت بأية لحظة، فرفضتُ استلام ذلك الكتاب الرسمي وأصررت على مقابلة الرفاق فريدون وعز الدين.

حولوني لمكتب ذلك الرفيق الذي كنت قد واجهته ببداية الأمر عن طريق أقاربي فأبلغته أن الرفيق فريدون ورفيقه عز الدين وعدوا مسؤولي قادر قادر أن يجدوا لي عمل هنا بالمكتب السياسي وليس لإحالتي إلى التقاعد، وما دام الأمر هكذا فالرجاء أن تستبدلوا كتابكم هذا وتكتبوا لي رسالة جوابية للرفيق قادر قادر تعتذرون له عن عدم إمكانيتكم لتلبية طلبه، فرد علي الرجل أن طلب الرفيق قادر قادر لا يرد وبنفس الوقت لا يمكن لنا تلبية طلبه لأسباب إدارية، ولذلك تمت إحالتك إلى التقاعد، فطلبت منه أن يتصل هاتفيًا برفيقي قادر قادر لكي يعلمه بذلك إن كنتم لا تستطيعون الكتابة له، فاتصل به وأبلغه أن رفاقه الدكتور فريدون وعز الدين يعتذروا له بعدم إمكانية تلبية طلبه بتعييني عندهم، وبنفس الوقت نقل له رفضي لفكرة إحالتي إلى التقاعد، فأخبره رفيقي قادر قادر (كما أدعى ذلك المسؤول) أن يقول لي أن أقبل استلام معاملة التقاعد، وأنه سيحاول متابعة نتيجة الطلب الذي تقدمت به لرئيس الإقليم مسعود البارزاني، فأخذت الظرف البريدي لمعاملة التقاعد وانصرفت عنهم.

توجهت لوزارة البيشمرگة شعبة (ف. ل. ك) الخاصة باستلام معاملات التقاعد للبيشمرگة القدماء بمحافظة أربيل، وبدورهم استلموا مني كتاب المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الذي يطلب منهم إنجاز معاملة تقاعدي، بعدد: ١٥١٦ وتاريخ: ١٣- ٥ - ٢٠١٣، وبعدها طلبوا مني أن أزودهم برقم هاتفي كما حدث بالمرة السابقة بديوان رئاسة الإقليم ولم يتصل بي أحد منهم حتى هذه اللحظة، علمًا بأنني كنت أراجع وزارة البيشمرگة بأربيل كلما تسنت لي الفرصة بزيارة الأقارب بكوردستان، ليس لحاجتي لمبلغ ذلك التقاعد ولكن لكي أتأكد باليقين أن أولئك الرفاق منافقون وكذابون وقد تخلصوا مني بتلك الطريقة

الرخيصة، وككل مرة كانوا يسألونني عن رقم وتاريخ معاملتي، فأزودهم به، ويأتيني الرد جاهزًا وكالمعتاد: أن المعاملة لم تنجز حتى الآن وسنتصل بك عندما تتم الموافقة عليها.

مضت أكثر من ثلاثة أعوام منذ يوم تسليمي لهم معاملة التقاعد من غير أن يتصلوا بي، وعليه مضيت لحال سبيلي ورجعت لبريطانيا بعد أن غبت عنها سبعة أشهر من أجل أمل زائف بمد يد العون لأناس يدعونأنهم كانوا مناضلين وأصبحوا الآن متخمين بمليارات الدولارات، بعد أن استولوا على خزينة كيان هو أشبه بإمكانيات دولة غنية بعوائدها، التي يحول الجزء الكبير منها لحسابات شخصية متعددة بمئات الملايين من الدولارات، يودعونها ببنوك سويسرا والباقي يوظفونه لمشاريع شخصية، على شكل بناء فنادق راقية ومجمعات سكنية فاخرة مثل المجمع الألماني والفرنسي والأمريكي وغيرها من المنتجعات السياحية، ويتباهون بها بكل صلافة ووقاحة لا مثيل لها من خلال إعلامهم الرخيص على أنها إنجازات قد تم تحقيقها لكوردستان وشعبها، والمواطن الكوردي العادي لا يستطيع أن ينعم بالإقامة بها ولو لليلة واحدة إن لم أقل إنه يمنع من التفرج على مرافقها ومباهجها عن بُعد، ولهذا فهم لم ولن يسمحوا لأي جهة أو فرد من غير المنتمين لعصاباتهم أن يدخلوا للعمل معهم بأوكار جمعت قادة أحزابهم بكل مسمياتهم الرنانة، لأنهم يعتقدون أن الطارئ عليهم سيتقاسم الغنائم معهم، إن لم يكشف تفاصيل سرقاتهم وإجرامهم ويشهر بهم عند اللزوم. وجميع هؤلاء المسؤولين بكافة مسميات أحزابهم يبدون للناس وللإعلام وكأنهم مختلفين بالرؤى والمبادئ السياسية، ولكنهم من خلف الستار متوافقون على توزيع الغنائم بينهم، على غرار توزيعهم لمقاعد البرلمان الكوردي ولمقاعد ممثليهم في البرلمان العراقي بين أعضاء أحزابهم بحصص يُتفق عليه بينهم، ومثال ذلك أن حصة رئاسة الإقليم تكون للحزب الديمقراطي

الكوردستاني، وحصة رئاسة العراق هي لحزب الاتحاد الوطني الكوردستاني، وحتى قتالهم السابق لعشرات المرات على مدى تاريخهم بعضهم بالضد من الآخر قبل استيلائهم على السلطة بكوردستان؛ كان بسبب النفوذ والانتشار العسكري بمناطق كورستان وليس بسب التقاطع بالنهج الثوري كما يدعون..

ولكن هيهات أن يدوم هذا الملك لهم ولكل الطغاة بالاستمرار بطغيانهم وجبروتهم وبطشهم لشعوبهم الى ما لانهاية، فالأشخاص مهما كانت منزلتهم ومناصبهم وجبروتهم فإنهم راحلون حتمًا وتبقى الأوطان عزيزة وكريمة بشعوبها.

وبهذه الأيام دخلت حركة التغيير الكوردستاني، بزعامة "ناوشيروان مصطفى"، والمسمى بالكوردية (گوران) على الخط، وأربك ذلك التوافق بين الحزبين الرئيسيين، من خلال حصوله التأييد الانتخابي من قبل شريحة كبيرة من الشعب الكوردي، على أثر نشره لفضائح فساد هذين الحزبين وتاريخهم المخزي، ولازلت غير متيقن بالتمام أن هذا التيار السياسي (الشعبي) الجديد الذي حمل اسم التغيير سيبقى نظيفًا لو قُدِّر له أن يكون الحزب الأول لقيادة كوردستان، أو عند غياب زعيم الحركة ناوشيروان مصطفى لسبب أو لآخر، أطال الله بعمره ليحقق مطالب تلك الجماهير التواقة للتغيير. علمًا أنه كان من كبار القياديين المنشقين عن حزب الاتحاد الوطني، الذي كان برئاسة جلال الطالباني، الذي يوصف أنه ثعلب السياسة الكوردية، لأنه كثير التقلب بمواقفه ولم يثبت على موقف واحد بكل مسيرته، ناهيك عن أنه بعام ١٩٦٦ كان قد أسس قوات (الجاش) الكوردية التي هي قوات كوردية عشائرية مسلحة تقاتل الى جانب حكومة العراق ضد الثورة الكوردية بزعامة الملا مصطفى البارزاني حينها، وتلك حقيقة معروفة لكل من هو بنفس عمري في كوردستان أو في بغداد التي كانت مقره آنذاك.

ومن باب المصداقية بالقول بما أدعيه طلبت من إدارة مؤسسة شمس للنشر والإعلام أن تدرج بكتابي هذا مشكورة صورة لنسخة طلبي الذي تقدمت به لرئيس الإقليم السيد مسعود البارزاني باللغة العربية، ولم يجبني مشكورًا حتى بعدم الموافقة، وهذا السلوك المخزي لم يفعله حتى أعظم ملوك ورؤساء ووزراء الدول الأوروبية، عندما يتقدم أحد مواطنيهم بأي طلب منهم، وصورة لنسخة التزكية الأولى والثانية لي باللغة الكوردية من قبل مسئولي السابق قادر قادر (بخط يده الكريمة) بقوات الپيشمرگة الكوردية للحزب الديمقراطي الكوردستاني، بزعامة مسعود البارزاني سابقًا وحاليًا حتى يوافيه الأجل يومًا ليحل مكانه من بعده أحد أبناءه إن لم يتحرك الشعب الكوردي ويطيح بهم.. إضافة لصورة مظروف المكتب السياسي لحزبهم في السليمانية والمعنون لشعبة (ف. ل. ك) بوزارة الپيشمرگة.. لكي يخرس ولا يتقول البعض من كبار قادتهم من أصحاب الأسماء الرنانة في أربيل على أني كاذب ولم أكن منتسبًا لحزبهم، وأنني لم أكن مقاتلاً بقوات پيشمرگة حزبهم الديمقراطي، كما حصل أثناء فترة ظهوري على الهواء مباشرة وأنا أسرد فصول حكايتي هذه بعام ٢٠٠٧، عندما أبدو تذمرهم وطلبهم بإيقاف تلك الحلقات، من خلال الاتصال الهاتفي بإدارة تلك القناة الفضائية التي أكملت بث بقية حلقاتي الخمسة على عجل، ولم تعد بثها مرة أخرى.

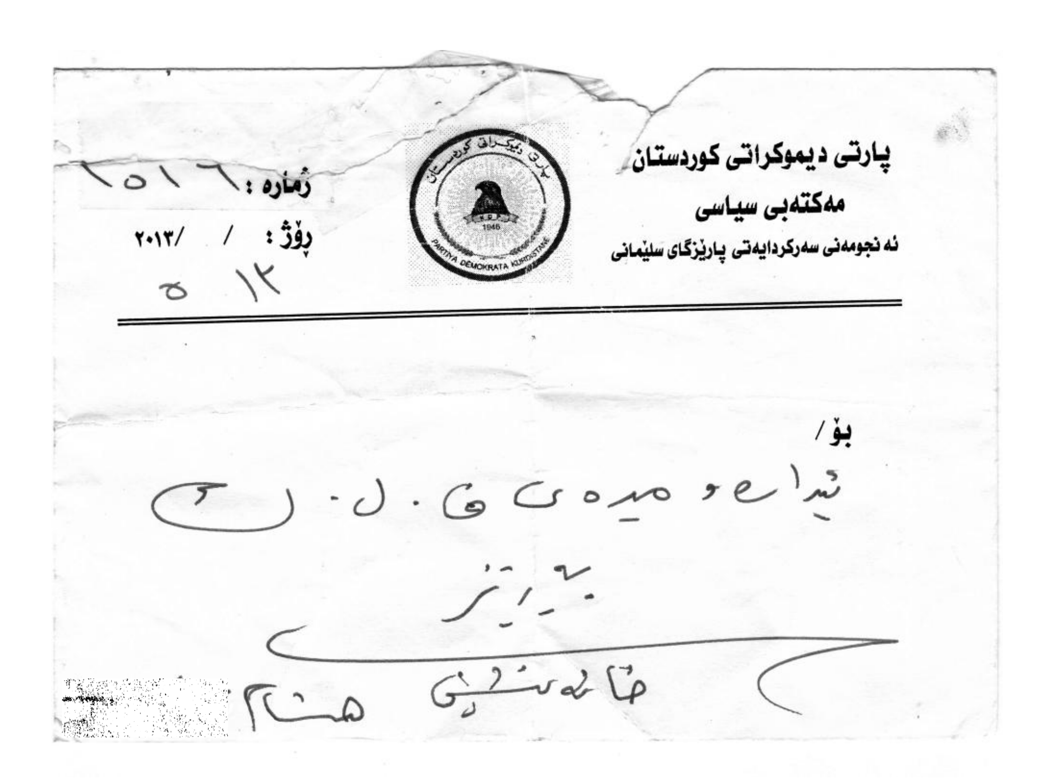
ونتيجة لطلبات الجمهور الذي تابع حلقات مذكراتي الخمسة؛ تم استضافتي بندوة خاصة لأحاور المشاهدين بشكل مباشر، وللإجابة على أسئلتهم وبعض من استفساراتهم بما يخص أحداث رحلتي من جبال كوردستان إلى سجون إيران والعراق المدونة بكتابي هذا، ونتيجة لتلك الضغوط الجماهيرية استضافتني قناة المستقلة بندوة كان عنوانها (الندوة الختامية)، وكانت فعلاً ختامية كما رغب الرفاق في كوردستان، لأنني لم أستدع لأظهر بأي لقاء أو ندوة أخرى بقناة المستقلة حتى يومنا هذا.

وتلك فرصة لم تتكرر سنح فيها المجال لكل من يتنكر لي أو يكذب مشاهداتي وما ورد بالفصول المدونة بكتابي هذا من قبل أعضاء الحزب الديمقراطي الكوردستاني لإبداء رأيه، ومناقشتي بشكل مباشر وعلى الهواء، بدلاً من اتصالهم بإدارة تلك القناة والتنسيق معها، ولكن لم يتصل أحد منهم أو من يؤيدهم من المنتفعين، لأنهم تعودوا على تصفية حساباتهم كالخفافيش بالظلمات، ومن خلف الستار وليس بالعلن وبوضح النهار..

منوهًا أنني متنازل عن حقي بالتقاعد كپيشمرگة قديم بصفوف الفرع الرابع للحزب الديمقراطي بكوردستان العراق، لأني سأعتبره رشوة لشراء ذمتي التي لا أبيعها بكل كنوز الدنيا، إضافة لرفضي المسبق لأي دعوة (قد) تقدم لي من قبل الحزب الديمقراطي لكوردستان العراق، للعمل معهم مرة أخرى، كدعوة جدية أو كدعوة استضافة لتسوية ما يعتقدوه هم أنه خلاف بيني وبينهم، ولو قبلت بتلك الدعوة الرخيصة من باب الافتراض (إن حصلت وأنصحهم ألا يفعلوها)، فمن حق كل من يعرفني أن يلعنني ويتهمني بالانتهازية والنفاق والخيانة لكل ما أحمله من مبادئ ثورية، والتآمر ضد كوردستان وشعبها الكريم لنيل حقوقه القومية كوطن قومي، وللعراق كوطن جامع لكل العراقيين عربًا وكوردًا وتركمان وأشوريين وباقي الأثنيات المحترمة.

هشام النورسي




پارتی دیموکراتی کوردستان
مەکتەبی سیاسی
ئه نجومەنی سەرکردایەتی پارێزگای سلێمانی

ژمارە : ٢٥١٦
ڕۆژ : ١٢ / ٥ /٢٠١٣

بۆ /

صورة من مظروف التقاعد من الحزب الديمقراطي

١

برای بەڕێزم کاکە ووریا حاجی تکی

سڵاو ڕێز و حورمەت.

هیوادارم خۆشبیت.

براهەڵگری نامە: هشام

خزمی سلیمانی گەڕەکی ملکندی لە ئەصلدا

لە بغداد لە دایک بووە - زمانی کوردی زۆر

باش نازانی. تکایە پشتی بگری

توسیعە بۆ جیای ... بازاڕی. دەیەوێت

ئەم نامەیە لیاتە دەدات بەڕێزیانت.

بۆیە ناردمانە لای بەڕێزت کە انشاء الله

هاوکاری بۆ بکەیت و ئەوەی دەکریت

بۆی دابین بکەیت هەر ممنونیشا ئەبین.

ئەم برایە ساڵی ١٩٨٢ هاتە لای ئێمە کە لەسەر

حدود ... لە منطقەی هەورامانە و شارباژێڕ

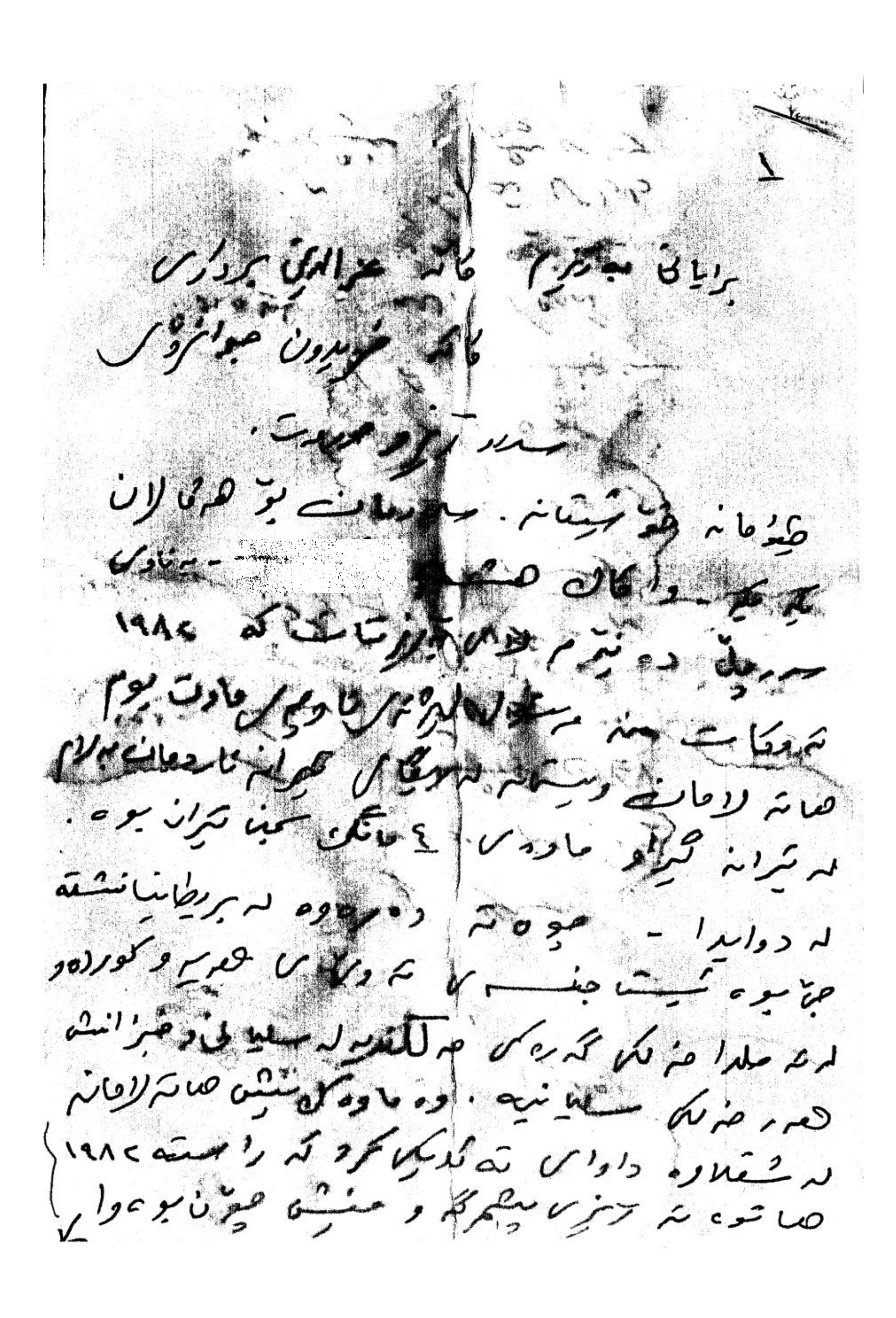
بکا

[illegible]

قادر قادر

١٠-٤-٢٠١٣

نسخة من التزكية الأولى من قبل مسئولي السابق قادر قادر
بقوات البيشمرگة الكوردية للحزب الديمقراطي الكوردستاني



١

برایانی بەڕێزم کاکە عزالدین [illegible]
کاکە فریدون [illegible]

سلاو [illegible].

[illegible] ... بۆ [illegible]
[illegible]
[illegible] ... کە ١٩٨٤
[illegible]
[illegible]
[illegible] ... ٤ مانگ [illegible] تیران بووم.
لە تیرانە [illegible]
لە دوایدا - [illegible] لە بریتانیا نیشتە[illegible]
[illegible] و کوردەوە
[illegible]
[illegible] نییە. [illegible]
لە شەقلاوە داوای [illegible] ١٩٨٢
[illegible]

نسخة من التزكية الثانية من قبل مسئولي السابق قادر قادر
بقوات البيشمرگة الكوردية للحزب الديمقراطي الكوردستاني

سيادة الرئيس مسعود البارزاني المحترم

رئيس إقليم كوردستان العراق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أتوجه برسالتي هذه إلى سيدي الرئيس مسعود البارزاني حفظه الله ليبقى علماً عالياً لنصرة الحق بكل مكان وبتحقيق أماني الأمة الكوردية بنيل حقوقها للعيش بحرية وكرامة وسلام.

سيدي الرئيس بارك الله بكم أنا أرى بشخصكم الكريم صفة الوالد الذي يرعى أبنائه من شعبنا الكوردي العظيم بكل أجزاء كوردستان وخارجها، وهذا ما شجعني بأن أتشرف وأُسمي نفسي بكل فخر بأنني أحد أبنائكم الذين عشقوا تربة وطننا القومي كوردستان وكان لي شرف الدفاع عن حقوق شعبنا الكوردي قبل ثلاثين عاماً عندما التحقتُ بصفوف الحزب الديمقراطي لكوردستان العراق كپيشمركة ضمن تشكيل الفرع الرابع للحزب بقيادة المناضل نادر هورامي، بمجموعتنا القتالية ناوچة ماوت التي كان رفيقي المناضل قادر قادر رئيساً لها، وحينها صدر القرار بنقلي للمكتب السياسي للحزب للعمل بالإذاعة بقسمها الذي يبث باللغة العربية باعتباري أجيد اللغة العربية التي اكتسبتها بحكم إقامتي الدائمة في بغداد، علماً أن أصولي الكوردية ترجع لمحافظة السليمانية، ولكني لم أستطيع الوصول للمكتب السياسي بمحافظة أرومية بسبب رفضي لطلب الپاسدار الإيراني الذين استوقفوني بقضاء مريوان بغرض الانتقال لأكون ضمن تشكيلات الأحزاب العراقية الشيعية العاملة آنذاك بالجهد العسكري بإيران، ذلك لتمسكي بقضية شعبي الكوردي ولم أخشى جبروتهم عندما جاهرت بها بالعلن وهذا ما لم يروق للپاسدار الإيراني الذي كان يتبجح بوصفنا بأننا كنا أجراء عندهم وهو أمر جادلت فيه ونفيته بالكامل، وهذا ما لم يستطيع رفاقنا بمكتب مريوان أن يصرحوا به للأسباب التي تتفهموها يا سيدي الرئيس، إضافة على أنهم لم ينصروني حينها بعد أن

تنكروا لي مع الأسف، وعلى أثرها عمد الپاسدار بتلفيق تهمة كيدية لي على أني جاسوس، وتم اعتقالي للتحقيق معي بمعتقلات الاستخبارت العسكرية الإيرانية بقضاء مريوان ثم بمحافظة سنندج، حتى استقر بي الحال بقفص الأسرى العراقيين بالعاصمة الإيرانية طهران لفترة أربعة أشهر كنت خلالها أعلق صورتكم بميدالية أزين بها صدري كتقليد كنا نتبعه كپيشمرگة للحزب الديمقراطي لكوردستان العراق، وذقت حينها أنواع العذابات ولم أستسلم لهم لأتنكر لقضيتنا الكوردية التي من أجلها هجرت بيتي وعائلتي في بغداد، وبعدها تم تحويلي إلى مقر قيادة الحزب بمحافظة أرومية باعتبارهم مرجعيتي الحزبية بعد ثبوت براءتي، ومن المؤسف أيضاً أن رفاقنا هناك لم يكونوا على درجة من المسؤولية عندما لم يسمحوا لي بالعمل معهم واكتفوا فقط بفك القيد من يديَّ بعد أن استلموني من الجهات الإيرانية من غير أن يقدموا لي المساعدة التي تجعلني قادراً على الرجوع لقضاء مريوان على الحدود، ولكن شهامة اللاجئين لإخواني الكورد في محافظة الرضائية أنقذتني من ذلك الموقف وتكفلوا بمصاريف السفر برجوعي لقضاء مريوان التي وصلتها ثم غادرتها فوراً عائداً إلى تشكيلاتنا المقاتلة بمنطقة شهرباژير بكوردستان العراق بصحبة عدد من رفاقي البيشمرگة، وهناك تقدمت باستقالتي من الحزب للرفيق نادر هورامي رئيس الفرع الثالث والرابع للحزب بعد أن أطلعته على كل ما حدث معي بإيران، لأنني حينها شعرت بعجزي عن المواصلة لقلة حيلتي بالتكلم مثل باقي رفاقي بلغتنا الكوردية بتلك الفترة، وقررت أن أرجع لبيتي وأنشئ عائلة كوردية يكون فيها أولادي هم المقتدرين أكثر مني على خدمة كوردستان، ولكن زنازين الحكومة العراقية في بغداد كانت تنتظرني بمعتقل الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية العامة من غير أن أعترف لهم بأنني كنت پيشمرگة لكي لا أضطر بتزويدهم المعلومات عن تشكيلاتنا في الفرع الثالث والرابع للحزب ضمن قاطع عمليات محافظة السليمانية واكتفيت بقولي أنني كنت مختطفًا ورجعت بعد أن حانت لي الفرصة لذلك، وتم إطلاق سراحي بعد

خمسة شهور كانت أقسى من تلك التي قضيتها بالمعتقلات الإيرانية ومنها قفص الأسرى العراقيين بطهران، بعد شمولي بقرار العفو عن الهاربين من الجيش العراقي الذي كنت من منتسبيه برتبة نائب ضابط قوة جوية قبل التحاقي بالحزب الديمقراطي لكوردستان العراق.

سيدي الرئيس : أعتذر على الإطالة بهذه الرسالة وكنت أتمنى لو أنني كنت أحظى بشرف المثول أمام حضرتكم لأشرح لسيادتك ما أريد قوله كابن بحضرة والده، ولكن سعة صدركم المعروفة بالإصغاء لأبناء شعبنا الكوردي هي التي جعلتني أطمع بكرمك وأشرح لسيادتك ما كان من أمري في السابق، وهو أمر لم يتفهمه البعض من إخواني الكورد الذين فسروا أقوالي على نحو آخر عندما صرحت بها بكل أمانة وصدق من على شاشة قناة المستقلة بلندن ببرنامج تأريخ الأمم تحت عنوان مذكرات پيشمرگة سابق للقوات الكوردية، على أنه كان إساءة لقضيتنا القومية الكوردية المشروعة، وأنا لم ولن أتنكر بيوم لحق شعبي الكوردي بالعيش الكريم وتقرير مصيره، كقومي كوردي أؤمن بكافة الأجزاء من كوردستان الكبرى، وكذلك لأني لم ولن أتعلم المراوغة السياسية بحياتي على الرغم من عدم انتمائي لأي حزب باستثناء انضمامي للحزب الديمقراطي لكوردستان العراق بعام ١٩٨٢، وهذه هي أخلاق الكوردي الحقيقي الذي أسعى جاهداً لأن أكون مثله، ويعلم الله أن نيتي بحقيقتها هي تنتصر للشخصية الكوردية ولشعبنا بكوردستان وليس التنكيل بأحد لا سمح الله .

سيدي الرئيس مسعود البارزاني أنا أستنجد بسيادتكم وصدركم الرحب لكل أبناء شعبنا الكوردي بصفة خاصة وكذلك لكل العراقيين بصفة عامة، وندائي لكم نابع من ضمير مواطن كوردي كل ما يتمناه هو العيش بوطنه القومي كوردستان من خلال توفير فرصة عمل متواضعة للعيش بعز وكرامة لتخلصني يا سيدي العزيز من غربتي القسرية التي أعيشها ببريطانيا مع عائلتي منذ اثني عشر عاماً ذقنا فيها المرارة وسقم الغربة بسبب بعدنا عن وطننا

القومي كوردستان ووطننا العراقي كوطن جامع لكل العراقيين، وعشنا طوال تلك الفترة على الكفاف لضعف إمكانياتنا المادية التي بسببها أصبحنا عاجزين حتى من تحمل الكلفة المادية بزيارة كوردستاننا الحبيبة، نسعى يا سيدي الرئيس أن نكحل عيوننا بالتراب الطاهر لكوردستان التي هي حلمنا المنشود من خلال تقديم الخدمة لها ولشعبها البار بأي مجال سواء من خلال الكلمة الصادقة أو القلم الحر أو حتى بالبندقية عندما يتطلب الأمر ذلك لنفديها بالأرواح، وبنفس الوقت نشد على أياديكم الكريمة بكل عزم وكلنا جنود أوفياء لك يا سيدي الرئيس وأنتم تنتصرون للحق بالتصدي بكل اقتدار للدكتاتورية الجديدة في بغداد بهذه الأيام كما هو شأنك على الدوام باسم شعبنا الكوردي وبالنيابة عن كل شرفاء العراق الذين يؤيدونك و يدعمون خطواتك الثورية من أجل العيش المشترك بسلام كورداً وعرباً وتركماناً وباقي الأقليات بعراق فيدرالي ديمقراطي آمن، نستطيع من خلاله الدفاع عن المكتسبات العملاقة التي أنجزتموها بكل فخر لكوردستان العزيزة والغالية على الروح والنفس، والمشاركة بالبناء القادم برعايتكم أطال الله بعمركم والذي ستكون فيه كوردستان جوهرة الشرق الأوسط بعونه تعالى، ولا أظن أن الجبال الشامخة بكوردستان ستبخل باحتضانها لنا بوجودكم، كأبناء خرجنا من صلبها ولنا فيها عروق بعمق التاريخ.

أطال الله بعمركم وسدد بخطاكم سيدي الرئيس مسعود البارزاني

المواطن هشام النورسي

١٥-١٠-٢٠١٢

المملكة المتحدة – لندن



(+2) 02 27238004 /(+2) 01288890065

www.shams-group.net